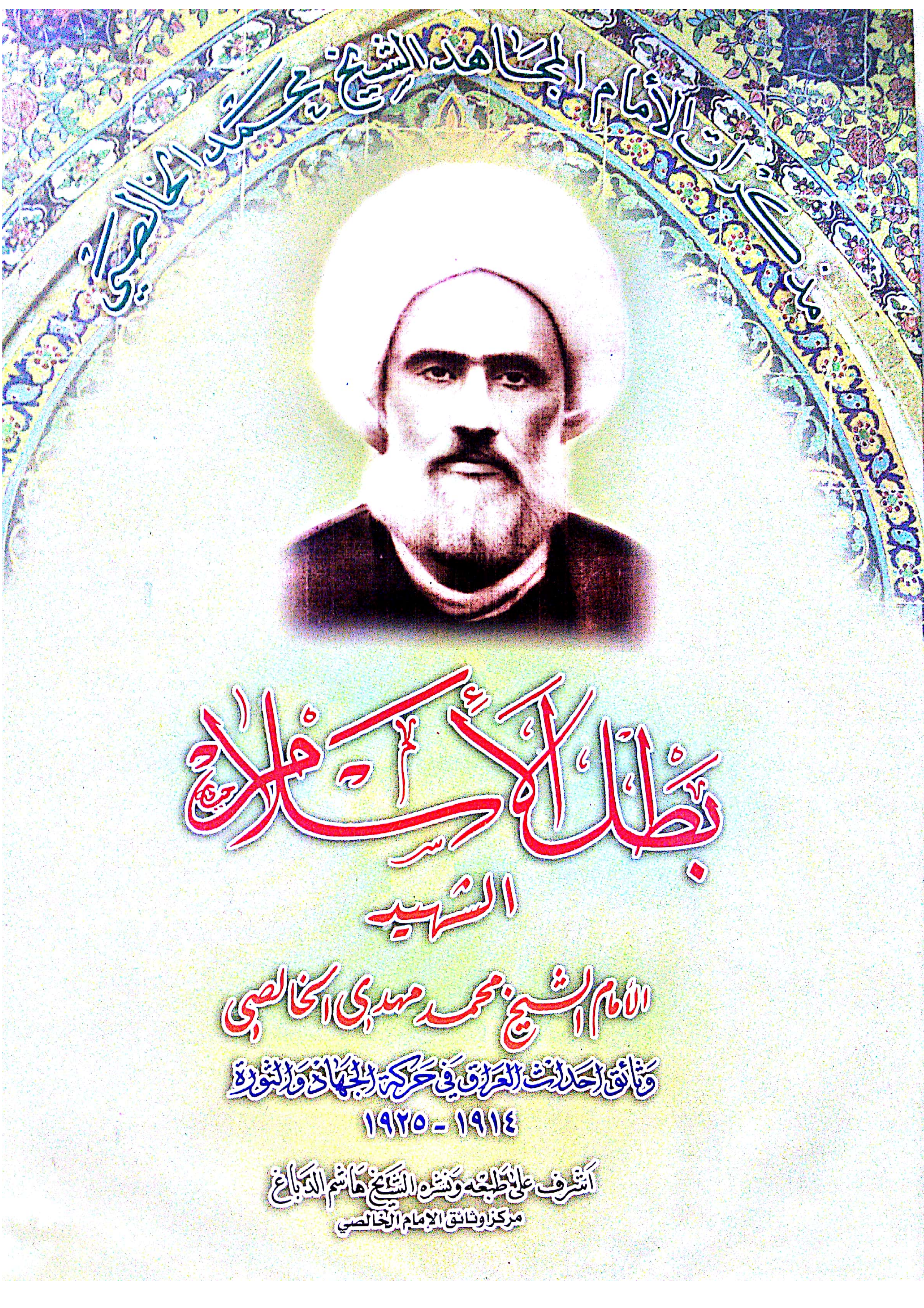

من عبرات الإمام المجاهد الشيخ محمد الخالصي
بطل الإسلام
الشهيد
الإمام الشيخ محمد مهدي الخالصي
وثائق أحداث العراق في حركة الجهاد والثورة
١٩١٤ - ١٩٢٥
أشرف على طبعه ونشره الشيخ هاشم الدباغ
مركز وثائق الإمام الخالصي

مركز وثائق الإمام الخالصي

﴿ٱلذينَ أُخرِجوا مِن ديارِهِم بغيرِ حَقٍّ إلاّ أن يَقولُوا رَبُّنا الله﴾

﴿وَلاتحسَبنَّ ٱلذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ أمواتاً بَل أحياءٌ عندَ رَبّهِم يُرزقون﴾

بَطَلُ الإسلام

الشهيد الإمام
الشيخ محمد مهدي الخالصي

وثائق أحداث العراق في حركة الجهاد والثورة ١٩١٤- ١٩٢٥م

مذكرات ميدانية بقلم
الإمام الشيخ محمد بن محمد مهدي الخالصي

أشرف على طبعه ونشره الشيخ هاشم الدباغ

سرشناسه	: خالصي، محمد، ١٢٦٧ - ١٣٤٣ش.
عنوان و نام پديدآور	: بطل الاسلام الشهيد الامام الشيخ محمد مهدي الخالصي: وثائق أحداث العراق في حركة الجهاد والثورة ١٩١٤-١٩٢٥م./ مذكرات ميدانية للامام الشيخ محمد بن مهدي الخالصي؛ اشرف على طبعه ونشره هاشم الدباغ.
مشخصات نشر	: تهران: مركز وثائق الامام الخالصي، ١٣٨٦.
مشخصات ظاهرى	: ٣٧٨ص.
شابك	: 9789645513083
وضعيت فهرست نويسى	: فيپا
يادداشت	: عربى.
موضوع	: خالصي، محمد، ١٢٦٧ - ١٣٤٣ش. -- خاطرات.
موضوع	: خالصي كاظمي، محمد مهدي بن حسين، ١٢٧٧ - ١٣٤٣ق.
موضوع	: عراق -- تاريخ -- ١٩١٤ - ١٩٥٨م. -- جنبش‌ها وقيام‌ها.
شناسه افزوده	: دباغ، هاشم، ١٣١٣ش -
رده بندى كنگره	: ٢ خ ٢ خ / ٦ / ٧٩ DS
رده بندى ديويى	: ٩٥٦ / ٧٠٤٠٩٢
شماره كتابشناسى ملى	: ١٠٩٦٦١٧

إسم الكتاب : بَطَلُ الإسلام الشهيد الإمام الشيخ محمد مهدي الخالصي
وثائق أحداث العراق في حركة الجهاد والثورة ١٩١٤ - ١٩٢٥م

المؤلف : الإمام الشيخ محمد بن محمد مهدي الخالصي

الناشر : مركز وثائق الإمام الخالصي

الطبعة : الاولى - طهران

سنة النشر : ١٤٢٩ هـ ق - ٢٠٠٨م

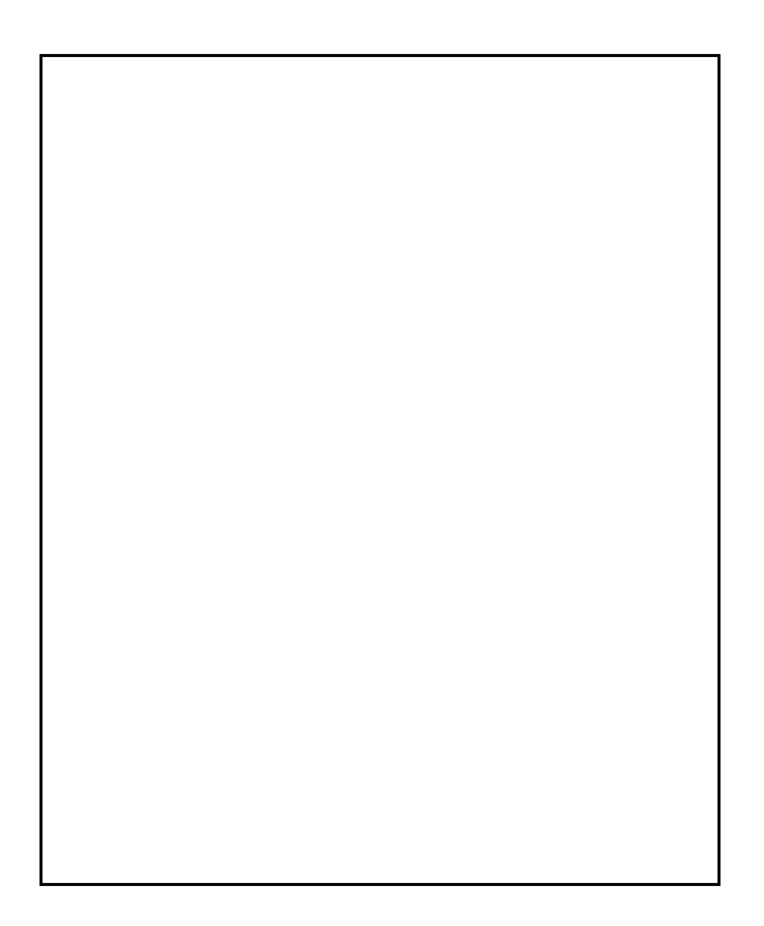
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

شابك : ISBN: 978-964-5513-08-3

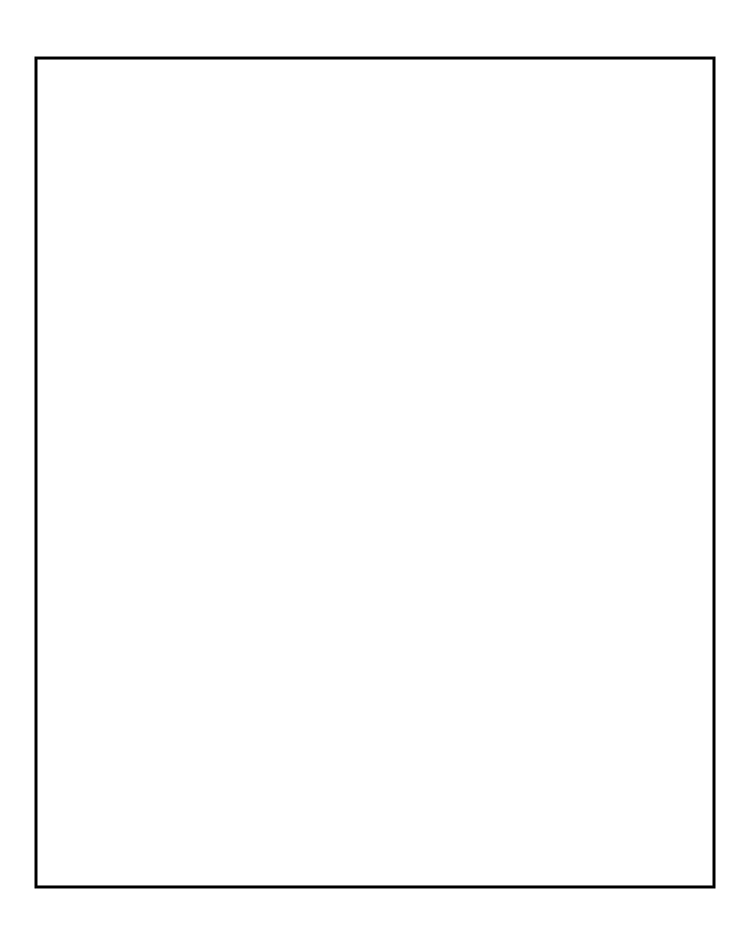
المراسلات: ايران - طهران: ص .ب: ١١١٥٥/٤٥٨٤

العراق - بغداد - الكاظمية - جامعة مدينة العلم للامام الخالصي الكبير

www.khalesy.com info@khalesy.com



سماحة الإمام الشهيد آية الله العظمى الشيخ محمد مهدي الخالصي
٩ ذو الحجة ١٢٧٦ ـ ١١ شهر رمضان ١٣٤٣هـ
١٨٦٢ ـ ١٩٢٥م



سماحة الإمام المجاهد آية الله العظمى الشيخ محمد بن محمد مهدي الخالصي (المؤلف)
١٣٠٦ - ١٩ رجب ١٣٨٣ هـ
١٨٨٨ - ١٩٦٣/١٢/٢١م

مقدمة مركز وثائق الإمام الخالصي

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرات الإمام الشيخ محمد الخالصي عن حياة والده الإمام الشهيد الشيخ محمد مهدي الخالصي، كتاب وثائقي تاريخي يدوّن أحداث حقبة مهمة من تاريخ العراق في بداية القرن العشرين، من صميم الأحداث وبقلم أبطالها. ولعلّه الكتاب الوحيد – حسب علمنا – الذي يُسجل التاريخ العراقي الحديث مع انعكاساته على المنطقة، منذ الغزو الايطالي لطرابلس الغرب (ليبيا) والغزو الروسي لشمال ايران عام ١٩١١، ثم الجهاد ضد الإحتلال البريطاني عام ١٩١٤، مروراً بثورة العشرين، ثم مقاومة الشعب العراقي السياسية والإجتماعية بقيادة علماء الدين المجاهدين.

وقد تابع مؤلف الكتاب الإمام الشيخ محمد الخالصي سير الأحداث الى خارج العراق، موثّقاً إنعكاسات أحداث نفي الإمام الشيخ محمد مهدي الخالصي الى عدن، ونفي باقي العلماء الى ايران، والنقاش الصاخب الذي شقّ الموقف العلمائي الى شقّين؛ شقّ رافض للعودة الى العراق بشرائط وضعها الانجليز وحكومة فيصل، وشق رضي بالعودة موقّعاً شرط عدم التدخل في الشؤون السياسية للعراق.

كما وثّق الكتاب أهم الأحداث السياسية داخل ايران التي أرادت لها القوى الاستعمارية الغالبة أن تنسلخ من هويتها الإسلامية والدينية، من خلال تسليط عميلها رضا خان البهلوي الذي كان يرتبط بالانجليز مباشرة، ومقاومة العلماء العراقيين المنفيين لآماله في تأسيس نظام جمهوري في ايران، يسير بها في نفس الطريق الذي سلكه أتاتورك بالشعب التركي، وقد تكللت جهود وجهاد هؤلاء العلماء بالنجاح الباهر مما اضطرّ رضا خان البهلوي الى التراجع عن الجمهورية.

ومن جانب آخر يوّثق الكتاب أيضاً إلتصاق العلماء العراقيين المنفيين بوطنهم، فهم بالرغم من المصاعب والنكبات التي كانوا يعانوها في منفاهم إلاّ انهم ما فتئوا

يتابعون الشأن العراقي من المنفى بكل إخلاص ووطنية، فقد أسسوا لذلك جمعيات سياسية ناشطة كانت الذراع السياسي لحركة الاستقلال العراقية، منها «جمعية الممثلين السامين لبلاد النهرين» التي لعبت دوراً هاماً في إطلاع الرأي العام العالمي والاقليمي على جرائم الانجليز في العراق. وللأسف فقد أغفل المؤرخون الكفاح السياسي لعلماء العراق ووطنييه خارج البلاد.

ويصحح الكتاب الكثير من المغالطات التاريخية لمؤرخي الاحتلال البريطاني، فقد عُرض على أحد ضباط الأركان اللامعين في الجيش العراقي فخرج بنتيجة مذهلة، وهي إن الكليّة العسكرية العراقية كانت تدرّس منذ العهد الملكي حرب العراق ضد بريطانيا على انها صراع بين الجيش العثماني السادس المرابط في العراق وكان من قادته خليل باشا وعلي إحسان باشا، وبين قوات الاحتلال البريطاني، دون الإشارة الى دور العشائر العراقية المجاهدة والقيادة العلمائية الميدانية التي جنّدت ما يزيد على ثلاثة أضعاف جنود الجيش العثماني. وقد عين العثمانيون قائداً عسكرياً للمجاهدين لأهمية دورهم في المعركة وهو محمد باشا الداغستاني، الذي استُشهد في معركة العمارة، وعُين بعده عجمي باشا السعدون الذي بقي مع المجاهدين والقوات العثمانية الى حين انسحابها الى تركيا بعد الهدنة رافضاً العودة الى العراق في ظل الاحتلال، وهذا يدل على أهمية دور المجاهدين المهمل تاريخياً، والذي يُشكل هذا الكتاب محاولة جادة واستثنائية لاعطائه بعض حقه.

وقد أظهر هذا الكتاب الميداني، الدور السلبي لبعض القادة العثمانيين وغرورهم الذي كلّف المجاهدين والعسكريين الكثير من الخسائر.

وقد قام الإمام المؤلف بدور كبير للتنسيق بين المجاهدين وبين القوات العثمانية النظامية، وبذل جهوداً مضنية في الميدان العسكري لرصد قرارات القيادة العثمانية المؤثرة على الساحة العراقية، مثل تغيير القادة العسكريين الميدانيين، ودأب بأمر من والده الإمام الخالصي الكبير على الإجتماع بالقادة العثمانيين الجُدد وإطلاعهم على سير الأحداث في جبهات القتال، وأوضاع المجاهدين، وسبر أحوال هؤلاء القادة

ونفسياتهم وخططهم المستقبلية. وقد وصف الدكتور فاضل الجمالي رئيس الوزراء العراقي الأسبق المهام التي كان يضطلع بها المؤلف في الحرب ضد الإنجليز بأنها مهام منسّق علاقات بين الجيش العثماني والمجاهدين، إضافة الى كونه قائداً ميدانياً.

ولا عجب بعد ذلك أن يتأخّر نشر هذا الكتاب طوال هذه المدّة، إذ كان حبيساً مع بقية مخطوطات المؤلف التي فُقدت في الثمانينات من القرن العشرين خلال الاستيلاء الغادر على مكتبة جامعة مدينة العلم للإمام الخالصي الكبير في الكاظمية ولولا لطف الله تعالى وما قيّضه من جهود كريمة تمكّنت من إخراج المخطوطة والحفاظ عليها. ولكن العجيب أن يُترجم الكتاب الى اللغة الفرنسية من قبل البروفسور «جان بيير ليوزار» الباحث المتخصص في الدراسات العربية والشرقية، وأن يُنشر عام ٢٠٠٣م من قبل دار النشر الفرنسية المعروفة لامارتينير (La Martiniere) قبل عدة سنوات من طبعه ونشره بلغته وبين أهله الذين هم بأمسّ الحاجة اليه. ولعلّ الصراحة التي تميّز بها الكتاب والمؤلّف لم تسمح بنشره لاحتوائه على امور تمسّ أُناساً ادّعوا الوطنية قولاً وخالفوها عملاً.

وقد بذل سماحة الامام الشيخ محمد مهدي الخالصي «الحفيد» حفظه الله تعالى جهداً إستثنائياً في الحفاظ على الكتاب وإخراجه من سجنه والمساعدة في طباعته باللغة الفرنسية مع الملاحظات اللازمة للقارىء غير العربي، وكذلك ما أبداه من إرشادات مهّدت لنشر هذه الطبعة.

وبالرغم من إن هذه المذكرات كُتبت مطلع القرن العشرين وتنشر اليوم في مطلع القرن الواحد والعشرين، لكن العديد من الكتّاب والباحثين البارزين قد استفادوا من مخطوطة الكتاب ومن أبرزهم الدكتور علي الوردي، والدكتور وميض عمر نظمي من العراق، والدكتور عبد الهادي الحائري من ايران في اطروحته القيّمة «علماء الشيعة والحركة الدستورية» وهي اطروحة دكتوراه مقدمة الى جامعة بركلي في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الامريكية.

واليوم إذ يُعيد التاريخ نفسه في العراق، وتتكرر مأساة الإحتلال وجرائم المحتلين

البشعة، وانتهاكها لكرامة أبناء الرافدين، وتفريقهم للكلمة، وشرخهم للصفّ الوطني، ونهب ثرواتهم وخيراتهم وأرزاقهم، وتدمير بناهم التحتية، عقد «مركز وثائق الإمام الخالصي» العزم على نشر هذا الكتاب الوثائقي – ولو خارج العراق – بمناسبة الذكرى الخامسة والثمانين لاستشهاد المتَرجَم له الإمام الشيخ محمد مهدي الخالصي «رضوان الله تعالى عليه» في الحادي عشر من شهر رمضان المبارك ١٣٤٣ هـ، آملين أن يشحذ الهمم الوطنية الباسلة، ويؤجج فيها لهيب مقاومة الإحتلال حتى تحرير آخر شبر من التراب العراقي المقدّس. وإنا على ثقة بأن عراق القرن الواحد والعشرين سيملأ بطون الكتب بقصصٍ وعبرٍ دحر أعتى قوة احتلالية في هذا القرن كما فعل ذلك في بداية القرن العشرين

وفي الختام لا يفوتنا أن نذكر بالرحمة والغفران الناسخ المرحوم الشيخ ضياء الدين عبد الحسين الخالصي الكاظمي الذي قام بنسخ المخطوطة التي طُبع هذا الكتاب على أساسها، وسماحة العلامة الشيخ هاشم الدباغ «رضوان الله عليه» لجهوده في الإشراف على إعداد الكتاب للطبع وتنضيد حروفه، والإشراف على نشره وهو في دار الهجرة بطهران العاصمة الايرانية والذي إلتحق بالرفيق الاعلى والكتاب في طريقه للطبع.

إسلام الدباغ

مدير مركز وثائق الإمام الخالصي

١٩ رجب الخير ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧/٨/٣م

مقدمة الإمام الخالصي الحفيد على الطبعة الفرنسية

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ يُكتب مرتين؛ مرة يكتبه المنتصر كما يشتهي، ومرة يكتبه الآخرون الذين ساهموا في صناعة أحداثه، كما وقعت فعلاً حسب منظورهم. وبين ذَين وذَين، تتحق الإرادة الإلهية في أن يَسلم من حقائق التاريخ ما تحتاجه الانسانية، زاداً وعبرة في مسيرتها نحو التكامل؛ الذي خلقهم البارىء الحكيم لأجله. ولولا ذلك لأصبحت الانسانية بلا بوصلة ولا ذاكرة، ولَتعذّر عليها الاستفادة من تجاربها، والتحرر من أغلال ما تفرضه القوى الغاشمة عليها، ولظلّت دوماً أسيرة المنطق الذي يفرضه المنتصر مهما كان، وبأي طريقة انتصر، ولبقيت الانسانية تراوح مكانها، تجتر أخطاءها، كلّما تقدّمت خطوة نحو الامام في غفلة من منتصر غاشم، جاء غاشم آخر لينسخها، فيعيد ركب المدنية الى موضعها المتخلّف الاول، وربما خطوتين الى الوراء، وهكذا دواليك.

ومما يساهم في تراكم الاخطاء التاريخية تناول الكُتّاب لها أحدهم عن الآخر بلا تحقيق، الى أن يستقرّ الخطأ في الاذهان كمسلّمة لا يرقى اليها الشك! أذكر بهذا الصدد مثلاً ان أحد الباحثين الفضلاء على أثر مناقشة مواضيع كان نقلها، بلا تمحيص في كتاب له حسب المشهور المتداول خلافاً للواقع، ثم ظهر له وجه الصواب كتب يقول: «.. يبدو اننا نجتر ونكرر الاخطاء التي سجلها السابقون» واعداً باعادة النظر فيما كتب.

الكتاب الذي بين يدي القارىء، نموذج لسيرة تاريخية بقلم مجاهد ساهم في صناعة حقبة من التاريخ المعاصر، بالدفاع عن وطنه وامته والقيم التي آمن بها، وعانى هو واسرته في سبيل ذلك الكثير من الأذى وصنوف الاضطهاد؛ ولكنه لم يذعن قَطّ، لا بالترغيب ولا بالترهيب لإرادة المنتصر في التدخل اللامشروع في شؤون بلاده، ليس هذا فحسب، بل لم يترك ذلك المنتصر الغاشم ليهنأ الى ما لا نهاية بالتفرد بكتابة التاريخ

على هواه، وكما بدا أنه فعل حتى الآن، فسجّل الشيخ الوقائع في صميم الاحداث كما شاهدنا، وحيثما سنحت له الفرصة، في خنادق القتال، او في المنافي والمعتقلات والأسفار، وأودع تلك المعلومات التاريخية في كتابين، يرى بعض من اطلع عليهما من الباحثين، انهما سجلان لا غنى عنهما لمعرفة التاريخ المعاصر للمنطقة عموماً، وللعراق خصوصاً، فقد احتويا من الحقائق ما أغفلها المنتصر، او عمد الى تحريفه او وضعها في القالب الذي يخدم وجهة نظره.

ولعل هذا من مصاديق ما عنيناه من أن التاريخ يكتب مرتين، ومن اعتقادنا بتعلق الارادة الالهية في صيانة حقائق التاريخ من عبث المنتصرين وأهواء المتغلبين.

وفيما يتعلق بالتاريخ المعاصر للعراق فان المنتصر الذي هو هنا الاستعمار البريطاني، لم يكتف بكتابة التاريخ على النحو الذي يؤمن وجهة نظره، بل تجاوز الى التخطيط لوضع عربة التاريخ لتسير بالاتجاه الذي يخدم أغراضه، وذلك انه بعد إكمال احتلال العراق، وسحق مقاومة الشعب العنيدة، عمد الى اقصاء القيادة المجاهدة، وعلى رأسها المرجع الأعلى الشيخ محمد مهدي الخالصي، والاستعاضة عنها بمرجعية بديلة خانعة، لا تتصدى الى مطامعه بسوء. فوجد بغيته في عناصر من الدرجة الثانية في سُلّم القيادة، رضخوا لشروطه في التعهد بعدم التدخل في السياسة، بما كان يعني الامتناع عن معارضة الاحتلال، او التصدي لسياسته الاستعمارية، والتخلي لبريطانيا وعملائها لادارة الشؤون السياسية للعراق وعموم المنطقة، وبعبارة موجزة؛ التعهد بعدم ممارسة المرجعية في ميدانها الاول وهو الدفاع عن مصالح الامة، والانكفاء الى الامور العبادية بحدودها الدنيا. الامر الذي رفضه بشكل قاطع الشيخ مهدي ومن على نهجه من العلماء المجاهدين، وعانوا من جرّاء ذلك الأمرّين، وضلّ الخط الجهادي يؤدي دوره رغم الظروف القاسية، لينتصر مرة اخرى، عندما انتقلت المرجعية الى الخط المجاهد في آخر السبعينات.

وفي صفحات هذا الكتاب تاريخ حيّ عاشه كاتبه والمترجَم له في غمرات هذا النضال المرير من أجل ما اعتقدوه، صيانة لحق الامة في الوجود والازدهار والتقدم.

وقد كان الباحث الفرنسي الاستاذ «بيير جون ليوزار» المعني بدراسة تاريخ العـراق من جملة مَن اطّلع على مخطوطة هذا الكتاب فاهتم بمحتوياته، ورغب في ترجـمته الى اللغة الفرنسية ليكون في متناول القارىء الفرنسي، وأهل الاختصاص منهم عـلى وجه الخصوص. وقد بذل جهداً مشكوراً لتـحقيق النـصّ وتـحلّى بـصبر جـميل فـي البحث عن المصادر وتفهُّم النصوص، وقد قام لأجل ذلك بعدة زيارات لنا فـي مـقر إقامتنا في مدينة ليدز البريطانية، ولمركز الوثائق البريطاني في لندن، ولمراكز اخـرى، وهو جهد يستحق الاعجاب والتقدير.

وقد ذكر في مقدمته شيئاً عن التعريف بالكتاب وتاريخه وظروف تأليفه، مما يغني عن التكرار.

وبالنسبة لي فقد اطلعت على المخطوطة الاصلية في مكتبة الاسرة، وهي التي كتبها والدي المؤلف بخطه، ثم رأيت نسختين أُخريين؛ نسخة بقلم المرحـوم أخـي الاكـبر جعفر، وقد ألحق بها بعض الحواشي والتعليقات المفيدة، وعدداً من اصول او نصوص الفتاوى والبيانات والمنشورات ذات العلاقة.

والنسخة الثانية بقلم ابن عم والدي المرحوم الشيخ ضياء الدين بن الشيخ مـحمد صادق الخالصي، الذي واكب شطراً من أحداث الكتاب، وسطّر في الحواشي تعليقاته وشيئاً من ذكرياته، وهي هذه النسخة المعتمدة لإعداد هذه الدراسة والترجمة.

وهناك نسخة ثالثة استنسخها لنفسه المرحوم الشـيخ هـادي الخـالصي بـن الشـيخ محمد تقي بن الشيخ راضي الشقيق الأكبر للشيخ محمد مهدي. أما النسخة الأصل بقلم الوالد، ونسخة أخي جعفر وكذلك نسخة الاصل من الكتاب الثاني فانها – ومع الأسف الشديد – ليست في متناول اليد منذ أن تعرضت محتويات مكتبتنا العريقة في العراق للمصادرة العبثية في أوائل الثمانينات وغُيّبت وثائقها النفيسة.

وقد تأخر نشر الكتاب أكثر من مرة، بسبب الاجواء السياسية غير المؤاتية أولاً، ثم لأني كنتُ أرى أن يكون نشره بعد إعداد ما يمكن من الوثائق المتعلقة، لا سيما وثائق الطرف الآخر، أعني البريطانية منها، وذلك لتعلّق موضوع الكـتاب بأحـداث الحـرب

العالمية الاولى، وبحقبة الغزو البريطاني للعراق، والمقاومة المسلحة ضد الاحتلال، وبالكفاح السياسي ضد الاستعمار والانتداب. فكنتُ أنتظر حلول سنة ١٩٧٠ م، أي مرور خمسين عاماً للكشف عن وثائق ثورة العشرين وفق مقررات (مركز الوثائق البريطانية). وفي تلك السنة قمت بزيارتي الاولى لبريطانيا استغرقَت حوالي ستة أشهر، استجمعتُ خلالها من المركز المذكور ما أمكن من الوثائق، وعدتُ بها للعراق ووضعتها في المكتبة تحت تصرف الباحثين ممن رغب في الاستفادة منها، وانكببنا على إعداد الكتاب للنشر، ولكن في ظروف غاية في التوتر، نظراً لرغبة الحزب الحاكم الشديدة في الإشراف والسيطرة على كل صغيرة وكبيرة، فداهمتنا الاحداث من جديد، واضطررنا الى ترك العراق سنة ١٩٧٩ م قبل إنجاز المشروع، فبقي كل شيء وراءنا، بما في ذلك النصوص الأصلية والوثائق المستخرجة، فعَدَت عليها عادية الأيام بالمصادرة والتغييب، وهنا نحن في المنفى عوداً على بدء، نعيد الكرة للبحث عن النصوص المفقودة والوثائق المطلوبة.

وقد تركتُ للاستاذ «ليوزار» مهمة التعامل مع الطبعة الفرنسية بما يراه مناسباً، مع التوصية بضرورة توضيح المواضع المستغلقة على القارىء الفرنسي، وتزويده بالتعليقات والوثائق التي تعينه على فهم الفقرة التي قد تكون بعيدة عن المعتاد من ثقافته. وسنتعامل مع الاصل العربي الذي نعدّه للطبع بما يناسبه من التوثيق والشرح والبحث المقارَن، لا سيما في دراسة الجوانب التي تظهر فيها معلومات النصّ مغايرة لما هو معروف ومتداول من تاريخ تلك الحقبة. وسأترك للقارىء أن يستكشف تلك الجوانب بنفسه، إنما أكتفي هنا باختيار مثال واحد أعتبره نموذجياً وملموساً لتوضيح المراد. وهذا المثال هو إغفال عموم الدراسات الرسمية، والمذكرات التي تركها الرسميون الانكليز وغيرهم، جزئياً أو كلياً للدور الأساسي الذي لعبته قوات المتطوعين (المجاهدين) التي كان المؤلف يقود بنفسه فصائل منها ضد قوات الاحتلال في معارك تلك الحقبة، قياساً الى دور القوات النظامية للدولة العثمانية. وقد كان دور المتطوعين هاماً ومؤثراً بحيث يعتبر تجاهله او التقليل من أهميته نقصاً

جوهرياً، ليس في الدراسة التاريخية فحسب، بل في الدراسة التعبوية الميدانية أيضاً نظراً لكثرة المتطوعين العددية، إذ قُدّر عددهم بما لا يقلّ عن ثلاثة أضعاف الجيش النظامي. ليس هذا فحسب، بل لان السواد الاعظم منهم تكوّن من أبناء العشائر العراقية، فكانوا يقاتلون على أرضهم وبدوافع ذاتية للدفاع عن وطنهم ودينهم، وبقيادة علمائهم، وفي هذا ما لا يمكن تجاهله من التأثير عى معنوية المقاتلين وسير المعركة. بينما كان الجيش النظامي غالباً من المجنّدين الأتراك او أبناء سائر الدول العثمانية. ومن مطالعة هذا الكتاب سيتجلّى أهمية دور فصائل المتطوعين في سير الاحداث والنقص المترتب على عدم اعطائه القدر الذي يستحقه من العناية، والتأثير السلبي الناشيء من ذلك على فهم التاريخ، والدروس المستخلصة منه.

ومن المعيب أن هذا النقص لم يقتصر على الدراسات التاريخية فقط، بل قد سرى الى الكتب العسكرية الاكاديمية أيضاً الانكليزية منها وغيرها، ولم تسلم منه حتى الكتب العسكرية العربية التي تدرَّس في الكليات العسكرية والأركان، في العراق وسائر الأقطار العربية، لاعتماد أغلب مؤلفيها على المصادر الانكليزية التى تستقي معظم معلوماتها من مذكرات القواد البريطانيين، أي من وجهة نظر المنتصر أيضاً.

وقد لمستُ ذلك الخلل أيام دراستي في كلية الاحتياط العسكرية، إذ كان موضع نقاشنا مع أساتذة الكلية، لا سيما حينما كنا نخرج الى الدروس الميدانية في الفرضيات العسكرية لدراسة التاريخ العسكري التعبوي على أرض الواقع، كما جرى ذلك مرة في «تلال البَسماوية» في دراسة «معركة سلمان باك» التاريخية.

هذا مثال واحد أوردتُه في المجال العسكري من هذا الكتاب، لبيان ما يترتب على ما يغفله المنتصر من الصفحات التي لا تعجبه من حقائق التاريخ، وأيضاً لبيان أهمية أن يُكتب التاريخ للمرة الثانية بأيدى الذين صنعوه، وإن لم يجنوا النصر العاجل.

والاكثر أهمية من كتابته من جديد أن يقرأه من جديد اولئك الذين لا مصلحة لهم في تزييفه، بل تكمن مصلحتهم في حقائقه، وهم الانسانية برمّتها، ونأمل أن يؤدي هذا الكتاب دوراً في هذا المجال.

المثال في مورد واحد وفي مجال واحـد، أوردنـاه كـنموذج، وإلاّ فـالكتاب زاخـر بأمثلة اخرى سيكتشفها القارىء المتتبع في مطاوي الكتاب فـي مـجالات اخـرى، لا سيما في مجالات السياسة والقيم الحضارية الاخرى في زمن نرجو أن تسنح الفرصة فيه لحوار الحضارات، خلافاً لمن يسوقونها نحو صِدام الحضارات لأغراض لا تـبقى خافية الى الابد.

واذا لم يُكتب التاريخ كما وقع، بقى سؤالاً بلا جواب: ما الفائدة من التاريخ إذن؟

محمد مهدي الخالصي

ابن الشيخ محمد بن محمد مهدي

٢٠٠١/٣/٢٦

ليدز – بريطانيا

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي إمتحن بالبلاء أولياءه، وعمّت نعمُه أعداءَه، فصبر أولئك في موضع الإمتحان، وقابل هؤلاء جلائل النعم بالعصيان والطغيان ﴿لِيَجزيَ الذينَ أساءُوا بِما عَمِلوا ويجزيَ الذينَ أحسَنوا بالحُسنى ﴾.

وصلى الله على خاتمة رسله وأنبيائه محمد والمنتجبين من عترته وأبنائه وعلى جميع أوليائه وأصفيائه. وبعد:

فإن مداحض الزلل ومزالّ الأقدام قد تكاثرت في هذه الأيام بما لم تشاهده خوالي العصور ومواضي الأعوام، فقلّ الثابتون، وندر الناجون، وكثر الهالكون، وخسر هنالك الضالون.

وكان من أشد المخلصين ثباتاً في هذا الزمن، وأعظمهم صبراً في مواضع المحن، وأجلّهم رزية وأمضّهم بليّة؛ المجاهد في سبيل الله على جهد البلاء، والمُعاني في طريق إقامة أعلام الدين أعظم العناء، مَن فاز بدرجتي الهجرة والجهاد، وجمَع بين فضيلتي العلم والسداد، وحاز منقبَتي الشهادة والسعادة، الإمام القائد – أبي – وكفى بذلك شرفاً وفخراً، ومقتداي وحسبي الإقتداء به ذخراً وأجراً.

رُبّي في حِجر الإيمان والشهامة والورع، وشبّ على معالي الأخلاق، وترعرع وكمُل في ذلك ويفع، وزادته كهولته كمالاً، وشيخوخته هيبة وجلالاً.

درس العلم طفلاً، ودرّسه وألّف فيه كهلاً، ووضع القلم وامتشق الحسام وأبدلَ في شيخوخته اليراع بالصمصام، ومازال في ميدان الوغى مهاجماً ومدافعاً ومختفياً وطالعاً، حتى نفته يد الغدر والعدوان من موطنه عن طريق الهند فاليمن فالحجاز الى خراسان.

وبينا كان المسلمون يهتدون بهداه، ويترقّبون إيابه بالنصر من منفاه، إذ فاجأهم

غروب شمس كماله، وأُفول بدر جماله، ودهاهم داهية فقده، ودفنت الآمال بتوسيده في لحده واستولى على المسلمين اليأس من أن تقوم بعده قائمة للموحدين أو ينهض ناهض بأعباء الدين، إلا ماشاء الله ربُّ العالمين، وذهبت الدهشة باللُبّ والشعور، فلم يبقَ للمسلمين في جميع الأقطار إلا جزّ الشعور، وخمش الوجوه، ولدم الصدور. وقد كنتُ أعظم المسلمين مصيبة في هذا الحادث، وأجلّهم رزيةً عند ذلك الكارث. كيف لا ورئيس المسلمين الفقيد أبي وسيدي ومعلّمي وسندي وكافلي الذي كان بعد الله عليه معتمدي.

بحر علم نصبَ عيني نضب، ودنيا أملٍ بين يدَي موعد خيبته أقرب، لذلك صرتُ أشد الناس يأساً بعد أن كنتُ من أمضاهم بأساً، فبقيتُ برهة ثلاثة شهور لايعاودني فيها الشعور، أدعو بالويل والثبور، والحزن دثاري، والإفتجاع شعاري، يغلب بكاي البكاء، ويبعد عني التصبُّر والعزاء، حتى أنهك الخَطب قواي، وأنحلَ جسمي وشاب رأسي ودقّ عظمي، وفارقت عيني الرقاد، وتبدّل نومي بالسُهاد، وملّني طبيبي والعُوّاد.

وبينا أنا مستغرق في سكرة المصائب، سابتٌ في رقدة النوائب؛ إذ عاتبني من نفسي معاتب قائلاً: إن ما أنت عليه خروج عن فريضة الرضا والتسليم، منافٍ لوظيفة العبودية للباريء القديم الكريم، فتيقّظتُ عائذاً به من نومة الغافلين، لائذاً بعفوه عن المذنبين، وحلمه عن الخاطئين، مستقيلاً اياه، مستسلماً له، طالباً رضاه، تائباً آيباً الى مافيه صلاح ديني ودنياي، وما عسى أن أبلغ به منتهى أملي وغاية مناي، وهو أن أذكر فضائل مولاي الفقيد، وأنشر أخباره، وأُحيي مآثره للقريب والبعيد، وأقتفي بمعونة الله آثاره.

فعزمت على وضع رسالة في محامده التي تعجز عن سطرها الأقلام، ليعرف الناس معنى المسلم وحقيقة الإسلام، ولتكون أخلاقه وأعماله قدوة بين الأنام، وأرجو أن يكون ذلك للبرية سراجاً وهّاجاً، ولأعمالي الآتية إن أبقاني الله أُنموذجاً ومنهاجا.

أبني على هذا الأساس وأدعو إليه كافة الناس . أكتب الآن وأعِدُ بالعمل، ولاحول لي ولا طول، ولكني على الله أتكل، ومنه أستمدّ، وإياه أستعين، وهو حسبي وكفى، فنعم الكفيل المُمد، ونعم المعين.

الفصل الأول

كلمة عامّة في

أحوال الخالصي

كلمة عامّة في أحوال الخالصي

الخالصي آية الله في هذا العصر، ونابغة من أكبر نوابغ الدهر، جمع الله له وسائل الراحة في حياته فأبى إلا أن يكون معذَباً في دنياه، رغبة بالراحة بعد مماته؛ لا لأنه كان يجهل طرق رغد العيش في هذه الدنيا الدنيّة، بل لأنه كان يقدّم عليه النكد فيها طلباً لنعيم الحياة الأبدية.

خلقه الله شجاعاً باسلاً، فأبى إلا أن يبيت خائفاً باكي العين مضطرب القلب مرتعش البدن في المحراب، ويظل مكبّاً على التدريس والتأليف، سمير القلم والقرطاس والكتاب.

وجعله الله عالماً فأبى إلا أن يكون فارس ميدان الوغى، مدافعاً عن دينه بأشدّ ماتدافع عن عرينها أُسد الشرى.

إمام جماعة المسلمين في الجوامع، وقائدهم عند اهتزاز الأسنّة، وبروق اللوامع، وملاذهم وحاميهم إذا اشتدت المقامع. إليه أُلقيت مقاليد التقليد، وأزمّة الإفتاء بين أهل التوحيد. فلم يعتن بالرئاسة، ولم تغره زخارف السياسة. لم ينخدع بمال، ولم يفتر عن خدمة الأمّة في حال. كان أربط الناس جأشاً، وأثبتهم قدماً في مزالّ الأقدام، وأشدهم شكيمة وأصدقهم في الفعل والكلام. لم تهمّه نائبة، ولم يحزن لنازلة إلا ماأضرّت بالدين أو أصابت المؤمنين. دميث [١] الخُلق، ليّن العريكة، إلا في أمر من أُمور الدين، فإنّه كان خشناً في ذات الله لايصرفه عن الحق صارف من قريب أو بعيد أو ضعيف أو قوي، كان أزهد أهل عصره في الأمور الدنيوية فهو عنها راغب، وأحرصهم في الأمور الأخروية فهو منها راهب.

---

(١) دميث: سهل. (الناسخ)

لم يكن في أهل هذا العصر من يشابهه في أخلاقه فلذلك كان غريباً بين الناس. ولم ينبغ في العصور الأخيرة من نوابغ الرجال مَن يماثله لأنه جمع جميع المزايا الحميدة، والصفات العليّة التي تفرّد بكل واحدة منها أحد نوابغ العصر فاستحقّ اسم النبوغ. ولئن تفرّد كل منهم في صفة فكلّها كانت مجتمعة في الخالصي. لذلك كان أجلّ قدراً وأعظم خطراً من جميع رجال الدهر، وأعاظم العصر، إلا أن انحطاط محيطه الذي عاش فيه لم يساعده على انتشار تلك المزايا والخصال، وإلا لمحى اسمه وأنْسَت أعماله أسماء وأعمال جميع أكابر الرجال، ولعلّ الناظر الى هذه الجملة يُسرع الى ذهنه المثل المشهور: «كُلّ فتاةٍ بأبيها مُعجَبة» ولكن لايلبث أن يُصدّقني متى طالع هذا الكتاب ووقف على جلائل أعماله وعلِم عظيم خصاله.

مولده ومَنشؤه ووفاته ومدفنه ومدّة عمره

وِلد قُدّس سرّه في «الكاظمية» من أعمال العراق العربي تاسع ذي الحجة سنة ألف ومأتين وستّة وسبعين. وتوفي ليلة الإثنين لثلاث ساعات مضَين من تلك الليلة، وهي ليلة الثاني عشر من شهر رمضان سنة ألف وثلثمائة وثلاث وأربعين، في المشهد الرضوي مركز خراسان.

فكانت مدة حياته خمساً وستين عاماً وثمانية أشهر وسبعة وعشرين يوماً.

ودُفن في «دار السيادة»[١] في غرفة قريبة من مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وشيّعه جميع أهل المشهد الرضوي. وكان المشيّعون يربون على سبعين ألفاً؛ نساءً ورجالاً يلدمون الصدور ويلطمون الوجوه، قد علا منهم الصراخ والعويل، وذرفت الدموع وأقاموا عزاءه تمام شهر رمضان، وأبدلوا عيد شوّال بمآتم.

وكذلك افتجعت لفقده جميع البلاد الإسلامية، وأُقيمت مآتم عزائه في شرقها وغربها أياماً عديدة، وشهوراً في بعض البلاد.

---

(١) تقع غرفة «دار السيادة» ضمن حرم الامام الرضا عليه السلام في الجهة الغربية من المرقد الشريف على مسافة عشرين متراً وقد دخلت الغرفة مؤخراً ضمن الرواق الاصلي بعد توسيع الحرم (الناشر).

أُسرته

هو من أكبر وأشرف أُسرة في الكاظمية ؛ تُعرف باسرة الخالصي، وعددهم كثير جداً في الكاظمية والخالص وغيرهما، وأكثرُهم من علماء الدين.

وكان والده من علماء الكاظمية ورؤسائها، وجدّه من علماء العراق ورؤسائه مقدّماً على جميع علمائه.

واسمه؛ محمد مهدي بن محمد الحسين بن عبد العزيز بن محمد الحسين بن الشيخ علي. وأجدادُه هؤلاء كلهم من علماء الدين.

ولا أعرف أكثر من ذلك من أجداده. لكن بيد بعض أفراد هذه الأُسرة شجرة تُنميهم الى علي بن مُظاهر الأسدي، ولايصح الإعتماد عليها وإن أيّدتها بعض الأسناد التي وجدتُها في إيران.

ولستُ أستند هنا الى ما لفّقه بعض الشعراء في مدح النسب القصير، ولكنّي بصدد ذكر مزايا ومناقب الخالصي «محمد مهدي» ولا أعرف في أجداده أفضل وأعلم وأشرف منه:

وكَم أبٍ قد علا بابنٍ ذوي شرفٍ   كما علَت برسولِ الله عدنان

صفتُه الشخصيّة

كان رَبعَةً؛ لا بالطويل الشاهق، ولا بالقصير اللاحق، الى الطول أميَل. أبيض اللون مشرّباً بحمرة، واسع الحدقة، أزجّ الحاجبين، شَتن [١] الكفّين، واسع الصدر، متوسط الهامة، واسع الجبين ناصعه، بشوش الوجه، يجلب مَن نظر إليه، حَيِيّاً لايرمق ببصره من يواجهه، نظره الى أمامه أكثر من نظره الى سائر جهاته، إذا مشى وجّه نظره الى مايُحاذي قدميه، يحرّك أجفانه كثيراً في مشيه ليغضّ النظر عن كثيرٍ ممّا يواجهه. قليل الضحك،

(١)الظاهر إنها بالثاء المثلّثة بعد الشين، وهو غُلظ الأصابع. وبالتاء المثناة يطلق على نسج الثوب وحيكته. (الناسخ)

قلّما سمعت له قهقهة، مفلج الأسنان، حسن الثنايا. رقيق البشرة، متوسط اللحية يغلب عليها البياض. قوي الهيكل، متناسب الأعضاء، صحيح الجسم، لم يعترِ أحد أعضائه نقص، وسطاً في الشعر والساقين والعضدين وجميع أجزاء البدن. سريع المشي قلّما اعتمد على العصى في مشيه [(١)]. قليل الكلام، كثير الذِكر والفكر، لايتكلّم إلا إذا كُلّم، خافت الصوت، مهيباً في نفسه، يهابه كل من نظر اليه وإن لم يعرفه.

أخلاقُه وأعمالُه

كان دين الإسلام فطرة له، جُبِل على أخلاق كأنها كانت غريزته، وهي أحكام الشريعة الإسلامية، فكأنه كان مسلماً بالطبع لا بالتعلّم والإرشاد، وذلك منتهى السعادة قَلّ ماحضي بها بشر. فانظر بدقة أخلاقه لتعلم حقيقة الإسلام ومعنى المسلم.

عقيدتُه

ما رأيتُ موحّداً أثبت منه عقيدة، كان يرى الله نصب عينيه في جميع أوقاته. أجل ! كان يراه بعين القلب؛ فلذلك لم يكن يستطيع إتيان عمل يحتمل فيه عدم رضاء الله، وكان يتحرّج عن كل مايتوهم فيه سخطه، وكان كأنه مشاهداً إرسال الله نبيّه المصطفى صلى الله عليه وآله وإيصاء نبيّه أئمة الهدى (عليهم السلام) فكان ذلك قاسراً له على اتباع أقوالهم واقتفاء آثارهم، لايلويه عنه شئ من مال أو جاه، ولذلك كان مبالغاً في المواظبة على إجراء الأحكام الإسلامية.

عبادتُه

من عرف الشريعة الإسلامية حق معرفتها علِم أن كل ما يعمله الإنسان في حياته

---

(١)وقد أدركتُه رحمه الله وكان الخالصي قد اتخذ له السفر الى زيارة الأربعين من الكاظمية الى كربلاء ماشياً عادة في كل سنة. وكان يُسرع في مشيه ويجدّ فى سيره ولم يُدركه تعب ولانصَب. وكثير ممن كان بخدمته من سائر طبقات الناس يُدركه التعب الشديد والألم؛ حتى تتورم أقدامهم حتى الشبّان منهم. (الناسخ)

يمكن أن يقصد به وجه الله إذا لم يكن منهياً عنه، إذ الشريعة الإسلامية قانون عام يرشد البشر الى مايجب أن يعملوه في دار الدنيا لنيل السعادة فيها ودفع الشرور وتنظيم أُمور المعاش وقد وعدت على ذلك بالجزاء الأوفى في دار النعيم. وقد شاع بين الفقهاء أن لله في كل واقعةٍ حُكماً.

ومن عقائد الشيعة أن الأوامر والنواهي تتبع المصالح والمفاسد. وأن المصالح والمفاسد عائدة للبشر المحتاج، لأن الله هو الغني لاتُتصوّر المصلحة بالنسبة إليه ولا المفسدة. فلا تنفعه طاعة من أطاعه، ولاتضرّه معصية مَن عصاه.

فإذا كان الأمر كذلك فجميع أعمال البشر من صغير وكبير يمكن أن تكون تابعة لأحكام الشريعة، وإذا قُصد بها وجه الله تعالى كانت عبادة.

فالعبادة؛ كلّ عمل مَرضيّ لله إذا قُصد به وجه الله، وكل مافيه سعادة البشر وراحتهم ونَظم أُمورهم في الدنيا مرضيّ لله، سواءً عادت فائدته الى الأفراد أو الهيئة الإجتماعية.

هذه هي العبادة في الإسلام. لكن المسلمين لمّا أَفَلَ نجم طالعهم في القرون الأخيرة، تناسوا ذلك وحسبوا أن العبادة مختصّة؛ بالصلاة والصوم. وعابوا من اشتغل في غيرهما، واختصت رسائل المجتهدين بهما دون سائر الأحكام. وبقي ما أشرنا إليه مكتوماً في الكتب الفقهية، حتى صارت أزمّة أُمورهم ومقاليد ممالكهم بأيدي غيرهم، واقتصر المتدينون على الصلاة والصيام. وشذّ مَن شذّ عن الدين الإسلامي ومَرق حيث رماه بالنقص، لحسبانه أن ما يأتيه مَن تسمّى بالدين، ونسب نفسه إليه هو طبق الشريعة، ولم يعلم لجهله أن الشريعة الإسلامية هي غير ما بأيدي هؤلاء، وما أولئك بالمسلمين، وإنما هم بأحكام الشريعة متلاعبون.

فالخالصيّ هو المسلم فانظر عباداته تعرِف الإسلام.

صلواتُه وتهجّدُه ونوافلُه وصيامُه

أدركتُه وهو ابن أربعين سنة، وصَحبتُه باقي عمره فما رأيته يوماً ترك الرواتب من النوافل لا صيفاً ولا شتاءً، ولا ليلاً ولا نهاراً، ولا سفراً ولا حضَراً. لايمنعه عن قيام الليل

مانع من بردٍ أو تعبٍ، ولا عن نوافل النهار حرّ ولا شغل.

ولقد شاهدتُه في ميدان الحرب وهو مشتغلٌ بنوافله وقيام ليله، وما رأيتُه أخّر صلاته عن أول وقتها.

وكان في «الأهواز» وغيرها يوم كانت الحرب بيننا وبين الإنجليز على قدم وساق يأمر بالصلاة جامعة في ميدان الوغى فتصطفّ الصفوف أوائل أوقات الصلاة، ويصلي بالمسلمين وهم مدجّجون بالسلاح، تعلوهم السكينة والوقار والبسالة والشهامة، يمثّلون للأعين حال جند الإسلام زمن النبي والائمة الراشدين (صلوات الله عليهم أجمعين). وهكذا كان مواظباً على أوقات الصلاة مدة مشاهدتي له، لم ينَم طول تلك المدّة وقت طلوع الفجر، إلا يوماً في كربلاء كان ساهراً أكثر الليل، مشتغلاً بالفتق والرتق في أُمور المسلمين، فنام قُبيل الفجر ولم يستيقظ حتى علا نور الصباح قُبيل الشمس، فرأيتُه متأثراً أشدّ التأثر، متشائماً من ذلك اليوم، فأسرع الى صلاة الصبح. وقال بعد صلاته: لم يتفق مثل ما اتفق هذا اليوم من تأخير صلاة الصبح، ولست آمن أن يصيبنا هذا اليوم شرّ عظيم. فلم يتم كلامه حتى جاء النذير يُخبر بورود عسكر الإنجليز الى كربلاء ومحاصرتها، فتلاقى مع آية الله الشيرازي قدّس سرّه وصمما على الحركة الى النجف.

فأتت رسل الإنجليز يدعونني الى ملاقاتهم ونجل آية الله الشيرازي وكثيراً من رؤساء أهالي كربلاء، فمضى بعضٌ فقبض عليهم الإنجليز وتواريتُ أنا، وشبّت نار الحرب على أثر ذلك بيننا وبين الإنجليز على ماسيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

ولقد أخذتني الدهشة ليلة وفاته حيث دخلتُ عليه وقد مضى من الليل ساعتان وكان قد اشتدّ عليه وجع صدره، وكان له دويّ أسمعه من خارج الغرفة وقد ضاق نَفَسه.

فقال: لم أستطع اليوم أن أُصلي أول الوقت إذ لم يسكن وجع صدري عدا برهة دقائق فتر فيها الألم فاستطعتُ أن أُصلي منفرداً مخفّفاً صلاتي ولم أُصلِّ النوافل، وكان مواظباً على نوافل رمضان مع كثرتها وشدّة ضعفه وألمه، وما استتم كلامه حتى فارقت روحه الدنيا.

وأما صيامه فلم أتذكّر أنه أفطر يوماً من رمضان، لأنه كان لايختار في رمضان سفراً ولم يضطرّ إليه لأمر من أُمور الدنيا إلا سنة ١٣٣٤ (هـ) حيث هاجم الإنجليز بنفسه النفيسة، وتحرّك من الكوت الى علي الغربي، فالعمارة؛ فاستخلص الأولى من الإنجليز، وحاصر الثانية وكان ذلك في رمضان، ولم يفرغ من عمله ذلك إلا في شوّال حيث رجع الى كوت الامارة فأقام فيها ليقضي صومه وكان الحرّ قد بلغ أشُدّه في شهر تموز، فصام تلك الأيام على طولها وشدّة حرّها وكثرة اشتغاله بأُمور الحرب. وكلّما إتخذتُ الوسائل لتأخير صومه حتى يسيخ الحرّ، لم أوفَق لذلك. ولم يصم إلا هو دون سائر أصحابه. وكان صحيح المزاج لا يتعلل بالمرض الخفيف في ترك الصيام وكنتُ بخدمته في رمضان الذي توفي فيه وقد أنهكته الفكرة في تقهقر المسلمين وتركهم شريعتهم والشقاء الذي حاق بهم فعزم على الصيام وكنتُ أخشاه عليه لفرط ضعفه، فاتخذتُ الوسائل لمنعه عن الصيام فلم أستطع، وقلتُ له: إنّ الصيام لم يكتب عليك، وقد ماتت شهواتُك وقواك العصبية التي رُضتها بألف رائض فما عسى أن يخفف الصوم بجوعه وعطشه من تلك القوى. وإنما كُتب على أمثال «رضا خان» الذي يسفك ويفتك طوعاً لشهوته وغضبه. فقال: وهذا الكلام ايضاً من الشهوة والغضب بمكان، ومنه يُعلم أنّ قوى أنفسنا الخبيثة لم تمت بعد.

فلما يئستُ من إقناعه جمعتُ له كثيراً من الناس ليُعينوني على منعه فلم ينته، وأحضرتُ الأطباء لمنعه، فقالوا: إن مزاجه لم يتَناهَ في الضعف ويمكن أن يُجرِّب الصوم يوماً أو يومين فإذا رأى ضرراً فيه أفطر. قالوا ذلك هيبة له واحتراماً لأنهم رأوا شدة تأثره من ترك الصيام، وخافوا أن تحصل له صدمة فكرية من الإفطار. فقلتُ له: إنك قد ضعُفت ولايسوغ لك الصيام.

فقال: صه! ما أنت وتكليفي الخاص حتى تتصرّف فيه؟ أنا أعتقد حقّ اليقين أن في الصوم صحة البدن. وتلا: ﴿بَل الإنسانُ عَلى نفسِهِ بَصيرةٌ﴾

فسكتُّ وعجزتُ عن إقناعه فعرضتُ عليه السفر ذلك الشهر، فقال: الآن وقد هلّ هلال رمضان فلا أترك صيامه وقيامه وأشتغل بالسفر.

حتى صار يوم العاشر فعرض له بعد صلاة العصر اضطراب قلب شديد، فأحضرنا له الطبيب وألزمه بالإفطار وقت العصر فرأيتُه على أشدّ مايكون من التأثر لا لألمه بل للإفطار فقال: الآن وقد اضطررتُ الى ترك الصيام شرعاً فلنستعد الى السفر.

فعزمنا الى اتخاذ العدة لذلك، إلا أن نقيع السمّ، لا بل القضاء والقدر حال بيننا وبين ذلك، فصبراً على قضاء الله وتسليماً لأمره.

وكان يتلهّف الى الحج وزيارة قبر النبيّ وأئمة البقيع والرضا لتكميل عباداته، فلم يستطع. إذ لم يكن له مال يفي بذلك؛ لأنه لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئاً، وما كان يُدلى به إليه من المال الكثير لم يكن يرى له فيه حقاً فكان يصرفه كلّه لمستحقيه، إلا أن الله تعالى لمّا علم منه ذلك أجرى مطلوبه على يد أعدائه، فنفاه الإنجليز الى الهند واليمن قسراً في موسم الحج فوفقه الله لأداء فرضه والتشرف بزيارة النبي والأئمة الأطهار (صلوات الله عليهم) ولم يزالوا يمانعونه عن الرجوع الى العراق حتى مضى الى إيران فزار الرضا عليه السلام من طريق قم، ولاقى هناك حتفه فكان الى جنب مرقده الشريف قبره، في حين أن العلماء الذين أُبعدوا معه لم يوفّقوا لذلك بل عادوا من قم الى حيث أتوا.

وكان يتشوّق لأن يملك شيئاً من المال لأداء العبادات المالية من الخمس والزكاة والوقوف والصدقات، فكان يصدّه عن ذلك حرصه على ترويج أحكام الدين واستيعاب أوقاته بالخدمات العامّة للمسلمين، وكان يراها أهم من جمع المال وإعانة الفقراء بماله الشخصي، فلذلك لم يكن له مال ليزكّيه أو يقف ويتصدّق منه، وما أوقفه من المدرسة في الكاظمية كان من الوجوه البِرّيّة التي تنطبق على ذلك، لا مِن ماله الخاص [١].

---

(١) لكنه مع ذلك لم يُحرم من تلك الخيرات الحسان ولو بالشئ اليسير، فكان قدّس سرّه قد أوقف كتبه الخاصّة على المدرسة المزبورة وألحقَ بها جزءاً وسيعاً من داره المملوكة له، وأوقفها ووسّع وقفيتها على وقفية أصل المدرسة وعزم على أن يقف جميع داره كذلك، فاجتمع عليه كثير من العلماء وسائر طبقات الناس ومنعوه عن ذلك لتبقى مأوىً ومسكناً للعائلة والأولاد، فأجاب الى ذلك بشرط الإشتغال بالعلوم الدينية، ⇐

جهادُه وبسالتُه

لم يكن في أهل هذا العصر أثبت منه قدماً في الجهاد، ولا أشجع منه قلباً في الحرب. وكان مجبولاً على الصبر في كل الشدائد، لم يجزع لشيء قط إلا لتخاذل المسلمين وتقاعدهم وتهاونهم في أُمور الدين، وكان يقلقه تخاذل علماء الدين في إقامة أعلامه، وتصدى مدّعي الرئاسة الى ما ليسوا بأهله.

ومن يطالع أخبار حياة الخالصي لايصدّقه إلا أن يُذعن أنه أشجع رجل عرف بالشجاعة في هذا العصر، وسنذكر بعض مواقفه الكريمة في جملة أخبار حياته الشريفة.

ومَن قرأ أخبار شجاعته وبسالته ربما تتمثل في مخيّلته صورة أُخرى غير صورة الخالصي، إذ أن من ينظر في أعمال رجل من الرجال تتمثل في مخيّلته صورةً لذلك الرجل الذي سَبَر أحواله؛ مناسِبةً لتلك الأعمال، وأعتقد فيه لوازم بعيدةً أو قريبةً ربما يعدّ من الضرورة الواضحة اتصافه بها، وهذه الصورة وتلك اللوازم ليست صورة صاحب الأعمال وأوصافه، وإنما هي مناسبة لعلم الرجل السابر أحواله وآراءه.

فمَن رأى وسبر ماسنذكره من أعمال آية الله قدّس سرّه في ميادين القتال من أهل هذا العصر؛ ربما تتمثل له صورة رجل مترف معجب بنفسه، مستأثر بكثير من أُمور الدنيا محب للرئاسة ساعٍ لها، الى غير ذلك من الصفات التى توجد فى الرجال العاملين فى هذا العصر.

لكن هذا الخيال هو خيال أهل هذا العصر وهو غير ما جُبِل عليه آية الله قدّس سرّه فلابد من صرف عنان القلم الى ذكر مزاياه الأُخر التى لاتُناسب أعماله فى نظر أهل العصر ومخيّلاتهم ليتجلى ماتفرّد به قدّس سرّه من الصفات والأخلاق عسى أن يقتدي

⇐ وتكون كمدرسة خاصّة لهم. الى غير ذلك من الأمور الجزئية التي يضيق بعدّها المقام وكان دائماً يتّبع قوله صلى الله عليه وآله: «لا يُترك الميسور بالمعسور». وما مات إلا وقد جمع الخصال الثلاث التي جاء بها الخبر: «ينقطع عن المرء إذا مات إلا مِن ثلاث؛ صدقة جارية، وولد صالح (وناهيك به حضرة العلامة المؤلف حفظه الله) وعلم يُنتَفع به» وسيأتيك ذِكر مؤلفاته وأهميّتها مفصلا. (الناسخ)

بها صلحاء الأمة وزعماؤها.

زهدُه

كأنه جُبِل على الزهد فى أُمور الدنيا وصار غـريزةً له. وكـان فـيه مـتجلياً بـمظهره الحقيقي الذى سُنّ في الشريعة للسعادة فى النشأتين.

لم يكن يرى الزهد التزاماً بترك نعم الله والبعد عنها، كما أنه لم يسعَ فـي تـطييب مأكل، أو تليين ملبس، أو تشييد بناء. لكن إذا اتـفق ذلك بسـعي غـيره لم يُـنكره ولم يتجنّبه، وهذا معنى الزهد المأمور به في الشرع.

عَرف الدنيا فاحتقرها أعظم احتقار، فلم يحزن على أمر فاته فيها، ولم يفرح لإقبال شئ منها عليه. ومعنى الزهد المطلوب ذلك كما قال تعالى ﴿ لِكَيلا تَأسَوا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلا تَفرِحُوا بِما آتاكُم﴾ وكيف يفرح عاقل بإقبال زائل، أو يأسى بصير لإدبار منصرم.

تلوتُ يوماً بحضرته قول القائل: «ومَن ينظر الدنيا بعينٍ بصيرةٍ...» فحين سمع ذلك قال: إنّ لفظ بصيرةٍ قيدٌ زائد فمَن نظرها نظرة حمقاً بعين غير بصيرةٍ يعلم ماهي عليه.

وإذا كان على بيّنة كاملة من أمر الدنيا فلابدّ أن يكون على درجة كاملة من الزهد كما قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «أحقّ الناس بالزهادة مَن عرف نقص الدنيا».

ولو ذكرتُ مابلغه من الزهد لطال المقام وضاق المجال، فحسبي من ذلك أمثلة تدلّ على مبلغ زهادته.

أدركتُه ساكناً في دار ذات غرفة واحدة ليس لها أبواب وليس في الغرفة فرش، يتّقي البرد في الشتاء هو وأطفاله بلحافٍ واحد رثٍّ، يقتصر في جـميع أيـامه وليـاليه عـلى الخبز والماء، لايُرى في تلك الدار غيرهما من الطعام والشراب. ومـا كـان ذلك عـن قصور أو عدم، بل كان يُجبى إليه من المال ما لو أراد معها التنعّم في العيش لوسعه، إلا أنه لم يكن يرى ذلك له، فكان يـرى حـقه فـيه لايـزيد عـمّا ذكـرناه، وبـاقيه لفـقراء المسلمين.

اتخذنا يوماً طعاماً مِن حبّ الحنطة غُلي بالماء ولم يأذن بشراء سمن له، فبينا نحن

نتغذا إذ جاء سائل على الباب فأعطيناه من ذلك الطعام، فقال السائل: تصنعون لأنفسكم أحسن الطعام وتُعطون هذا للفقراء، لو أعطيتموني من غذاء حضرة الشيخ، فأشار قدّس سرّه أن أرفع الإناء الذي كان بين يديه وأعطيه السائل؛ ففعلت، وحين نظر السائل إليه وأيقن أنه طعامه قال: ومَن يَقدر على أكل هذا، وتركه وانصرف مهرولاً.

وفى ذلك اليوم جيء إليه بمال وافر فعالجتُه أشد المعالجة لشراء سمن لطعام الليل فلم تؤثر فيه، ولم يجنّ الليل حتى قسّم جميع ذلك المال على الفقراء و لم يبت عنده منه درهم ولا دينار.

كنت طفلاً ولم تكن تروق في عيني خشونة الملبس وجشوبة المأكل والمسكن، فكنتُ أتخذت أشدّ الوسائل للتوسّع في العيش فلم يكن يزده ذلك إلا تضييقاً وصلابة. حملتُ أحد أصحابه على أن يكلّمه في ذلك، فكان جوابه له: قد انقضى من عمري أربعون سنة وأنا على هذه الحالة ولست مطمئناً أن أعيش أربعين أخرى وسينقضي النصف المسكوت كما انصرف النصف الأول المضّيق، وليس من العقل أن أبيع آخرتى لهذه الأيّام القليلة المتصرّمة الزائلة.

أدرك جده الشيخ عبد العزيز أيام طفولته وشبابه وكان جدّه رئيس ذلك الصقع الذي عاش فيه، تفِد إليه الوفود من كل جانب ويُقري الضيوف ليله ونهاره، يبذل في ذلك مالم يبذله أحد من معاصريه، ولم يكن له حظّ من بذل جدّه، فإنه كان مكبّاً على التحصيل والتدريس والتأليف لايرى داره سوى شئ قليل من سواد الليل، متجنباً كلما كان في يدَي جده. وهكذا كان بعد جده أيام أبيه وبعد أبيه حين أدركتُه.

وكان يحمل أولاده على ترك اللّذات واعتياد الخشونة، والصلابة في المعيشة وفي سائر الأمور، يرى ذلك أحفظ للبدن وأوفق بالعمل، وليتنا بقينا على ماعوّدنا عليه ولم تضطرنا الحوادث الى تغييره، إذاً لكنّا في أهنأ السعادة وأتم العيش.

كلّمتُه يوماً في كبر سنّه أن يغيّر في مأكله وملبسه، ورجّحتُ له ذلك بأن هذا التغيير موجب لقوة بدنه فيكون أقدر على مقاومة الأعداء وخدمة الإسلام، فتمثّل بقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فكأنّي بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت آبن أبي طالب، فقد

قعَدَ به الضعف عن قتال الأقران، ومنازلة الشجعان، ألا وإن الشجرة البَرّيّة أصلب عوداً، والرواتع الخضِرة أرقّ جلوداً، والنباتات العِذية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً»[١].

وقلت له يوماً و هو في ميدان الحرب قريباً من الكوت وكان يأكل كما يُطعم فقراء الجند وضعفاءهم: يكفينا الإشتراك في الحرب، فلنرجع الى بلدنا لأن المدة قد طالت. فغضب حتى تغيّر لون وجهه وقال: أجَبُنت، تدعونا الى الرجوع، وهل يبقى أحد في ميدان الحرب إذا رجعنا. أتريد أن يستولي الإنجليز على بلاد الإسلام؟. فقلتُ له: فأنت تعلم أن بقاء الجند في ميدان الحرب وحفظ بلاد الإسلام موقوف على وجودك في ميدان الحرب فتأثيرك في الحرب أعظم من تأثير أكبر القادة، فلماذا تبخل على نفسك بمصارف أقل قوّاد الجند وتعيش عيش سائر الأفراد، وهلاّ تحفظ نفسك للمسلمين وتبذل لبقائها مايُصرف على أصغر الضباط؟ فتبسّم وقال: أبهذا تريد أن تخدعني عمّا أنا عليه، لاكان ذلك، وما أنا بمُحدِثٍ في طريقتي تغييراً، واني أرى أن الخشونة أحفظ للنفس، مضافاً الى ما فيها من الفوائد الحاصلة من؛ مواساة الفقراء والضعفاء وتحبيبهم.

وكان في الكاظمية يقوم بجميع مصارف الطلاب الذين كانوا في مدرسته، ويبذل على الفقراء والمحتاجين؛ ماكانوا معه في رغَد، ويشحّ على نفسه وعلى أولاده.

ولقد كلمتُه يوماً في ماكان قد خصصه لي من الراتب الشهري وهو أقل من رواتب الطبقة الاولى من طلاب المدرسة فقلتُ له: إن كانت الرواتب وفق التحصيل فأنا مستعد للإمتحان وإثبات تفوّقي على جميع الطلاب، فلماذا يقلّ راتبي عن رواتبهم؟

فقال: إن لك داراً تأوي إليها، وطعاماً مهيأً وليس لهم ذلك، ومن العدل أن يقل راتبك عمّا تأخذه الآن.

واحتاج أحد أخوتي عباءةً في أيام الشتاء فكلّمه أحد أصحابه في شراء عباءة لأخي، فنظر الى أحد طلاب المدرسة وكان من أهل تبريز وقد أخلقت عباءته فقال: إنّ هذا ـ وأشار الى التبريزي ـ ليس له عباءة فمتى اشتريتُ له عباءة أشتري لولدي، وأمر بشراء

(١) نهج البلاغة ـ الكتاب ٤٥.

عباءة للتبريزي.

هذه الخشونة التي تمثّلت فيه لم تترك له صاحباً لطمع في أُمور الدنيا إلا مَن أخلص له الودّ طلباً لمرضاة الله، وكان يتهجّم عليه حتى بعض أقاربه، وتفرّق عنه في ميدان الحرب كثير من العلماء الذين صحبوه لأنه كان يطعمهم كما يأكل، ويأكل كما يُطعم فقراء المجاهدين.

ولقد رأيته في المشهد المقدس في خراسان وقد استولى عليه الضعف وهو في دار محقّرة خالية من الأثاث، مقتصراً على طعام لا يُقيت ضعيفاً ولا قوياً، فاتخذتُ أشدّ الوسائل لاصطناع طعام يوافق حاله، واتخاذ مسكن مناسب له، فلم أُوفق لذلك على شدّة مالقيتُه من المصاعب، لأنه كان يمنعني أشدّ المنع. حتى جاء شهر رمضان وأراد الصيام فجمعتُ له الأطباء وألزموه بتغيير طعامه ومسكنه وحذّروه من البقاء على ما كان عليه. فقبل إحداث تغيير يسير في طعامه دون مسكنه بعلّة الصيام وخوف مخالفة إشارة الأطباء لأنها محرّمة شرعاً، ولكنه كان غير مستريح القلب من ذلك، فقلتُ له يوماً لأهوّن الخَطب عليه: أترى إن الدنيا ومافيها تعدل عند الله عناء مؤمن؟ أو ترى أن الله تعالى تحمّل عناءً أو تكلّف مشقّة في خلق الدنيا حتى لايرضى بأن يتنعّم فيها المؤمن حرصاً على مافيها؟ فما هذه الدقّة في أمر المعيشة؟ ما الدنيا وما نعيمها وماقيمتُه حتى ينظر إليه الإنسان نظر محبٍ له أو مبغضٍ إياه؟ ليس للدنيا قدر ولا قيمة، حتى قيمة الإقلاع والعزوف عنها.

فتبسّم ضاحكاً وقال: العِلل الشرعية ليست اختراعيّة يخترعها الإنسان مِن قِبل نفسه، وإنما هي علل مقرَّرة قرَّرها الشارع، وغايتها كلها سعادة الناس ومصلحتهم. فعلى من يريد معرفة أسرار أحكام الشريعة أن ينظر أحكامها أولاً، ويبحث عن أسرارها ثانياً. ومن المقرر في الشرع محبوبية الزهد ومطلوبيّته. وعليه كان عمل الأنبياء والأئمة والاولياء، كما إن من المقطوع به الضروري أن الدنيا وما فيها لاتعدل عند الله جُنح بعوضة، أو قلامة ظافر، فكيف التوفيق بين الأمرين؟ ولماذا أمر الله المكَلّفين بالزهد في الدنيا والعزوف عنها مع أنها ليست بشيء حتى تستحق النظر

والأمر بالكفّ عنها؟.

ليس الأمر بالكفّ عن الدنيا إعظاماً لها وإن لله تعالى غاية منها تخصه لايريد أن يشاركه فيها أحد، أو أنه أوجدها بمشقّة فلايهون عليه تنعّم أحدٍ فيها براحة، تعالى الله عن ذلك. ولكن الأمر بالزهد، وترك الدنيا راحة للبشر وسعادة؛ لأن الترف، وتشييد المساكن والإكثار من الرياش والأثاث يكلف الأغنياء مشقّة وأتعاباً عظيمة، ويضطرّهم الى ارتكاب الجرائم والآثام؛ من السرقة والنهب والظلم والتزوير والخداع والتملّق لمن هو أعلا منهم وأقوى، ودوس الحق، وترويج الباطل، والرضوخ للذلّ والهوان، والركون الى الظَلَمة والمتغلّبين، وغير ذلك من مبيرات البشر، كل هذه المنكرات؛ ليحصلوا على وسائل الترف وأسباب الغنى، ويحتفظوا بما حصلوا عليه.

هذا ما يجرّه الترف على الأغنياء، وعناء الفقراء منه عظيم حيث يتركهم في حسرة طويلة وألم شديد وضجر عظيم إذ يرَون أمثالهم متنعّمين ويحسبون أنفسهم معذَّبين وربما يسبّب هذا الحسد؛ هلاك الأغنياء بأيدي الفقراء.

فأمر الله بالزهادة أي الإقلاع عمّا في الدنيا، وبهذا يستريح البشر من عناء تحصيل وسائل الترف، ومشقته الشديدة، وذل الإحتفاظ بها وهوانه، ولا يخافون مع ذلك سطوة سلطان جائر، أو ظلم مارد فاجر، فيصدعون بالحق ويحققونه، وينكرون الباطل ويبطلونه، لا يخافون ضياع مال، أو ذهاب ترف. وإذا تساوى البشر في ذلك أُميطت عنه الأتعاب ونجا من كل شقاء. ومن اعتاد الخشونة في ملبسه ومفرشه، والجشوبة في مأكله؛ نشط للعمل ولم يبال تَحمُّل المشقات، فيكون أعود على البشر في العمل لهم، وعلى الأرض في عمرانها واستصلاحها، وهذه فائدة أُخرى للبشر في الزهد. وناهيك بالراحة الوجدانيّة الفكريّة راحة وسعادة، فإن من لم تكن له علاقة في الدنيا فهو في راحة من الفكرة فى حفظها وتدبيرها، ومن له علاقة فهو فى عناء، على حسب علاقته. وإذ تبيّن أن في الزهادة أكبر المصالح للبشر، فمن الخرق أن يحرم الإنسان نفسه من هذه المصلحة العظمى، وإذا جنى البشر على أنفسهم في حرمانها من تلك المصالح العامة والخاصة اتباعاً للهوى، من الحزم أن يغلب عقل العاقل على هوى نفسه؛ لينال

السعادة ويذود عنها الشقاء.

ولعلنا لو كنا قد جمعنا من حطام الدنيا ما جمعه غيرنا لكنّا راضين بالباطل كما رضي به غيرنا محابون منافقون حتى مع الكفار كما يفعل كثير من الناس. والحمد لله حيث لم تغلبنا نفوسنا في جميع ما يضطرنا الى كل فجور فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة.

هذا كان رأيه، وبمثل ذلك كان يكشف أسرار أحكام الشريعة حتى تمكنَت من نفسه وغلبت على جميع غرائزه. ولذلك لم تؤثر على أعماله وعقائده؛ الأموال الطائلة الوافرة التي أُعطيت له في دولة العثمانيين، وفي ميادين القتال، وبعد استيلاء الإنجليز على بغداد، وحين قدم إيران، بل رفض قبولها بأجمعها رغم الوسائل الشديدة التي كان يتخذها العثمانيون والإنجليز والإيرانيون لإقناعه بقبول ما يقدمونه له، حتى أنه كان يصرف في ميادين القتال أموالاً كثيرة على المجاهدين ويرفض ما يعطيه قادة الترك باسم ضعفاء المجاهدين، وكثيراً ما تحمّل المصاعب والمشقات في الإنفاق على من كان معه ولم يقدم على أخذ درهم أو دينار.

وقد ذلّلت الضائقة الماليّة صعب جميع العلماء الذين كانوا في ساحة الحرب فاضطروا الى أخذ ماخصصه لهم قواد الأتراك،إلا آية الله الخالصي فإنه لم تؤثر عليه تلك الضائقة. وحين علم بقبول العلماء فى ساحة الحرب قليلاً من المال غضب أشد الغضب ولامهم أعظم اللوم وانتقدهم أشد الإنتقاد ورماهم بضعف النفس والعقل والدين.

ولم يكن تحرّجه عن قبول المال مقتصراً على أموال الكفار والحكام المسلمين، فقد كان يردّ كل مال لم تكن مسوغات قبوله الشرعية ومرجّحاته كاملة. وكل مال يرى فيه أقل محذور شرعي أو عُرفي وإن بلغ مئات الألوف من (الجنيهات) وكان محذوره يسيراً ـ ربما لايلتفت إليه غيره ـ كان يرفضه ولا يقبله فيُجبى إلى غيره. ولهذا أمثال كثيرة يعرفها أكثر أهل العراق وغيرهم فلا نطيل بذكرها المقام.

ومجمل القول في ذلك؛ أنه لم يكن يقبل من المال إلا مايراه زكياً طيّباً شرعاً لاينافي عزّة نفسه ولا يخلُّ بكرامة أحد من الناس عُرفاً. وما كان يقبله من ذلك كان يوصله الى

مستحقّيه بيده أو بيد وكلائه في مقابل وصلٍ يؤخذ من المستحِق. وكان يتحرّج أن يبيت ليلته وعنده مال لم يصل الى مستحقه، فكان مواظباً على تقسيم جميع مايصل إليه كل يوم قبل أن يجِنّ عليه الليل؛ لئلا يبيت مستحق محتاجاً وعنده حقه.

وكانت تصل إليه أموال كثيرة خصوصاً في أيامه الأخيرة فكان ينفقها كلها على الفقراء والمصالح العامة حتى قضى نحبه ولاقى ربه؛ طاهر الذيل طيباً نقياً زكيا، لم يخلّف درهماً ولا ديناراً ولا عقاراً ولا دياراً، حتى ماورثه من أبيه مما لايستغني عنه المجتهد من كتبه العلمية. فلم يتّفق لمجتهدٍ مهما بلغ من الزهد أن لا يخلّف كتاباً الا آية الله الخالصي قدّس سرّه فلم يترك ولا كتاباً واحداً، فإنه قبل وفاته وقّف كتبه للمدرسة التي أسسها في الكاظمية.

ومجموع ما تركه بعده ستة عشر توماناً كانت في جيبه وأثاثاً من البسط وبعض لوازم الدار، بِعْناها بعد وفاته بمائة وسبعين توماناً، ولم يكن اشتراها هو بل اضطررته الى شرائها بعد أن جئت المشهد ورأيت داره عارية من الفرش إلا اليسير. ومما تركه؛ دار اشترى أرضها وعمّرها هو، وهي دار حقيرة لم تقيّد باسمه في دفتر الحكومة (طاپو) لأنه كان يتحرّج من إعطاء مصرف تقييدها حتى قيل له في ذلك وحُذّر إن لم يقيّدها أن يدّعي ملكيتها أرباب الأرض فيأخذوها. فقال: لئن يأخذ الدار مسلم فينتفع بها خير من أن ينتفع كافر جائر متغلب بمصرف تقييدها في دفتر الحكومة. وأظن أن فى دارنا في الكاظمية أثاثاً لا يزيد على ما كان في المشهد من الأثاث. ومن سمع أخبار زهده يعتقد بكرمه وسخائه، لأن الزهد والسخاء توأمان. لكنه ربّما يخيّل له أنه فاقد للشجاعة والبسالة والصبر والثبات سجية متزهّدي العصر المرائين، وليس الأمر كذلك، فإن الزهد الحقيقى ملازم للشجاعة والثبات، والزاهد الجبان المتردد مرائي في زهده. وآية الله الخالصي مبرّأ عن الرياء، فهو أشجع أهل عصره وأصبرهم وأثبتهم، وإليك شيئاً من ذلك.

صبره وثباته

يصحّ تقسيم الصبر الى قسمين: محمود ومذموم، فالمذموم مايُسمّى الذل والرضوخ الى الهوان، وقد ذمّه الله في كتابه بقوله: ﴿رَضُوا بأن يَكونوا معَ الخَوالِف وَطُبِعَ على قُلوبِهم﴾ وغيرها من الآيات. وتظافرت السُنّة بالنهي عنه، وتجنبَه أولياء الله حتى سُمّوا أُباة الضيم.

وكان الفقيد على غاية من إباء الضيم، وسيكشف ما نذكره من أحواله عن شدة إبائه. فلقد كان نافذ الكلمة في عصره وله الرئاسة العامة على المسلمين، لكنه أبى أن يعيش ذليلاً محكوماً لطائفة كافرة جائرة وقاومها حتى تحمّل في ذلك السبيل أعظم المصاعب، واختار الموت غريباً شهيداً على الإستسلام والرضوخ للهوان.

وقد خذله أصحابه الذين أُبعدوا من العراق من أجله حيث لم تكن لهم من عزة النفس وصلابة الدين ما كان له، فرجعوا من قم وتركوه وتركهم إذ خالفَت أخلاقهم أخلاقه.

جاء الى قم فرآهم قد أوفدوا الى العراق رجلين هما: «الشيخ جواد الجواهري»، و«ميرزا مهدي نجل آية الله الخراساني» لمذاكرة الإنجليز في الرجوع الى العراق، فلامَهم أشدّ اللوم وعنّفهم على الإستسلام والهوان حتى قال: إنكم بعملكم هذا تهينون الإسلام لأنكم تدّعون الرئاسة الدينية ومع ذلك ترضخون لسلطنة جائرة كافرة. وطلب منهم أن يكتبوا لذينك الرجلين بقطع المذاكرات والرجوع الى ايران، وأمرهم بالغلظة والعنف بدل الرضا بالذل. فلم يُجيبوا الى ذلك وكأنهم ندموا على مجيئهم الى إيران فقال: ليتكم لاجئتم.

ورجعوا نادمين معتذرين الى الإنجليز قائلين: قد أخطأنا. ولم يكتفوا بالتوبة العملية حتى كتبوا بذلك عهداً أن لا يتدخّلوا في أُمور المسلمين ولايعارضوا سياسة الإنجليز كما سيأتي ذكره! ولا أدري كيف التوفيق بين عملهم الأول وعملهم الثاني، وأيهما كان موافقاً لأحكام الشريعة الإسلامية؟ ولقد اتخذوا الوسائل الفعّالة لإقناع آية الله الخالصي بالرجوع الى العراق فأبى، مع أن الشروط التي أُخذت منهم لاتؤخذ منه

لو كان أراد الرجوع.

وأجهد نفسه في إقناعهم بالبقاء في إيران وعدم الرجوع فأبوا، وكلما جدّوا في التخفيف من عزة نفسه وإبائه الضيم لم يطيقوا، وكلما جدّ في تقوية نفوسهم وإماطة الضعف عنها لم يطِق. فرجعوا بالخيبة والخسران والذل والهوان الى حيث أتوا.

وبقي في إيران محتفظاً بما أنعم الله به عليه من عزة النفس، ومِنعَة الجانب، حتى لاقى ربه صابراً محتسباً في خراسان.

ولإبائه الضيم أمثلة كثيرة لم تجتمع في رجل من أهل هذا الزمان: من تهاونه بالأشراف والحكّام، واحتقاره السطوة والسلطان مهما بلغت من القهر والغلبة، نضرب عن ذكرها صفحاً. ونكتفي بما سنذكر من أخبار أيام حياته ونعقبه بقولنا: إنه لا يليق لرئاسة المسلمين من لم يكن على ما كان عليه من عزة النفس وإباء الضيم. أما الراضون بالذل الراضخون للضيم فأولى بهم أن يكونوا بقّالين في الأسواق، أو حذّائين، لا رؤساء في الدين، ومبيّنين لأحكام الحلال والحرام ومُفْتين، فليذهبوا وعلى الله حسابهم.

تجنب آية الله الصبر المذموم وأبى الضيم، أما الصبر المحمود فكان مثاله المتمثل للعيان. وحيث أنه ينقسم الى قسمين لابد أن نذكر حظّه من كل منهما:

القسم الأول من الصبر المحمود هو التسليم والرضا بقضاء الله وقدره وعدم الجزع والإضطراب لنزول المصائب والأهوال التي لا يطاق دفعها ودرؤها. أما السكوت على مايطاق دفعه فذلك مذموم يسميه علماء الأخلاق صبر الحمار. وهو أعز نفساً وأحمى أنفاً من أن يتطرقه.

ولقد كان أُعجوبة في الصبر على ما لايطاق، فإني منذ أدركتُه ما رأيته عابساً لحادث، أو متأثراً لكارث. ولقد كانت الأهوال تحدق به، والبوائق تنزل بـه ولا يـبين ذلك في وجهه حتى لايكاد يشعر جليسه بما طرأ عليه من النكبات. وكان إذا فقد فقيداً لاينزعج وإن كان أعز أولاده، وما سمعت له أنيناً في مرض وإن طال واشتدّ ولقد لُسِب يوماً فلم نشعر به حتى برىء من لسبته.

ولما أُخبِر بنفيي من طهران وأخذ بعض أصحابه بتسليَته قال: كنتُ أرجو أن أسمع

خبر قتله، والمسلم إذا لم يُقتل اليوم في سبيل نصر الإسلام فليس بـمؤدٍّ وظِيفته فـي الإسلام، وليس النفي بشيءٍ بالنسبة الى ما كنتُ أترقبه وأنتظره من ولدي.

والذي أقلقني فلا أنساه مدّة حياتي إني دخلتُ عليه وهو يجود بنفسه من حـرارة السّمّ وكان يتمشى في الغرفة، فلما سألتُه عن حاله قال: ليس العارض بذي أهمية. ولما سمعتُ دويّ صدره اضطربت أشد الإضطراب فأستشرته فـي دعـوة الطـبيب فـرأيتُ عدم اهتمامه بذلك وكنت أحسبُ الأمر هيّناً ولم يزل يكلّمني حتى سقط الى الأرض بعد أن خارت جميع قواه ولم أسمع له أنّةً ولا اضطراباً ولا تضجّراً ولا تأوّهاً. ومجمل القول: أني لم أرَ ولا أحسب أني أرى صابراً صبر على مـا صـبر عـليه مـن المـصائب واستطاع مقاومة النوازل بطلاقة وجه وسعة صدر مثله، فعليه صلوات من الله ورحمة.

والقسم الثاني من الصبر ما يرادف لفظ الثبات، وهو المـراد مـن الصـبر فـي أكـثر الآيات والروايات، وهو أفضل أقسام الصبر، وأعلا شِيَم الإنسان، وباب الظفر ومـفتاح الفوز والنجاح، وهو من عزم الأمور وصبر أولي العزم من الرسل.

ماذلّت اُمّة إلا بعد أن خلت منه، وما تحلّت به اُمّة إلا سمت وسادت. ولقد تحلى آية الله بهذه الخِلّة الكريمة، فقد كان عـلى جـانب عـظيم مـن الثـبات والعـزم واطـمئنان الجأش، لاتزلزل عزمه الحوادث ولاتزعزع جأشه الزعازع.

وهذا القسم من الصبر يلازم ثبات العقيدة. وكان قدّس سرّه ثابت العقيدة لايتطرق إليها شك ولذلك فاق ثباته ثبات معاصريه وقلّ ما سمعنا في متقدّميه مـن يشـابهه أو يضاهيه.

ولسنا نذكر لذلك مثلاً من أعماله وإن كثرت، وفيما سنذكره كفاية ولاسيما رجوع العلماء من إيران الى العراق وبقاؤه ثابتاً على عمله وعقيدته الى آخر نفس من أنفاسه، فأنه ذكر العراق وما يجب أن يعمل لاستخلاصه، ولنجاة العالم الإسـلامي قـبل مـوته ببضع دقائق، وكأنه نسي كل ما لاقاه في سبيله من المصائب، ولم يبالِ بما كان يلاقيه ويعانيه. وحسبك من ثباته أن صلحاء مجتهدي العصر لم يعانوا معشار مـا عـاناه ولم يلاقوا قليلاً مما لاقاه، فذّلوا وخضعوا وندموا على عبادة الله وتابوا عـنها وعـادوا الى

العراق ساكتين صامتين أذلاّء صاغرين، مع أنهم لم يكونوا اشتركوا في وقائع العراق ومصائب الإسلام إلاّ سنة أو سنتين أي بعد وفاة المرحوم آية الله الشيرازي الى أن نُفوا عن العراق. فزلّت قدمهم وعجزوا عن مقاومة تلك المصائب اليسيرة في المدة القصيرة. وأمّا هو قدّس سرّه فإنه عانى المصائب، ولاقى الشدائد، فذلل صعبها ولم يذل لها، وشارك جميع العلماء في جميع المصائب، وتفرّد وحده بأكثر مما لاقوه بكثير، ولم يزل يعاني الشدائد، ويلاقي المشكلات منذ بدء انقلاب إيران والدولة العثمانية، وهجوم الإيطاليين ودول البلقان، والحرب العامّة، وتغلب الإنجليز على العراق، والثورة العراقية، الى أن نفي عن العراق وقضى نحبه في إيران، لم ير منه تزلزل قدم، ولم يعهد فيه اضطراب أو تردد، ولم يتفق ذلك لأحد من رجال العصر وعلمائه، ولم نشاهد هذه الإستقامة والثبات من أحد في هذه الأزمان.

وكان من جِدّه في عمله أنه كان لم يعرف الراحة منذ عرفتُه، بل كان مشغولاً ليلاً ونهاراً بالتأليف، أو التدريس، أو إصلاح حال المسلمين، أو رعاية الضعفاء والفقراء، أو حرب أعداء الدين بنفسه، أو مقاومة المدلسين والمزورين، أو قيادة الجيوش للذبِّ عن حوزة المسلمين ومجدهم، الى غير ذلك من أعماله.

وكان قليل النوم كثير العمل وكنا نشفق أن يصيبه وهن فى بدنه، فنتخذ له وسائل الإستراحة، فلا يزداد إلا عملاً واجتهاداً. وكان طالما يقول إذا طالبناه بالإستراحة: لم تُخلق الدنيا للراحة، ولم نُخلق فيها لنستريح، وإن الآخرة هي دار الرّاحة.

ولمّا هاجم الوهابيون «الإخوان» بلاد العراق قلق فكان لاينام في الليل والنهار أكثر من ساعتين، ويصرف باقي وقته في العمل، وكنا نشفق عليه من ذلك، ولكن لانستطيع أن نقنعه بالإستراحة والنوم.

فأرسلني الى النجف لملاقات علمائها ودعوتهم. فدخلتُ على السيد أبي الحسن الأصفهاني وقت الظهر فقيل لي: هو نائم فأيقضتُه، وقلتُ له أودّ أن تمضي الآن الى الكاظمية. قال: ولِمَ. قلتُ: عسى أن يراك والدي فيتعلّم النوم فانه لاينام ليلاً ولانهاراً.

وكذلك جرى مع الميرزا النائيني إلا أنه كان نائماً الى وقت العصر ولم يخرج من

داره إلا بعد إجراء جميع ما اعتاد عليه ممّا اختصّ به من وسائل الراحة.

ولم يكن يقلقه شئ يوم كان في المشهد المقدس إلا عدم استطاعته العمل فيها لخدمة الإسلام، فكان مضطرباً لذلك أشد الإضطراب، يرى نفسه مقصراً، ولذلك أكبّ على التدريس والتأليف وكان يقول: الآن وقد فاتتنا عبادة الأحرار؛ يعني إصلاح حال المسلمين ومقاومة أعداء الإسلام بالحسام،فلا تفوتنا عبادة العجائز؛ يعني التدريس والتأليف والصلوات والنوافل.

ولما ضعف عن التأليف والتدريس أسِف أشد الأسف وقلق واضطرب وقال: إن استمر بي العجز عن خدمة المسلمين فلابد أن أختار لي كسباً أُموّن به نفسي وعيالي، لأني لا أحب أن أكون كلاً على المسلمين أرتزق من جهودهم وأتعابهم ولا أعمل لهم بقدر ما يعادل رزقي من كدّهم.

وهذه كلمة تلقّاها من الأئمة الطاهرين (عليهم صلوات الله أجمعين) فإن سيد الساجدين وزين العابدين عليه السلام كان إذا سافر كتمَ نَفْسَه، فقيل له في ذلك فقال: أنا أكره أن آخذ برسول الله ما لا أُعطي به.

ولمّا خرج زيد بن موسى بن جعفر (عليهما السلام) على المأمون بالبصرة وأكثرَ الوقيعة بالمسلمين مشى إليه أخوه علي بن موسى الرضا عليه السلام فقال له:

«ويلك يازيد! فعلتَ بالمسلمين مافعلتَ وتزعم أنك إبن فاطمة بنت رسول الله، والله لأشد الناس عليك رسول الله.

ويلك يازيد! ينبغي لمن أخذ برسول الله أن يعطي به».

فلما سمع المأمون كلام الرضا عليه السلام بكى وقال: «بأبي وأُمّي هكذا فليكن أبن رسول الله».

وكان طالما يلوم آية الله عامة المسلمين والعلماء خاصة على تقاعدهم عن الذبِّ عن الإسلام وإعلاء كلمته، بمثل هذا الكلام ويقول: إن مجدكم وشرفكم وعزكم وحياتكم وثروتكم ورئاستكم إنما هي بالإسلام، وإذا أردنا غضّ النظر عن أحكام الشريعة وواجباتها فهل من الإنصاف والمروّة أن تأخذوا ذلك كلّه بالإسلام ولا

تقومون بخدمته.

لكن من لا يبالي بأحكام الشريعة وأوامرها فهو عن المروّة والإنصاف أبعد. يأخذ كل مقوماته بالإسلام ويهاجمه بأعماله طالباً محوه؟ ولذلك لم يكن يؤثّر فيهم كلام آية الله مهما بلغ من الحكمة والموعظة الحسنة، أما هو فقد أبت مروّته أن يأخذ بالإسلام أكثر مما يعطي به، ولذلك عزم على الاكتساب لمّا عجز عن خدمته مع أن مؤونته على المسلمين كانت أقلّ قليل. إلا أن مدة عجزه لم تطُل ولم يُمهل لاتخاذ كسب حتى دُسَّ إليه السمّ ولاقى ربه صابراً محتسباً مؤدياً فرضه.

ومجمل القول في ثباته أني لم أرَ فيمن عاصرتُه من شابهه في صبره وثباته لا من العلماء ولامن غيرهم.

وإن الذين ثبتوا في خدمة الدين من العلماء المعاصرين ثلاثة: آية الله [السيد كاظم] الخراساني وآية الله [محمد تقي] الشيرازي وآية الله الخالصي. ولم يصب الأولان بما أُصيب به هو قدّس سرّه، فإن آية الله الخراساني أُصيب في رئاسته ونفوذه فثبت ولم يُصب في نفسه ووَلَده، وآية الله الشيرازي أُصيب في ولده ولم يُصب في رئاسته ونفسه، وآية الله الخالصي أُصيب في رئاسته وماله ووَلَده وعياله ونفسه فثبت أمام كل ذلك حتى باع نفسه لله.

عدم استعانته بغيره في عمل

مما امتاز به قدّس سرّه عدم استعانته بأحد في عمل من الأعمال إلا ما تعذّر قيام الفرد به، فقد كان يكلّف نفسه المشقّات العظام، ويتحمل المصاعب الجسام، ولا يستعين بأحد من الخلق.

وهذه طريقة السلَف الصالح من المسلمين الذين واظبوا على اتباع سنّة رسول رب العالمين، فقد كانوا لا يكلفون أحداً عملا من أعمالهم حتى إن الراكب منهم كانت تسقط مدرته فلا يكلّف الراجل مناولته إياها، بل يترجّل هو ويتناول عصاه، يرى تكليف غيره مخالفاً للسنّة. وقد ترك أكثر المتأخرين هذه الخصلة الحسنة ولم

نشاهدها فيأحد ممن عاصرناه إلا في المرحوم آية الله الشيرازي وآية الله الخالصي. ولذلك لم يستخدم خادماً مدة حياته لشخصه، وطالما كنا بخدمته فيحتاج الى ماءٍ فلا يأمرنا بإتيانه بل ينهض هو الى الإناء ويشرب ويعود الى مجلسه. وأمره في كليّات الأعمال مشابه لعمله في جزئيّاته، وأعجب العجب أني دخلتُ عليه وهو في حالة النّزع وماكنتُ أعلم بذلك فرأيتُه يدير طرفه كأنه يطلب شيئا فقلت له: ماذا تطلب؟ فلم يجب ومضى الى زاوية الغرفة فتناول منديله بيده وكان يطلبه ولم يأمرني بمناولته له.

وكان يرى الإعتماد على أحد في العمل عاراً وذلةً وضعف نفس وخلافاً للسنة والأخلاق الشرعية، وقبال ذلك كانت له بالله ثقة كاملة واعتماد وتوكل عظيم أوجب له الإطمئنان في جميع أحواله والثقة في شدائد الأُمور.

قال يوماً: ما سبّبتُ لعملٍ شخصيٍ سبباً، وما احتجت الى تسبيب سبب في تمام عمري. ولقد كنتُ بين الجبال السود منفرداً في طريقي من مكة الى المدينة ولم يكن معي زادٌ ولا راحلةٌ ولا درهمٌ ولا دينارٌ، وأنا بعيد عن أهلي وبلدي (لأنه تشرّف بزيارة بيت الله وقبر نبيه (ص) على غير عدة بعد تبعيده الى اليمن) فلم أحتج الى شئ مع أني صرفتُ أضعاف ما صرفه الحجاج ولم أُسبب لذلك سبباً بل كان تدبير ذلك بحولٍ من الله وقوة ولم يلجأني بالتفوّه في ذلك بكلمة.

وكان يشاهد منه في جميع أعماله توكل تام، وثقة كاملة، واطمئنان لا يشوبه ريب، وركون الى قوة لا تقاومها قوة، يرى الله نصب عينيه في جميع حركاته وسكناته ونومه ويقظته، وذلك هو السبب فيتحلّيه بالأخلاق الحميدة من البسالة والشجاعة والإقدام والثبات، وكِبر الهمّة، واحتقار عظائم الامور.

ما لاقاه من المصائب وايذاء المسلمين له

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أتعب الناس قلباً، من علت همّته، وكثرت مروّته، وقلّت مقدرته».

وهذه الخصال الثلاثة كانت موجودة في آية الله الخالصي قدس سره، ولذلك كان أتعب الناس قلباً. أما علوّ الهمة فإنه مااستعظم أمراً مهما كبر وما أحجم في مقام إقدام، ولاتزلزل قدمه في مزالّ الأقدام، وحسبك مقاومته لأكبر دول العالم ـ وهم الإنـجليز ـ وأقواها شكيمة، وأعظمها سـلطاناً، وأشـدها وطأة وظـلما، وعـدم رضـوخه لسـلطانها وانقياده لها، بعد أن خضعت لها رقاب الباسلين، وانقادت لأوامرها أعناق من تقمص ثوب الرئاسة في الدين. ومع ذلك كان بين أُمّة جاهلة؛ لاتميّز الضّارّ من النافع، والصالح من الفاسد، والحياة من المماة، فقادها وسار بها في سبيل الصلاح والهدى مع تـلك الصعوبات، ولم يكن معه من يدانيه في عزمه وإقدامه وثباته.

فلست بمبالغ إذا قلت: أنه كان وحده. وأدل دليـل عـلى ذلك: إن الثـورة العـراقـية حدثت على أثر تبعيد فتى من شباب الطلاب لم يبلغ بـعد مـبلغ العـلماء وهـو مـيرزا محمد رضا نجل المرحوم المبرور آية الله الشيرازي قدّس سرّه. ولم تثر للعراق ثائرة عند تبعيده وهو رئيس المجتهدين، وامام المسلمين في هذا العصر، وعند تبعيد بـقية المجتهدين. وما ذلك إلا لأن تبعيد نجل آية الله الشيرازي كان وفـي العـراق آيـة اللـه الخالصي فقاد الجيوش ونهض بالمسلمين ذائداً عن شرف الإسلام.

أما تبعيد آية الله الخالصي فإنه لم يبق بعده من يقوم بـالدفاع عـن حـوزة الديـن، والذبّ عن شرف المسلمين؛ والأُمة برئيسها، والجيش بقائده، ولذلك لم يحدث على أثر تلك المصيبة إلا البكاء والعويل، والصراخ والنحيب، شأن الثواكل العاجزات.

وممّا يدل على أنه كان وحده في العراق سكوت العراقيين وخمولهم بعد فقده الى هذا اليوم، مع أنهم جميعاً ناقمون على السلطة الإنجليزية يحترقون بنيران مظالمها التي لاتطاق.

ويكفي في كبر همّته أن أمله وغايته كانت إصلاح حال المسلمين، وتقويم قواعد الدين، وإرجاع مجد الموحدين وإنشالهم مـن هـوّة الذل الى أوج العـزّ حـتى يـفوقوا جميع أُمم العالم علماً وعملاً ومجداً وسؤدداً ويظهر دينهم على الديـن كـله ولو كـره المشركون. ومن كانت هذه همّته مع غـفلة المسـلمين وطـروّ النـقص فـي أخـلاقهم

ونفوسهم وأموالهم، واعتيادهم المذلّة والخمول، وتغطرسهم في الجهالة، وترديهم في الضلالة، وضياع مجدهم وشرفهم وملكهم، وذهاب سلطانهم. فأجدر به راعي رعية وإمام هدى، وما أشد إعفاءه وأقلق باله. هذه الفكرة كانت لاتفارقه ليلاً ولانهاراً ولايقظة ولانوماً، فلم تكن له راحة في حال من الأحوال.

وأما مروءته: فقد كانت من أكبر البواعث على جدّه واجتهاده وصبره وثباته، لأنه كان يكره أن يرأس بقوله المسلمين بالرئاسة عليهم ولايقوم بخدمتهم، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أأقنع من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أُشاركهم..»

ولقد مرّ عليك شئ من ذلك في الكلام على صبره وثباته، وكانت تدعوه مروته الى المبادرة في إعانة الضعيف، وإغاثة اللهيف، فتضيف أتعاباً الى أتعابه ومصائب الى مصائبه، كان على علوّ قدره ورفعة منزلته يسهر الليالي لمعاونة الضعفاء.

دعَتهُ مروّته الى مقاومة بعض المفسدين في فتنة «سامرّاء» التي أُثيرت في وجه المرحوم آية الله ميرزا حسن الشيرازي، فقام بأعمال تُشكر، أصابه بسببها أتعاب كثيرة[١].

وانتصر للسيد مهدي آل السيد حيدر، وهو أحد رؤساء علماء الكاظمية لمّا تهاجم عليه بعض علمائها، وتغلّبوا عليه، ولم يَدْعُه الى ذلك سوى ضعف السيد أمام مهاجميه، فأخذ بيده حتى تفوّق على مخاصميه.

ورأى الناس قد سلقوا آية الله الخراساني بألسنة حداد على أثر الإنقلاب فيإيران، وكان يعلم منه الهدى والصلاح والسعي لصالح المسلمين، فصار يذبّ عنه بجميع قواه ويظهر فضله وحقّه على المسلمين لكل من لايعرف ذلك، حتى لاقى فيسبيله مالاقاه غير مبالٍ به، وكان من أعظم الأسباب وأقواه لبقاء نفوذ آية الله الخراساني في العراق.

---

(١) إشارة الى قيام أهالى سامراء في وجه آية الله الميرزا حسن الشيرازي سنة ألف وثلثمائة وعشر هجري، ومجييء قنصل الإنجليز الى سامراء لنجدة الميرزا ظاهراً، ولتمهيد وسائل الإستيلاء على العراق باطناً، بحجة تلك الفتنة. إلا أنّ الميرزا قدّس سرّه طرده، ولم يترك مجالاً لتشبّث الإنجليز في العراق ذلك اليوم، وفضل إذلال أهل سامراء له على إعزاز الإنجليز، لأن عزّ الإنجليز عين الذلّ.

وسهر ليالي كثيرة في حادثة هجوم «إبن السعود» على «القطيف» وإبادته آل جمعة لتسلية طفل بقي منهم في الكاظمية وهو إبن «منصور باشا» وخابَر رؤساء قبائل العراق واستنجدهم لنصرة آل جمعة وحرّضهم على مقاومة إبن السعود أخذاً بثار آل جمعة، ولم يزل عاملاً على إعداد العُدد لذلك، ومفاوضة أُمراء العثمانيين. ولولا ان الحرب العامّة حالت بينه وبين ماعزم عليه لانتقم لذلك البيت من آل السعود. وما حداه الى ذلك إلا ضعف آل جمعة وظلامتهم بعد استيلاء إبن السعود على القطيف. وكان لعلوّ همته لايعتني برئيس ذلك البيت أيام رئاستهم على القطيف، فلما ذلّوا سهر الليالي لتسلية أقلّهم بداعي مروءته.

ومات أحد علماء إيران وهو السيد مصطفى الكاشاني في الكاظمية فخلّف ولداً كان يظنّ فيه الخير، وهو السيد أبو القاسم، فقاومه آل الصدر، وكان لهم من النفوذ في الكاظمية مايَعجز عن مقاومتهم ذلك الفتى الطموح، وسبب تلك المقاومة؛ عادة في علماء إيران يسعون جهدهم في إبادة أبناء العلماء بعد فقد آبائهم حرصاً على الرئاسة الموهومة ـ ومن هذا الوجه مانلاقيه اليوم في المشهد من الصعوبات والآلام الروحية ـ فلما شاهد ذلك آية الله الخالصي أخذ يناصر إبن السيد مصطفى الكاشاني وأحلّه فوق ما يستحق حتى عجز آل الصدر عن مقاومته، ولا سبب لهذا العمل إلا أن مروءته أبت أن يستوحد رجل غريب بعد وفاة أبيه في دار غربته، ولولا هذا فإن ذلك الأمر لم تكن له بذاته الأهمّية التي أولاها له آية الله قدّس سرّه.

وحُبس الشيخ علي آل الشيخ محمد رضا في الكاظمية بتهمة أنه وولده اشتركوا في الحادثة التي أُصيب فيها آية الله الخالصي في النجف فعلم بذلك ليلاً فحدث له من الإضطراب ما لايوصف ولم يبت ليلته حتى سعى بإطلاق الشيخ المذكور مع أنه إنما حُبس نصرة له.

ولما حدثت تلك الحادثة في النجف كان «جمال باشا» والياً على العراق قبل وزارته للبحرية، فجلب الى بغداد كل مَن اتُّهِم بتلك الحادثة من أتباع السيد كاظم اليزدي وأولاده، وصمم على سجن وتبعيد كثير منهم، وكان المتجاسرون بينهم، فقابلهم آية

الله جميعاً بالمروءة والإنصاف وعلوّ النفس، وتحمل مشقات عظيمة وأتعاباً كثيرة في إطلاقهم، ولم يأخذه قرار حتى أطلقهم مع ماكانوا جنَوه من تلك الجرأة العظيمة التي أزعجت كل مَن سمعها[1] ولو أردنا سرد الوقائع التي ظهرت فيها مروءته بأجلى مظاهرها لضاق بنا المجال. ولكن نجمل ذكر القول: بأنه لم يُحاكِه في مروءته أحد المعاصرين وقلّ ما وجدت في الأقدمين، وكانت هي أحد الأسباب المؤثرة في أتعابه ومصائبه. فإنه كان إذا تفوّق على خصومه تعِب القلب في إراحتهم ودرء المصائب عنهم، وإذا تفوقوا عليه تعِب البدن فيما يوجهه إليه خصومه من البوائق والمكاره.

هذا في مورد الجدال، وفي مورد العافية كان تعباً في إعانة الضعيف وإغاثة اللهيف لايقرّ له من أجل ذلك قرار.

وأما مقدرته فلم تكن قليلة في حدّ ذاتها، فإنه نشأ في بيتٍ عريق في الشرف والرئاسة يتوارثها رجالهم أباً عن جدّ ممهّدَة لهم الأمور، ولكنّها كانت قليلة بالإضافة الى علوّ همته، فما عسى أن تجدي تلك المقدرة في قبال همةٍ سمت الى استخلاص المسلمين جميعاً من أيدي المستعمرين، وبماذا تغالب انكلترا وفرنسا واسبانيا وايطاليا وغيرها من الدول الإستعمارية الظالمة، وهل نصيب من وجّه همّته الى استخلاص فريسة الإسلام من بين مخالب المستعمرين النشّابة و عِوائهم المتتابع وكَلَبهم المتواصل إلا الجهد والتعب «فإنّ الهموم بقدر الهِمم».

وإذ تكمّلت فيه هذه الخصال كان أتعب الناس قلباً، وكان المسلمون الذين يسعى في نجاتهم عوناً عليه للكافرين، في حين كان يجب عليهم نصرته والأخذ بيده، فكأنه مصداق قول القائل:

وإخوانٌ تَخِذتهُمُ دروعاً فكانوها ولكن للأعادي
وخِلتُهُمُ سِهاماً صائباتٍ فكانوها ولكن في فؤادي

(١)وقد ذكر تفصيل ذلك العلامة المؤلف حفظه الله فيما ألحقه من ترجمة صاحب الترجمة آية الله قدّس سرّه بكتاب «الدراري اللامعات» تأليف آية الله قدّس سرّه وسيأتي بعض تلك التفاصيل في إنشاء الله. (الناسخ)

أو مصداق لقول الآخَر:

هلاّ سللتم سيوف الحرب إذ هجمت	على دياركم أجناد كفّار
كأن أنيابكم مع فرط حدّتها	ليست تعوّد إلا عضّة الجار

فلنَسرد شيئاً من الحوادث التي لاقى فيها الأمرّين من المسلمين عسى أن تكون عِظة وعبرة.

كان في صباه عالماً تقيّاً ورعاً، واشتهر في العلم والتقى في صباه حتى صار ضرب المثل يُشار إليه بالأكُف، وأقبل الناس عليه إقبالاً لم يشاهد مثله بالنسبة الى من كان في سِنّه، وكان إذا حدّث بحديث لايحتاج السامع معه الى دليل، فما عُثر على كذبة ولا مبالغة له في حديثه مدّة عمره، وما عُهد أنه ارتكب مكروهاً فضلاً عن محضور مدّة حياته، فكان محلّ وثوق العامة والخاصة ومرجعهم في سني شبابه، واشتهر مع ذلك بالفضل والعلم وقوّة الحجة والبرهان في ذلك السنّ، فأقبل الناس على تقليده وطلبوا إليه أن يكتب رسالة في الفقه وهو في ذلك السنّ، فكان يأبى ذلك لأنه كان يرى في آيتَي الله الشيرازي والخراساني غنىً وكفاية؛ إلا أنّ أحكامه ما كانت تُرد من قبل مراجع التقليد من العلماء في أيام صباه.

وبقي على ذلك مدة طويلة يجلّه العلماء، ويقدّسه الخواص والعوام، ويحترمه القريب والبعيد، ويسترشد به المسترشدون، ويقتدي به المؤمنون، ويهتدي بهداه المهتدون، يُمتثل أمره ويُزدجر نهيه. حتى إذا نزل بالمسلمين الخطب الأعظم، وحلّت بهم الداهية الدهياء؛ وهي تظاهر متغلّبة دول الإستعمار بتقطيع أوصال الممالك الإسلامية وكشف الستار عمّا كان ينويه الصليبيون تجاه المسلمين منذ قرون بعيدة.

فرآى آية الله أنّ التكليف الشرعي والعقلي يقضي عليه تنبيه المسلمين من غفلتهم، وإيقاضهم من رقدتهم. فشمّر عن ساعد الجدّ ووقف نفسه في ذلك السبيل. ولما كانت غفلة المسلمين قد بلغت الحدّ الأكمل، ورقدتهم متطاولة سنين عديدة، وسباتهم مديد منذ أمد بعيد؛ لم تكن تؤثر عليهم أعماله مهما كبرت، ونفسه مهما سمت، فكانوا يتلقون أعماله بالغضب، وينظرون إليه بعين السخط، ويحسبون خدمته

لهم حرباً أتاهم ونصحه تقريعاً، ولعلهم لجهلهم كانوا يظنون في نفوسهم أن ذلك التقيّ انسلخت تقواه، وتبدّل ورعه بالخلاعة وعدم المبالات. فكان يؤثر في نفسه الزكيّة أثراً عظيماً، ويقلقه ضلال المسلمين وغفلتهم. وكان الأجانب بمالهم من النفوذ في البلاد الإسلامية يسعون بأنواع الدسائس في تنفير المسلمين عنه، حتى صار الناس يتجافونه شيئاً فشيئاً.

ولم يكن يبالي بذلك ولا يزده إلا إقداماً وثباتاً حتى بُلي المسلمون بالحرب الإيطالية العثمانية في طرابلس؛ فدعى آية الله المسلمين الى جمع الأموال والتطوع في الجندية. فأخذ دعاة الإستعمار يسعون باثارة النفوس ضده، وأعانهم على ذلك حرص جهلة الناس على أموالهم وحبّهم لنفوسهم فزاد تجافي الناس عنه، وزادت الحرب البلقانيّة تجافيهم لذلك، ولم يكن يحسب لذلك حساباً.

وكان قد رأى قبل ذلك اختلاف العلماء في النجف على أثر إعلان المشروطيّة [١] في إيران، واقتسام إنكلترا وروسيا تلك المملكة كما جاء في المعاهدة الإنجليزية الروسية سنة ١٩٠٧ م وتقاعد الناس عن هذا الأمر العظيم واختلاف العلماء بينهم، قسمٌ مع آية الله الخراساني، وآخرون مع السيد محمد كاظم اليزدي. فأبرق لهم هذه البرقية:

«حجج الاسلام! ذهب الإسلام بأختلافكم فأعيدوه باتفاقكم».

وحدث على أثر ذلك بعد وفاة الخراساني اجتماع كلمة جميع العلماء ومجيئهم الى الكاظمية ولم يتخلّف منهم إلا السيد كاظم اليزدي.

ففوّض العلماء الأمر الى آية الله الخالصي كما سنذكره. ولما مضى الى النجف لمفاوضة اليزدي ودعوته الى الإتفاق مع العلماء، لقي هناك من شرار المسلمين، ودعاة الإستعمار ما يذيب الصخر الأصم. وهُتكت بسبب ذلك حرمة حَرم أمير المؤمنين عليه السلام ففارق النجف حقناً لدماء المسلمين، ودرءاً للفتنة التي كان يؤجج لهبها المستعمرون، وسيأتي تفصيل ذلك.

---

(١) الحركة الدستورية.

ولما جاء الى الكاظميّة أخذ عمال الإستعمار يتصرّفون في نقل تلك الحادثة ويخوّفون الناس من آراء آية الله؛ بأنه مصمّم على سوق المسلمين الى ساحات الحرب وقتلهم أمام جيوش دول «الإفرنج» وأنه عازم على وضع يده على جميع أموال الناس وصرفها في ميادين الحرب. وإن السيد كاظم إنما امتنع عن موافقته شفقة على المسلمين واحتفاظاً بنفوسهم وأموالهم.

أخذوا يبثون هذه الوساوس في طول البلاد وعرضها. ولمّا كان الناس الى العافية أميل، والجهل مستولٍ عليهم؛ أثّرت أمثال هذه الوساوس في نفوسهم وصاروا يتهجمون في غياب آية الله عليه بمُر الكلام، ويصفونه بعكس ما جُبل عليه من مكارم الأخلاق والتقى والورع، ويعدّون حسناته ذنوباً لاتُغفر، وخدمته للمسلمين جرماً لايُعفى عنه. وهو لايبالي بذلك ولا ينثني عن نصح المسلمين، ولكنه كلما زادهم نصحاً زادوا له عداءً حتى تفرّق عنه أغلب أتباعه ولم يبق معه إلا القليل. وكان يؤثر على نفسه شدّة تردّي المسلمين في الجهل والغفلة، ولم يكن يهمه إلا إفهامهم غاية المستعمرين، وإيقافهم على ما يصيبهم من البلاء والذل إذا استولى المستعمرون على بلادهم، لكن جهل المسلمين كان بمثابةٍ يستحيل معها إيقافهم على حقيقة الإستعمار، وإفهامهم نتائجه المذمومة.

وكان العراقيون يظنون السّعادة الكاملة في استيلاء الإنجليز على بلادهم لما كانوا يعتقدونه فيهم من العدل والرأفة وحُسن السيرة ولين الجانب والصدق وغير ذلك من موجبات السّعادة، وكانوا يسعون بأرجلهم الى قبول تابعيّة الإنجليز، والدخول تحت حمايتهم، لِما تمكن في نفوسهم بسبب تلقين دعاة الإستعمار؛ من أن الإنجليز أعدل الأُمم وأرأفهم؛ حتى أن فريقاً من أهل كربلاء حوالي سنة عشرين بعد الألف والثلثمائة؛ لجأوا الى قنصليّة الإنجليز في كربلاء وبقوا أياماً لاجئين إليها، وضربوا خيامهم تحت الراية البريطانية تخلّصا من قليل من الضرائب التي كانت وضعتها الحكومة عليهم تلك الأيام. وما زالوا مصرّين على قبول تابعيّة الإنجليز، وكلّما لاطفَتهم الحكومة وطلبت تفرّقهم لم يتفرقوا حتى اضطرّت الى قتالهم وتفريقهم بقوّة الدَّرَك والشرطة

بعد أن قُتل منهم عدد كثير.

فمع تمكّن هذه العقائد من نفوس العراقيين كان يستحيل إفهامهم عكسها وإيقافهم على حقيقة أمر الإنجليز ومبلغ اعتسافهم وظلمهم وعدائهم للبشريّة عامة وللمسلمين خاصّة.

وكلما كان يُظهره آية الله من مكر الإنجليز وظلمهم ووجوب دفعهم كانوا يعدّونه خلاف الدين، بل كفراً وإلحاداً.

وهذا الأمر هو الذي كان يذيب كبد آية الله حتى امتلأ قيحاً وجاشت نفسه وسئم العراقيين وملّهم، ولكنه مع ذلك لم يكفّ عن هدايتهم وإرشادهم وتحذيرهم من الإنجليز وسلطانهم. والمسلمون يزدادون له عداءً وجفاءً. حتى حدثت الحرب العامّة والعراق على هذه الحالة يترقب الإنجليز ويحسب السعادة في حكمهم للبلاد.

فنهض آية الله معاكساً لعقائد العراقيين، داعياً الى حرب الإنجليز. ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبات. فقابل المسلمون دعوته بالردّ والجفاء، ولم يبالِ بمقاومة الرأي العام الجاهل الأبله الذي تصرّفت فيه دعوة المستعمرين وملكته.

فتمكّن من عقد اجتماع من علماء الكاظميّة في الصحن الشريف للمذاكرة في مقدّمات الجهاد الإبتدائية. وكان ذلك الإجتماع في غرفة رئيس السدنة «كليددار» ولما حضر المدعوّون ورأى بعض اصحاب آية الله شدة تهيّجه، وفرط تأثره من جهل الناس وتأثير دعوة المستعمرين فيهم، طُلب إليه أن لايحضر الاجتماع خيفة عليه من أن يُقلق باله كلام المجتمعين وامتناعهم من الإشتراك في الحرب، فأجاب الطلب وانصرف الى غرفة أُخرى.

وتداول المجتمعون المذاكرة في أمر الجهاد؛ فامتنع أكثرهم من الإشتراك في الحرب، وصرّح بعضهم بأولوية الإنجليز في الحكم من الأتراك.

وكنتُ أُناظرهم أشدّ المناظرة حتى طال الكلام بيني وبين أحد العلماء؛ الشيخ عبد الحسين أسد الله وكان (تجاوز الله عنه) يُنكر وجوب الدفاع، بل يفضل الإنجليز على الأتراك!.

فعلِم آية الله الخالصي بسير المفاوضات في ذلك المجلس فجاء ودخل الغرفة فنهضنا في وجهه، فقال مخاطباً للعلماء: إنكم تزعمون أنكم مسلمون وتعملون شرّاً من أعمال الكفار! إن لم يكن لكم دين وكنتم لاتخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم وأرجعوا الى أحسابكم إن كنتم عرباً. أيدافع جميع الملل عن ممالكهم وأحسابهم وترضون بسلطان أُمّة جائرة ساقت جيوشها لتسومكم الذلّ وتذيقكم أليم العذاب؟ ثم جرَت دموعه على خدّيه وخنقته العبرة حتى منعته من الكلام.

ولم أر مورداً نفد فيه صبره، وتزعزع حلمه إلا هذا المورد، فأشفقنا عليه أن يهلك من شدّة التأثر والغضب في الله، فتضرّعنا إليه أن يعود الى مكانه.

وأثّرت حاله في نفوس الأتقياء من العلماء في ذلك المجلس، ولبّى الدعوة رئيسهم المرحوم السيد مهدي حيدر قدّس سرّه. وذهب المنافقون على وجوههم، وأشدهم خلافاً والحاحاً السيد حسن المعروف بالصدر إبن السيد هادي.

وعقد مجلس لجمع الإعانات الحربيّة، وكتابة أسماء المتطوعين في الجهاد. فأخذ دعاة الإستعمار بمقاومة ذلك المجلس مستمدّين من جهل العراقيين. وما فشَت دسائس المستعمرين حتى أخذت ألسِنَة العراقيين تسلق آية الله الخالصي، وربما تجاوز بعضهم بالسبّ والشتم وقالوا: إن السيد مهدي برّ تقيّ لكنّ الخالصي أغواه فهما يسعيان في إراقة دمائنا ونهب أموالنا!.

وكان بعض من تشبّه بالعلماء من أهل الكاظمية يلقي أمثال هذه الوساوس في أذهان البسطاء لتغريرهم، وأشدهم في ذلك السيد حسن صدر الدين.

وقد جَرت بيني وبينه مناظرة شديدة في الصحن الشريف نقلتها جريدة «الزهور» فاحتفَظ بتلك الجريدة الى احتلال بغداد وعرضَها إبنه السيد محمد على «السير برسي كوكس» في اليوم الثاني من وروده الى بغداد، فتقرّب بها إليه أو تزلّف، وأعلمه؛ أنه وأباه من دعاة الإنجليز قبل ورودهم!.

ولم يزل آية الله مثابراً على عمله حتى خرج الى الجهاد بعدّة عظيمة. والمسلمون يَشنأونه على عمله ويرونه مانع سعادتهم الموجّهة إليهم باستيلاء الإنجليز عليهم،

وهو لايعبأ بما قيل فيه أو يقال، واقتدى به علماء النجف.

ولما اجتمعوا في «العمارة» لاقى منهم أذىً كثيراً لأنهم لم يكونوا يستطيعون القيام لضعف هممهم بما كان يقوم به من الأعمال الجِسام، فاضطر الى مفارقتهم حتى المرحوم السيد مهدي قدّس سرّه الذي كان قد تحرّك معه من الكاظمية؛ لأن العلماء أثّروا عليه.

ومضى هو وحده الى «الحويزة» وتبعه بعض العلماء، وكان يلاقي منهم ومن قائد الجند أشد العناء لأنهم كانوا مستأجرين في جهادهم، وكان ثاكلاً (وليست المُستأجَرة كالثَكلى).

ولما حدَثت حادثة «الشعيبة» ـ كما سنذكر ـ فرّ كثير منهم الى بلادهم وثبت هو والمرحوم السيد مهدي الى أن استولى الإنجليز على «الكوت» فعاد الى الكاظمية كما سنذكره.

ولما ورد الكاظمية لم يستقبله أهلها، وأخذ أعداء الدين يطعنون فيه أشد الطعن، ويتقوّلون عليه أفحش الأقاويل حتى اُلصقت على باب داره ورقة كتب فيها هذا البيت:

لقَد ذهبَ الحمار يُريد قرناً فلما عادَ، عادَ بغير اُذن

«ذهَبتَ لتسترجِع البصرة فسلّمتَ العمارة والكوت».

وكنتُ أعرف كاتبها، وأستطيعُ نفيه أو قتلَه، لكنه منعني أشدّ المنع وقال: إنّ هؤلاء القوم لايعرفون غرضنا وعِظَم خدمتنا لهم إلا بعد إستيلاء الإنجليز على بلادهم لاقدّر الله ذلك.

ومضى بعد رجوعه من الجهاد ليصلّي الصلاة على عادته فوقف وحده ولم يقتدِ به إلا رجل واحد، بعد أن كان قدوة عامّة الناس تصطف خلفه الصفوف، وجفاه الناس أشد الجفاء وتطاولَت عليه الألسن، وهو لا يرى لذلك أثراً بعد أن كان على ثقة من دينه ولم يمنعه ما رآه من جفاء المسلمين عن النصح لهم وخدمتهم. ولم يزل مثابراً على الدفاع عن البلاد، والذبّ عن شرف الإسلام لايلوي على شئ، حتى قال له بعض محبيه: قد رأيتَ عجزك عن الدفاع، وحرب المسلمين لك فما هذا الإقدام؟.

فقال: إذا كان الدفاع مدّة طويلة لايمكن، فإنّ تأخير استيلاء الإنجليز على البلاد ممكن وهو واجب ولو يوماً واحداً، بل ساعة واحدة. وإن للدفاع مراتب كلها واجبة، أقلّها دفع العدو ولو ساعة، واكثرها الإحتفاظ بالوطن الإسلامي دائماً.

وكان هذا عمله الى أن سقطت بغداد بيد الإنجليز، فأخذ الناس يُظهرون الفرح والإبتهاج والسرور ويخاطبون طيّاراتهم بعبارات الترحيب؛ كالشاةِ المتملّقة الى القصّاب ساعة الذبح. وصاروا يُظهرون الشماتة بآية الله، كأن الإنجليز تسلّطوا عليه وحده. ولامه القريب والبعيد حتى أقرب الناس إليه! فاضطر الى الجلوس في داره وعدم الخروج الى الناس.

وحدثَت يوم سقوط الكاظمية قرحة في رقبته فجأة فتحت لها فوهة كبيرة وسالت بالقيح ايّاماً لم ينفعها مرهم ولاضماد. وازداد جفاء الناس له.

إلا أن ذلك الجفاء لم تطل مدّته؛ فإن المشانق الإنجليزية التي نُصبت في جميع بلاد العراق، والدسائس في نهب أموال الناس، والأخذ على التهمة، والسجون التي غصّت بالعراقيين في العراق والهند، وكثرة القتلى في ميادين القتال، وإهانة البقاع المقدّسة، وحصار النجف أربعين يوماً، وقَطْع الماء عن أهلها حتى شربوا ماء الآبار المالحة، والطعام حتى أكلوا لحوم الهرّ والكلب، وتصويب المَدافع على القبّة الحيدريّة المقدّسة، وصلب أربعة عشر شاباً في ساعة واحدة في الكوفة، وكانوا من أعظم مُوالي الإنجليز قبل ورودهم! وإهانة الناس وضربهم في الأسواق في جميع البلاد، واحتقار رؤساء القبائل والإستهزاء والسخريّة بهم، والهجوم على الدُور ونهب ما فيها من الأموال بحجة التفتيش عن السلاح، ومدّ الأيدي الى أعراض المسلمين وهتكها، واحتكار السلطة العسكرية جميع طعام العراق الوافر حتى عمّ القحط العراق، ومات الألوف من العراقيين جوعاً، وهلك الضعفاء، وهتُكت بسبب ذلك الأعراض، واضطر عشرات الأُلوف الى الإنخراط في سلك الجنديّة الإنجليزية، لأن تحصيل القوت لهم ولعيالهم كان منحصراً بذلك فساقوهم الى ميادين الحرب، حتى هلك أكثرهم في حرب الأتراك إخوانهم المسلمين، وانتشار دعاة النصرانيّة من المبشّرين في جميع

أنحاء العراق، ونشر الكتب في الطعن على الدين الإسلامي، وإشاعة المنكرات، وترويج الخمور والفسوق والفجور.

كلّ هذه المظالم وأضعافها ممّا أجراه الإنجليز من الفجائع والشنائع التي يعجز عن سطر أقلّها القلم ويضيق عن بسط أخصرها البيان. نبّهَت العراقيين وأيقظَتهم من رقدتهم، حتى كأنها غيّرت غرائزهم وبدّلت دماءهم. فندموا على أعمالهم بعد احتلال الإنجليز بقليل، وأخذوا يلومون أنفسهم. وعلموا أنّ ما كانوا علموه من البرّ والتقوى في آية الله أيام صباه هو الذي دعاه الى مقاومة الإنجليز قبل ورودهم، مروءة وشفقة على المسلمين، إلا أنهم جهلوا ما علِم، وإن موتهم وهلاكهم في ميادين القتال كان خيراً لهم من حياتهم أذلاء صاغرين للإنجليز، وإنّ اللسان كان يلهَج بما يخالف ذلك، كأنّ لسان إنجليزيّ في فم مسلم، واليد كانت تعبث في غرائز المسلمين لتضليلهم يد كافر احتجبَت بحجاب الإسلام.

ندم العراقيّون يوم لا ينفع الندم، وصاروا يتطلّبون الموت ولا يجدونه لما شاهدوه من الذل والهوان. حتى أن الجماعات منهم والأفراد كانوا يجيئون الى آية الله فيطلبون العفو عن جرائمهم، وكثير منهم كان يخبر أنه كان مواظباً على سبّه كل صباح لأنه مانع عن ذهاب الأتراك وتسلُط الإنجليز، فيطلب استغفار آية الله له ليعفو الله عن جرائمه، فيقول آية الله: «غفر الله لك».

وأقبل العراقيّون إقبالاً لم يشاهَد مثله منهم بالنسبة الى أحد قبله، ووضعوا أموالهم وأنفسهم بين يديه وطلبوا منه قبولها.

ولولا فرط علوّ همّته لكان يُعجزه مالاقاه من المصائب عن القيام بعد ذلك بمعونة المسلمين.

ولكنه لما شاهد ندم العراقيين وانتباههم تناسا جميع مصائبه ونشط لخدمة الإسلام والذبّ عن كيانه. فاتّحد مع آية الله الشيرازي وتوفي اليزدي وكان هو المانع الأعظم عن خدمة الإسلام. فقاما بأعمال يأتي ملخصها ووُفقا الى الثورة العراقيّة. وبقي آية الله الخالصي بعد ذلك يذبّ عن مجد الإسلام كما سيأتي ذكره.

إنّ العراقيين أراحوه بتنبُههم وندمهم من الآلام الروحيّة بسبب غفلتهم ولكـنّهم لم يريحوه من تلك الآلام حتى أسلموه الى أتعاب جسميّة شاقّة بمقاومة الإنجليز.

ولم يسلم تماماً من الأتعاب الروحية فـان العـراق لم يـخلُ مـن عـمّال الإنـجليز، والجهّال الذين تؤثر عليهم الدعوة الى الإستعمار، ورؤسـاء القـبائل الذيـن اشـتراهـم الإنجليز بعد ورودهم الى العراق. فكان هؤلاء يضربون على تلك النـغمة التـي كـانت قبل الإحتلال الإنجليزي إلا أنها لم تكن تؤثر بـعد وضـوح الحـق وجـلائه بـمشاهدة الباطل من فجائع الإنجليز «والضدُّ يُظهر حسنه الضدّ» لكـن ألمـاً روحـيّاً أصـابه بـعد احتلال العراق أثّر على نفسه أثراً عظيماً؛ وهـو خـداع فـيصل ونُكـوله بـيمينه، وعـدم رعايته حرمة القرآن وبيعته لآية الله، وخيانته الصّريحة للإسلام وأهله.

ومع هذا فإن تلك الآلام الروحيّة لاتُعدّ شيئاً بالنسبة الى الآلام الروحيّة التي كـانت أصابته قبل الإحتلال الإنجليزي وكان مبتهجاً بتنبُّه المسلمين وإن لم يكن كافياً، فيصح أن نقول: إن ما أصابه من الآلام بعد الإحتلال كانت جسميّة لاغير.

لم يزل يعانيها حتى أدّت الى دسّ السمّ إليه في العـراق، ونـفي ولده الأكـبر عـنه، وحبس بقيّة أولاده وتبعيدهم معه الى إيران كما سيجيء.

عناؤه في إيران

جاء الى إيران، وهنا لاقى العطب الذي يذيب الكبد، لأن دورة الغفلة والجهالة التي طواها في العراق بعد أن خارت لها قواه، لقيها في أول أزمنتها في إيران. فإنّ حال إيران اليوم شبيه من جميع الجهات بحال العراق قبل الإحتلال الإنجليزي. يرى عامّة أهـلها السّعادة مقرونة بذهاب استقلال إيران والشّقاء في الإستقلال! ويزيدون على العراق ما جُبلوا عليه من التزلزل في الرأي وفرط المراوغة فـي القـول والعـمل، وعـدم اسـتقرار عقيدةً في نفوسهم، والقسوة المُفرطة في أعـمالهم، وحبّ الإنـقياد والعـبوديّة للـقويّ المتغلب مهما كان، وعدم الشهامة، والتعصّب لكـل شـيء، والفـقر المـدقع، والجـهل

المُردي.

ولو كانت الأمّة الإيرانية وحدها لأمكن إصلاحها؛ لأنها مُفرطة في الذكـاء، سـريعة الإنتقال، قويّة المحاكمة والتمييز. ولكن الإنجليز قبضوا بيد حديديّة على خناقها فهي لاتستطيع أدنى حركة خلاف إرادتهم. وأوجدوا فيها جـيشاً قـويّاً بـالنسبة الى جـيشها السابق، أقاموه سدّاً بين «البلشفك» وبين الهند والعراق، وذلك الجيش وإن كان إيرانـيّاً إسماً، إلا أنه إنجليزياً معنىً؛ لأن «رضا خان» قائده جاء به الإنجليز، وأوجـدوا له ذلك الجيش، ودرّبوه له، وهو لايتخلّف عن أوامرهم وإرادتهم، والجيش الإيـرانـي يُـجري للإنجليز من الإعمال مالا يمكن أن يتمّ على أيديهم، ويعمل من الفضائع في مـصالح الإنجليز ؛ مايستنكف عن عمله الإنجليز أنفسهم! لأن قائده رضا خان الذي لم يملك سجيّة أخلاقيّة، أو شرفاً بيتياً، أو علماً دينيّاً، أو مدنيّاً يمنعه عن ارتكاب الفجائع مـهما شَنُعَت وفضُعت، ولا يعرف من دنـياه وآخـرته إلا الإنـجليز الذيـن اوصـلوه الى هـذا المقام.

وفي إيران إشكال آخر يصعب حلّه لم يُبتل به آية الله في العراق ؛ وهو أنّ امر العراق كان واضحاً لاسترة عليه، وكل مسلم كان يعلم إن العامل في العـراق يـعمل لصـالحه ودفع أعدائه عنه، والأمر فـي إيـران ليس كـذلك، فـإن الإنـجليز بـعد الثـورة الروسـيّة انصرفوا موقتاً عن التسلّط على البلاد الإيرانـيّة بـأنفسهم، واتـخذوا خـطة التسـتر فـي ذلك؛ وهي أن يقبضوا على البـلاد بـواسـطة أحـد الإيـرانـيين، لئـلاّ يسـتطيع إيـرانـيّ معارضتهم، فقرروا إجراء ذلك على يد من لاسابقة له ولاعلاقة بالبلاد من الإيرانـيين، لئلا يتصدى لمعارضة الإنجليز إذا أرادوا إجراء عمل ولو كان فيه محو إيـران، فـجاءوا برضا خان وأوصلوه من الجنديّة الى وزارة الحرب، وأسندوا رئاسة الوزراء الى «سيد ضياء [الدين] اليـزدي» ولمـا رأوا فـيه شـيئاً مـن النـخوة والإسـتقلال بـالرأي والإرادة والعلاقة بإيران طردوه بواسطة رضا خان، وبقي فيها بلا معارض، وهو تابعٌ محض، لا إرادة له ولا رأي إلا ما يراه له الإنجليز. فأجروا على يده أعمالاً من تنظيم الجند والقضاء على رؤساء الطوائف، وخلع سلاحها، وتثبيت مركزيّة البلاد، وغير ذلك مـما ظـاهره

يعود بالنفع لإيران وباطنه للإنجليز، ولكنّه كافٍ في تغرير البسطاء وخدعهم. وصاروا يشيعون بين الناس أن رضا خان هو الرجل الفرد، والقائد الباسل، موجد الجند ومنقذ البلاد ومنجيها وغير ذلك من الألقاب الفخمة التي اعتادها الإيرانـيّون طـبعاً؛ وإن قـررّ المجلس النيابي إلغاءها وضعاً.

ولفرط الجهالة في الإيرانيين والجبن، لايطالِب ذلك الرجل منهم أحد بما يـصلح البلاد؛ من الأمور الإقتصاديّة ووسائل العمران التي لايسمح الإنـجليز بـإجرائـها فـيها؛ لئلا ترتقي إيران الى مـصافّ الدول الراقـية، فـيصعب عـلى الإنـجليز امـتلاكـها مـتى استراحوا من غائلة «البلشفك» كما يقدرون.

هذا ما قدّره الإنجليز ولعل الله يخيّبهم. وأظن رضا خان إذا بلغ غايته يهون عـليه مقاومتهم.

عُرف رضا خان ـ وهو مُهلك إيران، وأقوى وسائل تسلط الإنجليز على إيران بنظر الإنجليز ـ بأنّه منقذها ومصلحها. فلذلك صعُب مقاومة الإنجليز وأعمالهم فيها، وكـل من يعمل ضدّ الإستعمار في إيران يوعِز الإنجليز الى رضا خان بمنعه، فإن لم يـمتنع وحصل اختلاف بين رضا خان والعـامل لصـالح البـلاد أذاعـوا بـين النـاس ؛ إنّ ذلك المصلح، مُفسدٌ يعارض منقذ إيران، ويُحدث العقبات في سير أعماله، وربما اتـهموه بالإرتباط بالأجانب ويقضون عليه أمرّ القضاء، فيتحمّل العامل ضدّ الإستعمار الأوربي في إيران أتعاباً جسميّة، ويكسب سوء شهرة بين العامّة فيضيّع نفسه وسمعته، ويقع في محاذير ومشاكل عظيمة.

وهذه المشاكل لم تكن في العراق قبل الإحتلال، فإن أمره كان بـيّناً بـين الإنـجليز والعراقيين أو العثمانيين، أي بين المسـلمين والكـافرين لم تسـتتر دسـائس الإنـجليز بستار إسلامي، أو عراقيّ يحجب الحقيقة عن بصائر العامّة كما هو الآن في إيران.

وردَ آية الله هذه البلاد وهي على الصفة التي أسلفنا ذكرها. وكان وروده بدعوة من وزارة «مُشير الدولة» قبل وزارة رضا خان. وكان رضا خان وزير الحرب فيها، وحيث أنّ مشير الدولة رجل إيرانيّ لم يـعتمد عـلى خـارجـيّ، روسـيّ او إنـجليزيّ، خشـي

الإنجليز أن يتفق مع آية الله الخالصي فتتحد القوّتان الدينية والدولية وتصل إيران الى أوج السعادة بأعمالها.

فأسرع الإنجليز بإسقاط مشير الدولة، وأجبروا الشاه «أحمد» على إسناد منصب رئاسة الوزراء الى رضا خان، ولم تكن للشاه نفس قويّة أو شهامة ذاتيّة تصدّه عن هذا الأمر مع أنّه كان يعلم أن إسناد رئاسة الوزراء لرضا خان إتلاف لنفسه وأهل بيته ونقل للسلطنة عن آل قاجار. فأسند رئاسة الوزراء الى رضا خان في قبال تهيئة سفره الى باريس ففرّ من إيران ونجا بنفسه بعد أن أسند رئاسة الوزراء الى رضا خان وأوقعنا في عناء عظيم.

ولو لم أكُن في طهران لانتقلَت السلطنة من آل قاجار، ولكن عارضتُ ذلك لالحبٍّ لآل قاجار، بل لمنع رضا خان عن تطبيق خطط إستعمار إيران والقضاء عليها أمام البلشفيك من غير فائدة لها في ذلك. وسيأتي تفصيل ذلك.

أُسندت رئاسة الوزراء الى رضا خان في اليوم الذي ورد فيه آية الله الخالصي الى قم، وفي اليوم الذي أُسند فيه ذلك المنصب تصدّى لإرجاع العلماء الى العراق. فكلّمني في ذلك ـ في اليوم الثاني من تشكيله الوزارة ـ فمنعتُه وقلتُ له: إنّ مشير الدولة لم يستطع إرجاعهم، فإذا تمكّنتَ أنت من ذلك يُعلم أنّ لك رابطة غير مشروعة مع الإنجليز، فلما يئس من إقناعي أوصل الى العلماء لزوم رجوعهم الى العراق، فجبنوا عن معارضته؛ على ما أظهروه هم.

وردَ آية الله الى قم فرأى العلماء قد أوفدوا الى العراق من يُكلّم فيصلاً في رجوعهم، فقلق من ذلك، ولامهم على ضعف نفوسهم ورضوخهم للذل. وكلّما ألحّ في قطع المذاكرات مع فيصل ألحّوا بالإمتناع. فكان يتفتت كبده من قبولهم الذلّة، وإصرارهم على لبس ثوب الخزي والهوان، وعرض عليهم البقاء في إيران والتصدّي لإصلاح العالم الإسلامي وهم في إيران، فاعتذروا بأن الوزارة الإيرانيّة لاتسمح لهم بالبقاء في إيران، و«الشيخ عبد الكريم» يعارض في بقائهم.

فقال: إنكم إذا صمّمتم على البقاء فأنا أتصدى لإقناع الوزارة، فإن لم تقنع نُقيم في

إيران على غير رضاً منها، ولا تستطيع أن تعمل شيئاً قبالنا. فلم يَقنع العلماء بذلك وصدّهم الجُبن من جهة، والحرص من جهة أُخرى على دكاكينهم في العراق ـ كما يقول سفير الإنجليز ـ عن قبول رأي آية الله.

ولقد كان في قم على أحرّ من الجمر، لِما يشاهده من حال أولئك النفر حتى نفد صبره وقال مع شدة حلمه: لَيتَكم لا جئتم من العراق، وبقيتم في أماكنكم، فإنكم أضررتم العالم الإسلامي وحططتم قدره بمجيئكم وعزمكم على الرجوع بهذه الكيفيّة المخزية.

ولما يئس من العلماء ورأى المقام في قم غير محمود فارق العلماء، ثم خذلوه وانصرفوا الى العراق، وتركوه مفرداً في بلاد إيران، وهذا أعظم ما لاقاه في حياته من العناء أثّر على نفسه حتى أضعفه.

والعجب أن أولئك النفر طلبوا منه صكّاً بالإذن بالرجوع فامتنع وقال: إنّ رجوعكم حرام شرعاً فكيف آذن لكم فيه؟.

ولما وردَ آية الله «شاه عبد العظيم» وتشرّف رئيس الوزراء بالمثول بين يديه؛ لامَه على الإيعاز الى العلماء بالرجوع الى العراق وعدم سماح وزارته ببقائهم في إيران. فاعتذر بأنه لم يوعز إليهم بذلك وإنما هم طلبوا الرجوع فلم يمنعهم.

فقال آية الله: إنهم يقولون: إنك أشرت اليهم بالرجوع؛ فكذّب ذلك. فقال آية الله: إذا كان الأمر كما تقول فاكتب لهم بأنك موافق على بقائهم في إيران، فوعد بذلك.

وحقيقة الأمر أن العلماء كانوا يريدون الرجوع ورضا خان كان مأموراً بإعادتهم من جانب الإنجليز.

ولما أصرّ آية الله على البقاء في إيران تصدّى رضا خان بأنواع الوسائل الى إيذائه، ووافقه على ذلك عمّال الإنجليز وأعداء الدين.

فلما تهيأ الناس لاستقباله في طهران عقد فيها مأمورو الإنجليز من المتشبّهين بالعلماء في دار «الشيخ نُصرت» المعروف بشيخ العراقين مجالس للمذاكرة في كيفيّة منع الناس عن استقباله، وتصدّى «سليمان ميرزا» ـ وكان في الوزارة ـ الى منع الناس من

الإستقبال من جهة، ومن جهة أُخرى خدَعَ السيد أبا القاسم الكاشاني وكنتُ قد أحلتُ له أمر الإستقبال، حتى تصرّف في فكره وغرّه.

وتصدى البوليس الى منع القطار بين شاه عبد العظيم وطهران، وعدم قبول بطاقات السفر فيه. وأجرى الحمقاء وعمّال الإنجليز كثيراً من الأعمال من هذا القبيل، إلا أنها لم تؤثّر أثراً فإن حسّ أهل طهران وعلاقتهم بآية الله والشعائر الدينيّة كانت فوق أن تؤثر عليها دسائس المحتالين وأعمال المنافقين. فخرجوا الى فراسخ من طهران جماعات وأفراداً رجالاً وركباناً على ما سيأتي مجمله.

وكان آية الله يشكو من أخلاق أهل قم وغفلتهم، وفرط جهالتهم، وعدم اهتمامهم بالمسائل الدينيّة ومعرفتهم بها.

فلما ورد المشهد المقدّس ورأى ما جُبل عليه الخراسانيون مما سيأتي ذكره، صار يترحّم على أهالي قم.

ولقد كنا لانعرف سرّ تبعيد الإنجليز لنا الى إيران، ونظنّ أنهم أخطأوا في ذلك، حيث كنّا مقيّدين في العراق فأرسلونا الى مملكة حرّة لا سلطة لهم عليها فنستطيع ان نعمل لصالح الإسلام بلا معارض. ولما رأينا إيران ولاسيما المشهد علمنا أن الإنجليز لم يخطئوا، وإنما حبسونا في أضيق الحبوس دون أن يتحملوا مؤونة حبسنا، أو يكونوا معرض سخط المسلمين بسبب ذلك، وإن معاناة السجن أهون من معاناة فساد الأخلاق وفرط الجهل وهدم أساس الدين باسم تقويمه وغير ذلك مما سيأتي ذكره.

ورَدَ هذه البلدة فاجتمع علماؤها سرّاً بايعاز من الإنجليز، وفي مقدمتهم «ميرزا محمد» نجل آية الله الخراساني، على مقاومته وعدم تنفيذ أحكامه وإثارة الناس في وجهه، وما زالوا يسعون بذلك متسترين يخشون التظاهر فيه، حتى لجأ الى الجلوس في دارٍ محقّرة وانقطع عن العمل الى التدريس والتأليف.

ومن غريب ما وقع في المشهد أن الإنجليز استطاعوا أن يُخفوا على الناس وجود آية الله فيها، وذلك إن إيران هاجت لتبعيده أولاً، وعمّ الإعتصاب جميع بلادها ومنها المشهد، فلما ورد آية الله استقبله أهلها وكأنهم لم يفهموا أنه رئيس المجتهدين الذي

أقاموا المآتم والمظاهرات من أجل تبعيده.

ولما طال مكثه شهوراً في المشهد كأنهم نسوه فبقي مفرداً بينهم. وهذا منتهى درجات الغباوة والجهل، وغاية في نفوذ الإنجليز وتصرّفهم بسبب عمّالهم في الأفكار.

ولم يزل أعداء الإسلام يوهمون العامّة؛ أن هذا غير ذاك وهو لايتصدى لإفهامهم، ويلقون الشُبَه وهو لايعبأ بها ولايدرأها على عادته في احتقار أمثال هذه الأمور، ويُغرون الناس للهجوم على داره بأسماء مختلفة، وحجج متشتتة وهو لايهتم بتهاجمهم. حتى وردتُ المشهد؛ فرأيتُ من عرف حقيقته وواظب على صحبته منحصراً في شخص واحد؛ وهو رئيس علماء إيران الذي لاقى كثيراً من المصائب من الإيرانيين في حياته؛ أعني «حجة الإسلام الشيخ مرتضى الأشتياني» حفظه الله، ولا ثاني له.

ورأيتُ كثيراً من العلماء يترددون الى درسه ولكن كثيراً منهم كانوا يقصدون مجلسه لأغراض فاسدة. فبقيتُ في خدمته أياماً؛ وإذا بالناس قد انعكس حالهم وكأنهم كانوا نياماً فانتبهوا، واقبلوا الى آية الله معتذرين نادمين وصار ألدّ أعدائه أصفى أوليائه، وأطبقت كلمة خراسان على اتّباعه، وانكشف أن عمّال الإنجليز كانوا أخفوه عن الخراسانيين وهو نصب أعينهم، ولقد أعجبني هذا الحال من الخراسانيين فلستُ أنساه، وما أشبهه بالشعبذة.

والذي حمل علماء المشهد على ذلك العمل الفضيع، مضافاً الى إيعاز الإنجليز الى بعضهم؛ هو أن علماء إيران اعتادوا عادات تنافي قواعد الإسلام؛ من الاستيثار بالثروة والبطالة، وبقائهم كلاً على الناس في معيشتهم، وامتلاكهم الأملاك من غير كدّ وكسب، وتظاهرهم بالضعف والجُبن والكسل والخمول، وقولهم الذلّ والهوان لمن هو أقوى منهم واسترضائه ولو بتغيير الأحكام الشرعيّة، والحكم بغير ما أنزل الله، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحصر الأحكام الشرعيّة بقليل من أحكام العبادات وغير ذلك ممّا اعتاده علماء إيران.

فلما ورد آية الله الى المشهد، دعاهم من فوره الى الجدّ في خدمة الإسلام، والعمل لنفع المسلمين ومقاومة أعداء الدين، ونشر جميع الأحكام الشرعيّة، والعمل بها، والتخلي عن أملاكهم وثروتهم، وترك التجبّر والتكبّر على الناس، وغير ذلك من أحكام الإسلام.

فرأوا أنفسهم إن أطاعوا آية الله يضطرون الى التخلّي عن أملاكهم وثروتهم، ومساواة الفقراء والضعفاء، والعمل وترك البطالة. وهذا مايفدي له كثير من علماء إيران دينهم وآخرتهم، ولذلك صمموا على حرب آية الله وعدائه.

ولم يجد له أعواناً إلا فريقاً من منوَّري الفكر من الإيرانيين. وبعد أن اختبرهم رأى أن علاقتهم في الدين والوطن لاتزيد على علاقة القسم الأول بل هي أضعف وأقلّ، لأن القسم الأول لايتظاهرون بما ينافي ما يسمونه الدين. أما المتجددون فإن أكثرهم لايعبأون بشيء ولايبالون.

وأعظم ما كان يزعجه هو هذا الأمر؛ ينظر الى المنتسبين الى الدين فيراهم قد عمدوا الى تخريبه علماً وجهلاً، وغفلة وقصداً؛ فهم أعداء الرقيّ والعمران والإصلاح فييأس منهم، ثم يُرجع بصره الى منوّرى الفكر المتجددين فيراهم لايعرفون وسائل الرقيّ والعمران، مقلّدة الإفرنج في الترَف المشين، منغمسون بالجهل، لايعرفون من المدنيّة إلا فساد الأخلاق وضياع الحقوق والأعراض والدماء بعدائهم للدين تلك العداوة التي شوّهت وجه المدنيّة ومسختها حتى جعلتها عِبأً ثقيلاً يئن تحته البشر وبه شقاؤهم.

هذا الأمر أقلقه حتى ترك جميع الناس واختار العزلة أياماً طويلة في المشهد. وفوق ذلك كان الأذى يوجهه إليه أعداء الإسلام من كل جانب. فقد أوعز رضا خان ـ إرضاءً للإنجليز ـ الى الدوائر العسكريّة أن تخالف أوامره سرّاً وتحول بينه وبين مقاصده، وهي وإن لم يمكنها التظاهر بمخالفته إلا أنها كانت تعمل في الخفاء أعمالاً تُرضي بها الإنجليز عن رضا خان وتُسخط الله تعالى.

وكانت تقيم الجواسيس في داره، وحول من يتردد إليه، وترهب بسطاء العقول من

الناس، ولقد رأيتُ يوم كنتُ في طهران؛ في دائرة الشرطة وفي وزارة الحرب أخباراً بعَث بها الجواسيس الى تينك الدائرتين عن حضرته. وحين تشرّفتُ بخدمته سألتُه عنها فكذَّبها جميعاً، وعلم أنها من مختلقات الجواسيس، ولعلها بإيعاز من الإنجليز ليزيد الإختلاف بين الحكومة الإيرانيّة وبين آية الله، فإن جواسيس الشرطة ووزارة الحرب هم بعينهم جواسيس للإنجليز في إيران، كسائر الدوائر فإنها إنجليزيّة معنى، إيرانيّة إسماً. ولايصعب على إيرانيٍّ أن يخدم دولتين في وقت واحد.

ولم يقنع رضا خان بما أوصله الى آية الله من الأذى حتى تصدّى الى قتله بعملٍ لايَظهر فيه قتله له. فعمد الى تبعيدي من طهران ـ بالكيفيّة التي تأتي ـ وحجب أخباري عنه. فقلق لذلك أشدّ القلق، وضعفت قواه، حتى إنه كان يعجز عن المشي. ولقد أخبرني أخي أنه كان واقفاً ولما سمع خبر نفيي سقط الى الأرض وعجز عن القيام وأخذ أخي بعضده. ولم يكن ذلك لفرط محبّته لي بل لشماتة الإنجليز حيث إنه لم يكن يقدّر أن رضا خان أطوع للإنجليز من الإنجليز أنفسهم، فلقد كان يتلقّى أعماله كأعمال إيرانيّ لا إنجليزي، فيظن أن الإنجليز يشمتون به لسوء معاملة الحكومة الإيرانية وإقدامهم على ما لم يقدم عليه الإنجليز من الفجائع، وكان يقدّر في نفسه إن الحكومة الإيرانيّة التي دعته الى إيران ستتدارك ما أصابه من العناء في العراق. فجاءت مظالمها على خلاف ما كان يقدّر ولذلك أثّرت عليه تأثيراً عظيماً خارت له قواه. ولو أنه كان يُقدّر كما أُقدّر أنا لهانَ عليه الخطب. فإني لا أرى وزارة رضا خان إلا دائرة من دوائر سفارة الإنجليز في طهران وظيفتها إجراء ما لايستطيع إجراءه مأمورو الإنجليز من الفجائع وما يتسترون في إجرائها خوف الفضيحة في العالم، وأُنزّه الملّة الإيرانيّة عن تلك المخازي التي اتصفت بها تلك الوزارة الدنيئة.

ولم تكتف تلك الوزارة بتبعيدي وتوجيه الأذى إليه بسبب ذلك حتى جاءت بجناية عظيمة أُخرى؛ وذلك أنه قدّس سرّه تلقّى خبر تبعيدي بالحلم والصّبر وعلوّ النفس على عادته في تلقّي الحوادث الكبرى، وأبت له رفعة مقامه وعلوّ نفسه أن يعترض على الوزارة في ذلك، أو يطلب عودي من المنفى، لكنه تصدّى لإرسال ما

أحتاج إليه من المال هناك. فمنعَت الدوائر العسكرية وصوله، وهـناك أبـرق الى رضـا خان يعترض عليه في ذلك. ثم أبرق الى المجلس النيّابي معترضاً على هذا العمل بأنه لايوافق أُصـول الإسـلام ولا أُصـول الكـفّار، حـيث أن الواجب عـلى الدولة أن تـقوم بمصارف من تنفيه، وفضلاً أن الحكومة لم تقُم بذلك تمنع من وصول مانرسله إليهم. ثم قال: ولا أظن إلا أن الدوائر الأجنبيّة التي لها تأثير في الدوائر الإيـرانـيّة قـد عـملت ذلك. وإلا فإن هذا العمل منافٍ من كل الوجوه للأخلاق الإسلامية.

فجاءت برقيّة رضا خان الى أمير جيش الشرق «حسين الخزاعي» شـديدة اللـحن تأمره أن يَمضي الى آية الله فيبلّغه لزوم الكفّ عن كل أمر، وعدم المداخلة في جميع ما يعود الى الحكومة، وعدم الإعتراض على أيّ فعل من أفعالهم، الى غير ذلك. فتحامى أمير الشرق أن يبلّغ آية الله ذلك، ولم يجرؤ أحد ضباطه على تـبليغه، وكـلّف بـعض الناس الخارجين عن الجنديّة بتبليغه فامتنعوا.

وكأنه أنهى الأمر الى رضا خان. ولعلّه ندم من هذه البرقيّة، فأبرق الى آية الله يعتذر من المنع عن إيصال المال اليّ والى جميع المـنفيين. أمـا المـجلس النـيابي فـوجوده كعدمه لم يأت منه أيّ جواب.

إلا أنه أزاد أذاه، حيث أبرق بعد ذلك بإطلاق سراح جميع المسجونين ولـم يستثنِ أحداً غيري، فكبُر ذلك على والدي، إلا أنه لم يظهر عليه أثره على عـادته مـن الصـبر والثبات.

وستقرأ في حوادث المشهد من مقاومة ميزرا محمد بن آية الله الخراساني بأمر من الإنجليز لآية الله الخالصي ودسّه من الدسائس ما يحار له المسلم ويندهش.

والغرض في هذه الجملة، بيان منزلته في ثباته وبـلائه بـالمتسمّين بـإسم الإسـلام وفرط عنائه.

مؤلفاته

كان قدّس الله نفسه كثير التأليف صرف فيه أكثر حياته، وتنقسم مؤلفاته بحسب سنيِّ عمره الى ثلاثة أقسام:

القسم الاول: مؤلفاته في زمن الشباب وهي:

منظومة في النحو والصرف. واخرى في المنطق. وثالثة فيالبيان. ورابعة في الرجال. وخامسة في الدراية. وكتب أُخرى في الفقه والاصول والكلام.

وقد أتلَفَها كلها في زمن كهولته، ولم يُثنِ إلا على منظومته في الرجال؛ فإنه أثنى عليها وقال: لو لم تتلف لكانت ذات فائدة.

القسم الثاني: مؤلفاته في زمن كهولته وهي:

١ـالمنحة الالٰهيّة في نقض التحفة الإثنى عشريّة (ثمانية أجزاء)[1].

٢ـكتاب الطهارة؛ مستقل استدلالي مبني على تحقيق وتدقيق فريد في بابه.

٣ـ تلخيص الفوائد للشيخ مرتضى الأنصاري؛ في أربع كرّاسات حَذف فيه زوائد الفوائد وفضولها وأثبت ما يحتاج إليه الفقيه في مقام الإستنباط وأضاف إليه بنات

(١)كان سماحته بعيد العهد عن هذا الكتاب فسمّاه بغير اسمه، وبيّنه بغير ترتيبه. والكتاب هو عندي بخط المؤلف قدس سره وقد نقلتُه الى المبيضّة قبل ثلاث أعوام، كما نسختُ غيره من مؤلفاته (ره) واسم الكتاب وعنوانه وترتيبه هو هكذا: كتاب «بيان تصحيف المنحة الالٰهية» عن النفثة الشيطانية، تأليف آية الله. وكتاب المنحة تأليف محمود شكري الألوسي لُخّص في كتاب «ترجمة التحفة الإثني عشرية» في الردّ على الشيعة الإمامية لـ «غلام أسلمي» الهندي، والأصل بالفارسية تأليف ملا «عبد العزيز الدهلوي» وقد أخذه من كتاب الصواقع للكابلي.

وكتاب الشيخ (ره)يكون في تسعة أبواب على حسب أصل «المنحة» الباب الأول في فِرَق الشيعة، والثاني في طبقات الشيعة، والثالث في الإلٰهيات، والرابع في النبوة، والخامس في الإمامة، والسادس في مختصّات الشيعة من الاعمال، والسابع في الفقه، والثامن في المَطاعن، والتاسع فيما نسبوا الى الشيعة من البدع. ومجموعها في ثلاث أجزاء كل جزء بقطع مجلّدٍ واحد من أجزاء شرح إبن أبي الحديد على نهج البلاغة (طبع مصر) يختص الجزء الأول في أربعة أبواب؛ الأوَل، والثاني في الخامس، والثالث في الباقي. (الناسخ عفي عنه)

أفكاره ونتائج تحقيقاته، وناظر آية الله الخراساني في آرائه، وهو كتاب عجيب في بابه.

٤ـ وفوائد متفرقة في الفقه والأُصول والكلام والرجال والدراية.

وكل هذه الكتب موجودة بخطه الشريف.

القسم الثالث: مؤلفاته في شيخوخته وهي:

١ـ الشريعة السمحاء؛ وهي في الفقه من أول الطهارة الى آخر الحج والفرائض والمواريث وبعض المعاملات، وقد طُبع ـ إلّا قسم المعاملات منه ـ في بغداد. وهو كتاب نفيس. أحاط بالفروع إحاطة كاملة وأفتى فيها فتوى جازمة، لم يشينها تردد الرأي والركون الى الإحتياط، كما هو ديدن العاجزين عن الإفتاء في مقام الفتوى، أو المترددين في الرأي.

٢ـ العناوين: في الأصول والفقه؛ طبع ـ قسم الأُصول منه ـ في بغداد. وهو أفضل وأتم وأفصح وأوجز ـ بالنظر الى ما جمعه من المسائل ـ من جميع ما أُلِّف في هذا الفن من الكتب المتقدّمة والمتأخرة. ويجدر أن يعمّ تدريسه في جميع البلاد كما هو الآن كتاب تدريس مهمّ في بعضها.

٣ـ كتاب الجهاد؛ وهو كتاب استدلالي ألّفه في الكوت حين اشتغاله بحرب الإنجليز. وطُبع في بغداد.

٤ـ تعليقة على ألفيّة الشهيد الأول محمد بن مكّي قدّس سرّه. وقد طُبعت مع الألفيّة في بغداد.

٥ـ تعليقة وجيزة على كفاية الأصول للشيخ «محمد كاظم» آية الله الخراساني طيّب الله رمسه. وقد طُبعت مع الكفاية المذكورة في بغداد. ولِوَجازتها مع كثرة مطالبها وفرط دقّتها لايصل الى فهمها إلا أذهان المتبحرين في هذا الفن، ويقصر عن إدراكها الكثير[1].

---

(١)وكتَب (ره) تعليقتين أُخريين وجيزتين على الكفاية المذكورة لم يُطبعا بعد، وهما موجودتان عندي وقد ⇐

٦ـ رسالة في عدم تنجيس المتنجس مايُلاقيه بعد جفافه إذا لاقاه بـرطوبة طـاهرة؛ وقد أثبت هذا الحكم في تلك الرسالة بـحسب الأصـول الأوليّـة، والقـواعـد الفـقهيّة، والأحاديث الصحيحة، وكلمات متقدّمي الفقهاء. وقد تـلقاها عـلماء العـصر بـالغرابـة حين سمعوا بها، ولما رأوها لم يسعهم إلا الإفتاء وفق ما اشتملت عليه، أو التوقف. ولم يستطع أحد نقض براهينها وإبطال أدلتها.

٧ـ تعليقة فارسيّة على رسالة المرحوم آية الله الشيرازي.

٨ـ رسالة عمليّة فارسيّة؛ ألّفها في المشهد المقدس وطُبعت فيه.

٩ـ رسالة في تداخل الأغسال؛ وهي نتيجة دروس ألقاها على علماء المشهد، ناظرَ فيها الشيخ مرتضى الأنصاري قدّس سرّه وانتصرَ فيها للعلامة الحلّي طيّب الله رمسه في أحد قولَيه.

وجاء فيهابتحقيقات فائقة وتدقيقات غامضة لم يسبق لها في كتب القوم مثيل. وقد طُبعت في المشهد المقدّس.

١٠ـ قاعدة نفي الغَرر في المعاملات؛ وهي أُولى القواعد الفقهيّة التي كان عزمه على تدوينها. فإنه عزم أن يؤلف كتاباً يحصر فيه القواعـد الفـقهيّة جـميعها بـحيث تشـمل جميع مسائل الفقه، وتُضبط في قواعد كلّية لاتشذ عنها مسألة من مسائل الفقه. وكـان من رأيه أن الفقه جميعه محصور في قواعد كليّة مضبوطة. وما من مسألة من مسـائله تشذ عن قاعدة. وكلما يُظن أنه خارج عن القاعدة؛ فمنشؤه عدم الإلمام بالقواعد، وعدم الوقوف على حقيقتها، فلا تطبّق على مواردها، فيُظَنّ أن بعض المسائل خارجـة عـن القاعدة.

ولذلك عزم على تأليف كتاب يضبط فيه تلك القواعد ويسهّل بسببه تحصيل علم الفقه على محصليه، وهي خدمة كبرى للفقه والفقهاء، وترويج عظيم للدين لم يسـبق إليه أحد من فحول العلماء. فشرع في كتابة هذا الكتاب في المشهد المـقدّس، وكـان

⇐ نسختُهما عن الأصل. وكان (ره) قد كتبهما بعد وفاة آية الله الخراساني (ره) تدارك فيهما مطالب مهمة نفيسة جداً، والأولى في حياته، وكان لما نظر إليها أُعجب بها كثيراً وبالغ في فضل كاتبها. (الناسخ)

يُلقي دروسه على علمائه، فأتمّ منه قاعدة الغَرر وطُبعت في المشهد. وشرع في قاعدة الشرائط فكتب قاعدتها وجفّ قلمه! عند الوقوف على تلك القاعدة، إذ فاجأه القدر ودعاه داعي القضاء فترك إتمام ذلك الكتاب لمن بعده.

ولا أظن في علماء العصر من له إحاطة بالفقه ومدارك مسائله، وقوّةٍ علميّةٍ يستطيع بها أن يُتمّ هذا الكتاب. وعسى أن يُقيّض الله له من يكمله بعد هذا، فيدفع عن الفقه كثيراً من الشوائب. وأسأل الله تعالى من فضله أن يوفقني لذلك فأكون محقق أُمنيّة والدي، ومكمّل خدمته، ويكون له الأجر الجزيل.

١١ـ الدراري اللامعات؛ تعليقة على «القطَرات والشذَرات». لآية الله الخراساني، في الفقه، وقد طُبع في بغداد.

١٢ـ رسالة في ارتباط الحادث بالقديم؛ ناظَر فيها آية الله الخراساني، وردّ ما حققه في فوائده وكفايته وما اشتبه عليه من أمر هذه المسألة [١].

مواظبته على التدريس والتأليف ومذاقه في الفتوى

أدركْتُه مُدرّساً متفرّداً في تدريسه، مشهوراً بين أهل العلم؛ بالتحقيق وجودة النظر، يقصد للحضور عليه من سائر الأقطار. ولم يزل مواظباً على التدريس لم يمنعه عنه كسل ولا مرض ولا اشتغال بمهام الأُمور وخدمة المسلمين. فلم يترك الدرس لحادث وإن عظم، حتى أنّي ودّعتُه يوم نفيي والناس في اضطراب عظيم، وكان في مدرسته متوجهاً الى مجلس الدرس.

ولما عزم الإنجليز على القبض عليه والناس في أشدّ الإضطراب، والبلاد في هرج

(١)ورسالة في طهارة ماء الغسالة، ومتن في الفقه الى كتاب الحج، غير «الشريعة السمحاء» عندي موجود، نسختُه عن الأصل. وتعليقات على كتب كثيرة، أهملَها العلامة المؤلف عن الذكر لبُعد عهده عنها وهو في بلاد إيران. (الناسخ)

ومرج ؛ كان مشغولاً في التدريس في الليلة التي قُبض فيها عليه.

وكان في المشهد المقدّس مشوّش البال، مضطرب الحال، يحاربه الإنجليز بأنفسهم، وبعمّالهم من الإيرانيين، وبجهل الإيرانيين. وهو مع ذلك مواظب على إلقاء الدروس المفيدة حتى لاقى ربه.

وما شاهدتُه ترك التدريس الا في سفره لحرب الإنجليز في الحرب العامّة، وتواريه عن وجه السلطة الإنجليزية بعد الثورة العراقيّة.

وكانت دروسه مجموعة تحقيقات أبكار، ودقة نظر لا تتجاوز البراهين القطعيّة، بعيدة عن الخيالات الواهية، والطرق الوعرة. ومع شدّة التعمّق في الفكر لم يتجاوز الصراحة والبساطة والإعتدال في الظواهر العرفيّة. لا كمن رأيناه من دقيقي النظر الذين تجشموا الطرق الوعرة في مقام الإستدلال وخالفوا العرف وأكثروا القيل والقال.

وكان بعيداً عن كل فضول في دروسه، لا يشتغل بما لايعني ولا يغني.

فقد كان يتمّ دروس علم الأُصول في أقل من سنتين، ويقتصر في الفقه على ذكر مدارك الفروع والقواعد الكليّة وتطبيق المسائل عليها، مبتعداً عن الحشو والزوائد.

وكانت مسائل الفقه بأسرها يتم تدريسها في خمس سنوات إن لم يعترضها قاطع.

وكان حسِن البيان في تدريسه، يُفهم تلامذته أدق المسائل باوضح بيان في أقصر وقت، حسِن المدخل في كل المسائل بحيث يرى أغمضها قبل بيانه أوضحهابعده، وكان متفرداً في ذلك وفي ترتيب الدروس بحيث يسهل تلقّيها على التلاميذ.

ولقد سمعتُه مراراً يقول: إن التدريس علمٌ كنفس العلم، وما كل عالم يصلح أن يكون مدرساً.

وكان يعترض على علماء العصر في عدم سلوكهم بالمحصّلين طريقة يسهل معها تحصيل العلم لعدم ترتيب الدروس وكتب الدرس حتى ضلّ الطلاب طريق التحصيل وتكلفوا كثيراً من الصعوبات ولم يصلوا الى الغاية المطلوبة مع شدّة العناء.

وكان هذا الأمر من أكبر البواعث له على تأسيس مدرسته في الكاظمية. إلا أن الإنجليز كبر في أعينهم أن تُرتّب دروس طلاب العلوم الدينية وكتب تدريسهم،

فأخْلوا منه تلك المدرسة وأقصوه عنها قبل أن يرتب دروسها وفنونها وكُتب تدريسها وتنظيم أمورها.

وكان من غايته أن يحصر سِنِيّ التدريس في اثني عشر سنة، يتخرج طالب السنة الثانية عشرة مجتهداً في الفقه والأصول والكلام، عالماً بالرجال والحديث والتفسير والنحو والصرف والبيان والحكمة والمنطق والرياضيات والطبيعيات والفلكيات والملل والنِحل وأقوال أرباب متفرقة الأديان ومختلفة ألاهواء. حتى يستطيع المتخرج منها الإفتاء، وردّ شبهات مزوّري المبشّرين، والدعوة الى دين الإسلام.

وكانت مواظبته على التأليف كمواظبته على التدريس، وحسبك من ذلك أنه ألّف كتاب الجهاد في ساحة الحرب، وكتاب الشريعة السمحاء في دار اختفى فيها بعد الثورة العراقية والسلطة الإنجليزية تهدده فيكل وقت، وكتاب «العناوين» ورسالة فارسيّة ورسالة المتنجس الجاف وتعليقة ألفيّة الشهيد، وكثيراً من الفوائد الأُخرى أيام مبارزته السلطة الإنجليزية وعمّالها فى العراق، ورسالة تداخل الأغسال، وقاعدة الغَرر، وشطراً من قاعدة الشرائط، ورسالة فارسيّة في المشهد المقدّس يوم كان فيها يُلاقي فيها ما يذيب الجبال الرواسي من المصائب التي كان يوجهها إليه الإنجليز وأعداء الإسلام من عمّالهم.

وكان مذاقه في التأليف مرآت مذاقه في التدريس. فقد كانت مؤلفاته على غاية في الإختصار ولا يتطرق إليها الفضول، وحسبك منها كتاب العناوين فإنه دورة أصول كاملة مشتمل على أدق المطالب وأغمض المسائل لم يغادر مسألة مفيدة في مقام الإستنباط.

قال قدّس سرّه في مبحث الإجتهاد من هذا الكتاب عند تعداد ما يتوقف عليه الإستنباط: والأُصول؛ وهو أكثرها احتياجاً، لا على وجهٍ يُشتغل بما يُزعم أنه من الأُصول وهو من الفضول الذي لايسوغ شرعاً، خصوصاً في مثل هذه الأزمان التي يتعيّن فيها الإجتهاد على الأفراد القابلين له لعدم من تقوم به الكفاية. ويكفي من الأُصول الإقتصار على هذا المختصر وتنقيح مسائله، لأنه بحمد الله وافٍ بكل ما

يحتاج إليه الفقيه في مقام الإستنباط.

وإن كتاب قاعدة نفي الغَرر من القواعد الفقهية يكشف أوضح الكشف عن أنه في مؤلفاته لم يكن إلا بصدد اللُباب منزّهاً عن القشور.

ولذلك لم يؤلف كتاباً مفصّلاً إلا كتاب المنحة الإلٰهيّة[١]. وإنما أُلجأ الى التفصيل فيه لأنه في مقام المناظرة فتصدى الى دفع الاحتمالات وإن كانت بعيدة.

وكان فصيح البيان في مؤلفاته، حسن العبارة كما كان في درسه.

وأما فتاواه فقد كانت صريحة حازمة. لم يُعهد منه تردد في فتوى ولا احتياط. وكان طالما يقول: إنّ فتح باب الإحتياط في الفتوى سدّ باب العلم، وأخفى المجتهد المحقِّق بين المبتدئين؛ حيث استطاع أدنى المحصّلين أن يكتب ماشاء من الرسائل العمليّة متوكأً على عكازة الإحتياط، ولايعلم مبلغه من العلم إذا لم تكن في رسالته فتوى؛ ليعلم من فتاواه درجة وصوله الى مدارك الفروع. وهذه الطريقة في الفتوى مخالفة لطريقة علماء السلف رضوان الله عليهم.

ولذلك لا يوجد في رسائله العملية احتياط ولا تردد.

وكان يفتي بما قام عليه الدليل العلمي وإن خالف جميع الناس. ولذلك أفتى في رسالته بعدم تنجيس المتنجّس الجاف، وطهارة ماء الغسالة، وعدم جزئيّة السورة في الصلاة، وعدم بطلان الصوم بالتدخين، وبغمس الرأس في الماء، وحرمة دفن الموتى بطريق ما يُسمى «الأمانة» لنقلهم الى المشاهد المشرّفة، وسمّاه بدعة. وغير ذلك من الفتاوى التي كانت تكبر على أهل الوسواس الذين تركوا أُصول الإسلام وصبروا على هدم أساسه، واشتغلوا بالفضول حتى عاد الإسلام أُلعوبة لأهوائهم؛ اختصّت أحكامه بغسل اليد ثلاثاً والإناء سبعاً. وتُنوسِيَت باقي أحكامه الشاملة لجميع أحوال البشر؛ الإجتماعية والفرديّة، فبُدّلت السعادة بالشقاء والراحة بالعناء.

وكان لايبالي أهواء أُولي الهوى والغي في فتاواه. حتى قيل له في ذلك، وطُلب منه

---

(١)قد مرّ أنه: «بيان تصحيف المنحة الإلٰهية» وهو لم يبلغ غاية التفصيل سوى الباب الأول في فرق الشيعة الخامس في الإمامة في الجملة. (الناسخ)

أن لايُفتي أمثال هذه الفتاوى ويكتم ما أدّى إليه نظره.

فتلا قوله تعالى: ﴿إنّ ٱلذينَ يكتُمونَ ما أنزلنا مِن البيّناتِ والهُدىٰ مِن بعدِ ما بيَّنّاهُ للنّاس في ٱلكتابِ أُولئكَ يلعنهُم اللهُ ويَلعنهُم ٱللاعِنون﴾. وقال: هذا حكم الله فيمن كتَمَ حكمه، وإن مراقبة العلماء وخوفهم الناس في إظهار أحكام الله هو الذي جرّ على الإسلام ماجرّ من البلاء والمصائب.

وكان مشغولاً بتعمير مدرسته في الكاظميّة إذ أُعلنت الحرب العامة فترك المدرسة ومضى الى الحرب، وصرف ما أعدّه لتعمير المدرسة على المجاهدين. فقال له بعض أصحابه: لماذا فعلتَ هذا؟ لو عمّرتَ المدرسة لكان أفضل. فقال لو كنتُ عمّرتُها لوجب بيعها وإن كانت موقوفة لتصرف على المجاهدين. فقالك أو يجوز بيع الوقف؟ فقال: بل يجب بيع كل مايتوقف على بيعه الجهاد، حتى المساجد.

وكان في ساحة الحرب وكتبَ كتاب الجهاد. وكان من جملة أحكامه وجوب صرف المسلمين جميع أموالهم في الجهاد حتى تُدفع غائلة هجوم الكفّار. ومن امتنع عن بذل مالديه من المال وجب أخذه منه كُرهاً.

ولما انتشر هذا الكتاب تلقّاه جهلة المسلمين بالسّخط، وأخذ عمّال الأجانب يخوّفون المسلمين من هذه الفتوى، حتى حدثت لذلك ضجّة عظيمة، وتحامل بعض الفسقة والجهّال عليه فلَم يُبالِ بذلك، ولم يزل الجهّال ناقمين على هذه الفتوى ومفتيها، حتى احتلّ الإنجليز بلادهم. فعرفوا سرّ تلك الفتوى، وعلموا أنهم بتسلط الأجانب لايملكون شيئاً؛ حتى نواميسهم وديانتهم. وندموا على تثاقلهم في إطاعة تلك الفتوى (يوم لا ينفع الندم).

وكان في الكوت ذات ليلة يتهجّد ويتضرع في جوف الليل عند اشتغاله بالنافلة، إذ دخل عليه أحد المجاهدين وارداً من ميدان الحرب وهو «سلّوم» من أهالي «البغيلة» وكانت له وقائع في الحرب مشهودة مشكورة. فلما رأى بكاء الشيخ وتضرعه في صلاته؛ أخذته الرعدة وصار يبكي ويتأوه حيث لم يوفق لنافلة الليل لاشتغاله بالحرب. فلما فرغ الشيخ من صلاته قال لسلّوم: علىمَ تتأوه؟

قال: لأني لم أوفق لنافلة الليل إذ عاقتني عنها الحرب.

فقال الشيخ: إن عبادتنا هذه عبادة العجائز، ووددتُ لو كانت لي قوّة فأعمل مثل ما تعمل، وأنا أتأوه لأني لا أستطيع أن أعمل مثل ما تعمل في الحرب.

إعلم أني منذ طفولتي الى الآن ماتركتُ نافلة الليل، وأنا راضٍ أن أُبدّل أجر ذلك كله بأجرِ يوم من أيامك في ميدان الحرب. فتهلل وجه سلّوم فرحاً وفارقه ولم يزل مجدّاً في الحرب الى أن قُتل فيها عند هجوم الإنجليز في المرة الثانية على الكوت. رحمه الله تعالى.

وجاءه رجل بمالٍ من سهم الإمام عليه السلام فقال: أحب أن يصرف في أفضل الموارد.

فقال: أفضلها أن يُصرف في جهاد الإنجليز ومقاومتهم وذودهم عن العراق، وأن كان ثمن البرقيّات التي تُعطى احتجاجاً، أو للأفراد المشتغِلين بمبارزتهم.

ولما جاء الى إيران من طريق «بوشِهر» واطّلع على النقص في الجنديّة الإيرانيّة واحتياجها المالي وفقدان البواخر الحربيّة؛ أصدر فتوى بوجوب جمع المال وشراء بواخر حربيّة وسدّ عوز الجنديّة، وأذن بصرف جميع الوجوه البِرّيّة ولاسيّما سهم الإمام عليه السلام في هذا السبيل[1].

---

(١)وهذه صورة الفتوى؛ ألقاها رحمه الله خطابةً على منبر مدينة «بوشهر» بعد صلاته بالناس عند اجتماع الملأ العام من المسلمين في مسجدها الأعظم:

«بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي.. إخواننا المسلمين! وفّقكم الله تعالى، إن الله عزّ وجلّ قد أمركم في كتابه المجيدالعزيز، وخطابه البليغ الوجيز بأوامر جمعَ لكم بإطاعتها شرف الدارين، وحباكم بالعمل عليها بكلّ ما تقرّ به العين، والعزّة والمنعة والسلطنة والرفعة، فقال عزّ من قائل: ﴿ وأعِدّوا لهُم ما ٱستَطعتُم مِن قوّة ﴾ وهؤلاء الأجانب قد ملأت أساطيلها البحار وتجارتها القفار، فاستذلّوكم بقوّتهم، واستعبدوكم بتجارتهم، وقد تخلّيتم عن ذلك كأن المأمور به سواكم، وتجرّدتم عمّا هنالك، كأن المعنيّ به مَن عداكم، فإن فاتكم ذلك بالأمس فاغتنموا فيه الفرصة اليوم، واحفظوا بلادكم وأوطانكم وأصلِحوا أمر دينكم ودنياكم بجمع الإعانات باتخاذ الأُسطولات، وبذل الهمّة في تهيأة آلات الصناعات والمنسوجات والمطعومات والمشروبات. جِدّوا وفّقكم الله تعالى ولاتتوانَوا وقد جدَّ قُرناؤكم في استملاك بلادكم، واستعباد أحراركم.

﴿ تَعاونوا على البِرّ والتقوى ﴾ وها أنا ذا أُقدّم نفسي في بذل مايُمكنني بذله من المال في تهيأة أُسطول تامّ للدولة العليّة الإيرانية، فأعينونني في اجتماع ملأكم على بذل ما يمكن بذله في ذلك ولو عن سهم إمام العصر عجّل الله له الفرج والنصر، فإنّه ليس مصرف لأسهمه أولى وأحق من

⇐

فاستعدّ الناس لذلك وتأهبوا لاكتتاب المال وتوزيعه على المتموّلين. إلا أن الحكومة الإيرانيّة ـ أعني وزارة رضا خان ـ عارضَت في ذلك من وراء ستار إطاعة لأمر الإنجليز الذين لم يرق في أعينهم هذا الامر الذي يُعارض نظريّة الإستعمار. وأخذ فريق من المرتزقين من تلك الوجوه يعارضون هذه الفتوى في الخفاء لأنها تسدّ طرق ارتزاقهم الحرام؛ وتجبرهم على العمل، وترك البطالة لتحصيل معاشهم. وإذ لم يستطيعوا إعلان المخالفة، خالفوا سرّاً، حتى ورد الى قمّ فلاقاه الميرزا حسين النائيني وقال له: إنك قد أذنتَ بصرف سهم الإمام عليه السلام في أُمور الجند والبواخر الحربيّة؟.

قال: نعم!.

فقال النائيني: لماذا؟.

قال: لأن ذلك حكم الله.

قال النائيني: نعم! ولكن الناس لايرغبون في مثل هذه الفتوى.

فقال آية الله: أفنترك حكم الله ونتعرّض لسخطه طلباً لرضا الناس؟.

فقال النائيني: أرجو أن تكفّ عن هذه الفتوى.

فضحك آية الله وقال: العجب كل العجب!! كيف يتسنّى لمثلك أن يدعو مثلي الى مخالفة أمر الله؟ وقرأ الآية المتقدمة ﴿إنّ ٱلذينَ يكتُمونَ ما أنزلنا مِن البيّناتِ والهُدىٰ مِن بعدِ ما بيَّنّاهُ للنّاس في ٱلكتابِ أُولئكَ يلعنهُم اللهُ ويَلعنهُم ٱللاعِنون﴾. ثم قال: أترى إن الإمام يرضى أن تصرف أمواله على هؤلاء البطّالين البُله ـ وأشار الى فريق من

⇐ *صرفها في هذا المقام الذي يكون فيه الحفظ التام لدولة الإسلام والتي لاتغيب عن نظره عليه السلام.*

الراجي محمّد مهدي الكاظمي عُفي عنه».

وله رحمه الله كلمات وخطابات اخر في هذا المعنى لم يحضرنى صورتها، ولما علم الإنجليز هذه الفتوى كبُر عليهم ذلك كثيراً، فعمد انجليزي موظف نزيل «بوشهر» على اغتياله (ره) في محضر الملأ العام ببندقية فأخطأته وأنجاه الله تعالى من شره وهاجت الناس عليه ففرّ منهزماً.

ونظم الشعراء في ذلك القصائد العربية والفارسية واليك قصيدة منها وإن لم تكن من أحاسنها، لكنها أحسن ما وصل الينا في ذلك، انشده بديع الزمان فروزانفر بشروي (انظر الملحق رقم ١)

المعممين الذين جمعهم الشيخ عبد الكريم اليزدي في قمّ وهو يصرف عليهم مايرِده من الوجوه البرّيّة ـ ليهاجموا الإسلام، ويهدموا بآرائهم الفاسدة بنيانه، ولايرضى أن تصرف لحفظ ثغور المسلمين؟ إن ما تقوله لعجب!. فسكت النائيني وكفّ عن طلبه.

ولو أردنا أن نسرد الأمثلة لفتاواه لاستوعبت مجلدات ضخمة، ولكنّا نجمل القول: إنه كان خشناً في ذات الله، صريحاً في أقواله وفتاواه وأعماله، لايبالي في رضاء الله سخط الخلائق أجمعين، ويحكم بما أنزل الله وإن كان على خلاف أهل الأرضين، ولذلك كان متفرّداً في فتاواه.

ولما جاء الى إيران وصمم على إجراء أُمور كانت على خلاف أمذقة جهّال الإيرانيين، قال له بعض أصحابه: إن أخلاق الإيرانيين لاتوافق هذه الأُمور. فقال آية الله: أرجو أن تُصلِح أخلاقي أخلاقهم، لا أن تُفسِد أخلاقهم أخلاقي. وآمل أن أسوقهم الى العمل بما أمر الله، لا أن يضطروني الى كتمان ما أنزل الله.

ولم أرَ نظيراً له يماثله في هذه السجيّة إلا المرحوم آية الله الشيرازي في مهام الأُمور، فإنه كان لا يُبالي فيها الخلق فتوى ً وعملاً.

كتبَ يوماً برقيّة الى «وثوق الدولة» رئيس وزراء إيران؛ يُعنّفه فيها على المعاهدة الإيرانيّة الإنجليزيّة، ويأمره برفضها، وينذره العطب إن صادق عليها. فلما أراد توقيع تلك البرقية قال له أحد أصحابه: لو تأنيتَ في توقيعها فإني أخاف أن لاتنفذ كلمتك ولايُطاع أمرك. فقال قدّس سرّه: وإذا لم يُطع أمري أفأكتُم حكم الله وأترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر احتفاظاً بأمري؟! وغضب ووقّع تلك البرقيّة فوراً. واليك ترجمتها بالحرف الواحد.[١]

هو أوّلُ عامِلٍ طبق فَتواه

مرّ عليك صراحته في الفتوى، وحراجته من التكتم في أمر من أُمور الدين. وهذا قلّ

(١) هكذا وجدتها في الاصل وقد اثبتُّها كما هي ولم يكن نص الترجمة فيها وكان العنوان الذي بعد تلك الجملة من غير فاصلة بشيء (الناسخ)

ماشاهدناه في كثير ممن تصدى للرئاسة الدينية في هذا العصر. وإذا أفتى بعضهم فتوىً صريحة فليس هو في مقام العمل ممن يعمل بفتواه. يفتي بحرمة البطالة مثلاً، وهو وأولاده بطّالون، وبوجوب الجهاد، وهو وحاشيته من المتقاعدين، وهكذا.

أما آية الله الخالصي فانه كان أول من يعمل على طبق فتواه، ثمّ أولاده وحاشيته، وبعد ذلك يأمر بها الناس، أفتى بوجوب الجهاد ومضى وكلا أخويه [١] وأنا بخدمتهم وحاشيته الى ميدان الحرب. وحكَمَ بوجوب مقاومة الانكليز في العراق فقاد الجيش في الثورة العراقية وقبل رئاسة المدافعين عن حقوق العراقي بعدها، وأسلمني الى النفي وإخوتي الى السجن، وعرّض نفسه الى السمّ ثمّ النفي مع بقية أولاده، وهلاك بعض أحفاده [٢] ولم يُثنه عن ذلك شيء حتى لاقى ربه مسموماً في دار غربته.

كان من رأيه حرمة التساهل في الواجبات المالية كالخمس والزّكاة وغيرهما، وحرمة ما يعمله بعض المعممين ممّا يسمونه بـ«المصالحة» حيث يبرؤون ذمة من اشتغلت ذمته مثلاً بألفٍ خُمساً في قبال مائة يأخذونها منه – شأن قسيسي الكاثوليك – فلم يعهد انه تساهل بدرهم واحد، أو قبل مالاً بعنوان الوجوه البريّة بأكثر من قيمته السوقية ولو بدرهم، ولذلك كان يرجع كثيراً من الأموال والعقار التي حُسبت بأكثر من قيمتها السوقية، وربّما قبلها غيره بأضعاف ما حُسبت عليه.

والأمثلة لذلك كثيرة فلنكتف بما سطّر.

---

(١) الشيخ محمد صادق أبي والشيخ راضي عمّي الاكبر سناً من آية الله وسافر أبي مع آية الله ومعهما العلامة المؤلف ثم لحق بهم في ساحة الحرب عمّنا الشيخ راضي ومعه ولده الشيخ مرتضى وبعض الاقارب وأما الحقير فلم أُوفق للجهاد لأني كنت صغيراً اوايل سني التكليف ولم أكن بالغاً في النشاط ومع ذلك استأذنت آية الله في السفر بخدمتهم فلم يأذن لي بذلك وألزمني بالصلاة جامعة مكان والدي في مسجدنا الخاص وقال: الآن نحن في غنى عنك وعن أمثالك وإذا احتجنا الى ذلك نرسل عليكم. ومع ذلك كنتُ أُجاهد باللسان والقلم إذ لم أُوفق بالسيف ولم أفتر عن هذا العمل بحمد الله بهذا الحال لنصرة الاسلام والمساعدة لدعاة الحقّ والذبّ عنهم الى الآن. (الناسخ).

(٢) وتوفي والدي في اثر ذلك غصّة على فراق آية الله بذلك الحال (الناسخ).

الصنائعُ والعُلوم وتحريضه عليها

ولم يكن يرى الجهاد ودفاع أعداء الإسلام، مقتصراً على الأعمال الحربيّة، بل كان يرى وجوب إتقان الصنائع والعلوم الشائعة بين الأُمم في العصر الحاضر، لأن الدفاع عن حرم الإسلام وبيضته لايتم إلا بهما.

فكان يرى وجوب تحصيل العلوم الطبيعيّة والكيمياء والرياضيّات والفلكيات، وإتقان فنون السلاح والحرب والزراعة والطب وغيرها. لأنها قوّة يجب إعدادها لحفظ الإسلام كما قال تعالى: ﴿وَأعِدّوا لَهُم ما ٱستَطعتُم مِن قوّة..﴾ ولا تختصّ القوى بشيء معيّن، بل يشمل كل ما يفيد قوّةً للمسلمين على عدوهم؛ علماً كان أو صنعة.

فإذا كان تعلُم السبق والرماية واجباً في صدر الإسلام لهذه الآية، وأمثالها من الأحاديث العامّة الصريحة في وجوب إعداد العدّة لدفع أعداء المسلمين وهجوم من يُخاف منه على بيضة الإسلام. فالأجدر أن يكون تعلم صنعة الطيران، والمدافع، وأنواع الناريات، وأصناف العلوم واجباً في هذا العصر.

هذا كان رأيه، وكان يصدع به ليله ونهاره ويشوّق المسلمين ويحضّهم على إتقان ضروب الصنائع والفنون ومختلف العلوم.

إلا أن كثيراً ممن تقمّص ثوب الرئاسة على المسلمين باسم الدين كان يسمي تلك العلوم والفنون؛ كفراً والحاداً! وكان يسير بالمسلمين على غير الجادة المستقيمة في ليل من الجهل حالك؛ إما بلاهة أو تبلّهاً!.

فكان تحريض آية الله على تلك الصنائع والعلوم يلاقي عقبات من أولئك الحُمق أعداء الإسلام، يصعب اقتحامها.

وكان جهل المسلمين يسوقهم الى اتّباع أولئك المضلّين والبعد عن الهادين. فكان ذلك مما يزيد الموقف حراجة وصعوبة. وكان كثير من المسلمين الذين يرغبون في تحصيل تلك العلوم قد بنوا تحصيلهم على أساس اللادينيّة وسوء الأخلاق؛ لما رأوه من مناوأة متبلّهة المتدينين لتلك العلوم.

وكان الأجانب يضللون المسلمين بدسائسهم، ويبثون بينهم الجواسيس باسم الدين يُنفّرون المتدينين من تحصيل تلك الفنون ومحصِّلتها من الدين؛ بحجة منافاتها له. وينفّرون المتدينين من محصّلي تلك العلوم؛ إثارة للفتنة.

كان آية الله يرى وجوب تحصيل الصنائع كلها بدون استثناء على المسلمين كفاية؛ أي وجوب تحصيل كل المسلمين كل الصنائع، بأن يختص كل فرد أو فريق بفريق من الصنائع والعلوم.

وهذا مايصرح به الفقهاء في كتبهم متقدّموهم ومتأخروهم.

وكان يحرّض المسلمين جميعاً على الإلتزام بالأحكام الشرعيّة والشعائر الدينية بلا استثناء. وهذان الأمران ليسا بأمرين جديدين، بل هما من مقررات الشريعة الإسلامية إلا أن المسلمين تناسوها فضَلّوا وهلكوا وباد سلطانهم واستولى أعداؤهم على ممالكهم.

وكان آية الله بإصراره على هذين الأمرين يلقى الأمرّين من المسلمين؛ إذ كان فريق منهم يتظاهرون بالصلاة والصوم مثلاً، تاركين سائر الواجبات؛ يرون الصنائع من الزندقة والإلحاد. فكانوا ألدّ أعداء آية الله وأكبر مناوئيه. وكان آخرون حصّلوا شيئاً يسيراً من الصنائع والفنون، أو مقدّمات ناقصة من العلوم. يرون بتسويل الأجانب إن الدين عقبة في سبيل الرقيّ والعمران والحريّة. ويأتي مايشاهدونه من الفريق الأول كشاهد على هذا التضليل.

فكانوا يرون دعوة آية الله الى الدين؛ كدعوة الى التدنّي والإنحطاط، وتسوقهم الشهوات ـ مع ذلك ـ الى معاداته ومناوأته. فلذلك كان يلاقي منهم أمرّ المقاومة وأشدّ المعارضة.

هذه صعوبات لم يكن هيناً تذليلها على إنسان إلّا آية الله العظمى الذي فاقت همته الهمم، وذللت الصعاب، فلم يكن يحسب لتلك الصعوبات حساباً، ولايراعي لها جانباً. وكان مجدّاً في ترغيب المسلمين لتحصيل أنواع الفنون والعلوم، والإكثار من المدارس المختلفة، وتعميم المعارف بين طبقات المسلمين، في حين كان يرى غيره

النظر الى المدرسة كفراً.

وكان يجهد في إقامة أُسس المدارس على الأخلاق الإسلامية والقواعد الدينية التي تتم بها السعادة الدنيوية والأُخروية. ويُقيم لوجوب هذين الأمرين الحجج والبراهين الشرعية والعقلية، ويخاصم بعض المجتهدين الذين لم تكن تصل مداركهم الى ماوصل إليه، وصرَفَهم حُب الرئاسة عما أكبّ عليه غير مبالٍ بما قيل أو يقال. حتى قام بإصلاح خطير في العراق، ونبّه الأفكار في إيران، ولا سيّما في خراسان الى ما ابتعدت عنه، وفتَح للعلماء باب إصلاح لم يلِجها منهم قبل وروده أحد. وعسى أن تكون فاتحة دَور جديد لإيران؛ يُبدَّل فيه الفساد بالصلاح، والجهل بالعلم، والذلّ بالعزّ، والخمول بالنشاط.

الرئاسَةُ الدينيّة في الإسلام

لا رهبانية في الدين

وهنا يجدر بنا أن ننبه على أمر شاع فيه الضلال وكاد الحقّ ينطمس فيه. لعل من يقرأ ماكتبناه من مجمل أعمال مولانا آية الله قدس سره يجعلها هدف الإعتراض وغرض الإيراد، بسبب ذلك الضلال الذي شاع بدسائس الأجانب هذه الأيام بين جهال المسلمين.

قالوا حمقاً أو ضلالاً أو تضليلاً: يجب عزل الديانة عن السياسة! ومنشأ هذا القول من المستعمرين الذين كانت النصرانية ديانتهم، وكانت قائمة على أُصول الرهبانية والإعتزال عن الأمور الدنيوية والإشتغال بالإنفراد والتغرّب والكفّ عن كل ماخلق الله والسير بالإنسان الى البهيمية والمعيشة الإنفرادية والوحشية على خلاف ما خلقه الله عليه؛ من الأُنس والإجتماع والمدنية التي جُبل عليها بطبعه. وكان عمل رؤساء الدين عندهم منحصراً ببيع قصور الجنة وأراضيها، واستيهاب الذنوب من الله، والعفو عن العاصين نيابة عن المسيح، والسخط على من شاءوا وإدخاله النار تقوّلاً على الله.

فكان للمفكرين الذين لم يروا غير النصرانية أن يعزلوا رؤساء الدين عن جميع أُمور الدنيا ويحصروها فيما ادّعوه من الأعمال النيابية عن الله أو المسيح، وتكون الروحانية عندهم صنفاً في عرض سائر الأصناف لايحقّ لمنتسبيها التدخل في أعمال غيرهم، كما لا يسوغ للطبيب أن يتداخل في أعمال المهندس، وللفلكي أن يعمل أعمال الزُرّاع، وللإداري أن يقوم بوظائف البنّاء. وبحكم ملائمة الأعمال للعقائد فصلت الحوادث روحانيي النصارى عن كل عمل غير ماهو وظيفة الخرافي الأحمق الذي يدّعي النيابة عن ربّ الأرباب وهو أعجز العاجزين.

فلمّا تمّ ذلك للدول المنتصرة رأوا في الإسلام قوّة الدين فوق كلّ قوة، فعمدوا الى إبادتها شغفاً بالاستعمار، ولذلك أشاعوا بين جهلة المسلمين ماأجروه هم، وذلك عزل الديانة عن السياسة، وتابعهم عليه شرذمة من جهال المسلمين، وأخذوا يضربون على تلك النغمة دون أن يختبروا حقيقة الأمر أو يقفوا على سرّ هذه المسألة ومغزاها.

وصار المسلمون في هذه القضية قسمين ـ كلاهما بتسويل الأجانب يعمدان الى هدم أساس الإسلام من حيث لايشعران ـ فريقاً ضعُفت علاقته بالديانة وتداخل في السياسة وهو يرى وجوب عزلة الروحانيين عنها.

وفريقاً ادّعى العلاقة بالدين واعتزل الأمور السياسية، وحسِب الزعامة الدينية في الإسلام كالرهبانية في النصرانية! فهو يبتعد عن كل زعيم دينيّ تداخل في الأمور السياسية، ويحسب الزعامة الدينية مرادفة للخمول والجهل وضعف النفس وعدم العلاقة بالدين والوطن، لايهمه ماصدر أو يصدر على المسلمين، من المصائب والكوارث. فإذا اهتم رئيس دينيّ لأُمور المسلمين، عمِلَ ما يُنافي وظيفته في نظر اولئك المتدينين! وهم لايشعرون إن هذه العقيدة وصَلتهم من أعداء الإسلام، وهي آلة الإستعمار وسلاحه ولاتنطبق مع الديانة الإسلامية، بل تضادّها أشدّ المضادة.

لذلك وجب ذكر حقيقة هذه المسألة في نظر الدين الإسلامي وحقيقة الزعامة الدينية فيه، والغرض الأول أن يعلم إنّ ماأتى به مولانا آية الله الخالصي من الأعمال لم يكن إلا بتعليم الدين الإسلامي، أداء لفرض فرَضه الله عليه، ويُفهم من ذلك استطراداً

إنّ ما شاع بين المسلمين مما أشرنا إليه منافٍ للشريعة المحمدية السهلة السمحة؛ جاء من قبيل مبتدِعة الرهبانية مقدمةً لمحو الإسلام.

فليعلم إن الدين الإسلامي شريعة الهدى والعمل، عدوّ الضعف والخمول والبطالة، كافل بالسعادتين في النشأتين، دين الصلاح وإعمار الأرض، عدو الفساد والخراب، جعل الوصول الى السعادة في الأُخرى منحصراً من طريق إعمار الدنيا، ولذلك لم تكن حادثة من حوادث الدنيا ولاعمل من أعمال البشر إلا وقد بيّن حكمه؛ من وجوب أو حرمة أو ندب أو كراهة أو إباحة. وكان من القواعد العلمية المقررة في كتب الفقه والأُصول المسلّمة لدى علماء المسلمين إنّ لله في كل واقعة حُكماً، وتقرر بين العلماء الإمامية حتى تسالموا عليه، ووردت به النصوص المتظافرة من الآيات والأحاديث: إن الأحكام كلّها تابعة للمصالح والمفاسد وإن تلك المصالح والمفاسد عائدة للبشر لغناء الله المطلق، فلا مصلحة تعود عليه ولامفسدة يدفعها عنه. فكلّ أمر شرعي إنما لمصلحة في المأمور به تعود الى المأمور، وكلّ نهى إنما كان لمفسدة في المنهي عنه يتضرر بها المنهي في دنياه. ووعد الله جالب المصالح لنفسه في الدنيا، ودافع المفاسد عنها فيها أجراً جزيلاً في الآخرة. فما الثواب الأُخروي والسعادة الأبدية إلا ثمرة جلب المكلف المصالح لنفسه في الدنيا ودفع المفاسد عنها فيها بامتثال أوامر الله والإنزجار عند نواهيه تفضلاً منه سبحانه وتطولاً.

إذا تقرر ذلك عُلم جليّاً إن الزعامة الدينية لايمكن أن تعتزل عملاً من أعمال البشر، نوعياً كان أو شخصياً، ومن تجنّب شيئاً من ذلك فليس من الدين في شئ، وذلك لأن معنى الزعامة الدينية في الإسلام هي نشر أحكامه وحفظها والتشويق إليها والحثّ عليها لمن أحاط بها خُبراً.

وقد علمتَ أن أحكامه شاملة لجميع أعمال البشر وكل الإحتياجات، فمن أراد نشر تلك الأحكام لايمكنه أن يتجنب شيئا من أعمال البشر وحاجاتهم، ومن قال: إن الدين يجب أن يفصل عن السياسة، عمل بدينٍ غير دين الإسلام، لأن دين الإسلام يقول: ما من أمر من أُمور الدنيا وحاجاتها إلاّ جئتكم بحكمه. ففصل بعض الأعمال عنه ردٌ عليه

وخروج عنه ومروق [١].

ومن هنا يتّضح معنى الزعامة الدينية في الإسلام، وهو أمر عقلي لم يقرر له الشارع قراراً ولم يبيّن حكمه مستقلاً، إلا ماورد من عمومات الأمر بالمعروف ووجوب الإرشاد وإقامة الحدود والشرايع والشعائر وحفظ أحكام الله وكتابه عن الإضمحلال والنسيان. فوجب لذلك تحصيل علوم الدين لتُحفظ، ولم تقرر الشريعة الإسلامية لحافظي علوم الدين قراراً، ولم تُحلّهم محلاً يخوّلهم استعباد البشر، والتقوّل على الله، والتحكم في الجنة والنار، كما هو شأن الزعامة الدينيّة عند النصارى.

بل رؤساء الدين فيالإسلام كسائر الناس، لافضل لهم على أحد في الدنيا، وإنما الفضل بالتقوى في الأُخرى لاغير، بل هم مأمورون؛ بالتواضع، ولين الجانب، ومعاشرة الضعفاء والفقراء. منهيون عن؛ التكبر والإسئثار بمال أو سلطان.

وبالجملة: الزعامة الدينيّة في الإسلام أمر عقلي حكم العقل بوجوبها لما وجب شرعاً حفظ أحكام الدين؛ وهي قوّة فوق كل قوّة، ونظارة عامّة على جميع أعمال البشر، لايشذّ عنها صغير ولا كبير، لتكفّل أحكام الشريعة ببيان ذلك كله. ورؤساء الدين كسائر الناس؛ لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، لايمتازون بألوهيّة ولاربوبيّة ولانيابة عن الرب ولااستئثار بالسلطان والمال في الدنيا، والإختصاص بالجنة والنار في الأخرى كما هو عند النصارى.

فرئاستهم كَلا رئاسة. ونظارتهم إرشاد محض وسعادة بحتة لا تثقل على البشر وطأتها، بل هي سبب الراحة والرفاهيّة وليس فيها إلا النفع. إذ الرؤساء مشتركون مع سائر المسلمين في جميع الأعمال، مساوُون لهم في تحصيل أمور معاشهم من طريق

---

(١)لكن الشرع ودين الإسلام بعيد عما يفسّره أهل الغرب وأُوربا في معنى السياسة بأنها الوصول الى ما يناله الإنسان، والبلوغ الى مقاصده ولو بالكذب والخداع والمكر والغدر كما صدر من الإنجليز في مواعيدهم باستقلال العراق، وما أظهره فيصل بتعليماتهم ودرسهم له في خيانته وحنثه بيمينه بكتاب الله لآية الله كما سيأتي تفصيل ذلك. فآية الله عمِل بواجب السياسة بما فرضه عليه القران، وفيصل والإنجليز عملوا بما أوحاه إليهم الشيطان، وشتّان بين الحق والباطل، وسوف يَلقى كلٌ رشده وغيّه، وإن الله بصير بالعباد، وإنه لبالمرصاد خبير بما يعمل الظالمون. (الناسخ)

الكسب لا البطالة، ويزيدون عليهم الإرشاد الى طريق النجاة والسعادة، وتمييز الصلاح من الفساد. فهم خدّام البشر المشفقون، ليسوا عالة بطّالين يرتزقون من كدّ الضعفاء وكسب البؤساء كما هو الحال في الديانة النصرانيّة الحاليّة.

هذا معنى الزعامة الدينيّة في الإسلام، وإذا كان بعض المسلمين تركوا ذلك ولم يعملوا به، وحسب بعضهم رئاسة الدين؛ عزلة ورهبانيّة وبطالة، والرئيس من كان كلاً على الناس في معاشه؛ لايخدمهم خدمة، ولايجرّ لهم نفعاً، ولايدفع عنهم ضرّاً، وكل شيء رآه قال: مالي وله، أنا درويش زاهد. فليس ذلك لِنقص في الإسلام، وإنما هو لتضييع المسلمين أُمور الدين.

وإذا أردتَ أن تقف على حقيقة الزعامة في الإسلام فانظر الى رؤساء المسلمين الأولين وخلفائهم الراشدين، هل تراهم توقفوا عن الدخول في أمر من اُمور المسلمين واعتذروا لخمولهم بأنه سياسيّ أو إداريّ -مثلاً- كما يفعله بعض المترئسين اليوم، أو أنهم ينظرون في جميع أمور المسلمين على السواء تهمهم الأُمور الحربيّة أكثر من أمور الصلاة، والأُمور القضائية لديهم أهم من اُمور الصيام والتهجد، والأمور الإدارية والسياسيّة في نظرهم أكبر من اُمور الزهد والإعتزال، ولهم عناية خاصّة بأُمور المعاش؛ من التجارة والزراعة وغيرها يتساوى فيها الرئيس والمرؤوس.

إن أكبر رئيس دينٍ في الإسلام هو نبي المسلمين وإمامهم (صلى الله عليه وآله وسلم) أترى رئيساً يدّعي روحانية أو زعامة دينيّة فوق تلك الروحانيّة والزعامة؟ ألم يكُن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) راعي غنم، وتاجراً قبل البعثة، وزارعاً يأكل مِن غرس يدَيه بعدها؟ هل منعَته روحانيّته أو زعامته الدينيّة عن مباشرة اُمور الحرب بنفسه الزكيّة وتحمُّل أعبائها وجراحاتها، وذوق حلاوة الفتح ومرارة الهزيمة فيها؟.

إن أول مسألة سياسيّة عرضت للمسلمين هي «معاهدة الحديبيّة» التي فتح الله بها للمسلمين فتحاً مبيناً، ولم يكن ذلك إلا فتحاً سياسيّاً. هل اعتذر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه أمر سياسيّ ليس لي المداخلة فيه لأني رئيس دينيّ أو زعيم روحانيّ؟

ألم يكن هو (صلى الله عليه وآله وسلم) مملي تلك المعاهدة وعلي (عليه السلام) كاتبها؟.

هذه وأمثالها أفعاله، ولقد شابهتها أقواله حيث جعل المسلمين شرعاً سواء في جميع الأمور، وأمرَهم بالإهتمام جميعاً في كل حادث يحدث على المسلمين صغيراً كان أو كبيراً. وحرّم عليهم المعاش من طريق البطالة والإثرة بالمال؛ كالربا والإحتكار، وحث على التجارة وتربية المواشي والزراعة. وأمر بامتشاق الحسام والجهاد والنضال. وتحصيل العلم وجعله فرضاً على المسلمين.

وحسبك من أقواله (صلى الله عليه وآله وسلم): «جعلَ اللهُ البركةَ تسعة أعشارها في التجارة والباقي في الجُلود» أي تربية المواشي.

وقول القرآن المُنزل على لسانه: ﴿فامشوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِن رِزقِهِ وإلَيهِ النُشور﴾ وقوله: ﴿وآيَةٌ لهُمُ الأرضُ المَيْتةُ أحيَيناها وأخرَجنا مِنها حبّاً فمِنهُ يأكلُون. وجَعَلنا فِيها جَنّاتٍ مِن نَخيلٍ وأعنابٍ وفَجّرنا فِيها مِنَ العُيونِ لِيأكُلوا مِن ثمَرهِ ومَا عَمِلَتهُ أيدِيهِم أفَلا يَشكُرون﴾.

وناهيك في معرفة أساس شريعته (صلى الله عليه وآله وسلم) ما في نهيه الجماعة الذين تركوا التجارة لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يجْعَلْ لَهُ مَخرَجاً ويَرزُقْه مِنْ حَيثُ لايَحتَسِب﴾ وأغلقوا عليهم أبواب دورهم واشتغلوا بالعبادة قائلين: قد كُفينا. فنهاهم عن ذلك، وفضّل التجارة على عبادتهم، وأمَرهم بترك تلك العبادة والرجوع الى التجارة [1] وما ورد في القرآن والحديث من الحث العظيم على طلب العلم

---

(١) ولفظ الحديث هكذا كما رواه العلامة في «التحرير» عن الصادق عليه السلام إنه قال: ما فعل عمر بن سلم؟ قيل: أقبل على العبادة وترك التجارة. فقال: ويحه أما علم إن تارك الطلب لا يُستجاب له، إن قوماً من اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما نزل ﴿وَمَن يتّقِ اللهَ يَجعلْ لهُ مخرَجاً وَيَرزُقْهُ مِن حيثُ لا يَحتسِب﴾ أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كُفينا، فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأرسل اليهم قال: ما حملكم على ما فعلتُم؟ فقالوا: يا رسول الله يكفل الله عزّ وجل ما رزقنا، فأقبلنا على العبادة. فقال: إنّ مَن فعل ذلك لم يستجب الله له، عليكم بالطلب، إنّي لأبغض الرجل فاغراً فاه الى ربه يقول: ارزقني ويترك الطلب.

⇐

والتخلُّق بمكارم الأخلاق شائع مشهور وهو كافي في الوقوف على ما ترمي اليه الشريعة من الغرض الأهم، وأما القضاء فقد جعل له المقام الأسنى والمحل الأرفع في الاسلام، حتى قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مديح ابن عمه: «أقضاكم علي».

وجعل الشيعة هذا الحديث من أدلة حق تقدم علي (عليه السلام) على مَن تقدمه من الخلفاء، ملزِمين خصومهم بأن أقضى المسلمين أقدرهم وأعلمهم، وهو أحق بالنظر في امورهم ممن دونه مرتبة في القضاء، وما ذلك إلاّ لعظم أهمية القضاء في الشريعة الإسلامية.

وبالجملة إنّ الشريعة الإسلامية لم تغادر صغيرة ولا كبيرة بما يضمن للبشر السعادة الدنيوية والاخروية إلاّ بيّنت حكمها.

ولم تستثن من ذلك أحداً من المسلمين، لا روحانياً ولا غيره، بل أمرت كل المسلمين بالقيام بالعمل، ولستُ الآن بصدد ذلك، ومَن أراد الوقوف على ذلك فليرجع الى مجلدات «المعارف المحمدية» التي ألّفتها بأمر والدي لهذا الغرض، وأسأل الله أن يوفقني لنشر بقية أجزائه، وغرضي الآن منحصر في بيان معنى الزعامة الدينية ووظيفة الزعيم الديني والعالِم الربّاني.

وملخصها هو معرفة جميع تلك الأحكام والقيام بها، فلا يُمكن للروحاني والعالِم بشرائع الإسلام أن يتجنب شيئاً تبيّنه الشريعة، ولا مناص للمتشرّع عن اتباعها.

ولذلك ترى رؤساء الدين من الأئمة الراشدين كانوا قائمين بجميع شؤون المسلمين مع اشتغالهم في امور معيشتهم.

هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو أول رئيس ديني بعد النبي، كان أخطب الناس على المنبر وأفصحهم، وأشجع الشجعان في ميدان الحرب

⇐ وروي أيضاً في «المنتهز» عن الشيخ بمعنى هذا الحديث، قال عمر بن زيد، قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): رجل قال لأقعدن في بيتي ولأصلينّ ولأصوم ولأعبدنّ ربي عز وجل فما رزقني فسيأتيني. فقال ابو عبد الله (عليه السلام): هذا أحد الثلاثة الذين لا يُستجاب لهم. (الناسخ)

وأعرفهم بفنونها وأعلمهم، وأقضى القضاة في دكة القضاء، وأمهرهم وأحذقهم بالأُمور السياسية والإدارية وجباية الأموال وأبصرهم، ويكفي من ذلك ما جاء في عهده الى واليه على مصر مالك الأشتر النخعي من الأُصول الإدارية والسياسية والمالية الذي جاء في أوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين، مالك بن حارث الأشتر في عهده اليه حين ولاّه مصر، جباية خراجها وجهاد عدوّها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها... ».

وكان عليه السلام يعمل بالغرس والحرث لقوت نفسه وعياله مقتصداً في ذلك زاهداً في امور الدنيا لنفسه، وإن سعى السعي الحثيث في إعماره لغيره، حتى إنّه كان يحمل النوى على كتفه ويمضي به للغرس.

فيقال له: ما هذا؟

فيقول: هذا نخل.

مشوقاً الى الغرس بما ينتجه من النفع.

وعلى ذلك كان سيرة رؤساء الدين من أئمة المسلمين، فهُم حَفظة الثغور وحَملة العلم ومسخّروا الأُمم ومهذبوا الأخلاق والعاملين لكسب قوت أنفسهم وعيالهم.

قال: محمد بن المنكدر: «عن عبد الرحمن بن الحجّاج عن أبي عبد الله عليه السلام ان محمد بن المنكدر كان يقول: ماكنتُ أدري علي بن الحسين عليه السلام يدع خلَفاً أفضل من علي بن الحسين عليه السلام حتى رأيتُ ابنه محمد بن علي عليه السلام فأردتُ أن أعِظه فوعظني. فقال له أصحابه: بأي شئ وعظك؟.

قال: خرجتُ الى بعض نواحي المدينة في ساعة حارّة فلقيني أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام وكان رجلاً بادناً ثقيلاً وهو متكيء على غلامَين أسوَدين او موليين، فقلتُ في نفسي: سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذا الحال في طلب الدنيا! أما لأعِظنّه فدنوتُ منه فسلّمتُ عليه، فردّ عليّ بنهر وهو ينصاب عرقاً فقلتُ: أصلحك الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة، على هذا الحال في طلب

الدنيا؟! أرأيتَ لو جاء أجلك وانت على هذه الحال ما كنتُ تصنع؟. فقال: لو جاءني الموت وأنا في هذه الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعة الله عزوجلّ أكفّ بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، فاني كنتُ أخاف لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله عزوجلّ. فقلتُ: صدقت يرحمك الله. أردتُ أن أعِظك فوعظتني»

فقد تبيّن أن أئمة المسلمين، وزعماء الدين، كانوا يشتغلون لأُمور الدنيا باجتهاد، يرون ذلك من أنواع الطاعات والقُربات. وحسبك في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيْمَا آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا..﴾.

ومن جميع ما مرّ عُلم أن الرئاسة الدينيّة في الإسلام ليست وظيفة في عرض سائر الوظائف، وعملاً على حدّ سائر الأعمال يختص به الرئيس.

وإنما هي قيام بنشر الأحكام الدينية وحفظهابعد معرفتها وحياطتها، وللرئيس الديني عمل من الأعمال البدنية يقوم به لسدّ أُمور معيشته؛ لئلا يكون كَلاً وعالة على الناس.

وإذا كان تكليف الرئيس الديني بيان الأحكام الشرعيّة وكانت شاملة لجميع حاجات البشر وأعمالهم، فلابدّ له من الاطّلاع على ما بأيدي الناس من الأعمال، وما يمسّهم من الحوائج لِتوقف بيان أحكامها على معرفتها.

فلا يليق للزعامة الدينية مَن إذا سُئل عن أمرٍ قال: لا أدري ولا أعلم! أو من لم يميّز بين الخزف والنحاس، كما يتظاهر بذلك بعض من يتطلّب الزعامة والرئاسة في الدين فيقلبه ويجعل البلاهة ذريعة للرئاسة، ليقول الناس إنه تارك الدنيا، فهو جدير بالإتّباع والإقتداء. والأجدر بالبُله أن يلزموا بيوتهم، ويبكوا على خطيئتهم لا أن ينظروا في جميع حاجات البشر وضرورياتهم، فليس ذلك إلا للكيِّس الفطِن الذكي.

ولا يُفهم من قولي أن الزعامة الدينية تستدعي بيان أحكام جميع أعمال البشر وحاجاتهم، وإن على الروحانيّ القيام بجميع ما يحتاج إليه الناس، فإن ذلك لغير باريء السماوات والأرض مستحيل، بل المراد؛ إن على كل إنسان، أن يقوم بعمل من الأعمال يختصّ به ويعمّ نفعه سواه، ومن جملة الناس الرجل الروحاني فعليه أن يقوم بعمل من

الأعمال كسائر الناس، ويزيد عليهم معرفة أحكام جميع الأعمال من وجوبٍ وحرمةٍ وغيرهما، فعليه بيان تلك الأحكام، وبيان أحكام الأعمال غير القيام بتلك الأعمال. فإذا وجب الجهاد على الناس كافة لا يُستثنى منه الروحاني، وإذا وجب على كل إنسان أن يعمل لتحصيل قوته فلا وجه لاستثناء الروحاني من ذلك، بل هو كالطبيب والنجار والمهندس والزّارع وغيرهم له علم وعمل؛ وعلمه بيان جميع الأحكام.

نعم إذا استوعب تحصيل العلم بالأحكام الشرعية والقيام بها جميع أوقاته بحيث لا يستطيع معها القيام بأمر آخر أو عجز عنه، ساغ له الإرتزاق من بيت المال أو الوجوه البِريّة المقررة شرعاً للمصارف العامة.

هذا شأن الرئاسة الدينية وحكمها في الشريعة الإسلامية. وإذا رأيت أُناساً لا يعملون بمقتضاها ممن تسمّوا برؤساء الدين فليس ذلك لنقص في الشريعة، بل في نفوسهم التي تسوقهم الى العمل خلاف أحكام الشرع حباً بالإثرة والسلطان، وحرصاً على الإحتكار وجمع المال، وطلباً للراحة والإرتزاق من جهد العاملين وصرف الوقت بالبطالة الذي يُعدّ في الشرع من كبائر الآثام.

فإذا عرفتَ حقيقة الزعامة الدينية في الإسلام تيقنتَ حقّ اليقين أن أعمال رئيسنا الديني، وزعيم المسلمين في هذا العصر آية الله الخالصي لم تكن إلا طبق أحكام الشريعة الإسلامية وبمقتضى زعامته الدينية، إذ ترَكَ الراحة جانباً، وفضّل العمل بنفسه الزكية، وتصدى لبيان جميع الأحكام الشرعية مما يكفل سعادة المسلمين؛ لم يقتصر على أحكام الطهارة والصلاة حتى شفعها بأحكام التجارة والصناعة والعلم والجهاد.

وكل ما أفتى به، شرع هو في العمل طبقه قبل جميع المكلّفين، لاكمن يحكم ويُفتي ولا يعمل، يقول بوجوب الجهاد وهو في داره بين أهله، وبحرمة البطالة ووجوب الكسب وهو وحاشيته كَلّ على الناس، ويتناسى من الفقه أكثر أحكامه، حتى مثّل الشريعة الإسلامية على خلاف ما هي عليه، قانوناً ناقصاً لا يصلح لدُنيا ولا دين، جهلاً بها أو خمولاً وكسلاً.

قام آية الله بما يجب عليه وأتعب نفسه في دنياه، ونشر أحكام الشريعة قولاً وعملاً،

ولم يبال بكلّ ما اعترض سبيله مما أقامه الملحدون المستعمرون مـن العـقبات، ولم يزل على ذلك لم يَحِد عن نهج الحقّ والرشاد حتى لاقى ربه فائزاً بما أعدّه له النـعيم والزلفى عنده جزاءً خالداً ونعم جزاء المحسنين وذلك هو الفوز العظيم.

وقد أبقى المسلمين بعده حيارى لايرون من يقوم مقامه، أو يعمل كما كان يعمل، فنسأل الله أن يقيّض لهم مَن يسد الثلمة ويرتق الفتق وإن كانت تلك الثلمة التي حدثت بفقده لا يسدّها شيء.

وإذ انتهى بنا المقام الى هنا فلنذكر مراحل حياته التي طواها في خدمة الإسلام.

مراحل حياته التي طواها في خدمة الإسلام ونبذة من أعماله فيها

المرحلة الأُولىٰ:

مَرحلةُ التَحصيل والدَرس

وهي ليست جديرة بالذكر فإن مرحلة الطفولية، مرحلة تدرّب وتعلّم لا يظهر فيها فضل للإنسان ولا ميزة، إلا أنّ آية الله قدّس سرّه كان معروفاً في طفوليته بالورع والإكباب على الدرس والإنقطاع له عن كل عمل هو كالضروريّ للأطفال والشبان، وكان معروفاً بذلك.

المرحلة الثانية:

مَرحلةُ التَدريس والتأليف

وقد مرّ شئ من أخبارها سابقاً، فلنكتفِ به.

الفصل الثاني

دورهُ في

الحربِ العالميةِ الأُولىٰ

المرحلة الثالثة:

منذُ سنة ١٣٣٢هـ [١٩١٤م] حيث شبّت نار الحرب العامّة الى سنة ١٣٣٦هـ [١٩١٨م] حيثُ خَبَت نارها

وكان له خلال هذه السنين أعمال تشكر قلّ ما اتفقت لأحد من أقرانه، نذكر شيئاً منها:

إن أعظم بلية سبَّب وجودها الإنقلاب العثماني والإيراني؛ هو النزاع الداخلي الذي قام في المملكتين بين مَن نادى باسم الدين ومَن نادى باسم التجدد، كأنهما ضدان أخذ بكل ضدٍّ فريق فاحتدم النزاع بينهم، وكان من آثار هذا النزاع القضاء على الممالك الإسلامية واستيلاء أعدائها عليها.

وكان آية الله يرى الدين يدعو الى التجدد، والتجدد من الدين. فكان أكثر ما يهمه حسم النزاع بين الفريقين، وإنهاء الإختلاف الداخلي ليتفرّغ المسلمون لعدوّهم القاسي الذي يهاجمهم من كل مكان.

ولما كان منشأ هذا النزاع هو الإختلاف الذي كان قائماً بين علماء الدين؛ كل كان يذهب الى رأي وينزع الى عقيدة، كان يسعى السعي الحثيث لجمع كلمة رؤساء الدين كي يستطيعوا أن يسيروا بالمسلمين على الجادة المستقيمة، وينهجوا بهم الطريقة القويمة.

فلما حلّت بليّة إيران بعد تبديل حكومتها الأستبدادية بالحكومة النيابية. وانقسم العلماء فريق مع السيد محمد كاظم اليزدي، وآخر مع الشيخ محمد كاظم الخراساني، وتشتت الكلمة وحار الناس في تكليفهم. كان يجدّ ليله ونهاره في جمع شتاتهم

وتعيين التكليف الشرعي لعامة المسلمين الذين ضلّوا حيارى مترددين وتغلّب الكفر على بلادهم، فكان شدة إصرار كل من الفريقين على ما يراه؛ مانعاً من ذلك حتى توفي الشيخ محمد كاظم الخراساني على أثر المذكّرة التي هدد بها الروس إيران بالإحتلال واقتسامهم مع الإنجليز البلاد الإيرانية حسب ما جاء في معاهدة سنة ١٩٠٧ بين روسيا وإنكلترا، وصمم العلماء على الحركة الى إيران ودعوة المسلمين للدفاع عنها. وخلف في ذلك السيد محمد كاظم اليزدي.

لما نزلت هذه البليّة؛ نهض الخالصي لأنهاء الإختلاف، وكان قد اجتمع في الكاظمية أكثر العلماء، وبقي الميرزا محمد تقي الشيرازي في سامراء، واليزدي في النجف؛ ومع بقائهما لاتقوم للإسلام قائمة، ولا تجد إيران عنها مدافعاً، ولا يجد العامّة نهج الحق.

فمضى الخالصي الى سامراء يصحبة «الشيخ حسن علي» أحد علماء البحرين. وكلّم الميرزا الشيرازي في اللحوق بالعلماء. فمانع أحد تلاميذه عن ذلك أشدّ المنع وهو «السيد حسين القميّ» فأمهله الخالصي حتى فرغ من كلامه وحاجّه محاجّة خفيفة رأى فيها الشيرازي خطأ تلميذه القميّ، إلا أنه لم يتكلّم بشيء فأمهله الخالصي الى الصباح، ولاقاه بعد الفجر وخرجا يتجولان خارج البلد يتكلمان في تعيين التكليف الشرعي. فتعيّن للشيرازي وجوب اللحوق بالعلماء بدليلٍ أقامه الخالصي وهو أن رؤساء الدين أقدموا على مناجزة الروس والإنجليز، فإن التحق بهم الشيرازي كان ذلك قوّة لهم، وإن لم يلتحق غُلبوا، ولم يستطع الشيرازي وحده أن يحفظهم من غلبة الأجانب والهتك، وإذا غُلبت تلك العصابة لم يقم للدين بعدها قائمة.

فقنع الشيرازي بذلك إذ لم يكن له غرض إلا اتّباع الحق، وصمم على الحركة.

وكان يخشى من تقاعد اليزدي، إلا أن الخالصي أقام الحجة؛ بأن وجود الشيرازي يعطي قوة للعلماء نهض اليزدي أو قعد.

فتحرك الشيرازي الى الكاظمية حيث يقيم جميع العلماء، وصحبه جميع تلاميذه.

وفي الكاظمية تذاكر مع العلماء فأقنعهم بوجوب موافقة اليزدي على كل حال؛ لأن

الإختلاف أضرّ، والإتفاق نافع ولو على خلاف الأولى، ولا يضر العلماء أن يُقال فيهم أنهم تبعوا اليزدي فيما إذا بان الحق معه.

فكتبوا جميعهم بدون استثناء ما يقرب من هذه الجملة:

«أن كل ما يتفق عليه حجة الإسلام الخالصي مع حجة الإسلام اليزدي نمضيه ونتبعه كائناً ماكان ولا نشذ عنه.»

وكان الموقعون في ذلك آيات الله: الشيرازي، والسيد إسماعيل الصدر، والشيخ عبد الله المازندراني، وشيخ الشريعة الأصفهاني، والسيد علي الداماد، والشيخ محمد حسين القمشه يي، والسيد مصطفى الكاشاني، والسيد مهدي آل السيد حيدر الكاظمي، وغيرهم من العلماء.

وأخذ الخالصي ماكتبه العلماء وقصد النجف، وفي كربلاء استكتب «الشيخ محمد حسين» نجل «الشيخ زين العابدين» مثل ما كتبوا، وجاء النجف، ولم يتخلّف غير اليزدي من العلماء، فأرسل إليه لملاقاته ولم ينتظر زيارة اليزدي له، مع أنه كان قادماً والقادم يُزار، فقصد داره لمذاكرته في ذلك الوقت وفي الطريق رآه: «الحاج محمد رضا التستري» أحد تجار النجف، فأخبره بعروض كسالة في مزاج اليزدي تمنعه عن المذاكرة في ذلك الوقت، وعيّن وقتاً آخر للملاقاة. فرجع الخالصي الى داره وأمهل اليزدي الى الوقت الثاني الذي عيّنه. فعزم على ملاقاته وأُخبر حينئذٍ أن اليزدي خرج من النجف وقصد الكوفة. وجاء: «الشيخ أحمد كاشف الغطاء» وهو معتمَد اليزدي وأوّل تلامذته فأخبر الخالصي إن اليزدي كان مصمماً على الإجتماع به ومناظرته لكن حاشيته خوّفته من ذلك وقالوا له: إذا ناظرت الخالصي غلبك بالحجة لامحالة. فإن وافقت العلماء غُلِبت، وإن بقيتَ على مخالفتك غُلبت وهُتكت حرمتك، فلا مناص عن الإمتناع عن ملاقاته ليسلم لك تفوقك. فصمم على المضي الى الكوفة فراراً من الملاقاة.

فأظهر الخالصي عزمه على المضي الى الكوفة مقتفياً أثر اليزدي ليجتمع به ويرفع عذره عن الإتفاق مع العلماء إن كان له عذر.

ولما علمت حاشية اليزدي بتصميم الخالصي صمموا على منعه ولو جرّ ذلك الى أعظم الفتن.

وكان عمّال الإنجليز والروس مجدّين بجميع مايمكنهم من الوسائل في منع هذا الإجتماع، علماً منهم بأن اتفاق العلماء يكون مانعاً عن إجراء مقاصدهم الإستعمارية وفي مقدمتهم «أبو القاسم الشيرواني» نائب قنصل الروس في النجف الذي كان يشتغل للروس والإنجليز في وقت واحد.

فقصد الخالصي الحرَم وقت الظهيرة للصلاة على عادته وبينما كان مشغولاً بالدعاء عند رأس الأمير عليه السلام والحرم خالٍ من الزوّار لشدة الحرّ. إذ قصده نفر يُقال أنهم من أتباع اليزدي وحاشيته فضربوه هناك وانصرفوا.

فكتم الخالصي الخبر وانصرف الى داره ورغماً عن كتمانه شاع بين الناس من سدنة الحرم. فتحزّبوا في النجف وكادت أن تحدث فتنة عظيمة يتطلبها عمّال الروس والإنجليز في ذلك الوقت. إلا أن الخالصي تدارك الأمر بمغادرته النجف ليلاً قاصداً الكاظمية حيث ينتظره العلماء فيها.

ووردت من النجف برقيّة تشير الى الحادثة ونصّها:

﴿فَخَرَجَ مَنْهَا خَائِفَاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَومِ الظَّالِمِين﴾.

فاضطرب الناس في الكاظمية واجتمع الناس حول دار الخالصي في النجف لينتقموا من المتجاسرين، فلم يروه وعلموا أنه قصد الكاظمية، وحصل شئ من الإضطراب في النجف.

وكان «جمال باشا» وزير البحريّة العثمانية والي بغداد ذلك اليوم فاضطرب أشد الإضطراب لتجاسر المتجاسرين وتصرُّف الأجانب في أمور المسلمين في النجف قبّة الإسلام، فجدّ بالأمر وأشخص كل من يحتمل أنه شريك في هذه الجناية مباشرة أو تسبيباً. واجتمع مع الخالصي في بغداد فقال له: إني أحضر لك جميع من في النجف لتعيّن المتجاسرين فتكشف هذه الجناية ويُعاقب الجانون وينكشف للحكومة من يعمل بإشارة الأجانب فيُنفوا من مملكة الإسلام.

فلم يزل الخالصي يُسكِّن جمال باشا ويهوّن عليه الأمر ويخفف من حدّته، حتى حمله على تخليص المحبوسين جميعاً بعد عناء شديد. وكان أكثر الناس مجدّين في تعقيب الجانين وعقابهم، ولقد عجب الناس من حلم الخالصي وصفحه.

ولما رأى العلماء ذلك يأسوا من موافقة اليزدي، وبقي الهرج والمرج سائداً، والجهل والغفلة غالبان على الناس. وتفرق العلماء على أثر ذلك.

هذا شئ مما يكشف عن مقدار جدّ الخالصي وجهده ومعالي أخلاقه.

الفصل الثالث

أحداث الجهاد

اللامركزيّة [١] في المملكة العثمانية

وكان في تلك الأيام قد ألقى الإنجليز والفرنسيون في أذهان بسطاء العرب مطالبتهم باستقلال البلاد العربيّة وانفصالهم عن الدولة العثمانية. وتجمّعت لذلك الجموع، وتشكلت الجمعيات، وأقيمت المجامع في «باريس، والآستانة، ومصر، وسوريا» وسرى ذلك الصوت الخدّاع الى العراق. وكان غرض الفرنسيين والإنجليز من ذلك خداع العرب البسطاء وفصلهم عن السلطنة العثمانية لابتلاعهم وتقطيع تلك المملكة واستعبادها بيد أهلها.

فكان الخالصي ينظر الى ذلك بعين السخط والإضطراب، ويعجب كثيراً من انخداع أولئك النفر الغرّ، وكان يقرأ في خلال سطور تلك الحركة المشؤومة ذلّ العرب واضمحلال الإسلام. وكان يهمّ بإخماد نار تلك الفتنة التي أججها أعداء الإسلام لإطفاء نوره.

وأمرني مع ذلك بمبارزة تلك الحركة بكل قواي قلَماً وقدماً. وصرتُ أكتب وأذيع ما أستطيع من البراهين الدالّة على نيّات الأجانب من ذلك الخداع، وأُنذر العرب ذلك اليوم بما حاق بهم هذا اليوم من البلاء والشقاء بأيدي المستعمرين، وأُحذّرهم من الحيف والظلم والجفاء الذي جرّوه على أنفسهم لغفلتهم عن كيد أعداء الإسلام. وكان كل ذلك بأمر والدي ورأيه.

ولم يكن غرضه صدّ العرب عن الإستقلال والحكم الذاتي؛ بل كان يعتقد أنهم لا يستطيعون أن ينالوا استقلالهم بأنفسهم وإذا استمدّوا من المستعمرين صاروا أُكلة نهومي الإستعمار. كما أنه كان يعتقد أن ذلك الإستقلال لايمكن أن يُحفظ إلا بارتباط

(١) استقلال الممالك التابعة للمملكة العثمانية.

العرب بالدولة، وتشكيل جامعة إسلامية تجمع حكوماتها المستقلّة في داخليّته. فكانت إذاعاتنا تؤثر على الصادقين الذين لاغرض لهم إلا الحريّة والإستقلال. إلا أن كثيراً من أركان تلك الحركة وعمدها كانوا مستأجري الأجانب وعمّالهم أقدموا على إذلال العرب وشقّ عصا المسلمين عامدين مخدوعين بوعود كاذبة وعدهم إيّاها أعداء الإسلام وسرعان ماوضعوها تحت أقدامهم.

وناهيك! ما عمله «الحسين شريف مكة» وأبناؤه مِن شقّ عصى المسلمين وسفك دمائهم في بلد الله الحرام طبقاً لآمال المستعمرين. وقد رأيت ما حلّ بهم وبالأمة العربية من جرائمهم حتى قنعوا بواحد من ألف مما كان لهم من الحقوق لدى الدولة العثمانية، فأبى الأجانب إلا إذلالهم واسترقاقهم وسلبهم كل حقّ طبيعي ووضعي، وصار الرجل الذي كان يستطيع أن يقف في مجلس الأمة العثمانية، ويستوقف الوزارة العثمانية للسؤال ويجبرها على الإستقالة متى شاء، لا يستطيع أن يكلم أحد أفراد «الدَرَك» الفرنسوي أو الإنجليزي في أقل شؤونه الشخصية وإن تضرَّع تضرُّع العبيد، ولوَى جيد الذل ليَّ الأرقّاء، فضلاً عن أن يكلّم أحد قادتها في أحد الشؤون العمومية وإن لم يجبه الى ذلك.

هذه الفئة الباغية كانت عامدة الى إذلال العرب لا مخدوعة، فلم تكن تؤثر فيها النصيحة والوعظ وإقامة البراهين، بل كانوا مجدّين في إيفاء وظيفتهم حتى أوقعوا في ظلمة هذا الظلم الحالك ـ الذي عَشَت فيه الأبصار هذا اليوم ـ جميع العرب، وباؤوا هم بسخط الله وغضب الأمة، وتقلّدوا العار والشنار الى يوم القيامة. وحرمهم المستعمرون ما وعدوهم به، فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

ولعلّ الله يقيّض للمسلمين يوماً ينتقمون فيه من تلك الفئة الفاجرة، ويعيدوا للإسلام مجداً أذهبَته، فيصبغوا من دمائها المنتنة وجه الأرض التي ملأوها خزياً، وما ذلك على الله بعزيز.

حَربُ طرابُلسَ والبُلقان

وبينا تلك الفتنة تستعر نارها في البلاد الإسلامية؛ إذ نشبت نار حرب طرابلس الغرب، وأعقبها لهيب نيران حرب «البلقان». فكان الخالصي يسعى السعي الحثيث في إعانة الدولة العثمانية بما يستطيع من المال. ولقد رأيته طالما يتشوق الى المضي الى «طرابُلس» لمساعدة المسلمين على حرب الإيطاليين. وكذلك كانت حاله في حرب البلقان إلا أن الحالة ذلك الوقت لم تكن تمكنه من ذلك، فكان شديد الأسف لحرمانه من الأجر العظيم في جهاده هناك.

الحربُ الدوليّةُ العامّةُ

وما لبثَ قليلاً حتى شبّت نار الحرب الدوليّة العامة، وكان للعراق العربي منها نصيب وافر فحسر عن ساعد الجدّ وشمّر عن ساق الإجتهاد، وشكّل مجلساً من العلماء في الكاظمية لجمع المال والسلاح واكتتاب المتطوعين والمجاهدين لحرب الإنجليز. فبقي زهاء ثلاثة أشهر مشتغلاً بذلك حتى اجتمع مال وافر وتهيّأ للإشتراك بالحرب عدد كثير.

فتحرّك هو وأخوه الشيخ محمد صادق وآية الله السيد مهدي آل السيد حيدر الكاظمي وثلاثة من أولاده وعدّة أُخرى من علماء الكاظمية ورؤسائهم، وكنتُ بخدمتهم.

وتحرك من الكاظمية أخوه الأكبر آية الله الشيخ راضي الخالصي الى نواحي «الخالص» و«خراسان» [١] وجمع مالاً ورجالاً والتحق بأخيه في «الأهواز».

(١) في ديالى (الناشر)

واقتدى بذلك علماء النجف فجمعوا مثل ما جمع الكاظميّون، ونهض منهم «السيد محمد سعيد الحبوبي» و «شيخ الشريعة الأصفهاني» مع ولده و «السيد مصطفى الكاشاني» مع ولده وأرسل «السيد محمد كاظم اليزدي» ولده «السيد محمد» الى ساحة الحرب و «الميرزا محمد تقي الشيرازي» ولده «الميرزا محمد رضا». وحكم جميع العلماء بوجوب الجهاد بالنفس والمال على كافّة المسلمين نساءً ورجالاً كلٌّ بما يستطيع، ونهضَت للجهاد أكثر القبائل.

وكان فريق ممن انتسبوا الى العلم إفكاً وزورا مشغولين بتخذيل الناس ومقاومتنا في تلك النهضة الإسلامية، وهم الذين تقرّبوا الى الإنجليز بعد احتلال العراق، وأعظمهم كان في الكاظمية هو «السيد حسن بن السيد هادي» ومن معه. وكان الناس راغبين في العافية والسلامة، ولم يعلموا أن العافية مع استيلاء الإنجليز مستحيلة؛ شحيحين بالأموال، ولم يكونوا يعلمون بأن الإنجليز يسلبونهم أموالهم إذا استولوا عليهم، قصيري النظر، لايدركون ما يدركه الخالصي، جاهلين لا يعلمون ما يعلمه. فلذلك كان يلاقي منهم الصعوبات المرّة، والسيد حسن وأمثاله يُغرون الناس بالجهل، ويخذّلونهم عن القيام بنصرة المسلمين، ويحرّضونهم على مقاومة آية الله الخالصي خاصّة دون بقية العلماء، لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالصي إذا تقاعد لم ينهض أحد، وهكذا كان الأمر. لأن السيد مهدي وإن كان مبرّزاً في الكاظمية إلا أنه لم يكن يستطيع نقضاً ولا إبراماً لضعفه وكل ما كان من الخالصي والسيد مهدي لوثوقه به كان لا يخالفه بشيء. وكان عزم الخالصي يذلل تلك الصعوبات، فلم تَلوِه ولم تُثني عزمه.

فتحرّك والسيد مهدي، ونحن بخدمته الى ميدان الحرب رغماً عن إرجاف المتخاذلين.

تحركنا من الكاظمية يوم الثاني عشر من المحرّم سنة ١٣٣٢ في باخرة الى البصرة وكان قد بلغَنا سقوطها بيد الإنجليز وهزيمة «جاويد باشا» قائد العراق الى «القرنة» فصادفَت حركتنا طغيان «دجلة» واستيلاء الماء على بغداد فلم نعتنِ بذلك، وتحرَّكنا بخدمة آيتي الله الخالصي والسيد مهدي فوردنا «الصويرَة» (الجزيرة) ودعونا بأمر آيتَي

الله رؤساء قبيلة «زبيد» و «شُمّر طوقة».

فأمرني الخالصي أن أقف بينهم فامتثلتُ وخطبتُ الناس محرّضاً لهم على القتال، محذّراً عقاب الله في التخاذل، منذراً سوء عاقبة استيلاء الإنجليز على البلاد الإسلامية، مبيّناً لهم ما عمله الإنجليز في المستعمرات الإسلامية؛ من الهتك والسفك والظلم والجور والإسترقاق والإستعباد. ولم أزَل بالناس حتى تهايجوا ولبّوا الدعوة بالصراخ والعويل وقصدوا الباخرة التي تقلّ آيتَي الله، فزاروهما وأوعدوا بأنهم على اثرهما قاصدوا البصرة.

فتحركنا الى «البُغيلة» ودعونا رؤساء «ألبو سلطان» فعملتُ كما عملتُ في الجزيرة بأمر الخالصي، وعمل الناس كما عملوا في الجزيرة.

ثم تحركنا منها حتى وردنا دار مشايخ «ربيعة» فعملنا بينهم مثل ما عملناه في البُغَيلة فأجابوا وأسرعوا.

ثم تحركنا الى «الكوت» وكان مشائخ قبائل «الغراف» قد اجتمعوا فيها، وكذلك مشائخ قبائل «الإمارة» و «ميّاح» و «السراي» وبعض «بني لام» فوردنا بخدمة آيتَي الله الى دار الحكومة، وكان قد تجمهر فيها الناس، وكان بين تلك القبائل نزاع كاد يجرّ الى وقوع حرب بينهم.

فأمرني الخالصي أن أخطبهم. وكان هو والسيد مهدي واقفين على الأقدام وكذلك باقي العلماء. فخطبتُ الناس خطبة موثِّرة حملتهم على ترك الخصام بينهم والإسراع الى الجهاد فأسرعوا بتلبية الدعوة ونبذ الشقاق، وتحرّك منهم ومن أهل الكوت خلق كثير.

ثم تحركنا في الباخرة الى «سوق جنديل» فجاء مشائخ بني لام من آل جنديل وعمِلنا معهم مثل ما عمِلنا في الكوت.

ثم تحركنا الى «علي الغربي» فخطبتُ في أهله بأمر الخالصي داعياً لهم الى الجهاد، فلبّوا الدعوة، وكان هناك مشائخ «آل عبد العالي» من بني لام وآل مزبان فاجابوا الى ما دعوناهم.

ومنها تحركنا الى «كُمَيت» وكان فيها مشائخ «آل درّاج» فخطبتُ فيهم بأمره داعياً الى الجهاد محرّضاً على القتال فلبّوا الدعوة.

ومن كُمَيت تحرّكنا الى «العمارة» فوردناها وقد غصّت بالناس من أهلها والقبائل المحيطة بها وكان فيها بقيّة رؤساء «بني لام» و «ألبو محمد» و «السودان» و «السواعد» و«الأزيرج» وغيرهم.

فوردْنا المعسكر فيها يقدمنا الخالصي متقلّداً سيفه ونحن وبقيّة العلماء نحمل البنادق مدججون بالسلاح وآلات الحرب يتبعنا بقيّة المجاهدين من أهل الكاظمية. وكان المعسكر غاصّاً بالناس ورؤساء القبائل. فأمرني الخالصي أن أقف فيهم خطيباً، فخطبتُ خطابة طويلة؛ كشفتُ فيها عمّا أمكنني من مساويء الإنجليز، وأنذرتُ العراقيين بجميع ما يرونه اليوم منهم، وحذّرتهم سخط الله، وضياع الحق، واضمحلال الدين، وهتك الأعراض، وذهاب الأموال، والعبودّية، والذلّ الدائم، والخزي الأبدي، إن استولى عليهم الإنجليز. وضربتُ لذلك الأمثال من الأعمال الإنجليزية، والفجائع البريطانية، التي صبغت وجه البسيطة بالعار الدائم على الإنسانية، وغبّرت آفاق الأرض بحسرات المظلومين.

ولم أزل بالناس حتى تهايجوا، وعلت الأصوات بالنحيب. وزاد فى تهايجهم ما شاهدوه من حال رؤساء الدين، وتقلّد آية الله الخالصي بسيفه، فبدت منهم كلمات الحماس، وأكثروا نشيد الأراجيز الحماسية «هوسة» وصمم رؤساء القبائل على الحركة الى ساحة الحرب، ووردت من «جاويد باشا» برقيّة يطلب فيها سرعتنا بالحركة فاستشعرنا من تلك البرقيّة اضطراب جاويد باشا وتفوّق الإنجليز فأسرعنا الى البصرة فوجدنا القبائل على ضفتي «دجلة» قد تركَت أماكنها وانحازت الى «البطيحات» وكأنها توارَت عن الإنجليز، وبعُدت عن ساحات القتال، ورأينا الدهشة والذهول ضاربتين أطنابهما على ضفتي دجلة، فلا تكاد تحسّ بنفس متنفس، حتى وردنا «قلعة صالح» فوجدنا فيها أُناساً من الجند والقبائل كأنما على رؤوسهم الطير، حيارى ذاهلين قد استولى عليهم الخوف والجزع.

فنزلنا من باخرتنا، وأمرني الخالصي بتسكين روعة الناس وإذهاب رعبهم. فعملنا هناك من الأعمال ما نظن فيه سكون الناس ودفع الإضطراب.

ثم تحركنا الى «العُـزَير» فـوجدنا أوبـاش القـبائل قـد هـجموا عـلى تـلك القـرية وانتهبوها حتى ستار ضريح العزير ووجدنا جاويد باشا قد اتخذ مركزاً جديداً لمـقرّ الجيش هناك، وقد تعسكر الجيش في القـرنة وفـي «المـزيرعة» أمـام القـرنة. فـلاقينا جاويد باشا في باخرته، وأول ما رآنا أخذته الرقّة وغلبه البكاء، ثم أخذ يذكر عذره في تخلية البصرة وإن الدفاع عنها عاد مستحيلاً ولو أنه كان بقي فيها مع عدم تكافؤ قوته مع القوى الإنجليزية لاستولى الإنجليز عنوة وأسروه وجميع قواه ولبقي العراق بعد ذلك بلا مدافع فيستولي عليه الإنجليز كله دفعة واحدة. فلم يكـن بـدّ مـن تـخلية البـصرة واتخاذ مركز للدفاع في القرنة التي هي أضيق مجالاً، وخط الدفاع عنها أقصر منه فـي البصرة، فيمكن محافظة هذه القوى الى أن تصل القوى الإمدادية الى العراق.

ثم شكا جاويد باشا من جنده وعدم بسالتهم، وعللّ ذلك بأن أكثره من العراقـيين وهم لم يعتادوا الحرب، ولم يتدربوا لها. ثم أخذ بالثناء على الجيش التـركي وبسـالته وأوعد بسرعة مجيئه، وأنه سيكفي العراقيين مؤونة القتال. وطلب الدفاع عن القرنة الى أن تصل القوى الإمدادية.

وبعد أن فرغ جاويد باشا من كلامه وكان الخجل قد غيّر لون وجـهه وهـو غـاصٌّ بعبرته. تكلم آية الله الخالصي: فعذره في تـخليته البـصرة وهـوّن عـليه الخـطب بـأن الحرب سجال، (والكرّة تنفي الفرّة) وأوعده بأن قوى المجاهدين من العراقيين تدافع عن القرنة مع الجيش الذي هو فيها وأنها ستكفي القوى الإمدادية مؤونة القتال.

فبينا نحن في الحديث إذ دخل مدير دائرة البرق العسكري بـبرقيّة وحـين قـرأهـا جاويد باشا أخبر أن الحرب ابتدأت في القرنة. فما كان من آية الله الخالصي إلا أن نهض ببسالة وعزمٍ لايثنيهما شيء، وأبدى السيد مهدي حيدر على كبر سنّه وضـعفه وشـدة تخوفه في جميع الوقائع من البسالة ما يدل على أن قوّة الإيمان فيه غالبة على جميع ملكاته وأخلاقه.

فركبنا الباخرة متوجهين الى القرنة، وكان دويّ المدافع قد علا فيها بحيث نسمعه، فمازلنا مسرعين في السير حتى سكن دويّ المدافع. وبعد برهة وردنا الى مكان يقال له «مزيبلة» على بعد ثلاثة فراسخ من القرنة، فشاهدنا بواخر إنجليزية على بُعد وكأنها كانت أمام القرنة، وما لبثنا أن رأينا قبائل العرب والجند المدرّب ناكصين على أعقابهم منهزمين كغنم شدّ فيها ذئب، متشتتين في البيداء من جانب «مزيرعة» الذي يقابل القرنة، فاستوقفنا باخرتنا وأخذنا بتهييج الأعراب والجند بكلام مهيّج، واصطف العلماء وفيهم السيد مهدي والخالصي على ضفة الباخرة ولم نزل نُشعرهما للناس، وندعوهما الى متابعتهما، ونذكر لهم عزمهما على القتال حتى يُقتلا. ولم نزلْ بالناس حتى استوقفناهم رغماً عمّا قيل: «لايَردّ وجه المنهزم شئ».

ونزلنا من الباخرة وأطعمنا المجاهدين الذين كانوا يتضورون جوعاً، وعلمنا أن الإنجليز تفوّقوا على الجند والقبائل في جهة مزيرعة، واستولوا وقابلوا القرنة من جهتين وحاصروها. ولما جنّ الليل أمر الخالصي بالمسير ومقاومة الإنجليز في مزيرعة لتسلم القرنة فتهيأنا للمسير وأطاعت القبائل، وجاء «غضبان» رئيس بني لام وطلب من آية الله الخالصي أن يبرق لجاويد باشا بأنه مطيع عازم على القتال، ففعل الخالصي ذلك. ثم طلب غضبان مواجهة جاويد باشا لتخطيط خطط الحرب، فأبرق الخالصي بذلك وعزم على الحركة الى العزير ليلاً إلا أن غضبان لم يزل يتعلل بالحركة حتى أصبح الصباح فهاجم الإنجليز القرنة من الساحل والنهر بالجند والبواخر الحربية التي كانت تقل المدافع الضخمة الى أن حاصروا القرنة، وتقطّعت طرق المواصلات ولم يبق لمُدافعيها ذخيرة حربيّة. فأبرق «صبحي بك» والي البصرة وقائد القوى الدفاعية برقيّة يستغيث فيها بالمجاهدين ويطلب مدافعة المهاجمين من جهة مزيرعة ليتفرغ هو وجنده لمدافعة المهاجمين من الشط.

فعزم الخالصي على المسير الى مزيرعة بمن معه لصدّ المهاجمين من جهة مزيرعة. وحين تحرّك جاءت برقيّة من صبحي بك يودّع فيها المسلمين ويخبر بدخول الإنجليز الى القرنة. ثم انقطعت المخابرات بيننا وبين القرنة، وسكتت

المدافع، وأُسر صبحي بك ومن معه، وجاءت برقيّة من جاويد باشا يلزم فيها بالعودة الى العمارة. وكان رأي الخالصي أن نتخذ خطّة دفاع في مكاننا بين العزير والقرنة، إلا أن اليأس كان قد استولى على جاويد باشا فرجع الى العمارة وتبعناه لنستوقفه فلم نظفر به حتى وردنا العمارة.

أما الجند المنهزم فقد هاجمه أفراد القبائل، وانتهبوا جميع ما لديه من سلاح وكراع وقتلوا قليلاً ممن دافع عمّا في يده من السلاح. ولم يكن ذلك لعداء من تلك القبائل للمسلمين، أو حبّ للإنجليز؛ بل تلك عادة قبائل العراق، ورأيّ منهم في المنهزم؛ يرون حلّية ماله وعرضه! وطالما نازلَت قبيلتان متحالفتان قبيلة عدّوة لهما فلما انهزمتا انتهبت الحليفة أموال حليفتها واستحلته.

ومع عمل القبائل هذا مع الجند على طول الطريق وبُعده تعرف أنه لم يصل منه الى العمارة من يستطيع الدفاع أو يتمكن من الوقوف في ساحة الحرب. فإنهم تشتتوا بين؛ أسير وقتيل وشريد، ومن وصل منهم الى العمارة كان قد استولى عليه الرعب حتى أفقده حواسّه.

ولذلك كان جاويد باشا عازماً على ترك العمارة. فلما جئناها وجدنا باخرته حول الجسر، والجسر مقطوع بين الجانبين، وهي متأهبة للإبحار الى الكوت، ووجدنا الى جنب باخرته باخرة اخُرى ومأمورو الدوائر الملكيّة ينقلون إليها أثاثهم وعائلاتهم. ووجدنا الإضطراب قد استولى على أهل العمارة وهم مشتغلون بنقل ما يعزّ لديهم الى القبائل المجاورة.

وحين جئنا العمارة كان الناس يظنّون أنا سنمضي الى الكوت لكن بسالة الخالصي أبت ذلك فاستوقف باخرته في المرسى ونزل المدينة بمن معه وسكّن روعة الأهلين، ونهاهم عن نقل شيّ من أموالهم وعائلاتهم الى القبائل، وأمر من معه بالتأهب للدفاع عن العمارة. فاطمأن أهلها وسكنت روعتهم.

عمل ذلك دون أن يراجع القائد فيه. ثم أمرني بالمضي إليه وتعنيفه على هزيمته ورعبه، وعزمه على تخلية العمارة وإرعاب أهلها، ونهيه عن الحركة من العمارة،

وإنذاره بمقاومتنا له إذا فعل ذلك، وإلزامه بارجاع عائلات المأمورين.

فمضيتُ إليه وأخبرتُه بما أمرني به والدي وكلّمته بكلام شديد اللّهجة، ولم أزل به حتى انثنى عن عزمه وأمر بإرجاع المأمورين وعائلاتهم، فامتنعوا، فاضطررت الى المضيّ الى باخرتهم بعدّة من المجاهدين وإذا فيها «الشيخ محمد جواد» رئيس الدجيل وفريق آخر و هم ممن كان معنا من المجاهدين، وكانوا عازمين على الفرار مختفين في مخابئها. فأنزلناهم قهراً وسبب ذلك شدّة عداوتهم لي لظنّهم أني سقتهم الى الموت بعد أن كانوا قد نجوا منه، وما كنتُ في ذلك إلا ممتثلاً أمر أبي ومقلَّدي.

نزلنا العمارة بمن معنا من المجاهدين، فرأيتُ والدي ساكتاً لايتكلم بشيء، ولا يعمل شيئاً، وهو مقتصراً على محادثة الوفود التي كانت تفد الى زيارته بأُمور كأنها لا تتعلق بالحرب، وكيفيّة الدفاع، مع إنّا كنّا نترقب مهاجمة الإنجليز لنا! فكلمتُه في ذلك فقال: يجب اختبار الناس والإطّلاع التام على أخلاقهم وروحيّاتهم أولاً ثم الشروع في العمل، لئلا يكون معاكساً لما هم عليه فلا يثمر ثمرة، أو يؤدي الى عكس المطلوب.

فاتخذت هذه الجملة درساً عامّاً استفدت منه في أكثر الوقائع المهمة التي بُليتُ بها بعد ذلك.

فمكث آية الله أياماً لايتحرك بشيء وهو مشغول بمطالعة ما عليه الناس، الى ان أصبح يوماً وكأنه كان اتخذ خطة معيّنة له، فأمرني أن اكتب الى رؤساء القبائل دعوة الى الجهاد أملى عليّ ملخصها شفاهاً، فكتبتُ تفصيلاً ما وافق رأيه، فأمضى تلك الأوراق ووقّعها هو والسيد مهدي، وكأنها جاءت ملائمة لأخلاق القبائل. فأخذَت الكتائب ترِد مدججة بالسلاح من كل حدب وصوب، وما أسرع ماتجمع لدينا؛ مايربو على سبعين ألف مقاتل من شُبّان العراقيين.

فعلم الإنجليز أن ما كان لديهم من القوى ذلك اليوم لايكفي لمهاجمتنا فاتخذوا خطّة دفاع عن القرنة. فقوي بذلك عزم جاويد باشا فتقدّم الى ما يقرب من العزير.

وكأن الخالصيعلم من مشاهدته هزيمة الجند في القرنة؛ أن التدريب العسكري أحسن سلاح في حروب اليوم فأمر من معه من المجاهدين أن يتقنوا هذه الصنعة.

واستدعى ضبّاط الجيش لتدريب المجاهدين، وتشكلت أفواج منهم، ربما كانت تفوق أفواج الجيش المدرّب من بعض الجهات.

وكان آية الله يخرج بنفسه الزكيّة متقلداً سيفه كأحد أفراد الجند متقدماً ثلّة من العلماء يحملون البنادق فشكّل منهم فوج الكاظمية.

وكنّا نخرج كل يوم يتقدّمنا آية الله الخالصي فنقضي شطراً من نهارنا خارج العمارة في إتقان فنّ التدريب العسكري تحت قيادة الضباط. وكان آية الله كأحدنا على ضعفه وكبر سنّه وعلوّ مقامه، مؤتمِراً بأوامر الضباط؛ ينهض ويقعد ويستلقي ويعدو ويهرول ويلتوي وينثني ويستقيم وينحني ويسحب بدنه على الأرض طوع إشارة الضباط.

فلما شاهد المجاهدون ذلك الحال أقبل جميعهم على التدريب لم يشذ منهم صغير ولا كبير ولا رئيس ولا مرؤوس ولا شيخ ولا صبيّ ولا قوي ولا ضعيف.

وكان يرجع من التدريب العسكري فيشتغل بقية نهاره وليله بنصيحة الحاضر، ودعوة الغائب. وكان يأمرني فيما يريد كتابته الى القبائل.

وحين رأى تأهبهم الكامل وصدقهم، أمرني وبعض العلماء بالتجول بين القبائل واستنقاذ ماانتهبوه من الجند، فامتثلنا الأمر واسترجعنا جميع ماكان انتهبوه قبل، دون أن نلاقي في سبيل ذلك أدنى صعوبة أو نصرف له زيادة وقت، بل كنا نشاهد من القبائل حُسن استقبال للحرب والمعاونة وندامة شديدة على ما صدر منهم. فعدنا بعد أيام قلائل الى العمارة بباخرة مشحونة بما انتهبه القبائل من سلاح الجند لم يشذّ منه شئ، وسلّمناه الى جاويد باشا في «شطرة العمارة».

ولعلوّ نفس الخالصي أمرنا أن نسلّم أُجرة تلك الباخرة ففعلنا ولم نقبل أن تُحسب أُجرتها على القائد العام.

ومع أنه كان في العمارة لم يقتصر على قبائلها، بل كان يكاتب جميع قبائل العراق وبلدانه، حتى التحق بنا جميع علماء النجف وعلماء الشيعة من بغداد بمن معهم من المجاهدين. وتأهبت جميع قبائل العراق للدفاع.

وحين ورد علماء النجف؛ صاروا سدّاً بين آية الله الخالصي وبين أعماله، لأنهم لم

تكن لهم من الهمّة والعزم والجدّ والنشاط وعلوّ النفس والتقوى وقوّة الإيمان وجودة الذهن، ماكان له. فما كانوا يتابعونه في جميع أعماله، حتى أن السيد مهدي الذي كان لايتخلّف عن إرادة آية الله الخالصي قبل مجيء العلماء؛ أخذه الرعب واستكبر ما أتى به من الأعمال واستعظم الكتب التي وقّعها من قبل! فصار يمتنع عن أمثالها.

فكان الخالصي يشغل شيئاً من وقته في نصيحة العلماء وإرشادهم بعد أن كنّا نظنّ أنهم سيعاونونه ويريحونه من تعبه.

وكان يضطر الى مشاركة العلماء فيما يوافقونه عليه، والإنفراد بكثير من الأعمال التي تقصر عنها هممهم.

وبعد شهرين من ورودنا الى العمارة عُزل جاويد باشا وأُسندت قيادة العراق الى «سليمان العسكري» أحد قادة الجيش العثماني في طرابلس الغرب. فورد العراق وجميع أهليه حاضرهم وباديهم مدججون بالسلاح؛ بين واقف في حومة الحرب ومتأهب للسير إليها.

ولما قصد سليمان العسكري العمارة أمرني آية الله الخالصي أن أكتب ملخص ما جرى في العراق منذ ابتداء الحرب الى يومنا ذاك. لعلمه أن ليس لمأموري الدولة جريدة وقائع «دوسيه» كافية وخوفه أن يقدم القائد الجديد فيباشر بالعمل على غِرّة فيتضرر الجيش الإسلامي بالخبط الذي يصدر منه بسبب عدم اطّلاعه الكافي على الأوضاع والأطوار والأخلاق.

فكتبتُ ما أمرني به باللغة التركيّة، وقرأتُه على آية الله فصوّبه.

وركبتُ باخرتي قاصداً الكوت، وكان نهر دجلة قد طغى ماؤه فلم يكن الطغيان عائقاً حتى التقيتُ بباخرة القائد العام فصعدتُ إليها. وبعد حديث طويل سلّمتُه ما كتبتُه وألزمتُه مطالعته قبل أن يصل العمارة. فاشتغل بذلك ليله وشطراً من نهاره، وفرح به فرحاً شديداً وقال: لم أستفد منذ تحركتُ من الآستانة الى ورودي‌الى هنا مثل ما استفدته من هذه الرسالة. وشكر من صميم القلب للخالصي على إقداماته كلها، وحُسن التفاته وخبرته بنكات الوقائع وقال: حين أُسندت اليّ قيادة العراق مضيتُ الى الدوائر

المرتبطة به في «الآستانة» لاستطلاع أخباره واستبار أحواله ليكون ذلك معيناً لي على عملي، فلم أقف على ما يكفي لذلك وجئتُ الى بغداد فلم أرَ في دفاتر دوائرها ما يكفي لذلك. ولقد بَلّت غُلّتي وشفت علّتي هذه الرسالة التي وجدت فيها ضالّتي وكل ما أريد.

فورد سليمان العسكري الى العمارة وهو عالم بالخفايا والزوايا وكان قد خطط لعمله خططاً وافية، فباشر بالعمل وتلك الرسالة تهديه. فبُهت الناس حيث لم يخبروه بشيء إلا وجدوه عالماً به، ولادلّس عليه أمر أو كُذب عليه بشيء إلا كشفه، وكل مَن جاء من الرؤساء أخبره بعمله. ولما رأى الناس منه ذلك هابوه وعلموا أنه فوق من رأوه من القادة والولاة، والفضل في ذلك لتلك الرسالة التي أمر بها آية الله الخالصي.

ولما ورد سليمان العسكري العمارة كان، «غضبان» [رئيس بني لام] منفوراً لدى آية الله الخالصي؛ لما كان عمله عند سقوط القرنة. فألقى بنفسه بين يدي الخالصي تائباً من عمله فقبله، وكانت الحكومة قد غضبت عليه فاضطر الى البقاء خارج العمارة ولم يدخلها خوف بأس الحكومة. فأرسلني الخالصي الى غضبان وأتيتُ به العمارة وقبِلته الحكومة. وكان بينه وبين بقية رؤساء الطوائف نزاع شديد فأصلح الخالصي ذات بينهم.

مُحاصرة البَصرة من جهاتِها الثلاث

وحين تمركزت القوى العراقية في العمارة، كان آية الله الخالصي قد كتب الى رؤساء الحويزة والأهواز يطلب منهم المعونة على الإنجليز والإنضمام الى المجاهدين. فجاءه وفود من تلك النواحي ملبّين دعوته إلا أنهم يطلبون إعزام عدة من العلماء ليكونوا جامعاً لشتات القبائل. فعزم الخالصي أن يمضي بنفسه إليهم، وكلَّم سليمان العسكري في ذلك فقرّ الرأي أن تُحاصر البصرة من ثلاث جهات:

جهة الشعيبة وهي الجهة اليمنى.

ومن القرنة وهي القلب.

ومن ناصريّة الأهواز الى التنومة مقابل البصرة من شطّ العرب وهي الجهة اليسرى.

وان ينقسم العلماء والجند المدرَّب الى هذه الجهات الثلاث.

فكتب آية الله الخالصي الى قبائل الأهواز يخبرهم بعزمه على الحركة إليها. وقصد سليمان العسكري القرنة بالجيش، والتحقت به قبائل ربيعة وبني لام والبو محمد وغيرهم، وقدّم مركزه ما يحاذي القرنة فأرسلني والدي لترتيب أمور قبائل الأهواز مع القائد. فمضيتُ ومكثتُ عنده أياماً، ووالدي يُبرق كل يوم بالإسراع بالرجوع، فعدتُ الى العمارة.

حرب القرنة الأُولى

ولما رأى الإنجليز تقرّب قوى العراق من القرنة فاجؤوها بالهجوم في السابع من ربيع الأول سنة [١٣٣٢] فصدق الجند والمجاهدون في تلك الحرب وصدّوا هجوم الإنجليز بعد أن تكبدوا خسائر عظيمة وفقدوا من جندهم أكثر من ألف قتيل. ولم يفقد من الجيش الإسلامي سوى أربعة عشر نفراً وأُصيب سليمان العسكري «بخرطوشتين» في ساقه كسرتاها فسقط، ولولا ذلك لاستولى المسلمون على القرنة. فأُعيد القائد الى بغداد للمعالجة، والتزم خلَفَه خطة الدفاع أمام القرنة. ويأس الإنجليز من التفوق على تلك القوى الصادقة التي رأوا بسالتها وقوّت روحها روح آية الله الخالصي وبسالته.

ومضى جميع من جاء العمارة من علماء النجف وبغداد الى القرنة، وكان قد تقدمهم السيد مهدي حيدر وكان شاهد تلك الوقعة التي اُصيب بها سليمان العسكري.

آيةُ الله الخالصي في الأهواز من أعمال إيران

وتحرَّك آية الله الخالصي ونحن بخدمته من طريق «بطيحة الهور» الى الحويزة، وأمر غضبان وطوائفه بأن يصحبونا لأن مضيّهم الى القرنة كان مخلاً؛ لما بينهم وبين الطوائف المتمركزة هناك من الإختلاف والتشاجر. فمررنا بقبائل السواعد والسودان في «المشرّح» فأمرهم بالإلتحاق بنا. وسبق جميع القبائل فورد «البطيحة الكبرى»الفاصلة بين أراضي «الكرخة» من بلاد إيران وبين أراضي دجلة من

العراق.ولم يكن معنا أحد سوى نفر قليل من المجاهدين، فأمر الخالصي بالإسراع، فقلتُ له: إنّا قد تقدّمنا جميع الجند والمجاهدين ولعلّنا إذا وردنا أراضي إيران نلتقي بعدّة من الإنجليز ومن طوائف «خزعل» الذي يُعدّ من جيشهم فلا نستطيع المقاومة. فقالك أخذك الجبن وأذهلك؟ إمضِ الى أمر الله وتوكل عليه. وألحّ بالإسراع فداهمنا مطر شديد ونحن في البطيحة فلم يعتن، وجنّ الليل فلم يعبأ به، ولم نَزَلْ مجدّين حتى وردنا أوّل الكرخة في مكان يقال له «البسيتين» أول الفجر، فأمر مؤذنه أن يؤذّن وكان جهوري الصوت.

وكانت قبائل «البسيتين» من «بني‌طرف» قد لبّوا دعوتنا فأرسل خزعل لمحاربتهم عدّة من الطوائف الأُخرى، وكانت تلك الطوائف مطيعة لأمر آية الله باطناً، كارهةً محارَبة إخوانهم. وكان ذلك اليوم الذي وردنا فيه ميعاد اشتباك الفريقين وتنازلهم الحرب.

فلما وصل صوت المؤذن إليهم نادوا: هذا آية الله الخالصي قد ورد، وارتجز آخر من طوائف خزعل هذا الرجز باللسان الدارج بين الأعراب اليوم «هوسة»: «يَتريد الجنّة امشي ويانه» أي؛ يامن تُريد الجّنة إمض معنا. وانحاز يعدو الى طوائف بني طرف وتبعَته جميع طوائف خزعل، ولم يبقَ إلا حاكم «الخفاجية» الذي كان أرسله خزعل لمحاربة الطوائف الموالية لآية الله الخالصي. وأقبلت تلك الطوائف نحو آية الله، وحين قابلوه صرخ صارخ منهم بهذه «الهوسة»: «ياغلام الدين اُصرخ بيها» أي؛ ياخادم الدين اُصرخ بالحرب، أي ذلل أعداءك بصرختك.

فلما شاهد «صالح الغضبان» حاكم الخفاجية ذلك ولّى منهزماً فصرخ صارخ القبائل بهذه الهوسة: «چش ياريش حوم احرب بيها» أي؛ ولِّ وانهزم أيّها الكلب فقد أعلم للحرب صقر.

وتوافدت القبائل على يدَي وقدَمي آية الله وهم يبكون وينتحبون حتى خشينا عليه التلف من الزحام وفرّقنا الناس عنه.

فلما استقرّت به الدار استدعى رؤساء القبائل فأصلح بينهم وأمرهم بالصفح عن

جميع مامضى من الفريقين وترك التشاجر بينهم والخصام. وكان بينهم نزاع على الأراضي والمزارع فقسّمها آية الله بينهم وكتب بذلك صكوكاً سلّمها إليهم. فعادوا إخواناً كأن لم يكن بينهم نزاع. ولم يبق لآية الله الخالصي في البسيتين والخفاجية وطينة الحويزة مخالف.

وحينئذٍ أمرني بالرجوع الى قائد الجند المدرَّب «توفيق الخالدي» وإخباره بما كان، ودعوته الى الورود الى الحويزة وكان يتهيب ذلك خوفاً من تفوّق الإنجليز لقلّة جنده.

فرجعت الى القائد وأبلغته أمر والدي وما جرى له، فكاد أن يطير فرحاً وأمر جيشه بالرحيل، وساروا أتقدمهم الى الحويزة.

وعلم بذلك من كان يتهيّب دخول الحويزة ممن وافقنا على المسير إليها من العلماء وهم: «الشيخ جعفر نجل الشيخ عبد الحسين آل الشيخ راضي» «والسيد محمد بن السيد كاظم اليزدي» «والشيخ عبد الكريم الجزائري» وثلّة آخرون، فاقتفوا أثر الجند ووردوا البسيتين والأمور ممهدة.

ولما وردنا البسيتين أسرعت القبائل لاستقبال القائد العثماني وأنزلوه منزلة لاتليق إلا بالأولياء المقرّبين احتراماً للعلَم الإسلامي الذي كان يخفق على رأسه، وإلا فإنه لم تكن له تلك المنزلة.

وحين سألت عن والدي هناك اُخبرت أنه تقدّم الى الأمام مع ثلّة قليلة. فاضطربت أشدّ الإضطراب وأوصيت القبائل وقائد الجند باقتفاء أثره، وإلا أدركه الخطر من الإنجليز، وأسرعت أنا ومن معي من المتطوعين الى متابعته، فلم أزل أسير ليلاً ونهاراً حتى التحقت به في قرية «السادة» قريباً من «العله» فاستوقفته لاستخبار الطريق، وتحققنا الأمر، وإذا بالإنجليز قد ساقوا جيشاً الى«الناصريّة» ولم يكن بيننا وبينها من المسافة إلا قليل ونحن منفردون ليس معنا إلا قليل من الخدم والمجاهدين.

فتوقّف آية الله هناك ينتظر القبائل والجند وكتب إليهم بالإسراع، ثم كتب الى جميع القبائل من«المحمّرة» الى «الأهواز» فـ «الجراخي» و«الفلاحيّة» و«المينا» وغيرها يأمرهم بالقيام في وجه الإنجليز ومن والاهم. وكتب الى خزعل يقول: إن الناس

يقولون إنه مع الإنجليز، ولكن آية الله لم يصدّق ذلك، وإن عمله الآتي يكشف حقيقة الأمر؛ فإن أعان المسلمين بالكراع والسلاح وإرسال البواخر في كارون لتقلّ المجاهدين الى المحمّرة، انكشف كذب ما اشيع عنه، وإلا فهو صدق، وعاقبته استئصال خزعل واصطلامه، إما بأيدي المسلمين إن كانت لهم الغلبة، أو بأيدي الإنجليز إن تفوّقوا على عادتهم مع رفقائهم من أهالي المستعمرات، فيكون قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وكتب الى «حنظل»ـ وهو ابن محمد أخي خزعل الذي قتله قبلُ تخوّفاًـ يأمره بموافقة المسلمين ومعاونتهم ووعده بالرئاسة إن غلب المسلمون، والإنتقام من خزعل إن لم يوافقهم. وكان حنظل حاكم الناصريّة ذلك اليوم.

وأعدّ السعاة والجواسيس وصبّ عليهم الأموال وأرسلهم الى جميع الأقطار.

فأما القبائل فأجابت كلها ونهضت واشتبكت بالحرب مع خزعل. وأما حنظل فكان يستدعي السعاة الى الحمام خوفاً من جواسيس خزعل ويخبرهم بأنه مستعد لمحاربة عمّه والأخذ بثأر أبيه ومعاونة المجاهدين بكل ما يستطيع وهو لاينتظر إلا أمر آية الله.

وأما خزعل فقد كتب الى كتاباً يكذّب فيه جميع ما أُشيع عنه، ويعد بالمعاونة بجميع مايتمكن، ويعتذر بعدم القدرة على ذلك لتسلط الإنجليز عليه وضعفه في قبال قواهم، الى غير ذلك من التدليس والتمويه. فلم يعبأ به آية الله لكنه أمرني بعدم إطلاع بقية العلماء عليه؛ لئلا ينخدعوا لتمويهات خزعل. وعلم بذلك بعضهم فسعى الى توفيق بك بأن يكاتب خزعلاً، وفي هذا ضرر على المسلمين. وأظن أن ذلك الرجل لم يكن له غرض إلا إلقاء الخلاف بين آية الله وبين القائد؛ لأنه من أخص رفاق خزعل ومواليه وقد أُكره على المجيء الى الحويزة وهو:الشيخ عبد الكريم الجزائري إلا أن سعايته هذه لم تؤثر، لأن القائد أعلمني بتلك السعاية فكشفت الحقيقة، بيد أن والدي نهى عن إيذاء الشيخ وأمر بكتم علمنا بسعايته عنه فلم يسعنا إلا الإمتثال.

وبعد أيام مضت على مكثنا في قرية «السادة» جاء ثلّة من الجند بقيادة «حسين هجراني بك» وأرادوا اجتياز نهر الكرخة لكشف الطريق، فمنعهم الخالصي لقلّتهم

وأخبرهم بما استكشفه هو من أحوال العدو. وكتب الى قائد الجند بـذلك وألحّ عـليه بالإسراع فلبّى الدعوة اضطراراً وهو كاره لخوفه من الإنجليز.

ولما جاء، نقل الخالصي خِيَمه الى الجانب الآخر من الكرخة وأمر القبائل أن يحطوا رحالهم حوله ففعلوا، وأمر القائد بالإجتياز فلم يفعل فاضطره الى ذلك ففعل.

ثم عزم الخالصي على المسير الى ناصريّة الأهواز فتخوّف الناس جـميعهم حـتى رؤساء القبائل والعلماء وقائد الجند.

فأمر آية الله بالرحيل، فجاء القـائد مـضطرباً، وجـرى بـيني وبـينه مـن الكـلام مـا اضطرني الى إهانته والإشعار بذلك الى القيادة العليا بأمر والدي.

ثم أمر آية الله بالرحيل ونادى مناديه بذلك بـين القـبائل وتـوجّه هـو مـاشياً نـحو الناصرية فتبعه قليل من الناس وتخوف الباقون، فوردنا الى ماء بالقرب من النـاصرية يقال له «غدير الدعي» فنزلنا عليه، وتوافدت القبائل تدريجياً، وكنا نترقب كـل سـاعة هجوم الإنجليز، وكانت القبائل تخاف ذلك، فلذلك لم يـلتحق بـنا أكـثرهم، وكـذلك الجند. إلا أن الإنجليز كانوا يرهبون الهجوم، وقـد أعـطتهم حـرب القـرنة درس عـبرة صدّتهم عن مباغتة المسلمين بالهجوم هنا حتى اطمأن جميع القبائل والجند فالتحقوا بنا بإلحاح آية الله الخالصي.

حربُ الأهواز العظمى

ولما اكتملوا وكانوا زهاء ستين الفاً، جاء الإنجليز ليلاً فاستولوا على الربوات المطلّة علينا وهي ربوة «المنجور» و«أبي الدعالج» وسـلسلة ربـوات أُخـرى كـنا نـازلين فـي سفحها طلباً للماء، وكان قائد الجند شـبيهاً بـالقبائل؛ أي غـير عـالم بـالفنون الحـربية، ولذلك أهمل تلك الربوات في حين أن من يستولي عليها يكون غالباً عـلى مـن فـي سفحها وإن كان أقوى منه عُدّة وأكثر جنداً. ولما رأى الإنجليز إهمالنا لها استولى عليها ليلاً بدون أدنى مشقّة، وأحكموا لهم فيها متاريس ليلاً ونحن نائمون. فلما لاح ضـياء الصبح صوّبوا مدافعهم علينا ورشاشاتهم ونحن غافلون.

لا أنسى إني كنت اغتسل في خيمتي إذ أصابتها قذيفة مدفع، فأسرعت وإذا بآية الله قد فرغ من صلاة الصبح فرأيته متقلداً سيفه قابضاً على عنان فرسه، فامتطى صهوته وصرخ بالقبائل وقصد العدو فتبعته الخيل والرجال، وكان نزول القبائل على خطّ يزيد طوله على طول تلك الربوات، فلما شاهدوا توجّه آية الله نحو العدو توجه كل منهم الى الجهة التي تقابله، فمن كان مقابلاً للعدو اصطدم معه، ومن لم يكن مقابلاً للعدو على طرفي خط منزل المجاهدين صاروا يعدون حتى اجتازوا خط العدو من كلا طرفيه، فلما رأى العدو ذلك ظن إن المجاهدين دبّروا حيلة لمحاصرته، وإن إخلاء الربوات كان دسيسة لهذه الغاية. فأخلا العدو مواقعه وتقهقر. ولما رأت القبائل تقهقره نشطت نشاطاً عجيباً وصارت لاتبالي بما تتكبده من الخسائر في تعقيبه.

أما الجند فإنه لما رأى استحكامات مواقع العدو عند أول إطلاق مدافعه صمم على التقهقر والإنسحاب، ولما رأى سرعة تقهقر العدو أسرع فالتحق بالقبائل.

وكان آية الله الخالصي بين القبائل شاهراً سيفه يشجعهم على الإقدام، ويُرجع من أعيته الحرب ولاذ بالفرار.

وكأني أنظر إليه اليوم وقد فرّت قبيلتا «الشرفا وبني سالة» من قبائل الحويزة لما أجهدتهما الحرب، فحلّ بينهم وشجعهم، وهجم هو على العدو فتابعته «العماريّات» منهم يصدحن بالأراجيز (هلاهل). ولما رأت القبيلتان ذلك ألقوا مناديلهم على عيونهم وهجموا على العدو دون أن يلووا على شئ حتى اشتبكوا معه وهو منهزم. فما كانت إلا دقائق لاتزيد على العشرين حتى اضمحلّت جميع قوى العدو وصار جميع ما كان لديه؛ من المدافع والمؤن الحربية والأمول غنيمة للمسلمين ولم ينج منه إلا أفراد قلائل.

وأحجم الناس عن دخول الناصرية ذلك اليوم، قيل لأن غضبان أقنع قائد الجند بالتوقف لأنه لو دخل الناصرية لالتحقت بنا من القبائل ما كان فيها الغنى عن غضبان فتقلّ استفادته ونفعه.

فرجع المجاهدون وافرين ظافرين وصاروا يعرضون على آية الله ماأصابوا من

الغنائم. فرأيناهم بعد هذه الحرب وكلهم مسلحون بأحسن السلاح، بعد أن كانوا عزلاً قبلها فإنهم هجموا: بالحراب والمساحي والمدي والخناجر والسيوف. ولم يكن عند أحدهم بندقية إلا القليل قبل هذه الوقعة، وصاروا بعدها جميعاً يحملون أحسن البنادق، ولديهم أوفر المؤن، وكانت مدافع الجند ثلاثه رديئة من الطراز القديم، فصاروا لديهم أحسن المدافع؛ السريعة الطلقات، الضخمة، والرشاشات وأدوات النقل.

فكأن الإنجليز ساقهم التقدير الإلٰهي الى أن يحملوا أحسن السلاح لجندنا العزّل. وإن كان المجاهدون اشتروا ذلك بأغلى ثمن؛ وهو مايربو على ستمائة نفس زكيّة اشتراها الله بأن لها الجنّة. لكنها لم تذهب حتى أهلكت الأُلوف من الإنجليز، وهذا شأن الصادقين فيالله.

وكانت القبائل بعد هذه الحرب على أتم ما يكون من النشاط والبسالة، وروح الجند فائقة الحدّ. وكان روح آية الله تظلهم وتسوقهم الى الموت حباً به، وكانو على جانب عظيم من صدق النية، وقوة الإيمان. وكان كثير منهم يبكي وينتحب لحرمانه من الفوز بدرجة الشهادة. وكان من له قتيل في المعركة؛ من أولاده أو أعمامه، أطلق وجهاً وأشدّ فرحاً ممن لم يصب في ولده، وكانوا يمثلون في جميع حركاتهم وسكناتهم حالات الجيش الإسلامي في صدر الإسلام.

وكان كل فرد يحمل جراباً فيه شئ من الرز أو دقيق فَيَلْهَم منه كل يوم مقداراً قليلاً ويقتصر عليه في اليوم والليلة. هذا قوت غالبهم وقلّ من رؤسائهم من كان يستطيع أن يبس ذلك الدقيق بشيء من الدبس أو التمر.

ولقد رأيت جماعة خلت أجربتهم من الرز وهم يرقصون قائلين «هوسة»: (ياجرابي تون وانه شبيدي) أي: ياجرابي تأن لخلوّك من الرز وماذا أصنع حيث لا أتمكن من أن أملأك.

وكان آية الله يجهد نفسه ليأكل مثل ما تأكل القبائل وكنا نمنعه فلا نستطيع، وكلما نأتي به إليه من الطعام يوزعه على من حوله من المجاهدين ويأكل هو كأحدهم.

وفي هذه الآونة ورد عمّي «الشيخ راضي» حفظه الله، وجرى له استقبال عظيم، واستقبلتُه عدّة منازل، ولما ورد ساحة الحرب كان أول عمل أتى به:

أن زار قبور الشهداء الذين استشهدوا في الحرب الأولى، فأعان ذلك على إصلاح القبائل حتى قال قائلهم: ما أسعد أُولئك الشهداء الذين يزورهم العلماء الذين كنا نتمنى أن نصل إليهم فنتبرّك بتقبيل أياديهم فلا نستطيع، والآن هم زوّار قبور هؤلاء الشهداء.

وبعد ذلك التفّ كثير من رؤساء القبائل حوله فكان يصعب تحريكه لالتفاف القبائل به. فاضطر آية الله الى المضي بنفسه حيث يقيم أخوه، وبعد اللتيا والتي استطاعا أن يتحركا من الأهواز ومضينا نطوي الفيافي حتى عدنا الى البطيحة بين العمارة والحويزة، وكانت مدة إقامتنا في الأهواز أكثر من أربعة شهور.

هذه كانت حالة القبائل وهم لاينتظرون إلا مهاجمتهم للإنجليز ليفوزوا بدرجة الشهادة التي كانت أعز لديهم من الفتح، حتى أن آية الله كان يدعو لبعضهم ؛ بالفوز والعودة بالصحة والعافية. فيلتمس من آية الله أن يدعو له بنيل الشهادة بدل ذلك.

كانت القبائل بهذه الدرجة من الصدق تتشوق لمنازلة الإنجليز، إلا أن الإنجليز علموا هذا الصدق والبسالة، وعلموا أن صدق الرئيس وروحه يسريان الى المرؤوسين، وإن رئيس هذه الفئة هو آية الله الخالصي الذي كانوا يعرفونه، فأحجموا عن الخروج إلينا.

وكم هاجمناهم بأمر آية الله وإصراره فلم يخرج إلينا منهم أحد قط.

فصمم آية الله على تطويق الناصرية من الجانبين، ومحاصرة الإنجليز فيها ببعض القوى والمسير الى «التنومة» مقابل البصرة بالبعض الآخر. ولما علم غضبان بذلك أيقن أنه لاتبقى له قيمة إن فعل ذلك. فأراد إفساد هذه الروح لكيلا يستطيع آية الله أن يجري ما صمم عليه، فأقنع قائد الجند أن يوزع مالاً على رؤساء القبائل ليوزعوه على أفرادهم، وحيث أن ذلك يتم بنفع القائد لأنه يستطيع أن يعطي ألفاً ويكتب في دفتره ألفين، قنع. ثم عقد غضبان مع رؤساء القبائل حلفاً على أن يأخذوا مالاً كافياً قبل اجتياز شط كارون ومحاصرة الناصرية.

وحيث كنت داخلاً في حلف رؤساء القبائل قبل هذا علمت بما جرى، وأرسل ثلّة ممن تبعه الى أراضي إبن عمّه «جوي المزبان» في العمارة ليستولي عليها، فأوجب ذلك اضطراب القبائل التي كانت مرابطة في القرنة.

أزعجت أفعال غضبان هذه آية الله، فأمرني أن أنهى القائد عن متابعته، فنهيته ولم ينته ـ وما أسرع ماندم وطلب مني الإمداد لمحاربة غضبان لأن تلاعبه لم يكن يقف عند حدّ ـ وكلمنا رؤساء القبائل، وكان قد استولى عليهم الطمع وأرادوا المال.

ثم جاء القائد بعشرات ألوف الليرات وطلب من آية الله توزيعها على القبائل فامتنع وقال: إني أرى انحلال هذا الجيش من وراء توزيع هذا المال. وقال للقائد: إن للإنجليز مالاً أكثر مما لدينا فإذا أردنا أن نحاربهم بالمال غلبونا، وإذا أردنا أن نغلبهم فلابدّ أن نحاربهم بسلاح يعجزون عنه، وليس ذلك إلا تثبيت عقيدة الإيمان بين المسلمين وحثهم على طلب ما عند الله في حرب أعدائه والإبتعاد عن حطام الدنيا.

فقنع بذلك القائد ظاهراً، إلا أن الطمع قد استولى عليه، ووساوس غضبان قد غرّته، فمضى الى السيد محمد بن السيد محمد كاظم اليزدي فأقنعه بتوزيع المال على رؤساء القبائل.

وعلم بذلك آية الله فنهاه وأبان له ماينتج بسببه من المفاسد، فامتنع يومين أو ثلاث، ثم أقنعوه فأخذ بتوزيع المال. وما كان بينه وبين اضطراب المجاهدين واختلاف كلمتهم إلا قليل، لأن كلاً من الرؤساء أخذ شيئاً من المال وهو غاضب، لحسبانه أن الرئيس الآخر أخذ أكثر من ذلك، وكلٌّ منهم ـ وهم اُلوف ـ كان ينظر الى مجموع المال فيخال نفسه وحده فلم يكن يقنع بحصته. وماأخذه الرؤساء لم يوزعوه على أفراد القبائل، فتنفّرت الأفراد من الرؤساء. وما كان إلا قليل حتى تفرّق أكثرهم ورجعوا عن ساحة الحرب، بعد أن حاصروا خيمة السيد محمد بهذه الجملة (هوسة): (ياسَيد محمد منطونه) أي: ياسيد محمد رؤساؤنا لم يعطونا مما اُعطوا. و(ياسيد محمد ضمّوهن) أي: ياسيد محمد خبأوا الأموال.

فاضطرب القائد لذلك ولاذ بآية الله الخالصي وأخبرني بتلاعب غضبان، وطلب

النجدة في محاربته ودفعه عن ساحة الحرب، فعرضت ذلك على والدي فلم يصوّبه، وتصدى لإصلاح الأمر بنفسه، فكان يركب فرسه ويتجول في القبائل بنفسه الزكية لإصلاحهم.

ورأى إتمام الإصلاح موقوفاً على عزل القائد. فأمرني أن أكتب بذلك الى سليمان العسكري ففعلت. وعُزل القائد الشرير الأحمق وهو: توفيق الخالدي الذي صار وزير داخليّة العراق بعد أن احتله الإنجليز، وقتله الوطنيون لخبثه.

وتعيّن لقيادة قوى الأهواز «محمد باشا الداغستاني» ـ وهو أحد أصحاب السلطان «عبد الحميد» وإبن أخت «شبلي باشا» الذي حارب الروس في داغستان سنين عديدة ـ وكان برتبة «الفريق الأول» وكان له مع آية الله سوابق حسنة في بغداد والكاظمية قبل ذلك.

ولما ورد محمد باشا أمرني آية الله أن أكتب له تفصيل ماجرى من الوقائع ووضعيّة المجاهدين ذلك اليوم، والخطة التي عزم على إجرائها في محاصرة الناصرية، والمسير الى المحمّرة والتنّومة.

ولما قرأت ذلك على محمد باشا أُعجب به وقال: إني ماكنت أظن أن آية الله تخرّج من مدرسة حربيّة. فقلت له: وكذلك هو لم يتخرج من مدرسة حربية. فزاد عجبه! وقال: ماكنت أظن رجلاً لم يتخرّج من مدرسة حربية يستطيع أن يخطط مثل هذه الخطط. وبعد أن طالع مليّاً ماكتبتُه بأمر والدي وافق عليه بدون تغيير.

وأخذ آية الله يجدّ في إجراء خطّته وترتيب اجتياز نهر كارون ومحاصرة الناصريّة، واستدعى لذلك رؤساء قبائل ربيعة، والأحلاف، والباويّة، وبعض رؤساء قبائل «كعب» وغيرهم. فوردوا واشتغلوا بإعداد العدّة وتقرّبت بعض القبائل من الناصرية لمحاصرتها، واستعد قسم من الجند لعبور كارون موافقة لتلك القبائل. فأصبحنا ذات يوم وإذا بالنذير قد جاءنا يخبر بأن الجيش متأهب للتقهقر بمدافعه وذخائره، فلم نصّدق ذلك. لكن والدي أمرني أن أمضي الى محمد باشا وأطّلع على حقيقة الأمر.

فركبتُ فرسي وأسرعت الى ملاقاة محمد باشا، فرأيت العسكر مشغولاً بنقل عدّته

الى الوراء ومحمد باشا يتمشى بين العسكر متحيّراً، وحين رآني أخذته الرقّة وسبقته العبرة وقال لي ابتداءً: إن القوى المهاجمة من الشعيبة قد انهزمت وقُتل سليمان العسكري، وقد تلقّيت أمراً بالرجوع الى العمارة.

وكان ملخّص حادثة الشعيبة كمايلي:

حادثةُ الشُعيبَة وقتل عسكري بك

لما قرّ القرار على أن تُحاصر البصرة من ثلاث جهات، وتوجهنا بخدمة آية الله الى الأهواز، ومضى العلماء وثلّة من الجند الى القرنة. أمر سليمان العسكري بتوجه القبائل التي كانت متأهبة في العراق للحرب الى الشعيبة في ظَهر البصرة ولم يكن يفصل بينها وبين البصرة فاصل، فتوجهت جميع القبائل إليها، وأُرسل الجيش الإمدادي مع القبائل حتى زاد عدد المحاربين هناك على مائة ألف، وكانوا يتشوقون الى الهجوم كل يوم، إلا أن سليمان العسكري كان مشغولاً بمعالجة نفسه في بغداد بعدما أُصيب في حرب القرنة، ولم يكن يأمر بالهجوم لأنه كان يرغب أن يباشر الحرب بنفسه.

فمضى على توقف المحاربين في مواقع الحرب الثلاث ثلاثة أشهر وملّ جميعهم طول المكث. وحدث بين القبائل اختلافات ومشاجرات، وكاد يعود كثير منهم الى مراكزهم.

وبعد ثلاثة أشهر خرج سليمان العسكري من المستشفى أعرج لايستطيع المشي على رجله، فركب عجلة الى الشعيبة وكان فيها غالب وقته. وحين وروده أمر بالهجوم على مواقع الإنجليز. فهجمت القبائل من جهات عديدة، فأصلتهم متارس الإنجليز ناراً حامية. وكلما كرروا الهجوم زادت خساراتهم وضحاياهم، لأن الإنجليز كانوا قد أحكموا مواقعهم أحسن تحكيم طول تلك المدة. فدام هجوم القبائل والجند ثلاثة أيام حتى كلّوا وسأموا ولم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً. وبعد ذلك هجم الإنجليز على المسلمين الذين كانوا على غاية من العناء والتعب، ولم يمهلوهم فعاد المسلمون لايستطيعون الجدال، ولم تكن لهم مواقع مستحكمة يأوون إليها فلم يكن لهم ملاذ إلا

الفرار، فانهزموا شرّ هزيمة ولم يردّ وجوههم شئ إلا منازلهم التي تحرّكوا منها، ولم يبق من القبائل أحد. وكلما أراد سليمان العسكري إرجاعهم أو إيقافهم لم يستطع. وتفرّق الجند شذر مذر.

فلما رأى سليمان العسكري ذلك وكان قاطعاً بأنه يفتح البصرة اغتراراً بكثرة عدده وكأنه لم تكن له خبرة بأحوال الحرب هذه الأيام، وإن كثرة العدد لاتغني في قبال العدة الحربية في حروب اليوم.

فلما خاب أمل سليمان العسكري وعلم أنه لايستطيع أن يأخذ موقعاً دفاعياً بعد الشعيبة، صوّب رصاصات من مسدسه في رأسه فقتل نفسه، وانكشفت تلك الجهة للإنجليز إذ بقيت بلا مدافع. إلا أن بُعد الطريق كان مانعاً للإنجليز من تلك الجهة على العراق لبعد طريقها ووعورته.

ولم تقتصر تلك الهزيمة على قتل القائد. فقد مات أسفاً لها عالمان من أجلّ علماء العراق كانا في تلك الحرب وهما؛ السيد محمد سعيد الحبوبي ـ من علماء النجف ـ والشيخ باقر حيدر ـ من سكنة سوق الشيوخ ـ عليهما رحمة الله ورضوانه.

ولما حدثت حادثة الشعيبة خشي خلف سليمان العسكري أن يتقدم الإنجليز من تلك الجهة فتنقطع القوى المرابطة في القرنة والأهواز عن بغداد، وصمم على اتخاذ موقع للدفاع أمام القرنة لسهولة طرق المواصلات فيها، ولذلك أمر بتقهقر قوى الأهواز الى العمارة. فانعكس الأمر وعزم الجند الذي كان متأهباً للتقدم على التقهقر. وأظن ـ والأمر لله ـ إن الخالصي لو كان في الشعيبة لما أُصيبت بهذه الهزيمة العنيفة.

ولما أخبرني محمد باشا بأمر الشعيبة رجعتُ فأخبرت آية الله بذلك فقال: إن الرجوع عن القبائل التي لبّت دعوتنا وتركهم بيد العدو خيانة عظيمة وخداع كبير، فقل للباشا يلزم أن نبقى في مكاننا مدافعين، وإذا انقطع خطّ المواصلة بيننا وبين بغداد نخرج عن حالتنا المنظّمة الى حالة السرايا الغزاة (چته).

فمضيتُ بذلك الى محمد باشا، فاضطرب أشد الإضطراب، وأقام البراهين على أن الإنسحاب أصلح بحال المسلمين وأحفظ للمملكة الإسلامية من البقاء. وكلّفني أن

أأخذ كثيراً من المال؛ يتجاوز عشرات الأُلوف لاقناع القبائل بالإنسحاب لأنها كانت قد تظاهرت بمخالفتها له. حتى أن رؤساءها جاءوني وأنا عند محمد باشا فقالوا: إذا صمم الباشا على التقهقر فخُذ منه المدافع والرشاشات التي أخذناها بدمائنا من الإنجليز. فانحنى الباشا وقبّلني مراراً متضرعاً طالباً إسكات القبائل، فاسكتُّهم.

وعدتُ الى والدي فاخبرته بمقالة الباشا فقال: إذا كان التقهقر أحفظ لبلاد الإسلام فإنه أهم من حفظ النفوس، وليس ذلك من الخيانة. أما القبائل فيلزم إقناعها وإسكاتها بالنصح والوعظ لا بالمال. وردّ ماعرضه الباشا من الأموال، وأمر بالتهيؤ للتقهقر ورجوع القبائل التي عبرت كارون إلينا، الى مراكزهم.

فجاء رسول محمد باشا يكلّف آية الله بأموال كثيرة لاعداد عدّة الرحيل، فردّ ذلك وكان في ضائقة ماليّة، فقال له بعض أصحابه: لو أخذت شيئاً مما عرض عليك لتستعين به على الرجوع.

فأجاب بتأثر: لا اُفسد عملي بالمال إن شاء الله. فتحرك هو وأخوه الأكبر والأصغر وأنا بخدمتهم.

وبينا هو يسير في البطيحة إذ سمع دويّ المدافع من جهة بني طرف، فتوقف فيها ينتظر وصول خبر تلك المدافع، وبعد يوم جاءه تفصيل الخبر ومجمله؛ إن الإنجليز لما علموا بتقهقر الجيش خرجوا من متاريسهم على أثره حتى جاءوا الى ديار بني طرف ـ وهي منازل من القصب ممتدّة على ضفتي الكرخة في مسافة فراسخ ـ فصوّبوا مدافعهم والتهمت النار تلك المنازل فاضرموها على ما فيها من المال، ومن فيها من النساء والشيوخ والاطفال. فقُتل من قُتل، واحترق من احترق، وكثير منهم القوا أنفسهم في الكرخة فراراً من النار فغرق. ووجِد كثير منهم ميّتين على بُعد من منازلهم حرقاً بالنار التي التهمت ثيابهم، والقى كثير من الأُمهات أطفالهن في الكرخة ولم يشعُرن إلا بعد خمود النار حيث جئن يتفقدن أطفالهن فأُخبرن أنهنّ ذهلن عنهم فألقينهم الى الماء. ومنهنّ امرأة «الشيخ عاصي» رئيس بني طرف ؛ فإنها فرّت على وجهها لما علمت بأنها ألقت بطفلها الى الماء. وفرّ كثير ممّن نجا من تلك النار الى البطيحة، وأكثر رؤساء

بني طرف.

فاحتسب الله وتحرك. وكان الخالصي أشدّ الناس قلقاً واضطراباً لهذا الحادث، حتى ورد سوق السواعد على نهر المشرَّح فنزل هناك، فلم يكن للخالصي همّ إلا الدفاع عن العراق والإنتقام من الإنجليز.

فجاء محمد باشا ونزل قباله في مكان يقال له «خرّ عبيد». فجاء أحد الضباط وكلّم آية الله بالإنسحاب لتفوّق قوى الإنجليز.

فقال آية الله: الى أين ننسحب؟.

قال: الى الكوت.

قال: فإن تبِعَنا الإنجليز فإلى أين؟.

قال: الى بغداد.

قال: فإن تبِعَنا الإنجليز؟.

قال: الى الموصل.

قال: فإن تبعونا؟.

قال: ننسحب.

قال: فإذا تبعنا الى آخر المملكة فماذا نصنع؟.

قال الضابط: إما الأسر أو القتل.

قال الخالصي: إذا كان كذلك فالأولى أن نُقتل أو نؤسر في مكاننا دون أن نتحمل ذلّ الهزيمة ومشقّة الفرار.

ولما علم محمد باشا بتصميم آية الله على الدفاع لاقاه وسأله رأيه؟ فأخبره بعزمه. وطلب أن تُمضي الحكومة العثمانية جميع ما يعمله مع القبائل، فاجاب.

وتحرك آية الله من سوق السواعد مع أخويه وولده الى العمارة ونزلا منزلين. لأن آية الله لم يكن يرغب أن يُتعب أخاه بعمله. واشتغل من حينه بمكاتبة رؤساء القبائل الذين كانوا قد تفرّقوا عن ساحات القتال سأماً من طول المدة ـ وكانت الحكومة العثمانية قد غضبت على كثير منهم ـ فجاءت أجوبتهم ملبّين دعوته مطيعين أمره.

وكانوا يتخوّفون من بأس الحكومة فلم يقدروا على دخول العمارة.

وجاء ثلّة من أصحاب «عريبي باشا» فلم يستطيعوا دخول العمارة، فأرسلني والدي خارج العمارة لئلا يمانعهم أحد. فقلتُ لهم: أُدخلوا بسلاحكم! فتعجبوا لذلك وفرحوا فرحاً شديدا.

فدخلوا وأنا أتقدمهم، وكلما مرّ بي أحد رجال الدرك أو الجلاوزة قلت له: إن هؤلاء أصحاب عريبي باشا فلا يتعرضهم أحد. فأُعجبوا بذلك وعلموا أن الحكومة قد صفحت عن رئيسهم.

ولما مثلوا بين يدي آية الله أمَرهم بأن تستعد قبيلتهم للدفاع، وأن يَحضر عريبي باشا الى العمارة ولايخشى أحداً.

فاخبروا عريبي بذلك واطمأن وحضر العمارة وكان أهلها يلهجون بسبّه وشتمه لتهمتهم إياه بالخيانة. فمنعهم آية الله.

وأجاب عريبي الى كل ما أمره به، واعتذر بأنه كان عازماً على الصدق في الدفاع فاتهمته الحكومة بمراودة الإنجليز ولم تكن له معهم مراودة. فمضى الى العلماء ليبرّء نفسه فاتهموه، قال: ولما رأيت إصرار الفريقين على تهمتي والناس تلهج بسبّي وشتم عِرضي، أرسلتُ الى الإنجليز وخابرتهم. ولو كانت يدي تصل إليك لما فعلتُ مافعلت. والآن إذ جئت الى العمارة فإني أتوب من فعلتي، وأنا أسوق جميع قبيلتي الى ميدان الحرب. وأخذ كتاباً من آية الله ببراءته، وسرّحه مع إبنه الى محمد باشا فتلقاه بالقبول وأخلع عليه، وأوعده آية الله بأن يعطيه نهر «الحجلة» مدة عشر سنين ويعفي له عن حصّة الحكومة تلك، وكتب له صكّاً بذلك، فسرّ غاية السرور، ومثل ذلك عمل مع أكثر القبائل.

وبينا هو في العمارة إذ بلغه وصول «نور الدين بك» إليها وتعيينه قائداً للقوى العراقية. فأبرق إليه برقيّة طويلة مرموزة كشف له فيها عن وضعية العمارة والقبائل والقوى المرابطة أمام القرنة، وحثه على الإسراع الى ساحة الحرب لعدم وجود من به الكفاية لقيادة الجند، وحذّره عاقبة التأخير. فجاء الجواب من نور الدين يطلب الثبات

في الدفاع ويعد بسرعة التوجه الى العمارة.

ولم يزل الخالصي يشتغل في إعداد القوى ليله ونهاره إلا أن اليأس والإضطراب كانا سائدين في البلد.

فجاءه أخوه وكلمه بالرجوع الى بغداد، وحذّره القتل والأسر. فقال آية الله: لهذا تحركنا من ديارنا.

ولما لم يستطع أخوه إقناعه؛ استكتبه كتاباً يذكر فيه طلبه العودة وامتناعه منها. فكتب له بذلك، وأخذ أخوه الكتاب وصمم على الرجوع. فأمرني أن اهيّيء له باخرة تقلّه الى بغداد ففعلتُ، ففارقه ومضى.

وكان أخوه الأصغر «الشيخ محمد صادق» قد فارقه قبل ذلك وعاد الى بغداد[١].

وتوجه العلماء الذين كانوا معه في الأهواز الى الكوت من طريق البرّ ولم يدخلوا العمارة وبقي وحده فيها وأنا بخدمته، وهو مشتغل بإعداد عدّة الدفاع وتقوية الجيش المرابط أمام القرنة.

الهُجوم علىٰ جيشِ القُرنة

لكن الإنجليز لم يمهلوه وأسرعوا بالهجوم على ذلك الجيش فأبادوه واستولوا على العمارة وآية الله فيها.

ومجمل تلك الحادثة أن الإنجليز لما أمنوا الشعيبة والحويزة، وجّهوا نظرهم نحو القوى المرابطة أمام القرنة وصمموا على مهاجمتها، وكانوا يسرعون في ذلك خوفاً من

---

(١)وانما رجعا لعجزهما وضعفهما ولم تكن لهما من الهمّة والثبات مثل ماكان في آية الله ومَن ذا يصل الى علوّ همته ورفعة مقامه رحمه الله فتلك نفسٌ ملكوتية حلّت في شخص إنسان، وكانا عاجزَين عن مساعدة آية الله في أقل الأعمال وكانا يشغلانه في أمرهما وشؤونهما فلأجل ذلك أذن لهما في الرجوع الى الوطن في الكاظمية بيد أنهما لو بقيا معه لكان خيراً لهما ولم يفتحا باباً لرجوع العلماء واعتراض أهل الفساد والأغراض وشماتة العدو، ولمّا أُخبرت أن والدي قتل في الحرب سررتُ كثيراً لموفقيته بالفوز بالشهادة التي هي أقصى درجات العبادة وما فوقها سعادة. فلمّا شاهدتُ رجوعه إلينا تأسّفتُ لذلك كثيراً ولمته طويلاً ولم أقف في مجلسه لاستقبال الزائرين له حيث رأيتُ تغيّر ذلك الحال وتبدُل تلك الأخبار بنسبة الناس له الى الفرار، وعسى أن يكون صلاح الأمر في ذلك وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. (الناسخ)

ورود آية الله بقواه إليها فيصعب عليهم أمرها. فهاجموها والخالصي في العمارة لم يكمل بعد قوته، وكان قائدها «حلمي بك» غير عارف بمواقع الحرب. فلما أباد الإنجليز قواه الأمامية يئس من المقاومة فعزم على الإنسحاب، إلا أنه لم يحسن ذلك فجمع مدافعه ورشاشاته في باخرة تجارية لاتقدر على سرعة السير لفقدانها «الفحم الحجري» وأركب العسكر فيها ولم يبق على الساحل مدافع. فتبِعَت تلك البواخر بواخر الإنجليز وأصلتها نار المدافع واستولت على ما فيها وأسّرت من فيها بسهولة؛ إذ أن حلمي بك أسكت مدافعه بيده لتخبيتها في البواخر التجارية.

وفرّ كثير من المجاهدين والجند والعلماء على وجوههم فاستقبلهم أفراد القبائل ونهبوا جميع ما لديهم على عادتهم.

ولما علم بذلك آية الله وهو في العمارة أردنا الخروج منها فامتنع وقال: لا! حتى يكون سبيلنا سبيل العلماء الذين كانوا مرابطين أمام القرنة، أو نقف على أخبارهم. وكان أُولئك العلماء قد فرّوا الى «الغرّاف» من طريق «الجزيرة» دون أن يمرّوا على العمارة ولم نعلم بهم وهم السيد مهدي حيدر، وشيخ الشريعة الاصفهاني، والسيد علي الدامـاد، والسيد مصطفى الكاشاني، والسيد عبد الرزاق الحلو، وأولادهم وأصحابهم.

سقوط العِمارة بِيَد الإنجليز

وصمّم آية الله الخالصي على الدفاع عن العمارة بعد حادثة القرنة، فأخذ بإعداد العدّة والعدد لذلك، وقبل أن يعمل شيئاً أسرع الإنجليز فاحتلوها عشية. ولما سمعنا أصوات المدافع فيها قلتُ لآية الله: إستعد للسفر.

فقال: الى أين؟.

قلتُ: الى الهند!! لأن الإنجليز قد دخلوا العمارة.

فقال: ﴿إنَّا للّهِ وإنَّا إليهِ راجِعُون﴾ أما إن الهند وأنا فيها أسير أحبّ اليّ من العراق وأنا

فيه مُطلق إذا كنتُ لا أستطيع الدفاع عنه.

دخل الإنجليز العمارة فأسروا جميع من كان فيها من الجند ومأموري الدوائر، واستولوا على كل مافيها. وجاء بعض رؤساء القبائل الى آية الله وطلبوا منه أن يغلق باب داره لئلا يعلم به الإنجليز، فأبى ذلك وقال: لا أغلق باب داري خوفاً من كافر ولم يجعل الله له عليّ سبيلا، وإني لا أذل أمامه طوعاً واختياراً مالم أُقهر على ذلك. فوعد رؤساء القبائل بالدفاع عنه إذا قصد الإنجليز به سوءاً.

وسلّمنا جميع ماكان لدينا من السلاح الى رؤساء القبائل، ومكثنا في العمارة ثمانية أيام نترقب كل ساعة الأسر ولم يبق لنا من المال وتفرق الناس عنّا خوفاً من الإنجليز.

وفي اليوم التاسع من دخول الإنجليز العمارة غيّرنا لباسنا وخرجنا متفرقين: خرجتُ أنا وخادمي، وبعد ساعة خرج آية الله ومعه خادم له، وخرج من معنا كل اثنين، وكل واحد، على حِدَة حتى اجتمعنا على بُعد فرسخين خارج العمارة حيث كان ينتظرنا بعض أفراد «آل درّاج» ليسيروا بنا الى الكوت.

ولما اجتمعنا ونحن متنكرون علمنا بأن محمد باشا فرّ بمن معه حين بلغه سقوط العمارة من طريق البرّ الى الكوت. فأسرعنا السير وكنا نرى في طريقنا المجاهدين والضباط حفاة عراة هائمين في البيداء خائفين لايدرون الى أين يفرّون. وشاهدنا كثيراً منهم صرعى قد قتلهم أفراد القبائل طمعاً بما كان عندهم من لباس أو مال. وعلمنا أن بعض المتوحشين من القبائل كانوا يبقرون بطون العسكر لتوهمهم أنهم ابتلعوا الليرات فيفتشون عنها في أمعائهم.

كنا نشاهد تلك الفجائع ولانستطيع أن ندفع شرّاً لأنّا كنا متنكرين لايعرفنا أحد سوى نفرين من آل درّاج كانا يمنعان من يريد نهب أموالنا أو إيذاءنا من القبائل بأمر رئيسهم دون أن يُعلِما بنا أحداً، ويعرّفانا بين القبائل، ومع ذلك كنا نجمع من نراه من المجاهدين والضباط في طريقنا.

حتى وردنا الى دار «جوي المزبان» من رؤساء بني لام فبتنا ليلتنا ولم يكن هو في داره وإلا لعرفنا. فأخذنا التعب ونمنا جميعاً، فظنّ بعض الأجلاف أنا نحمل مالاً وافراً

فأرسلوا سارقاً لاختلاس «خُرج» كان معنا وكانوا يظنون أن المال فيه، فأحسّ به خادم لنا، فأسرع للقبض عليه، فجرحه في رقبته بخنجره فنادى: آه! قد قُتلت.

وكنتُ نائماً فأيقضني صوت الخادم، وظننتُ أنه صوت آية الله، فنهضت مضطرباً مرعوباً فوجدتُ آية الله سالماً فردّ اليّ روعي، وكان السارق قد فرّ. فاشتغلنا بتضميد جرح الخادم.

وعلمنا أن الضرر الذي يلحق بنا من التنكّر أعظم منه لو عرّفنا أنفسنا الى الناس، فعرّفنا أنفسنا، وجاء الناس يبكون معتذرين، حتى أصبحنا فعبرنا دجلة الى الجانب الذي يقيم فيه «فهد الغضبان» أحد رؤساء بني لام. فعلموا بورود آية الله وأقبلوا لاستقباله، وجاء «جوي» معتذراً عمّا جرى في داره طالباً صفح آية الله عنه.

ومكث آية الله زهاء عشرة أيام هناك خابر فيها القبائل الى مايجاور العمارة. وأمرهم بالقيام في وجه الإنجليز إذا علموا بتقدم القوى العثمانية. ولما أتمّ مخابرة القبائل وأخذ الجواب على ما أمرهم به، توجه الى الكوت على خيل من بني لام، فصادف بواخر إنجليزية كانت قادمة الى علي الغربي فلم يحصل إصطدام بيننا وبينهم؛ إذ لم تكن قواهم كافية، ولم نكن نرد محاربة البواخر المدرعة عبثاً.

فانصرفنا بخدمة آية الله، وكان كلما مرّ بقبيلة أمرها بالتأهب للحرب، ووعدها سرعة الرجوع. وكلما رأى أحد المجاهدين الفارّين أو الضباط أمر بحمله معنا حتى اجتمع لدينا عدد كثير. فوردنا «الشيخ سعد» (سوق جنديل) فوجدنا قوى جديدة مرابطة هناك تحت قيادة «خليل بك» و «فريد بك». فلما علموا بورود آية الله سُرّوا سروراً عظيماً وبشّروا بذلك نور الدين بك، وكان قد جاء الى الكوت وهو يسأل كل يوم من كل الجهات عن آية الله، ويأمر باستبار خبره لأنه كان يخشى أن يكون قد اُسر.

فجاءت برقيّة من نور الدين يبارك فيها لآية الله بوروده، ويشكر الله على سلامته. فأمرني آية الله أن أمضي الى دائرة البرق العسكريّة فأكلمه شفاهاً، وأطلب مدفعين وثلّة قليلة من الجند لتكون جامعاً للقبائل، فتهجم بها على العمارة، ونخبره بمقدار القوى الإنجليزية فيها على ما تحققناه مدة بقائنا في العمارة. فطلب نور الدين بعد مخابرته أن

يزور آية الله في الكوت ويحادثه في أمور مهمّة لايمكن كتبها. وأبـان أنـه لايسـتطيع مفارقة الكوت ولا ساعة واحدة لما فيها من الأعمال الضرورية المهمّة.

آيةُ الله في الكوت

فلما علم آية الله بذلك تحرك الى الكوت من فوره والناس في كل مكان مستبشرون بقدومه، حتى وردنا الكوت. فاستقبله نور الدين ووجـدناه عـمل أعـمالاً تُشكـر؛ لأن القوى التي كانت مرابطة في العراق لم يكن بقي منها شئ ولا جندي على ما بيّنا مـن إنتهاء الجهات الثلاث التي كانت محاصِرة للبصرة بمحو جميع القوى؛ بسـبب جـهل قوّاد تلك الجهات.

فوجدنا نور الدين قد أوجد قوى جديدة وخطّطَ خططاً متينة للدفاع عن الكـوت وكلها من آثار رأيه وفكره، حيث لم يستفد من قوى أسلافه شيئاً لأنهم كانوا أذهـبوها كما ذهبوا معها.

فأُعجب آية الله بمهارة نور الدين، وشكى إليه جهل وجبن قوّاد الجهات الثـلاث. فأخبر أنه مصمم على محاكمتهم جميعاً صغيراً وكبيراً. فشكر له آية الله نـيّته، وطـلب منه إعطاءه مدفعين وثلّة من الجند لتكون جامعاً للقبائل فيهجم بها على العمارة، وقال: إن فتَحنا العمارة فهو المطلوب وإلا فإن أقلّ فائدة تحصل لنا من ذلك هو إيقاف هجوم الإنجليز حتى تتم استحكامات الكوت، وتصل النجدات العسكرية.

فصوّب نور الدين رأيه، وطلب إمهاله الى أن يرتب ثلّة من الجند لذلك إذ ليس معه في الكوت من الجند من يستطيع إرساله لهذه الغاية. وطلب من آية الله أن يسـتدعي القبائل للحضور مدة توقفه في الكوت.

فقال آية الله: إن بعضهم قد راجعوا الإنجليز حسب ما أعلم، ولا أظن فيهم الخير، فلا أُحضر إلا من أظن فيه الصلاح.

فقال نور الدين: إن مثلك مثل الماء يصيب النجس فيطهّره، فأُؤمّل أن تصلح الفاسد، كما تُثبّت الصالح.

فقال آية الله: إن الماء إذا أصاب متنجّساً طهّره، إما إذا أصاب عين النجاسة فلا يزيدها إلا نجاسة، ولا تطهّر مالم تستهلك فيه.

فقال نور الدين: أرجو أن أُشاهد القبائل بنفسي لأعلم الصالح من الفاسد إذ لعلّ سوء سياسة السابقين ألجأت بعضهم الى الفساد.

فقال آية الله: إن بعضهم لمخابرتهم الإنجليز يخشون المجيىء الى الكوت مالم أعطهم أماناً، وأخشى أن آمنهم فيأتوا وتطّلع على أعمالهم فتعاقبهم ويكون ذلك منافياً للأمان الذي أُعطيه إياهم.

فقال نور الدين: إني رجل جندي لا أعمل خلاف قولي وإني أعد أني لا اعقّب من تأمنه مادام في أمانك ولو كان من عمّال الإنجليز.

وبعد تمام حديثنا مع نور الدين، جاء الناس لزيارة آية الله أفواجاً، وعلِمنا أن جميع العلماء؛ سواء من كان معنا، أو من كان في الشعيبة أو القرنة فرّوا الى أماكنهم فلم يبق إلا السيد مهدي حيدر في الكوت. فاشتغل آية الله بدعوة القبائل للحرب. وكان يُرسلني للتجوّل فيهم وقضاء حوائجهم وإعداد العدّة والذخيرة الحربية لهم. حتى اكتمل في أطراف الكوت منهم خلق كثير لايقلّون عمّن كان قد اجتمع سابقاً منهم في العمارة، إلا أنهم أصلب من تلك القبائل، وأعظم عدّة، وأشد تأهّباً للحرب. لأن آية الله كان بينها، ولأن قائدها كان أحزم من قادة تلك القبائل.

وأسند نور الدين قيادة القبائل لأحد ضباط الجيش «صبري بك». وتم من العدّة ما أوقف هجوم الإنجليز على الكوت، فساقوا قواهم الى «ناصريّة المنتفك» حيث لم يكن للمسلمين فيها من القوى ما يكفي لمحافظتها.

عَودةُ آية الله الىٰ العمارة

وحينئذٍ طالب آية الله نور الدين بك بإعطائه مدفعين ليمضي الى العمارة كي يشغل الإنجليز عن هجومهم على الناصرية، وكان قد جاءت باخرة حربية من بغداد دُرّعت ونصبت مدافعها هناك، فسلّمها نور الدين لآية الله وجعلها تحت أمره. وكان فيها سبعة

مدافع، وثلاثون جنديّاً.

فركبها آية الله وأمر أن تُبخر الى العمارة. فسمع نور الدين بك فجاء وعدّة من الضباط وأراد منع آية الله عن السفر خوفاً من هجوم الإنجليز، وقال: أخشى أن تتعرّضوا لمدافع الإنجليز وفي ذلك خطر عليكم، وإني أرجو ان ينتفع الإسلام بوجودكم.

فقال آية الله: ما أتينا إلا لذلك، وأنا أرجو أن أنفع المسلمين في حياتي وبعدها، أرجو أن أنتفع بالحياة الأبديّة.

وكلّما أصرّ نور الدين على منع آية الله عن الحركة في ذلك الوجه لم يمتنع. فودّعه نور الدين والضبّاط، وأبخرت الباخرة متوجّهة الى العمارة.

وكنا كلّما مررنا بقبيلة نزل إليها آية الله وأمرني بإلقاء خطبة تهيّجهم وتدعوهم الى الحرب وتشوّقهم، فيجيبون ويلبّون الدعوة. حتى وردنا الى علي الغربي ومعنا خلق كثير ففرّ من كان فيها من الإنجليز. وأبخرت باخرتنا الى علي الشرقي بعد أن عيّن لعلي الغربي حاكماً ومأمورين، ونحن ندعوا القبائل في طريقنا الى اللحوق، ويفرّ مَن نواجهه من الإنجليز. حتى وردنا «كميت» على هذه الحالة، ففرّ من كان فيها من الإنجليز بدون حرب.

ولما اكتملت القوى من القبائل هناك. أرسل نور الدين فوجين من الجند لتعزيز القوّة المهاجِمة على العمارة. وأرسل آية الله عدّة من الأعراب لمباغتة العمارة من جهات متعددة كي تستكشف مواقعها وما فيها من القوى، فهاجموها عدّة ليال.

وبينا نحن مشغولون بترتيب الهجوم على العمارة ومخابرة القبائل التي كانت وراء العمارة وكميت غاصٌّ بعشرات اُلوف المحاربين. إذ أصبحنا ذات يوم وليس في كميت إلا مَن كان في دارنا من الخدم. فخرجتُ لاستطلاع الحال علمنا أن أمراً ورد من القائد بالرجوع فرجع المجاهدون.

فاخبرتُ بذلك آية الله. فأمر أن نركب خيولنا ونرجع. وقبل أن نخرج من كميت جاءت باخرة إنجليزية فاطلقَت مدافعها على البلدة وأصابت بعضها منزلنا. ولما

خرجنا من كميت رأينا كثيراً من القبائل راجعون إليها، فلما رأوا آية الله استبشروا به وأخبروا أنهم خرجوا من كميت يحسبون أن آية الله خرج منها. ولما علموا وهم يسيرون أنه بعد لم يخرج عادوا مخافة تغلّب الإنجليز وأسره.

وجاء بعض الضبّاط فسألهم عن علّة الرجوع؟ فأخبروا بسقوط الناصريّة وتلقي أمر بالرجوع مخافة هجوم الإنجليز على الكوت من جهت الناصرية فينقطع خط المواصلات بينها وبين العمارة. فاستشاط آية الله غيضاً من ذلك، وقال: لا أظن الإنجليز يهاجمون الكوت من الناصرية لبُعد ذلك الطريق ووعورته وعدم وجود خطوط للنقليّة. على أن ذلك يظهر إذا خرج الإنجليز من الناصرية وتوجهوا الى «الشطرة» ونحن نستطيع أن نصل الكوت من العمارة قبل أن يصلها الإنجليز من الشطرة فما هذه العجلة؟.

فاعتذر الضبّاط بأنهم ربّما خفي عليهم مرام نور الدين. فأسرعنا لملاقاة نور الدين، فلمتُه على ذلك التقهقر لوماً شديداً بأمر آية الله وأخبرتُه بشدّة تأثره، وأخبرتُه بمقالته. فاعتذر بأن الضبّاط لم يتلقوا أمره كما هو، وأنه لم يأمر بالإنسحاب وإنما استخبر الوضعيّة فلم يفهم الضبّاط وانسحبوا. وقال إنه سيحاكم بعضهم محاكمة عسكرية.

إلا أن هذا الإعتذار لم يُجدِنا نفعاً حيث تفرّقت القبائل، ومضى كل الى مركزه.

فورد آية الله الى الكوت واشتغل بجمع المجاهدين وهو صائم نهاره؛ قضاء ما فاته من الصيام في سفره الى العمارة.

واشتغل بتأليف كتاب في الجهاد طُبع في بغداد وهو في الكوت.

قيامُ أهالي النجف وكربلاء والحلّة في وجه الحكومة العثمانيّة وتصدّي آية الله لإخماد الفتنة

وبينا نحن فيها إذ جاءت أخبار موحشة عن قيام أهل النجف وكربلاء والحلّة

ومحاربتهم الحكومة العثمانية. فعزم نور الدين على إرسال قسم من جنده المرابط في الكوت لحرب أهالي تلك البلاد الثلاثة، وعيّن قائداً من الضبّاط لذلك. فجاء ذلك القائد لوداع آية الله وهو يبكي وقال: خرجتُ من داري عازماً على محاربة الإنجليز وكنت أُقدّر الفوز في حربهم إن غَلبتُ بالنصر وإن غُلبت بالشهادة، وإن أهلي في بلاد «الأناظول» يتوقعون وصول أحد الخبرين إليهم، وما أسوأ حظّي وأشقاني إذ كان نصيبي أن أُحارب المسلمين فأقتل مسلماً أو يقتلني مسلم. ولا أستطيع أن أخالف أمر قائدي.

فأرسلني والدي الى نور الدين لأمنعه عن إرسال الجيش لمحاربة المسلمين. فقال نور الدين: إني مضطر الى ذلك وأنا اُلاقي آية الله فأُقنعه.

فلاقاه وتحدثا مليّاً؛ وكان مما جاء في حديثهما؛ أن قال نور الدين: إن أهالي الحلّة هجموا على العسكر فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وكذلك أهل النجف وكربلاء، وإني مضطر أن أُريهم أن الدولة العثمانية لم يبلغ بها الضعف حدّاً تعجز عن تأديب أمثال اُولئك الأجلاف، وإنّ هزيمتنا أمام الإنجليز لاتستوجب مثل هذا القيام في وجهنا ومحاربة المسلمين لنا.

فقال له آية الله: إني أخشى أن يشرع الإنجليز بالهجوم هذه الأيام فنحتاج الى هذا الجند، وما دام أمامنا عدّو خارجي لاينبغي أن نشتغل بحروب داخليّة. فقال نور الدين: إن العدو الداخلي أهم من العدو الخارجي، وإن القواعد العسكرية لاتبيح لي الإشتغال بمحاربة الإنجليز وفي داخليّتي اغتشاش واضطراب ينذر بالخطر، وإني اُفضّل التقهقر الى بغداد وإصلاح الداخل وإسكات هذا الهياج الذي شرع ضدّنا بتحريك الإنجليز.

فلم يزل آية الله يهوّن عليه الأمر ويسكّن غضبه ويَعِد بإخماد لهب تلك الفتنة بلا حرب حتى أقنعه فأمر بعودة الجيش الذي أمره بالحركة الى الحلّة والنجف الى مراكزه ومتاريسه.

وكتب آية الله برقيّات الى النجف وكربلاء والحلّة ينصح فيها الثائرين، ويحذّرهم سوء عاقبة الثورة، ويخوّفهم الله إن أعانوا الإنجليز على المسلمين. وأوفد من قِبله

رجلاً الى تلك البلاد. ولم يزل يشتغل في إصلاح ذلك الأمر مضافاً الى اشتغاله في الكوت.

أمر آية الله بمضيّنا الىٰ إيران

وجاءت الى نور الدين أخبار موحشة عن الجند العثماني في إيران وقيام بعض الإيرانيين في وجهه من جهة، ودخول الروس الى بلاد إيران من جهة أُخرى. فحادثني بذلك وطلب منّي المضيّ الى إيران لإصلاح ما أفسده سوء سياسة الضبّاط الذين كانوا هناك. فأجبتُه الى ما سأل مشترطاً إذن آية الله لي بذلك. ولما استأذنتُه أذن لي على خلاف ميله الشخصي، لأنه كان يودّ أن أكون بخدمته. لكنه رأى أهميّة موقع إيران، فلم يستطع منعي لعدم مساعدة تكليفه الشرعيّ على ذلك.

فأبرق نور الدين الى الآستانة بذلك والى سفارة طهران والى معاونه في بغداد. وحوّل مصارف لذلك السفر، فأمرني والدي أن لا أقبل شيئاً من ذلك. وجاء نور الدين وأصرّ غاية الإصرار على قبول «ألفي ليرة» على الأقل فامتنع من ذلك آية الله، ثم عرض عليه أموالاً طائلة ليصرفها على المجاهدين الذين كانوا معه فأبى.

ثم تحرّكتُ من الكوت وروحي فيها لم تفارق آية الله وكنت موعوكاً. فوردتُ بغداد وتكلمتُ مع معاون الوالي في ترتيب سفر إيران، وأراد أن يصحبني بعض ضبّاط الألمان إليها فلم أجب دعوتهم إذ لم تكن لنا علاقة بهم.

سقوط الكوت ومعاودة آية الله الى الحرب

ومضيتُ الى الكاظمية لموادعة أهلي. وبعد أيام من ورودي الى بغداد، هجم الإنجليز على القوى المرابطة في الكوت فبقيتُ أنتظر نتيجة تلك الحرب. فدامت يومين وفي اليوم الثالث تقهقر نور الدين بقواه الى «المدائن» (قبر سلمان الفارسي) وبقينا مضطربين أشد الإضطراب، لأنا حسبنا أن تقهقر نور الدين كان شبيهاً بتقهقر أسلافه؛ أي لم يحفظ قواه وتبيد في التقهقر فلا يبقى مدافع في بغداد. وكان يزيد

اضطرابنا عدم علمنا بآية الله ومصيره.

وبعد أيام قلائل ورد المدائن نور الدين وكان قد انسحب إليها انسحاباً منظّماً بحيث لم يفقد من عدده أحداً، ولا من عدّته شيئاً، فاطمئن الناس. وكان هذا أول انسحاب منظّم شاهدناه في العراق.

ثم جاءت برقيّة من «الديوانية» تخبر بورود آية الله إليها سالماً، فاستبشرنا لذلك. وتبيّن أنه تنكّب الطريق وورد الديوانية على غير الجادة العامّة بمشقّة تامّة خوفاً من الإنجليز.

ثم ورد آية الله الى الكاظمية ولم يستقرّ فيها حتى أبرق الى نور الدين يطلب ملاقاته وركب الى المدائن وأنا بخدمته.

حديثُه مع نور الدين باشا في المدائن واقتراحُ آية الله

فلما رآنا نور الدين قال: هل يشبه انسحاب الكوت ما تقدمه؟ فشكره آية الله على احتفاظه بقوّته. وقا: لو لم أفعل ذلك لبادت هذه القوى في الكوت، وبقيَت بغداد بلا مُدافع، أما الآن فإني أستطيع إيقاف القوى الإنجليزية هنا حتى تصل القوى الإمدادية التي هي الآن في الطريق. وشكا أعمال أهل الحلّة حيث قاوموا ثلّة من الجيش كانت متوجهة الى «السماوة» وقطعوا طريقها.

وبعد ذلك أخبره آية الله بما عمله في طريقه أثناء عودته من الكوت، وأنه دعا قبائل «الدغّارة» و «عفج» والديوانية والحلّة الى الجهاد فلبّوا الدعوة وهم حاضرون متأهبون للحرب ينتظرون أمر القائد ليتوجهوا حيث يوجههم.

ورجّح آية الله أن يتوجه القبائل الى البغيلة فيقيموا وراءها من جهة البرّ في مكان يقال له «الفتحة» فإذا جاء الإنجليز من الساحل لمحاربة القوى المرابطة في المدائن لم يعارضوه حتى يشتبك بالحرب فيهاجموهم من خلف ويحصروا القوى الإنجليزية ويحيطوها من جميع جهاتها. وقال: إن ذلك يتوقف على مدافع ورشاشات تكون مع القبائل. فاعتذر عن ذلك نور الدين بأنه لايستطيع إرسال المدافع إلا مع قسم من

الجيش المدرّب، وإلا يكون مسؤولاً أمام القيادة العليا، وأنه لايوجد لديه فاضل جيش يستطيع إرساله. وطلب من آية الله أن يرسل القبائل لمهاجمة الإنجليز بصورة غير منتظمة ويرسل بعضها لتأخذ مواقع أمام المدائن.

ولو أنه فعل ما أشار به آية الله لما استطاع الإنجليز أن يأخذوا موقعاً في الكوت بعد هزيمتهم من المدائن كما سيأتي وعلى أي حال فإن اعتذار نور الدين أقنع آية الله بدعوة القبائل الى المدائن وجعلهم تحت إمرته ففعل وتواردت القبائل.

وكان فيما قاله نور الدين لآية الله: إن الإنجليز إذا أمهلونا ثمانية أيام فنحن في غنى عن القبائل، لأن القوى الإمدادية تصل إلينا بعد ذلك، وإن أسرعوا بالهجوم فإن أمر بغداد في خطر. وإني أضطر الى تخليتها والإحتفاظ بما لدي من القوى لتنضمّ إليها القوى الإمدادية فتستطيع استرجاع بغداد. وإن اضمحلّت هنا قوانا هذه فإن بغداد تذهب من أيدينا وتعود القوى الإمداية بلا جدوى ولعلّها لاتستطيع الدفاع عمّا وراء بغداد. هذا ما قاله نور الدين.

حربُ المدائن العظمى

إلا أن الإنجليز هاجموا المدائن بعد ستة أيام فثبت نور الدين وجنده ثباتاً لم يسبق له مثيل، ودامت الحرب يومين أضاع الإنجليز فيها ضائعات عظيمة، وفي اليوم الثالث وردَت ميدان الحرب فرقة من الجند تحت قيادة «خليل بك» عمّ «أنور باشا» فاشتركَت بالقتال وكان الإنجليز قد هاجموا المدائن بجميع قواهم. ولما وردت الفرقة الجديدة للجيش العثماني كان الإنجليز قد كلّوا وملّوا، والفرقة الجديدة لم يصبها سأم وكانت الحرب في اليوم الثالث شديدة جداً يسمع أصوات مدافعها أهالي بغداد. فتقهقر الإنجليز آخر ذلك اليوم ليأسهم من الإستيلاء على بغداد.

ولم يكن القائد العثماني يعلم ذلك وكان يظن صعوبة الإحتفاظ بمواقعه الأماميّة إذا نشبت الحرب في اليوم الرابع فأمر بتخليتها واتخاذ مواقع جديدة من ورائها. وبعد

إخلائها جاءه قادة مقدمة الجيش يخبرونه بتقهقر الإنجليز ويعترضون على تخلية المواقع الأمامية. فأمر بتعقيب الإنجليز حرباً، فهجم الجيش العثماني لتعقب الإنجليز إلا أنهم كانوا ابتعدوا عن الجيش العثماني فلم يصل إليهم إلا بعد أن اتخذوا لهم مواقع جديدة فصدق الحرب معهم حتى أزاحهم عنها.

ووصلت نجدات جديدة له فلم يزل يتعقّب الإنجليز ويغنم بواخر حربيّة ومدافع ورشاشات وغيرها من ذخائر الحرب حتى اجتازوا البغيلة.

ولو أن نور الدين عمل باقتراح آية الله لتلقّت الجيش الإنجليزي هناك القوى الإسلاميّة من خلفه ولاضمحلّ هناك ولما وصل الى الكوت ولفُتح العراق الى البصرة في وجه الحكومة العثمانية ولَما أمكن استيلاء الإنجليز عليه مرّة أُخرى. لأن العراقيين الذين كانوا خُدِعوا بدسائس الإنجليز عرفوهم في هذه المدة القصيرة، فكانت البلاد التي استولوا عليها تفدي كل ما لديها للتخلص منهم. ولكن نور الدين أبدى عذراً عن العمل به فاجتاز الإنجليز البغيلة بلا معارض من خلف والجيش الإسلامي على أثرهم.

حصارُ القوىٰ الإسلاميّة للكوت

وردوا الكوت وتترَّسوا بها واعدّوا مواقع تحصّنوا فيها، وعاد الإستيلاء عليها مستحيلاً للقوى الإسلامية فحاصرَتهم في الكوت، واجتاز قسم منها الى علي الغربي واتخذَت مواقع محكمة وراء الكوت في «الفلاحيّة» و«السنّ» ولم تستطع الإجتياز الى العمارة لأن المحصورين في الكوت قطعوا خط المواصلة بين العمارة والكوت؛ وبسبب ذلك حُفظ بقيّة العراق للإنجليز.

ولما حُصر الإنجليز في الكوت كسبت الحرب العراقية شكلاً جديداً. وكان وجود آية الله في الكاظميّة أنفع من وجوده في الكوت فبقي فيها.

وجاء قسم من العلماء الذين كانوا قد فرّوا الى النجف لحسبانهم إن بغداد لاتبقى بيد العثمانيين بعد الكوت، فقصدوها وعرضت عليهم القيادة العثمانية شيئاً من المال

فقبلوه! ولما علم آية الله نفر من هذا العمل وقال: أخشى أن تظن القيادة العامّة إن أعمال العلماء السالفة شبيهة بهذا العمل، ولاسيما أن نور الدين قد عُزل وخلفه خليل باشا وهو غير عالِم بما عمله العلماء قبل مجيئه، وتحرّجهم عن قبول المال، وصرفهم الأموال الطائلة على المجاهدين دون أن يُكلّفوا القيادة شيئاً.

وبالجملة أضاع المتملّقون بقليل من المال كثيراً من المجد كان قد حلّى به العراقيين والعلماء آية الله الخالصي!.

مكث أُولئك النفر في الكوت قليلاً ثم آبوا.

وجاء «فرند غولج باشا»[1] الى بغداد وتواصلت النجدات للترك وللإنجليز ووقعت حروب عظيمة تشبه حروب الغرب، حتى أُحصي أن الإنجليز أطلقوا في صبيحة واحدة مائة وثمانون ألف قنبلة مدفع. وفي كل تلك الحروب كان الفشل نصيب الإنجليز، والفوز نصيب المسلمين.

ودام حصار الكوت أربعة أشهر وقعت خلالها أعظم الحروب؛ حتى فقد الإنجليز أقواتهم وأكلوا الخيل والدواب. ولما لم يبق لديهم شيئ وخافوا الهلاك من شدّة الجوع وعجزوا عن إيصال القوت الى المحصورين لاقى «تاوسند» قائد الإنجليز العام خليل باشا قائد المسلمين فعرض عليه أن يسلّمه ما للأنجليز من السلاح في الكوت ومليون ليرة ذهباً ويسمح له ولجنده بالذهاب عُزلاً الى البصرة. فأبى خليل باشا إلا أن يسلّموا أنفسهم للمسلمين فيأسرونهم. ولما يأس رجع الى الكوت وأتلف جميع ما كان لديه من السلاح فدخلت القوى العثمانية الى الكوت وأسرته هو وثلاثة عشر ألف من جنده، وكان عدّة المحصورين عشرين ألفاً هلك منهم سبعة آلاف مدّة الحصار.

وكان لهذا الفوز أثر عظيم في العالم وتأثير على جميع المتحاربين في الدنيا. لكنّه لم يُنل إلا بعد أن جاء الإنجليز بقوى عظيمة صدّت القوى الظافرة عن التقدم الى العمارة.

---

(١) قائد الماني كبير (الناسخ).

وبعد فتح الكوت مات «فرند غولج باشا» بفتح طريق بغداد، وعزز الإنجليز قواهم في العراق. وأوعزوا الى الروس بمهاجمة إيران من جهة مشهد. فاضطر خليل باشا أن يرسل على «إحسان بك» الى إيران لمقاومة الروس، وكان مرابطاً بفرقته في الجانب الغربي من دجلة أمام الكوت، فبقي ذلك الجانب بلا مدافع.

وحدثت فتَن؛ في كربلاء والنجف والحلّة بدسائس الإنجليز اضطرّت خليل باشا الى سَوق جيش لمحاربتهم، فقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر نساء الثائرين في الحلّة ونفاهم الى الأناظول [١] فأوجب ذلك نفرة أكثر العراقيين.

ولما رأى آية الله ذلك جدّ في إصلاح الأمر، ومضى الى سامراء لملاقاة آية الله الشيرازي ليعملا معاً. فأجاب الشيرازي وصارا يكتبان الى القبائل بما يجب ذلك اليوم.

وأعاد الخالصي جملة من نساء الحلّة الى بلدهن قبل أن ينفين الى الأناظول، وطلب إرجاع الباقيات اللاتي وصلن الى منفاهنّ، فوعد خليل باشا بإرجاعهن [٢].

وعلم آية الله ضعف القوة العثمانية عن مقاومة الإنجليز إذا أرادوا الهجوم. فأراد أن يعززها بقوى القبائل العراقيّة فكتب الى خليل باشا بذلك، فجاءه الجواب منه يكتب إليه بعدم احتياجه لذلك وإنه يطلب منه إرسال القبائل متى احتاج.

---

(١)وكان قد عمل مثل ذلك في نساء الفارّين من العسكرية في قرى الخالص وغيرها، وقد فتك بأهالي كربلاء فتكاً عظيماً عند الهجوم والاستيلاء عليهم، عمل معهم كما عمل جيش يزيد بأمره مع أهل المدينة في قصة الحرّة هتكوا الاعراض ونهبوا الاموال وباعوها باسواق بغداد، وقتلوا العجزة والاطفال وشقوا بطون الحوامل الى غير ذلك بما أجروه مع أهل كربلاء، وشئ منها أجروه مع أهل النجف والحلّة. وهذا منتهى القساوة والحماقة من تلك القادة، والذي كان من أكبر الاسباب وأعظمها على سقوط العراق بيد الإنجليز، على الاخص البلاد الشرقية منه، جهة الفرات، فانهم ذهبوا الى الإنجليز وجاؤا به وسلطوه عليهم طوعاً بعد تلك القضايا، وصار كل من يتكلم بوجوب نصرة الاتراك على عدوهم الإنجليز يرمونه بعدم الغيرة العربية وترك الدين. وكتابة آية الله الى القبائل كان بعيدٌ بل مستحيل النجاح والإجابة الى الدفاع، لكنه رحمه الله كان يؤدي فرضه مهما أمكن ولو بالقاء الحجة. (الناسخ)

(٢)لكنهن لم يرجعن حتى الآن وهنّ يربون على أكثر من ألف وخمسمائة إمرأة من الحلّة وحدها. (الناسخ)

سقوطُ الكوت بيد الإنجليز وسقوط بغداد وما حاذاها

فهجم الإنجليز على الكوت هجوماً متواصلاً بقوى تفوق القوى العثمانية أضعافاً مضاعفة فأزالتها عن مراكزها واقتفت أثرها الى بغداد.

وحينئذٍ جاء «صبري بك» عن خليل باشا يخبر بلزوم إرسال النجدات من القبائل. فبدأ آية الله بدعوتهم، وقبل أن يتم مكاتيبه دخل الإنجليز بغداد وتقهقرت القوى العثمانية عن الكاظمية.

حالةُ آية الله بعد احتلال الإنجليز بغداد

فغلب الحُزن والهمّ آية الله واختار السكوت، وقطع المراودة مع الناس وامتنع عن الأكل والشرب، وضعف حتى عن النهوض والمشي، واختنق بعبرته، ويبس ريقه، فحدث فتق من وراء رقبته سال منه الدم والقيح، واشتغلنا بمعالجته أياماً عديدة وبقي أثره ظاهراً في رقبته حتى توفّي.

وكان يشاهد فجائع الإنجليز في العراق ولايستطيع أن يدفع عن المسلمين ضيماً ويزيد ذلك في تأثره.

بعضُ فجائع الإنجليز بعد احتلال بغداد ومقاومة آية الله لهم

فأول ما دخل الإنجليز العراق استاموا الناس سوم العبيد، وصاروا يقتلون على الظنون والأوهام، ونصبوا المشانق في أكثر البلاد، وكل من اتُهم بشيء قُتل. ولقد قتلوا كثيراً من الناس بمحض وجود قنبلة أو قنبلتين في دورهم، وأخذوا يفتشون الدور

ويلجها عسكرهم بدون إستئذان، حتى ذهلت الحوامل وأسقطت أجنّتها، وانتهك ضبّاطهم حرمة مساجد المسلمين وقبور الأئمة الطاهرين، وصاروا يدخلونها بلباسهم العسكري مستهزئين بمن فيها من المتعبّدين والناسكين.

ولقد مانع بعض الناس ضبّاطهم عن هتك حرمة الكاظمين، فأجاب: بأنا فتحنا بقوّة المدافع هذه البنية ومتى شئنا هدمناها.

هذا عملهم، وحكّام البلاد منهم يعلنون كل يوم أنهم يحافظون على حرمة العتبات، وينشرون بذلك منشورات ويذيعون إذاعات رسميّة.

وصار الإنجليز يشترون أقوات الناس حتى حصروا جميع ما في العراق من القوت عندهم، و اضطر الناس الى شراء قوتهم منهم بأضعاف ما باعوه به، وأُلجأ من لم يتمكن من ثمن قوته بأن يُستخدم في الجندية الإنجليزية و إلاّ مات هو وعياله جوعاً. وهتكت بسبب ذلك أعراض كثير من الضعيفات اللاتي لم يكن لهنّ من يعول بهن، وصار كثير من الناس خداماً للإنجليز، و تجنّد آخرون و هم كارهون لعدم تمكنهم من تحصيل أقواتهم إلا بذلك إذ لم يكن يوجد لديهم ثمن قوتهم الباهض لأن الإنجليز أغلوا الأسعار غلاءً فاحشاً، فساق الإنجليز أولئك المساكين الى المدافع الإسلامية فقُتلوا وخسروا الدنيا والآخرة.

ووزع الإنجليز دراهم على العلماء ليسكتوا أمام فجائعهم، فقبل من سُمي بالعلم وانتسب إليه من الأجلاف الذين لا يهمهم أمر وطن ولا دين.

وقبض الإنجليز على أكثر من اتهم بمعاونة المسلمين فنفوهم الى الهند وهم اُلوف من رؤساء العراقيين[1]. هذا هو الإستقلال الذي وعد به الإنجليز العراقيين.

---

(١) وأما آية الله فإن الإنجليز أرادوا القبض عليه وقد شاهدتُ المدافع المدرعة والجيش البريطاني أحاط بالكاظمية ليقبض على آية الله و أمروا الناس أن يدخلوا دورهم و يقفلوا عليهم أبوابها بعد الغروب من ذلك اليوم و أعلن أن مَن وجد في الأزقة والأسواق من الأهلين بعد الغروب فدمه هدر. ولما ارادوا الهجوم على آية الله مانعَ «سردار سبه الهندي» حاكم الكاظمية و مضى من ساعته الى بغداد و بيّن للحاكم السياسي الخطر الذي يلحق الإنجليز من ذلك وإن الضرر على الدولة البريطانية عند نفي آية الله سيكون أعظم من بقائه في العراق و ⇐

لما شاهد آية الله هذه الفجائع واضعافها، وعلم إن الإنـجليز بـصدد القـبض عـلي أمرني بالخروج من الكاظمية و الإلتحاق بالعثمانيين واستنجادهم والعمل معهم عسى أن يكتب الله لهم الرجوع الى العراق فينقذوا المسلمين.

فخرجتُ والتحقتُ بالجيش الإسلامي وبقيت معه سنتين آمـل ورود القـوة لإنـقاذ العراق، وأرى عكس الأمل من الهزيمات المتتابعة حـتى حـدثت مـحاربة «الشـرقاط» واحتل الإنجليز الموصل بلا حرب بعد عقد الهدنة العمومية و مغلوبية المتفقين.

و لستُ أذكر هنا ما لقيتُه من الحوادث، وأتيتُ به من الأعمال مدة هاتين السنتين في الموصل و غيرها، لأنها لا تتعلق بترجمة والدي سوى؛ إرسال الرسل سراً من الموصل الى بغداد و استكشاف حال العراق. فإنهم كانوا يلاقون آية الله و يسهّل لهم الوسائل لاستكشاف و ضعية الإنجليز و ما عليه العراقيون وتأهبهم جميعاً لحرب الإنجليز عند أول هجوم يجريه الجيش الإسلامي في حدود العراق.

و كان يرسل إلينا ماكان يعمله مع قبائل العراق سراً من المحالفات على القيام فـي وجه الإنجليز، و هو عمل ليس بالقليل ذلك اليوم الذي لا يستطيع فيه أحـد أن يـتفوّه بكلمة واحدة بالغاً ما بلغ من العظمة والإقتدار سواه.

فإنه أول من تكلم في العراق ضد الإنجليز جهراً في مجلس كان يـضم كـثيراً مـن زعماء العراقيين و عمّال الإنـجليز حـيث صـار بـعضهم يـتملّق لعـمال الإنـجليز بـأن العراقيين مشغوفون باحتلال الإنجليز للعراق، ناقمون على الدولة العثمانية.

فقال آية الله: إن هذا الكلام تملّق محض، و مافي العراق أحد إلا وهو ناقـم عـلى الإنجليز يترقبون فرصة للوثبة والقيام، فكان هذا الكلام فاتحة قيام العراقيين في وجه الإنجليز.

⇐ ذلك يخالف سياسة الإنجليز في المستعمرات فقنع بذلك وأمر بارجاع الجيش والمدافع الى بغداد. و قد علم بعض الجواسيس بما عزم عليه الإنجليز قبل ذلك من القبض على آية الله فجاء وأخبر آية الله بأن يتحول من داره و يتخفى فأبى ولم يحب أن يبتلي غيره ببلائه في مبيته عنده وأما ما كان من القبض عليه في تحريم الإنتخابات فأجرى الإنجليز ذلك باسم الحكومة العراقية و إنما شكلها لأجل هذه الغاية و امثالها فتكون هي أعماله على يد فيصل و أمثاله و يبرء نفسه عنها. لكن ذلك لا يخفى على الناقد البصير. (الناسخ)

و على كل حال فلم تكن تبلغنا و نحن في الموصل أعمال آية الله تفصيلاً حتى وردتُ الكاظمية بعد الهدنة و كنتُ أتشوّق الى رؤيته، وأتلهف الى طلعته، فلم أُصبه فيها و كان قد مضى الى كربلاء لزيارة الحسين عليه السلام في جمٍّ غفيرٍ من المسلمين.

الفصل الرابع

سِني إحتلال الإنجليز العراق

المرحلة الرابعة:

سِنيّ إحتلال الإنجليز العراق
سنة ١٩١٨م الى إعلان إستقلال العراق الصوري سنة ١٩٢٠م

فلما عاد من كربلاء كنتُ أحسب أنه سيتلقاني بطلاقة وجه و يصوّب ورودي الى الكاظمية، و لكنه أول مارآني؛ لامني على مجيئي، و قال: لماذا لم تبقَ في «الأناظول» حتى يُنقذ العراق، وما أعجلك على المجيء الى بلاد يحكمها عدو المسلمين؟.

فاخبرتُه إني ماجئت من الأناظول إلا بعد اليأس من الحكومة العثمانية، و إن أحد شروط الهدنة أن يحتل الإنجليز جميع ما يطلبون احتلاله من البلاد كائناً ما كان بدون ممانعة من العثمانيين، واني لم أستطع مفارقته أكثر من هذه المدّة. فسكت عني، و بقيتُ مشتغلاً بمعالجة نفسي، فكان يعودني ويتهمني بالجُبن ويشجعني على العمل لإنقاذ العراق.

أسبابُ النهضةِ العراقية

وعلمتُ أنه في مدة غيابي عمل أعمالاً سرّية لتوحيد كلمة العراقيين للسعي في التخلّص من قيود العبودية للإنجليز. وإنه قد قرّر مع آية الله الشيرازي أن يعملا لهذه الغاية، ولذلك فارق الشيرازي سامرّاء واختار التوطن في كربلاء لأنها أقرب الى مراكز القبائل التي كان يمكنه العمل معها، إلا أنهما لم يكونا يستطيعان المجاهرة بما نوَياه خوفاً من عدم موافقة السيد محمد كاظم اليزدي لهما، وكان قد بقي شئ من نفوذه في العراق.

حتى توفي السيد محمد كاظم رحمه الله سنة ١٣٣٧ ق وتفرّد الميرزا الشيرازي

قدّس سرّه في العراق، فطلب من آية الله الخالصي أن يكونا معاً في كربلاء، وأخذا يعملان بجدّ واجتهاد لايسبقهما المهل لِما كانا قد نوياه من قبل.

وكلّ ما اذكره بعد من أعمال المرحوم آية الله الشيرازي فهي أعمال آية الله الخالصي؛ لأنهما كانا كروح في بدنين لايخالف أحدهما الآخر في شئ، يعملان معاً لغاية واحدة، يقومان معاً ويقعدان معاً. لاينقض الشيرازي مايُبرمه الخالصي ولايُبرم الخالصي ما ينقضه الشيرازي. إلا أن الشيرازي كان مقيّداً برأي الخالصي حتى أنه إذا أحس عدم موافقة الخالصي على أمر نقضه هو وإن كان قد أبرمه من قبل.

ولقد رأيتُ آية الله الشيرازي أمر بايجار أوقاف في كربلاء ثم أمر بعرض أوراق الإجارة على آية الله الخالصي. فلم يصوّبها لعدم موافقتها شروط الواقف في نظره، فرأيتُ آية الله الشيرازي أحرص على نقض تلك الإجارة من كلّ أحد، ولم يقرّ له قرار حتى أمر بنزع تلك الموقوفات من مستأجرها.

ومن هذه المسألة الجزئية يمكنك أن تستدل على الكليات.

ومجمل القول: إن آية الله الشيرازي كان لايقدم على أمر مالم يشاور آية الله الخالصي فيه. وحيث لم يكن لهما غرض إلا الوصول الى مرضات الله في تطهير مراقد أوليائه من لوث أعدائه، إستطاعا أن يأتيا بجلائل الأعمال.

آيةُ الله الخالصي والشيرازي مُنقذا العراق

ومجملها مايلي:

أعلن الإنجليز بعد الهدنة أنهم يرغبون في تشكيل حكومة مستقلّة للعراق حسبما وعدوا به أثناء الحرب العامّة. وأن تلك الحكومة بنظر أهل العراق كيف ماشاءوا لايعارضونهم فيها.

وقالوا: إن للعراقيين أن ينتخبوا لرأس تلك الحكومة من شاءوا إلا العثمانيين فليس للعراقيين أن ينتخبوا منهم ملكاً. وسعى الإنجليز جهدهم أن يحملوا العراقيين على

انتخاب ″سر برسي كوكس″ حاكم العراق العام لملوكية العراق.

فأصدر آية الله الشيرازي حكماً مفاده:

«انه ليس لأحد المسلمين أن ينتخب لملوكية العراق غير مسلم».

ثم سألوا آراء العراقيين في الموصل.

مقاومة آية الله لآمال الإنجليز في انتخاب حكومة العراق

ولما أخذ الإنجليز باستفتاء العراقيين؛ وجدوا منهم مقاومة شديدة، واتفقت آراء العراقيين كلها على ماكتبه آية الله الخالصي في الكاظمية وهو:

«إنّانختار حكومة وطنيّة دستورية ملوكية يرأسها أحد أنجال ملك الحجاز».

وأما الكلام في الموصل فهو بعد مؤتمر ورسائل.

فأغضب الإنجليز ماشاهدوه في العراق من البسالة وصراحة القول؛ لأنهم لايرغبون إلا أن يكون الناس عبيداً لهم، حتى إذا سألوهم هل ترغبون في الحرية والحاكمية الذّاتية فيجب على الناس أن يقولوا: إنا لانرغب إلا أن نكون عبيداً لكم، وإن العبودية للإنجليز أشرف من الحكم الذاتي والإستقلال.

إن الإنجليز يرون لأنفسهم هذه المنزلة ويرون للناس أن يروا هذه المنزلة لهم، ولايرون لأحد أن يرى لنفسه حقاً، حتى شمّ الهواء والتمتع بمواهب الله، فإذا رأوا أحداً يرى لنفسه فيالدنيا حق العيش فجزاؤه منهم شديد العذاب وعظيم النكال والإصطلام؛ لأنه رأى خلاف رأي الإنجليز.

هذا رأيهم وتلك عقيدتهم. وإنما استفتوا العراقيين ليأخذوا منهم صكّ العبودية للإنجليز، والإعتراف بالرقيّة، فلما احتفظ العراقيون بحقوقهم وأبوا إمضاء صك العبودية للإنجليز، غضبوا غضباً شديداً، وصاروا يتجولون في المحافل والمجالس

ويحملون الناس على الإقرار بالعبودية، وكانوا كلما يجدّون في غصب حقوق العراقيين يجدّ العراقييون في التمسك بحقوقهم المشروعة، فيزداد لذلك غضب الإنجليز.

مجلسُ الكاظمية و«بلفور»

حتى انجرّ الأمر في النجف الى الخصام والجدال، وجاء «بلفور» الحاكم العسكري الى الكاظمية ليحمل الأهلين على ما يطلب الإنجليز، فأُعدّ له مجلس كان مشحوناً بأهل الكاظمية، وكان آية الله الخالصي بنفسه حاضر ذلك المجلس، فأظهر بلفور إن العراقيين يرغبون في بقاء الإنجليز حكّاماً للعراق، وكان الى جنب آية الله الخالصي السيد محمد مهدي نجل المرحوم السيد اسماعيل الصدر، فقال له آية الله الخالصي له: قل لبلفور إذا كان الأمر كما يقول فكفّ عن منع مخابراتنا مع العراقيين لنرى رأيهم.

وكان الإنجليز قد منعوا المخابرات البرقيّة والمكاتبات في العراق لئلا يعلم العراقيون بكذب الإنجليز، وكانوا يذيعون في كل مكان أن العراقيين صمموا في جميع البلدان على انتخاب الإنجليز يريدون إغراء كل بلد بهذه الدسيسة على اختيارهم، ولذلك منعوا المكاتبات و المخابرات ولما سمع بلفور هذا الإقتراح تلجلج ولم يستطيع الكلام، فصرخ من كان في المجلس: إنا لا نريد الإنجليز ولا نرغب إلا في حكومة وطنية لا ترتبط بالأجانب[١].

فخرج بلفور من ذلك المجلس مغضباً. وأخذ الإنجليز في إعداد العدة للإنتقام من العراقيين الذين لم يعترفوا بالرقّية للإنجليز ولم يمضوا صكّ العبودية.

وعلى أثر ذلك صارت المظاهرات تجري في العراق للمطالبة بالإستقلال،

---

(١)وكُتبت مضبطة في الحال أمضاها كل من كان حاضراً ذلك المجلس بذلك المضمون، وامتنع السيد جعفر عطيفة رئيس بلدية الكاظمية وهو لازال يتملّق للإنجليز حتى الآن، وتبعه صديقه حسين الصراف ولم يؤثر امتناعهما شيئاً إلا الوبال والعار عليهما ومقاطعة العلماء لهما. (الناسخ)

والأنظار متوجهة الى آية الله الشيرازي في الإفتاء، وهو مقيّد برأي آية الله الخاصي على ما بيّنا فاستدعاه الى كربلاء و سكنا بلدة واحدة.

آيةُ الله الخالصي في كربلاء

وهناك أخذ آية الله الخالصي بجمع رؤساء القبائل في كربلاء من كل أنحاء العراق، ويعقد المحالفات السرية على القيام في وجه الإنجليز، ويعقد مجالس سرية في كربلاء لا يحضرها من غير رؤساء القبائل إلا هو و آية الله الشيرازي.

فكان الإنجليز يحسون بشيء ولايدرون ماهيّته، وكانوا يتجسسون بدقة عن سير آية الله الشيرازي ورويّته حتى تظاهر بعض أهالي كربلاء ببغض الإنجليز ونفرتهم منهم والمطالبة بالإستقلال للعراق، فقبض الإنجليز عليهم ونفوهم الى الهند وهم؛ عمر وعثمان وعبد الجليل عوّاد، والسيد محمد عليالطباطبائي وعدة أُخر، فصادف ذلك شدة تأثر آية الله الشيرازي وأعلن أنه يغادر كربلاء الى إيران.

وبعد ذلك أرسل نسيبه (صهره) السيد محمد باقر الأصفهاني الى الكاظمية ليرى مايصير إليه أمر المنفيين. ثم أوعز آية الله الخالصي الى رؤساء القبائل أن يهاجروا من العراق إذا هاجر آية الله الشيرازي منه. فأخذت الكتب والبرقيات والرسل تترى من كل صوب وحدب يطلب فيها مرسلوها أن يتوقّف آية الله الشيرازي عن الحركة الى طهران حتى يستعد العراقيون للهجرة معه. وعلم الإنجليز أن هذه الهجرة تتعقّب ثورة في أغلب الممالك الإسلامية، لذلك أفرجوا عن المنفيين وأعادوهم الى كربلاء، وعاد من الكاظمية صهر الشيرازي الى كربلاء مريضاً وتوفي فيها بعد يومين.

وقد كنتُ لا أُفارقه في غالب أوقاته ولم يكن له سابقة بمرض فعرض له ألم في بطنه دفعة واحدة وارتأى بعض الأطباء أن الإنجليز دسّوا إليه سُماً فقتلوه، والظاهر يساعد على هذا الرأي.

ولما عاد المنفيون الى كربلاء أخذ الإنجليز يتخذون الوسائل لأحد أمرين:

إما حمل العراقيين على الإقرار لهم بالعبودية أو اضطرارهم الى الحرب لينتقموا منهم ويشفوا غليل صدورهم من أُناسٍ أبوا إلا أن يكونوا أحراراً.

فتمسّك العراقيون بحقوقهم، وواظبوا على أن لايجعلوا بيد الإنجليز حجّة لإشهار حرب على العراقيين. ولذلك صارت المظاهرات الأدبيّة تجري في كل أنحاء العراق والمطالبة السلميّة بالإستقلال تتوارد على الإنجليز من كل أحد، حتى شهر رمضان عام ١٣٣٨ حيث قابل الإنجليز تلك المظاهرات السلميّة بالسلاح وأطلقوا الرشاشات على «جامع مرجان» وقتلوا بعض المتظاهرين الذين لم يكونوا حاملي سلاح ظلماً وعدواناً، وأقفلوا الجوامع ومنعوا الصلوات فيها، ومحافل العبادة.

فاضطر الناس الى انتداب بعض مفكريهم للتفاهم مع الإنجليز.

فأما مندوبوا بغداد فإنهم طالبوا «ولسن» بالوعود التي وعدها الإنجليز للعرب عامّة والعراق خاصّة والعهود التي تقضي باستقلال العراق.

فكان جواب ولسن على ذلك: إن الإنجليز لم يُغلَبوا في الحرب العامّة، وإن جيوشنا الجرارة في كل مكان. كأن معاهدات الإنجليز ووعودهم كانت مشروطة بمغلوبيتهم، وحيث تفوقوا في الحرب العامّة يجب أن لايَفوا بها!.

وبالجملة: وكلما جدّ مندوبو بغداد بالمطالبة قابلهم الإنجليز بالتهديد والوعيد.

فلما رأى آية الله الشيرازي ذلك علم أن عاقبة هذا الظلم من الإنجليز حرب يجرونها على المظلومين. ولم يكن يرغب أن يتضرر في تلك الحرب الضعفاء والأبرياء من الأجانب والوطنيين من غير المسلمين. فكتب كتاباً الى أهل بغداد يوصيهم فيه وجميع العراقيين برعاية حرمة البِيَع والكنائس ومحافظة حقوق الوطنيين من غير المسلمين؛ يهوداً كانوا أو نصارى أو غيرهم، وعدم محاربة الإنجليز مالم يشهروا حرباً، واحترام من لم يحمل سلاحاً منهم ومن غيرهم من الأجانب.

ولما انتشر ذلك الكتاب كان له تأثير عظيم وكشف عن أن العراقيين لاغرض لهم إلا حقاً خوّلهم الله إيّاه وغصبه الإنجليز. واطمأن من كان في بغداد من غير المسلمين الذين كانوا ينظرون الى تلك الوقائع بخوف واضطراب. هذا ما كان في بغداد.

وأما مندوبو الحلّة فقد قبض عليهم الإنجليز ونفوهم جميعاً الى الهند، ولم يروا غير ذلك جواباً من الإنجليز.

النهضةُ العراقيّةُ ومحاربةُ الإنجليز

وأما مندوبو كربلاء، وكنتُ من جملتهم، وكان فيها آيتا الله الشيرازي والخالصي. ولم نُنتدب إلا بأمرهما إيفاءً لواجب وطنيّ فرضه الله علينا في دين الإسلام.

فانّا كنا مستظهرين بآيتي الله في جميع أحوالنا وأعمالنا. وأول شيء عملناه أن سعينا بتوحيد كلمة قبائل العراق وحملهم جميعاً على المطالبة بما طالب به البغداديون. ثم أجرينا مظاهرات في كربلاء اشترك فيها جميع من في البلد ومن هو خارج عنها، وأخذت القبائل تتوارد الى كربلاء من جميع أنحاء العراق لتَلقّي الأوامر الدينية حيث كانت كربلاء هي المركز الديني الوحيد ذلك اليوم.

فرأى حاكم كربلاء صعوبة الأمر وحرج الموقف فصار يتكتّم في جميع أموره ولا يظهر للناس إلا قليلا، ثم طلب من آية الله الشيرازي ملاقاته وعرض بعض المسائل عليه فأُجيب طلبه، وسأل أن يكون مجيئه لآية الله ليلاً، وأن يكون اجتماعه به سرّاً.

فجاء في الموعد الذي ضُرب له. وخلا بآية الله الشيرازي، وكان جميع من في كربلاء من رؤساء القبائل ماثلين بين يدي آية الله الخالصي في دار أُخرى.

فلما أُخبر بورود حاكم كربلاء ومثوله بين يدي الشيرازي أراد أن يُظهر له صلابة العراقيين وشدّة تمسكهم بحقوقهم، فنهض وجميع رؤساء القبائل يتبعونه حتى ورد دار الشيرازي وأمر بفتح الباب ودخول كل من كان معه حتى غصّت الدار بالواردين.

فكان المجلس السرّي حفلة احتجاج كبرى وجرى للخالصي ذلك اليوم من الكلام ما ارتعدت له فرائص ذلك الحاكم حتى أيقن بالهلاك ولاذ بالشيرازي، لكن الخالصي أفهمه إن العراقيين يتحرّجون من كل مايوجب تعكير صفوَ الأمن والسلام مالم يضطرهم إليه الإنجليز، فاطمأن.

ولما أراد النهوض كنتُ أنظر الى الشيرازي وأنا أحسب أنه سيعترض على ما جرى في داره، وإذا به قد التفت الى الخالصي قائلاً: إنا لم نعمل شيئاً أفنترك الحاكم ينصرف دون أن نأخذ نتيجة مطلوبة؟.

فأسرع الحاكم بالجلوس ووعد بأنه يسعى جهده في إفهام الإنجليز مطالب العراقيين وترجيح تسليم الإنجليز لتلك المطالب والتي يصر العراقيون على نيلها أو الحرب. وأمر بإطلاق من قَبضت عليه السلطة الإنجليزية من أهالي كربلاء وحبسته قبل ثلاثة أيام بسبب المظاهرات التي جرت هناك، وطلب الإذن له بالإنصراف ووعد بالرجوع بما يتلقاه من جواب الإنجليز في بغداد. وكان يظن أنه في مجيئه يُقنع آيتَي الله بالسكوت، فعلم أنهما أشدّ من كل ذي حقّ تمسكاً بحقوق العراق.

أكبرُ مظاهرة في كربلاء لطلب الإستقلال

ولما أصبحنا ـ وكان سلخ شهر الصيام ـ أعددنا مظاهرة كبرى إشترك فيها جميع رؤساء القبائل الذين كانوا في كربلاء ذلك اليوم. وانتهت باجتماع في صحن العباس عليه السلام ضمّ عشرات الأُلوف من الزوّار والأهلين.

وأمرني أبي أن أرقى فيه المنبر وأُبيّن للناس ما صمم عليه آيتَي الله من العمل أزاء ما جناه الإنجليز في العراق من؛ الفتك، والسفك، والهتك، والنهب، والغصب، ونقض العهود، وخلف الوعود، واحتقار العراقيين، وإهانة كرامتهم؛ تارة بادّعاء القيمومة، والوصاية، كأنهم يتاما أو مجانين وليّهُم الإنجليز!.

إنّ الفتوى القاطعة هي وجوب ذود الإنجليز عن ادعائهم الباطل، والتحرّج عن أن يبدأ العراقيون بحرب مالم يضطرهم إليه الإنجليز. فيجب الدفاع حينئذ بجميع الوسائل والقوى، حتى يطهّر الله البلاد من شرّ الغاصبين ويمحق الظالمين.

فبيّنتُ للملأ ما أمرني به والدي بياناً مُسهباً استغرق طويلاً من الوقت، وكانت الضجّة والبكاء والحماس والشدّة تقاطعني الكلام، وقد علا النحيب من جميع

المجتمعين حماساً. (١)

وتفرّق الناس وخرج كل أحد من كربلاء الى قومه منذراً لهم ومحرّضاً على التأهب والإستعداد لإعادة مجد العراق الذاهب.

وطلبنا حضور مندوب من الإنجليز للمذاكرة معه، فكان جوابهم على طلبنا أن ساقوا أفواجاً من الجند وعدداً وأفراً من المدافع والرشاشات والسيارات المدرعة والطيّارات للقبض علينا، ولم يكن لدينا سلاح نحارب به. فحاصروا كربلاء وسلّطوا المدافع على البلد، وأجروا في الأرض السيارات، وفي السماء الطيارات. فقامت للأطفال والنساء والشيوخ وغرباء الزوّار والناسكين ضجّة عظيمة. وعُقد مجلس في دار آية الله الشيرازي ليلاً؛ لتعيين التكليف الشرعي في الحرب أو التسليم لما يريد الإنجليز.

فقال الشيرازي: إن الإستسلام للإنجليز غير سائغ.

وقال أحد تلامذته: إنا لانستطيع أن نقاوم الإنجليز لأن لديهم من القوى في إيران مايستطيعون أن يُخضعوا العراق إذا نهض فلا مندوحة عن الإستسلام.

فقلتُ: إن البلاد الإسلاميّة بنظرنا شئ واحد لافرق بين إيران والعراق وغيرهما، ونحن إذا استسلمنا للإنجليز أذلّونا وزاد طمعهم فيذهب العراق وإيران. أما إذا دافعناهم فإنا نفوز بإحدى الحسنيين؛ أما الإستقلال وهو المطلوب، أو اضطرار الإنجليز الى سحب قواهم من إيران لمحاربتنا فنكون قد أنجينا إيران أو كلا الأمرين وذلك مانؤمّل.

وكان جيش الإنجليز قد احتل تمام البلاد الإيرانية واضطر وزارة «وثوق الدولة» الى تلك المعاهدة المشؤومة التي تقضي بامتلاك الإنجليز لبلاد إيران وجعلها ثالثة الهند والعراق؛ بقبضهم على جنديّتها وماليّتها ـ كما هي عليه الآن عملاً.

وكنا في العراق نقاوم تلك المعاهدة بما نستطيع. وكان آيات الله الشيرازي والصدر

---

(١) انظر نص الخطبة في الملحق رقم (٢) نقلاً عن المصادر التاريخية. (الناشر)

وشيخ الشريعة قد أبرقوا برقيّة الى وثوق الدولة قبل هذا يطلبون إلغاء تلك المعاهدة الماحية لاستقلال إيران، وإلا اضطروا الى عزله وإلغائها ولو بالحرب.

وكنتُ أرسلتُ تلك البرقيّة سرّاً بأمر والدي الى «كرمنشاه» مع المرحوم «الشيخ هاشم بوستفروش» لتبرق منها الى وثوق الدولة في طهران، وإليك ترجمة تلك البرقيّة حرفيّاً:

برقيّة العلماءالى وثوق الدولة للغو المعاهدة الإيرانيّة الإنجليزية

«مقام رفيع رئاسة الوزراء العظام دام تأييدهم.

بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٣٣٦.

بعد تقديم الأدعية الخالصة؛ نُعلمكم أن الكتب العديدة التي وردت من إيران تنبىء عن أنكم عقدتم مع الإنجليز معاهدة خشي منها من راعى العواقب ذهاب استقلال إيران، فأوجب ذلك اضطرابنا نحن خدّام الشريعة المطهّرة، ونحن من جهة لانتصوّر إن عاقبة هذا الأمر تخفى على جنابكم العالي، أو أنكم ـ والعياذ بالله رضيتم بأن تكون في عهد رئاستكم للوزارة خاتمة استقلال إيران.

ومن جهة أُخرى نرى أن هذه المعاهدة صريحة في محو استقلال إيران.

إن رجال إيران كان لهم في الماضي أشدّ المحافظة والإحتياط على استقلال البلاد الإسلاميّة، ويتحرّزون عن كل مايُشم منه رائحة تمس شرف الممالك الإيرانية. فإن كنتم قد اتخذتم وسيلة لدرء تلك العواقب فلابدّ أن تطلعونا عليه ليطمئن بالنا ويهدء جميع المسلمين الذين هم في اضطراب شديد، وإلا تصدينا للتخلّص من هذه المعاهدة المشؤومة بكل ما يمكننا من القوى، حتى يظهر للعالم بأسره أن المسلمين يستطيعون أن يكسروا طوق العبودية والرقيّة ولا يصبرون على الذل والهوان.

والأمل أنّكم لاترضون بعبودية المسلمين للإجانب وتسعون لما نسعى نحن له والسلام.

شيخ الشريعة اصفهاني الغروي

الأحقر إسماعيل الصدر

الأحقر محمد تقي الشيرازي»

هذا معرّب تلك البرقيّة، وكان قد جاء جواب وثوق الدولة يصرّح باضطراره وإجبار الإنجليز إياه على تلك المعاهدة. وكانت مسألة إيران تقلق بال آيتَي الله الشيرازي و، ولا يريان وسيلة لإخراج الجند الإنجليزي منها.

فلما سمِعا ماعرضتُه عليهما صوّباه وقرّ رأيهما عليه ـ وكنتُ أحسّ منهما أنهما يريان فوق ذلك وهو أن العراق صار مُلكاً للإنجليز بنفوسه وأراضيه، ومن الواجب إخراج مايمكن إخراجه من ملك الغاصبين. فيجب الدفاع عن العراق حتى تفنى جميع نفوسه، فإن اُنقذ من الإنجليز فقد اُنقذ كِلا ملكيهم، وإلا فقد اُنقذ أحد الملكين؛ وهو نفوس العراق وذلك واجب ولو بإتلافها تقليلاً لمُلك أعداء الإسلام ـ هذا ماكنتُ أحسّه منهما وإن لم يصرّحا به.

ولعلّ هذا المعنى المعبَّر عنه بلسان الشرع؛ بوجوب الهجرة من بلاد الكفر لعدم التمكن من إقامة شعائر الدين. وأي منع أعظم مما عمله الإنجليز في العراق الذي محي فيه أكثر الآثار الإسلامية، وهم مجدّون في محو الباقي. وحيث لم تُمكن الهجرة هذه الأيام فإزهاق النفوس بالحرب متعيّن إذا دار الأمر بينه وبين إبقائها مملوكة للإنجليز.

ولعلّ هذا هو معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام:

(إنّ الحياةَ في موتِكم قاهرين، والموت في حياتكم مقهورين).

وهذا المعنى ربّما كان يُستفاد من لازم فتاوى آيتَي الله الشيرازي والخالصي. لكن وجوب الدفاع والمداومة على حرب الإنجليز بجميع الوسائل والطرق وإن لم يأتي بنتيجة فعليّة كان صريح فتواهما، وكانا يريان السكوت من أعظم المحرّمات؛ لأن الملّة تعتاد به على الرضا والإستسلام للكافرين، وتتناسى شريعتها وحاكميّتها تدريجاً.

فتجب إدامة المقاومة للغاصبين والسعي لها بجميع الوسائل حتى يعود للأُمّة استقلالها المغصوب.

وبعبارة أُخرى؛ إذا دام استسلام الأُمّة لمن تغلّب عليها تناست مميّزاتها النوعيّة والشخصيّة، وأخذت بتقليد المتغلبين في جميع حالاتهم وأطوارهم. فإذا مضت على ذلك مدّة طويلة نسيت الأُمّة ماكان لها من المميّزات واندمجت في الأمّة لمتغلِّبة، وهذا هو المحو الحقيقي.

فيجب إدامة الجدال والنضال تمسّكاً بمميّزات الأُمّة المغلوبة حتى يعود لها مافقدته من الإستقلال وتردّ إعتداء المعتدين.

ولقد لاح هذا المعنى من آية الله الخالصي يوماً حيث قرأ ما كتبه «إبن خلدون» في مقدّمته قريباً من هذا المعنى فأثنى عليه ثناءً عاطراً.

ولاغرو فإن حكمة وجوب الهجرة من بلاد لايمكن إقامة شعائر الدين فيها منحصرة فيما أشرنا إليه ظاهراً، وربّما يستفاد عِلّيّة ذلك لوجوب الهجرة.

فإذا كان رأيهما ذلك بان لك أنهما لايشترطان في وجوب المقاومة والدفاع تكافؤ القوى؛ بل يوجبان على الضعيف مهما بلغ ضعفه مدافعة القوي مهما كانت قوته بما يتمكن منه وإن لم يبلغ غاية قصده فعلاً.

ولذلك قرّ رأيهما في ذلك المجلس على مايلي ملخصاً وهو:

وجوب تمسّك العراقيين بحقوقهم وإدامة المظاهرات، والإبتعاد من كل مايؤدي الى أن يكون حجّة بيد الإنجليز لمحاربة العراقيين، وعدم استعمال السلاح إلا إذا استعمله الإنجليز، فيجب على العراقيين استعمال السلاح حينئذٍ دفاعاً.

نفيُ بعضِ علماءِ كربلاء وحركةُ آيةِ اللهِ الى الكاظميّةِ

ولما أصبح الصباح اجتمعنا في دار آية الله الشيرازي، فوردت لنا جميعاً أوراق دعوة مختومة بختم «ميجر بولي» حاكم الحلّة يدعونا فيها للحضور في دائرة حاكم

كربلاء للمذاكرة، ولم يستثنِ في الدعوة إلا آيتَي الله.

فقلتُ لرفقائي: إنه لم يُرد المذاكرة في كربلاء، بل غرضه مذاكرة حاكم الهند لنا في إحدى بلادها! وإلا فما إعداد عدّة الحرب؟.

فأنكر ذلك بعض تلامذة الشيرازي، إلا أنه قدّس سرّه صوّب ظنّي وخطّأ تلميذه. وصمم نجله على المضي، وامتنعتُ أنا وقلتُ: أني لا أُعطي بيدي إعطاء الذليل طائعاً، ويستحيل أن أستسلم للإنجليز مالم تغلبني قواهم فأؤسر.

وطال النزاع بيني وبينه، فتحاكمنا لدى آية الله الشيرازي وقلنا: إن أمره هو الحاسم للنزاع.

فلما طلبنا منه تعيين التكليف نظر إلينا وقال: إن الخالصي هو الحاسم للنزاع فامتثِلا ما يأمركما به.

فطلبنا من الخالصي أمره فقال: إنّ غرض الإنجليز هو القبض عليكم ولا آمركم بشيء فأنتم أعرف بتكليفكم.

وبينا نحن في الكلام إذ أُلصقت على جدران المدينة أوراق بامضاء حاكم الحلّة ملخّصها:

«إن الغرض من جلب القوى العسكرية هو القبض على بعض الأشرار الذين يريدون التجاوز على الفقراء والضعفاء، أما المتقون وأهل الصلاح فلا تتعرض بهم تلك القوى، وليكونوا مطمئنين».

وجاء كتاب الى الشيرازي بهذا المضمون وإضافة هذه الجملة:

«فنرجوكم أن تُفهموا الأهلين ذلك ليكونوا مطمئنين».

فقال ذلك التلميذ: ألم أقل إن الإنجليز لايريدون بكم سوءاً.

فقلتُ: ليس الغرض من الأشرار إلا نحن. وعجبتُ من بلاهته!.

فضحك آية الله الشيرازي وقال لوالدي: ماذا ترى في جوابه؟ فأمرني أن أكتب جوابه فكتبتُ ما يلي ملخصه:

«بعد العنوان ..

ورد اليّ كتابك فاوريتني غاية العجب؛ أُمّة تطالبكم بـحقوقها التـي اعترفتم بها، وتستنجزكم وعوداً و عهوداً قطعتموها لها، فتجيبوها بجلب القوى العسكرية، و سحب الجيوش، و تأبون حـتى مـذاكـرة قـادتها و معتمديها و تسمونهم أشراراً و مفسدين! وتُظهرون أن لكم الحـق فـي التنكيل بهم، مع أنهم لم يشهروا سلاحا و لم يتجاوزوا حدّ الإعتدال في مطالبهم و حدود السلم و الأدب في مطالبتهم، و لعلّ من يسعى لتـوتر العلائق بين أهل البلاد و بين الإنجليز، لأنه يرى انـحصار نـيل مآربـه الشخصية و أغراضه السافلة في ذلك كان قد ألقى إليكم هذا النحو من الأعمال إفسادا في البلاد. فـأردتُ أن أقـفكم عـلى حـقيقة الأمـر حـباً بالإصلاح، لذلك طلبتُ ملاقاتك أمس فامتنعتَ وأبيتَ، والآن تكتب لي أن أُفهم الناس أن هذه القوى لتأديب المفسدين.

و مَن هم المفسدون؟.

إن كان مَن يهمه خدمة البلاد و رُقي المملكة و نيل الحكم الذاتي، فالأُمة كلها كذلك، وزعماؤها لم يطالبوا إلاّ برغائبها التي أقررتم للأمـة به.

و مهما يكن الأمر فإن أتيتنا و أقدمت على مفاوضتنا رجوت حل هذا الأمر بما فيه الصلاح، و إن أصررتَ على الإباء عن ذلك، فعليك وعلى من سوّل لك تبعة هذه الأعمال و غرك بها تبعة كل ما يحدث في البلاد، و على الجيش الإنجليزي مما تكرهه وتحذر وقوعه مالم تضطرونا إليه.

الأحقر محمد تقي الحائري الشيرازي»

كتبتُ ذلك و عرضتُه على والدي فصوّبه و صوّبه الشيرازي ولم يغيّر فيه إلا كلمة «الأحقر» في الإمضاء، مع إن عادته كانت كتابة تلك الكلمة في إمضائه لأن رِفعة نفسه أبت أن يكتب «الأحقر» التي يُستشعر منها الضعف، في مقام الجدال.

فختم الشيرازي ذلك الكتاب و أرسلناه الى «ميجر بولي» فما كان من جوابه إلا أن

أرسل ثلاث طيارات حلّقت على دار آية الله الشيرازي التي كنّا فيها، و كان الناس يترقّبون أن تُلقي تلك الطيارات مقذوفاتها على الدار. و علا الصياح في كربلاء، وعمّ الإضطراب كل أحد إلا آيتَي الله؛ فإنهما لم يحفلا بالطيارات، ولم يحسباها إلا ذباباً طائراً و كان الشيرازي ينظر إليها باحتقار، إذ كانت قد تمكنَت من نفسه القوّة الالٰهية فما كان يرى بعدها قوة لمخلوق.

و لما رأى ذلك يئس من الإنجليز، وقام من مجلسه، وأمرنا أن نمتثل ما يأمرنا به الخالصي. ونظر إلينا الخالصي ثم فارقنا كذلك دون أن يأمرنا بشيء.

و بقيتُ أنا و نجل الشيرازي على اختلافنا، فمضى ذلك بمن معه الى دائرة حاكم كربلاء وقُبض عليهم هناك، ونُفوا الى جزيرة «هنجام» و فررتُ أنا عن وجه السلطة الإنجليزية.

ولكن فررتُ من السطح الى القبو «السرداب» في بيت آية الله الشيرازي. فطلبني الإنجليز في كل مكان إلا هناك، فلم يحتملوا بقائي في الدار التي رأوني فيها.

و بعد هذا لم تكن همّة آية الله إلا أن يسعى بحقن الدماء.

و حيث كانت المظاهرات في بغداد قد بلغت غايتها خشي أن تكون حجة بيد الإنجليز لإزهاق النفوس وإراقة الدماء، فرأى أن يعود الى الكاظمية ولا يترك للإنجليز على المتظاهرين حجّة.

و بعد مداولة الشيرازي لهذا الحديث صوّبه وقرّ رأيه على أن يسعى هو في كربلاء بمنع القبائل عن مباشرة الحرب لمجرد القبض على ولده.

فغادر الخالصي كربلاء الى الكاظمية فوردها بعد عناء شديد في الطريق، وممانعة مرة من الإنجليز، وإذا بالأسواق في بغداد و الكاظمية معطلة والدكاكين مقفلة، والهياج عمّ جميع طبقات الناس على اختلاف نِحلهم و مذاهبهم، وهم متفقون على مناجزة الإنجليز بحماس لايُرد، وعزم لايفل.

فأمر الخالصي الناس بالسكون، و معاودة الأعمال ومزاولة الأشغال، وعدم خروج المظاهرات والمطالبة عن حد الإعتدال والتمسك بما هم في صدده من إستقلال

العراق. وأن لا ينسيهم القبض على نجل الشيرازي من أجله. فامتثل الناس أمره و عادت المظاهرات الى حدّها الأول.

و طلب «ولسن» حاكم بغداد ملاقاة الخالصي فامتنع، و قال في جوابه: إنا نبتعد بالعراقيين عن كل مايوجب إشعال نار الفتنة، وأنتم تؤجحون لهبها، فإذا أردتم حقن الدماء؛ فأفرِجوا عن المنفيين، و خلّوا سراحهم فلم يعمل «ولسن» بما أشار به.

وثابر الخالصي على خطته من الأمر بالسكينة والتوءدة والمحافظة على السلم.

إلاّ إن الإنجليز ازدادوا شدة وإجحافا وصاروا يرون للناس؛ ضروب القسوة، وأنواع الخشونة، ويهددون بالقتل والأسر رؤساء القبائل وكل مطالِب بحقوق العراق. ولم يعد يستطيع تطبيق خطته لأن الإنجليز بأعمالهم كانوا ينقضون كل ما أبرم.

وكانت ترد كتب رؤساء القبائل الى آية الله الشيرازي فكان مواظباً على اتخاذ خطة السلم و إخماد نار الفتنة في أجوبته، حتى أن بعض رؤساء القبائل كتب إليه بعد القبض على ولده: إن أعمال الإنجليز في القبض على ولدك قد بلَغت الغاية في القسوة و الظلم وهتك المحرمات، فمُرنا أن ندافع عن أنفسنا بالسلاح.

فأرسل لي الكتاب و أمرني أن أكتب في جوابه ما ملخصه:

«إن إبني و مَن معه أُبعدوا في سبيل القضية العراقية، فلا يُنسيكم إبعادهم قضيتكم، ولا تشتغلوا بطلب عَودهم عن المطالبة بحقوقكم ولا تجعلوا القبض عليهم سبباً لحمل السلاح فتلهيكم القضايا الشخصية عن المطالب العامة. وإياكم أن تُجرّدوا سيفاً ولو رأيتموني بيد الإنجليز، إلا أن يسوق الإنجليز جيشاً لمحاربتكم بسبب إصراركم على المطالبة بحقكم المغصوب، فهنالك يجب الدفاع. و لا تذكروا في دفاعكم إلاّ القضية العراقية والإستقلال الناجز التام».

فكتبتُ هذا بأمره، ومازلتُ أكتب في أجوبة المكاتيب التي كانت ترد من رؤساء القبائل مايقرب من هذا، فيوقّعه و يأمر بإرساله. الى أن وردَت عدة كتب من عدة من رؤساء القبائل يخبرون فيها بأن الإنجليز ساقوا جيشاً للقبض عليهم، و تواروا هم عن

وجه الجيش والأمر دائر بين الإستسلام للإنجليز أو الحرب.

فأمرني أن أكتب ما يلي ملخصه:

«إني قد فديتُ استقلال العراق بولدي ومَن عزّ عليّ، وأنا مستعدٌ لأن أفديه بنفسي، و هي قصارى ما أملك.

أما أنتم فإن أصرّ الإنجليز على غصبكم حقكم و قابلوا التماسكم بالحرب؛ فيجب عليكم الدفاع بجميع قواكم ويحرم الرضوخ لهم والإستسلام».

و لما وصلت كتبه هذه الى رؤساء القبائل، صادفت ورود جيوش إنجليزية الى الكوفة و الحلة و الهندية للتنكيل بالقبائل التي كانت تطالب الإنجليز بعهودهم ووعودهم في استقلال العراق. فالتحمت تلك القوى بالقبائل وانتشرت كتب آية الله الشيرازي، فشبّت لظي الحرب بين الفريقين ووقع ما كنّا نحذر.

فلم يصل آيتا الله الى بُغيتهما، وبطلت خطتهما السلمية واخذ الإنجليز بإجراء أنواع الشدة في بغداد و أعلنوا الإدارة العرفية، و قتلوا فيها بعض الناهضين، وحبسوا بعضا، وفرّ منها آخرون.

ولم يعد يتمكن آية الله الخالصي من البقاء في الكاظمية فخرج منها سراً الى «الخالص» وحين ورد أرضه قامت قبائله عن بكرة أبيها، وتاججت نيران الحرب بينهم وبين الإنجليز، واشتركت فيها قبائل كلا ضفتي «ديالى» و بذلك حدثت الثورة العراقية.

شملت هذه الثورة العراق بأسره ولم يبق أحد في مدينة أو بادية إلا اشترك فيها، فأثبت كل عراقي عملا أنه لا يرغب إلا في الإستقلال الذي يفاديه بنفسه وأنه يغضب لبقاء الأجنبي في بلاده.

اشترك العراقيون جميعا في الثورة كما قلنا فكانت مناوشات تقع في جميع الأماكن إلا أن الحروب الكبرى اختصت بقطرين من الأقطار العراقية؛ ضفتا ديالى حيث كان يخطط خطط الحرب فيها آية الله الخالصي بنفسه الزكية، و ضفتا الفرات حيث كانت الزعامة الكبرى لآية الله الشيرازي فيه.

فأما ديالى فكان الخالصي ليث وَغاها، و قطب رحاها، وكان يباشر الحرب فيها بنفسه كأحد المجاهدين. وقد اتخذ قسماً من أرض الخالص مركزاً له إلا أنه كان يغادره من حين لآخر؛ أما لمباشرة حرب، أو دعوة قبيلة، أو حسم خصومة، ثم يرجع الى مركزه. و كانت الدائرة والربح له على الإنجليز في كل الوقائع على كثرة عددهم وقلّة عدده، وتمكنهم من جميع معدات الحرب و الآلات النارية ووسائل النقل، وفقدان كل ذلك لديه، لم يملك إلا قوة الإيمان التي لا تغالبها قوة. حتى إن الإنجليز لم يكتفوا بعددهم، بل استنجدوا «بالآشوريين» الذين كانوا قد جاءوا من «أرمينية» بعد هزيمتهم تجاه قوى «علي إحسان باشا» وأقامهم الإنجليز على ضفتي ديالى وكانوا أكثر من خمسين ألفاً فلم يأتوا بعمل مطلوب.

وكان «السيد محمد بن السيد حسن سيد هادي» المعروف بالصدر. قد أعطاه الإنجليز مالاً ليوزعه على العلماء والوعاظ الذين لم يكونوا يقبلون من الإنجليز هدية، ولا شيئاً آخر، فأعلمَ السيد محمد الإنجليز بأنه أعطى ذلكم المال للعلماء والوعاظ، وبعد الفحص والإستفسار علم الإنجليز إن السيد المذكور لم يعطِ شيئاً فطالبوه «بعشرين ألف روبّية» و هددوه بالحبس وتوسط الأمر المرحوم «السيد إسماعيل» فأوجب ذلك التحاق السيد محمد بالوطنيين و تظاهرَ بحرب ديالى مع إنه لم يكن ياتي فيها بأي عمل، إنما كان فار من وجه الإنجليز لئلا يدفع لهم تلك الدراهم، وليخلص من سجنهم عليها، وهو أشنع سجن.

و بعد ذلك خان المسلمين والتحق بفيصل خادم الإنجليز كما سياتي خبره إذ هو من عمّال و جواسيس الإنجليز.

وفاة آية الله الشيرازي و انتهاء الثورة
واختفاء آية الله الخالصي

و بينا آية الله الخالصي مشغول بالدفاع هناك، إذ شاع بين جيش المسلمين خبر وفاة آية الله الشيرازي في ٢ ذي القعدة ١٣٣٨ ففتّ في عضده، و فَلّ ساعده، وأيقن بحرج الموقف، وخشي تزلزل قوى المجاهدين في الفرات، وتوجُّه جميع القوى الإنجليزية الى ديالى.

و كان قد صادف ذلك جلب الإنجليز قواهم التي كانت في إيران من طريق خانقين وكانت أراضي ديالى أول قطر عراقي وردته تلك القوى، فاجتاحت أمامها القوى الإسلامية واستولت على «شهربان» و«بعقوبة» من البلاد التي كانت بيد المسلمين، وأجرت فيهما أنواع الفجائع والمنكرات ويرتكبون ما تقشعر له الجلود من الفضائع تجاه العاجزين والضعفاء، حتى أن ضباطهم كانوا يصوبون الرصاص بأيديهم على النسّاك والصالحين، و يدخلون فيروعون من كان فيها مطمئنا من الأطفال والنساء والشيوخ.

و لقد تسلق حاكم بعقوبة وهو أحد ضباط الإنجليز الدار على قاضي بعقوبة «حسين أفندي» وهو يتلو القرآن فصوَّب مسدسه في رأسه وصدره وقتله.

ولما استولى الإنجليز على ديالى اليمنى و كان مركز آية الله الخالصي على ضفتها اليسرى حوّل مركزه الى «دلتاوة» من أعمال «الخالص» ليتخذ خطة دفاعية هناك. وكان ذلك قد صادف في العشر الأوائل من المحرم سنة ١٣٣٩ ولما كان يوم عاشوراء اشتغل الناس بإقامة عزاء الحسين عليه السلام في المجالس والحسينيات وهم يظنون أن الإنجليز يحترمون تلك المحافل والمجامع العبادية فعلم بذلك آية الله الخالصي فأمر الناس أن يفارقوا تلك المحافل ويتركوا إقامة العزاء ذلك اليوم لأمر أهم وهو الدفاع، وقبل أن يجتمع الناس و ياخذوا مراكزهم الدفاعية خارج المدينة حلّقت الطيارات الإنجليزية صبحاً على سمائها وألقت قنابلها الجهنمية حتى أصلت بها تلك القرية

وهاجمتها الجيوش البريّة بمعدّاتها الحربية؛ من مدافع ضخمة، ورشاشات و سيارات مدرعة، ودبابات، فاضطر آية الله الخالصي الى الخروج من تلك القرية ولم يعد يستطيع أن يؤلف جيشاً بعد ذلك لتفرق صحبه كل على وجهه، ولم يبق معه إلا القليل، فأمر ذلك القليل بالتفرق كي لا يتبعهم الإنجليز وأعطى فرسه ولده (أخي الشيخ علي) وقصد راجلاً إحدى قرى «الجيزاني».

ولما جاءها وجد أهلها مضطربين من مهاجمة الجيش الإنجليزي، و أحس خوفهم من بقائه في قريتهم، فأبى علوّ نفسه له البقاء مع أنهم كانوا يظهرون رغبتهم فيه، ففارقها ليلاً وطوى الطريق متنكراً الى الكاظمية. فلما جاءها وجد الطريق مسدوداً في وجهه من كل الجهات فاضطر الى الإختفاء في داره و بقي فيها ثلاثة أشهر لا يعلم به أحد غير أهل بيته. وألّف في خلال تلك المدة كتاب «الشريعة السمحاء».

بذلك انتهت الثورة في الخالص و تخلص من أُسر فيه بيد المسلمين من ضباط الإنجليز.

الحرب في جهة الفرات

وأما الفرات فقد قامت فيه حروب كبرى في الديوانية والعوجة والنارنجية ـ بين الحلة والكفل ـ والسماوة والمسيب وكربلاء وناصرية المنتفك وحوصر الجيش الإنجليزي في عدة مواقع منها الكوفة والحلة والمسيب والسماوة وغيرها. واستنقذ العراقيون عدة مدن من بلادهم من أيدي الإنجليز، كالنجف والسماوة وكربلاء والديوانية والمسيّب وغيرها.

وأظهر العراقيون في تلك الحروب بسالة وشجاعة لا تكاد تصدق إلا منهم، فإنهم قابلوا بصدورهم ونحورهم جميع معدات الإنجليزية الحربية، وأسقطوا ببنادقهم كثيراً من الطيارات في الجو، وأوقفوا في النهر سير السفن الحربية بأبدانهم فاغتنموها وأسروا من فيها، وقاوموا المدافع الضخمة والسيارات المدرعة والدبابات

والرشاشات في البر حتى أبطلوا حركاتها[١]. وكان سلاحهم الوحيد إذا أعجزهم مقاومة معدات الإنجليز هو الهجوم السريع والوصول الى مواقع العدو والإختلاط بجيشه وإن كلّفهم اُلوف القتلى والجرحى، حتى تبطل المدافع والطيارات والسيارات وتكون الحرب بالحِراب صدراً لصدر، فيتفوّقون على جيش العدو ويبيدونه ويستولون على ما لديه من المعدات، فيعودون وافرين مسلحين بسلاح العدو وقد كانوا عزّلاً من السلاح قبل الهجوم.

ولم تكن لهم مدافع يشددون بها الحصار على المحصورين من جيش الإنجليز، فجرت حرب النارنجية واُبيد فيها الجيش الإنجليزي فاستولى العرب على مدافعه ومعداته، وعاد الجيش العربي مسلحاً بالمدافع. وقد خدمَت المجاهدين خدمات كبرى، ولا سيما في تدمير سفينة حربية كانت عاثت في الأرض فساداً بين الكوفة وسدة الهندية فأراحت من شرها العراقيين. وملَك المجاهدون كثيراً من المقذوفات اليدوية، وتعوّدوا استعمالها بتدريب ضباط من الترك كانوا في العراق أسرى بيد الإنجليز فخلصتهم الثورة، واستفاد منهم العراقيون فوائد جمة، في المدفعية، وتخطيط بعض الخطط، واستعمال بعض السلاح الذي لم يكن يعتاد العرب استعماله.

ولم يكن يبرز لحرب العرب جيش من الإنجليز إلا أبادوه وإن كان معززاً بأمنع الآلات والأدوات، وحسبك من ذلك أن الإنجليز ساقوا قطاراً مدرّعا على السكة الحديدية بين البصرة والديوانية يقل كثيراً من الجند والمدافع وسائر الأدوات، وكان الأعراب قد حفروا أمامه وغطوا الحفر، وقلعوا رابطات السكة الحديدية وأبقوها على حالها، فما كان من القطار المخمور الطائش في سيره إلا أن تورط هناك وتصادمت

(١)وأعظم بسالة أظهرها العراقيون قتل «لجمن» الذي هو أكبر قائد عسكري وماهر سياسي للإنجليز، ساحَ جزيرة العرب ٢٦ مرة للتدريب على لهجات القبائل الماكثة هناك وعلى عاداتهم وحركاتهم وحضر مجالس العلماء في النجف ودروسهم بزي الطلاب كل ذلك خدمة لحكومته في الإحتياج الى مثل ذلك بعد الإستيلاء وتغرير العرب والعلماء بشكل عربي أو روحاني، رماه ضاري رئيس قبيلة زوبع في الرضوانية ببندقيته فقتله، فحزن عليه الإنجليز حزنا عظيما ورفعوا تمثاله في بغداد على ساحة القشلة وجعلوه أرفع من تمثال «مود» فاتح بغداد. (الناسخ)

غرفه، وخرج من السكّة وجُنْدِل في الأرض على جنبه، وهجم عليه المسلمون فلم يتركوا فيه مالاً إلا اغتنموه، ولا إنسانا إلا قتلوه أو أسروه. عدى مال كان معه بعض تجار اليهود من الوطنيين فإنه سُلِّم لصاحبه. وكان لهذا القطار وأمثاله مدخلية كبرى في إدامة الحرب؛ لأنه كان ينقل الذخيرة والمؤن الى المجاهدين الذين كادت تنضب موارد ذخيرتهم بدء الثورة لو لا ماينقله إليهم أعداؤهم وهم كارهون.

وكما أظهر العراقيون بسالة حربية، أثبتوا مقدرة إدارية لم يُرَ نظيرها منذ عهد قديم، فإنهم أداروا البلاد التي استولوا عليها بحسب القانون الإسلامي البسيط الذي تنوسي في الإدارة، فكان أهل البلاد لا يشكون شيئا، وكانوا على أحسن ما يمكن أن تكون عليه هيئة مجتمعة؛ من الراحة، والإطمئنان، والسكينة، ونعومة البال، ورخاء العيش، ورغده، بحيث أيقن كل من شاهد ذلك إن سعادة الجامعة البشرية في تطبيق القانون الإسلامي البسيط في إدارة البلاد.

وكان للأعراب في حروبهم؛ من منعة الجانب، وعزّة النفس، والفتوّة، والمروّة، ما مثّل للعيان؛ الأخلاق الإسلامية الحميدة. فإنهم لم يكونوا يجزعون من هول الحرب وإن تفاقم أمرها، وكانت الفئة القليلة منهم تناجز أضعافها من الإنجليز عُدَّة وعدداً فتقهرها، وكانوا يصبرون على الجوع والعرى والعطش.

فقد كنا نُرسل الى بعض ساحات القتال من كربلاء بأمر آية الله الشيرازي كل يوم من ثلاثين الى أربعين «وزنة» تمراً ومثلها خبزاً وهذا غاية ما يمكن إرساله، فيصيب كل إنسان كسرة من خبز وكفٍّ من تمر، فيطوي عليها ليله ونهاره وهو صابر محتسب.

وهددهم «كوكس» بالعرى إذا جاء البرد فهزأوا بتهديده، وكانوا مع ما رأوه من الإنجليز؛ من الجور، والحيف، والقسوة، يرأفون باسيرهم ويحلونه فوق مايليق به، وكان طعام الأسرى في النجف أفضل بكثير من طعام رؤساء المجاهدين على ما أمر الله به من إطعام الأسير.

انتهاء الحروب في العراق وفجائع الإنجليز

هذه هي الأخلاق العربية والخصال الإسلامية. أما الإنجليز فحدث عن مساوئهم ولا حرج؛ منبع القسوة، والجور، والخِسة، والطَيش، لم يستولوا على بلد إلا أشعلوا النار في ضواحيها وبيوتها فأحرقوها على من فيها، شيخاً فانياً كان، أو إمراة ضعيفة، أو طفلاً رضيعاً. ولم يحترموا حتى المعابد. وهذا «مسجد الكوفة» وهو من أكبر المساجد الإسلامية وأقدمها حلّقت في سمائه طياراتهم وكان غاصاً بالمتنسكين والمتعبدين بين قائم وقاعد وراكع وساجد، فألقت مقذوفاتها الجهنمية وقتلت كثيراً من الشيوخ، وصبغت أرض ذلك المسجد بدمائهم، وأردَت كثيراً من المصلين في محاريبهم، وخربت بعض المحاريب وهدمتها. وحين استولوا على ذلك المسجد بعد الثورة جعلوه إصطبلاً لخيول جيشهم مدة غير قليلة. وألقت طياراتهم على قرية أبي صخير مازنته طنين ونصف من المقذوفات في صبيحة واحدة، ولا تسأل عما جرى من ذلك على تلك القرية الصغيرة التي سلط عليها سوء طالعها قسوة الإنجليز. وكانوا يقتلون النساء في كل قرية استولوا عليها حتى قتلوا في دار «فيصل آل مقير» بالقرب من المسيب أربعة عشر إمراة بلا ذنب ولاجرم، ورای بعض المجاهدين نساءهم وقد بقرت بطونهن، فلم يملك نفسه دون أن قتلها مبارزة مع الإنجليز.

ولما استولوا على كربلاء حاصروها بجيشهم، وجعلوا في رأس كل طريق ثُلّة من الجيش والمدافع، ثم منعوا الناس من الخروج من دورهم؛ من غروب الشمس الى طلوعها، وأغلقوا باب الحرم ذلك الوقت ومنعوا الزوّار من الزيارة وصاروا يعملون تحت ظلام الليل من الفضائع ما تقشعر له الجلود. وكان الناس جميعا في دورهم سابتين ترتعد فرائصهم من أول الليل الى الصباح وهم لا يستطيعون حراكا ولا يتكلمون إلا همسا، فإذا أصبح الصباح عمدوا الى الدور التي اتهموا أصحابها بالإشتراك في الثورة فحفروا في أركانها حفائر حشوها «بالبارود» و «الديناميت» ثم يفجّرونها دفعة؛ فتقوم لها صيحة عظيمة تأخذ بألباب من في البلد، فتنقلب الدار عاليها سافلها،

ويشمل الدخان والغبار أكثر دور المدينة.

دام هذا الحال أياما ـ وقد شاهدتُه بنفسي إذ كنتُ مختفيا في إحدى الدور ـ وبعد أن أتموا هدم ما شاءوا من الدور على هذه الطريقة المفجعة، رفعوا الحصار وأخذوا ينهبون أموال الناس، إذ أعلنوا أن على أهل كربلاء «عشرات الأُلوف من البنادق» فإذا لم يتمكنوا فليؤدوا ثمنها. وهذا من غرائب الإعلانات. وكان الإنجليز يعلمون بعدم وجود ذلك المقدار من البنادق في كربلاء إلا أنهم اتخذوا ذلك الحكم ذريعة لنهب أموال الناس.

ومثل ماجرى في كربلاء، جرى في سائر البلدان؛ كالنجف والهنديّة وأبي صخير والديوانية وغيرها. حتى أن كثيراً من مثري السماوة أصبحوا فقراء لكثرة ما نهب الإنجليز منهم بتلك الطريقة وغيرها.

ولم تقتصر تلك الفجائع على العراقيين بل شملت الإيرانيين، ولقد رفعوا أمرهم الى قنصلية بغداد وإلى الشاه لما جاء لزيارة العتبات فلم يأتي عمله بنتيجة مطلوبة، ولم تمنعهم من الإنجليز دولتهم.

هكذا انتهت الثورة العراقية؛ بين الأخلاق العربية الحميدة وبين القسوة الإنجليزية الذميمة.

وتفرّق المسلمون شذر مذر؛ بين قتيل وأسير وشريد. فقد مُلئت القفار بأشلاء القتلى، وتُركوا للسرحان والطير، وفرّ كثير من المسلمين الى سوريا والحجاز من جهة البادية وإيران. وفرّت القبائل من جانبي الفرات الى قلب البادية بأطفالها ونسائها ومواشيها، وتلف كثير منهم عطشاً. ومُلئت السجون في الحلّة وبغداد والبصرة بالعلماء والرؤساء.

أما آية الله الخالصي ـ فقد كنتُ في كربلاء حينما تقهقر الجيش الإسلامي ـ في ديالى.

ولما قرأت الإذاعات الرسميّة الإنجليزية الحاكية عن استيلاء الإنجليز على «دلتاوة» وما أجروه من الفضائع وإشعال البيوت بالنار، لم تكن لي فكرة ولا همّ إلا

الوقوف على ما صار إليه أمره، لأني كنت أعلم بوجوده هناك، حتى شغلتني الفكرة في ذلك عن أمور الحرب، وبان أثر ذلك على وجهي بحيث ظنّ كثير من أصحابي أني دهشت من هول الحرب.

وفي أثناء ذلك بُلي المسلمون بهزيمتهم أمام الحلّة، وتقرّب الإنجليز من كربلاء ففرّ مَن فيها، وبقيتُ منتظراً ورود القوى الإسلامية التي كانت مرابطة في المسيّب حيث أنفتُ أن أتركها خلفي وأخرج من كربلاء. فتقهقرت تلك القوى الى الكوفة دون أن تمر بكربلاء.

ولما علمنا بذلك خرجنا ليلاً قاصدين الكوفة وكنا نترقّب مصادفة الإنجليز في طريقنا إذ لم يبق عن كربلاء مُدافع. وبعد منتصف الليل أحسسنا بجيش يقدم من جهة الهنديّة وكان الظلام مانعاً عن معرفته، فظننا أنه جيش الإنجليز، وظنّوا هم كذلك، فتبادلنا إطلاق الرصاص وجرت معركة سقطتُ فيها عن ظهر فرسي الى الأرض وتفرّق من كان معي، وبقيتُ مفرداً.

ولما أصبح الصباح قصدتُ «عوناً» للفرار من جهة «شفاثة» فتقرّبت القوى الإنجليزية من كربلاء ولم يعد يمكن الفرار. فاضطررتُ الى دخولها والإختفاء في إحدى دورها، وبقيتُ هناك أُشاهد فجائع الإنجليز مدة خمس وأربعين يوماً حتى رُفع الحصار عنها.

ولم تكن لي همّة إلا الوقوف على أمر والدي، فعزمت على المضي الى الكاظميّة متنكراً، وإن قُبض عليّ في الطريق، لأعلم ما جرى له، وفضّلت الأسر مع علمي به على النجاة جاهلاً لأمره.

فخرجتُ من كربلاء بزيّ عالم من علماء إيران، يصحبني بعض الإيرانيين نساءً ورجالاً بحيث لايظن من رآني أني عراقي، أو أعرف اللغة العربية. حتى وردت الكاظميّة، ولم أدخل دارنا لأني لم أكن أعلم بما فيها، وما عمل بها الإنجليز. وقصدت داراً غيرها، فعلمتُ هناك أن والدي مختفٍ في داره. فشكرت الله على سلامته وبقيت مختفياً في الكاظميّة في إحدى دورها مدة ثمانية أشهر، ألّفت خلالها الجزء الأول من

كتاب «المعارف المحمديّة».

وبقي آية الله في داره مدّة غير قليلة حتى اضطر الى الخروج منها لأن الثورة قد انتهت، وصار الإنجليز يعملون مايشاؤون بلا معارض.

فبرز لمعارضتهم وتحقيق أماني العراق.

عوامل إنهاء الثورة

وكان العامل على إنهاء الثورة وتغلّب الإنجليز أُمور أربعة:

الاول: وفاة آية الله الشيرازي في حين لم يكن آية الله الخالصي في مركز الثورة، وربما يعجب الإنسان من تأثير وجود رجل واحد على شعب هاج للمطالبة بحقّه! ولكن لاعجب، فإن الشيرازي لم يكن رجلاً واحداً ولم تشبهه الرجال.

كانت فتواه تُقيم الشعب وتقعده، وكان جميع العراقيين يعتقدون أن الفوز لهم في الحرب؛ غَلَبوا أو غُلِبوا. من قَتَلَ فاز بالأجر والفوز في الدنيا، ومن قُتِلَ نال الشهادة والنعيم الأبدي. فكانوا يُقدمون على حرب الإنجليز راغبين مستميتين.

وكانت فتاوى آية الله الشيرازي تجدد روح الجيش كلما ضعفت، وكان على بيّنة من أمره في فتاواه وأحكامه، لم تُرَ به ريبة، ولم يخالجه شكّ، ولا تأخذه فيها لومة لائم، وإليك مثلاً منها:

كنا جلوساً بين يديه في داره إذ وردت من الهنديّة هذه المسائل والحرب بيننا وبين الإنجليز على قَدمٍ وساق:

مسائل:

١ـ مَنْ منعه والداه عن حرب الإنجليز؛ هل يجب عليه إطاعتهما أو الحرب؟.

٢ـ هل يجب على من لايطيق حمل السلاح، أو لم يحسن استعماله أن يشترك في الحرب؟.

٣ـ هل يجب على النساء والأطفال الإشتراك في الحرب ؟.

٤ـ هل يجب تغسيل من مات قتيلاً في ميدان الحرب، أو تكفينه، أو يدفن بثيابه؟.

فأمَرَنا أن نكتب الجواب الآتي:

١ـ يحرم على الوالدين منع ولدهما عن الحرب. فإن عصيا ومنعاه، فيحرم على الولد إطاعتهما، ويجب عليه قتال الإنجليز والدفاع عن حوزة المسلمين.

٢ـ من لم يُحسن استعمال السلاح يجب عليه التعلّم فوراً. ومن لم يُطق حمل السلاح يجب عليه معونة المجاهدين بما يتمكن؛ ولو بتضميد الجرحى وحملهم، ونقل الماء والطعام الى المجاهدين وغير ذلك.

٣ـ يجب على النساء الإشتراك في الحرب بما يتمكنّ؛ ولو بغسل ثياب المجاهدين، ونقل الماء والطعام إليهم، وتضميد الجرحى وحملهم، وغير ذلك. ويجب على أولياء الأطفال سوقهم الى الحرب ومعاونة المجاهدين بما يتمكنون.

٤ـ من مات في هذه الحرب فهو شهيد؛ لايغسّل ولايكفّن، بل يصلّى عليه ويدفن بثيابه، كمن قتل بين يدي الإمام.

وكان في المجلس بعض صغار المحصّلين وهو «السيد أبو القاسم بن السيد مصطفى الكاشاني» فقال: إن هذا دفاع لاجهاد.

فقلتُ له: لافرق بينهما والقتيل فيهما يسقط تغسيله وتكفينه.

فقال: إن هذا ليس بدفاع لأن الإنجليز استولوا على العراق، والدفاع إنما يكون قبل استيلائهم.

فقلتُ: المراد من الدفاع في كلام العلماء أعمّ من الرفع والدفع، ولو أنّا حاربنا الإنجليز على الهند أو جبل طارق أو قبرص، لكان دفاعاً. وليس الدّفاع عنوان في الأدلّة تبتني عليه مسألة التغسيل والتكفين حتى يُرجع الى ظاهر لفظه. وإنما المراد سقوطهما

في كل حرب يجب فيها دفاع المسلمين عن بيضة الإسلام.

فلما انتهى بنا الكلام الى هنا نظر آية الله الشيرازي الى ذلك المحصِّل شزراً وصرخ على خلاف عادته من التوئدة في الكلام وقال كلمات تشعر بخطأ ذلك المتطفّل. وأمر بالإسراع بالكتابة وإبلاغ حكمه الى السائلين.

هذه كانت فتاواه في محاربة الإنجليز دفاعاً عن بيضة الإسلام، مع أنه كان متّبعاً طريقة الإحتياط في جميع المسائل، حتى كان مقلدوه في مشقّة العمل لكثرة إحتياطاته. إلا أنه رأى الإحتياط هنا في القطع بالحكم والصراحة التي لاتقبل التأويل في هذه المواضع التي يبتني عليها حفظ الإسلام ومجد المسلمين. ومن لم يعرف حقيقة الدين الإسلامي ومغزى شرائعه لعلّه يرى ذلك خلاف الإحتياط.

ولم يكن أثر آية الله الشيرازي مقتصراً على أثر فتاواه، فإن شخصه كان ملاذاً للمسلمين في جميع أُمورهم. حتى أن هول الحرب كان يغلبنا ويصيبنا الذعر فنمضي إليه لبعض الحاجات فنراه في مصلاه مشغولاً بذكر الله والصلاة مطمئناً هادئاً غير مبالٍ، كأن شيئاً لم يكن في البلاد. فنظن أنه لم تبلغه وقائع الحرب، فنكلّمه فإذا هو محيط بوقائعها، ولكنّه لايبالي بها ثقة بما عند الله وتوجّهاً إليه وفناءً فيه. فإذا شاهدنا منه ذلك على شيبته وضعفه عُدنا كأن لم يعترِنا رعب، ولم يغلبنا هول. وكان لحاله تلك أثر عظيم على قوى الجيش المعنويّة. وفوق ذلك فإن القوى الماديّة كانت قائمة به؛ بحكمه تجمع الأموال وتصرف لتهيأة الطعام والرصاص والكراع والسلاح.

وبينا هو قائم بجميع أمور الحرب، وعليه كان مدارها، إذ اختطفته يد المنون في الثاني من ذي الحجة الحرام سنة ١٣٣٨ [١٠ آب ١٩٢٠م].

ولم يكن من يقوم مقامه في مركز الجيش، لأن آية الله الخالصي كما أسلفنا كان في الخالص، وكان هو المرجع بعده، فتشتت المسلمون وصاروا كغنم غاب عنها راعيها.

وكانت وفاته على أثر مرض اعتراه أياماً قليلة. والذي يظهر من كثير من الإمارات أن الإنجليز دسّوا إليه سمّاً فقتلوه.

ولما ثقلت حاله خشيتُ انحلال الجيش بعده، ولم تكن وسيلة لإيصال آية الله الى

كربلاء، فمضيتُ الى النجف لأُخبر بحاله عسى أن يقوم مقامه من يدبّر الجيش. فلم يكن في النجف غير شيخ الشريعة الأصفهاني فطُبع منشور يتضمّن دعوة الناس الى شيخ الشريعة بعده.

وحين توفي نشرتُ تلك الدعوة، وقام شيخ الشريعة بالأمر، ولم تكن له من الملكات ماكان لآيتَي الله الشيرازي والخالصي؛ من رباطة الجأش والثبات والعزم واستقامة الرأي.

فلم يُجدِ قيامه نفعاً، وخسر الناس في وفاة الشيرازي وغيبة الخالصي خسارة لم يعدلها شئ حتى انتهت بغلبة الإنجليز وهزيمة المسلمين.

الثاني: من عوامل انتهاء الثورة؛ فقدان الذخيرة، فإن المسلمين لم تصبهم تلك الهزيمة إلا بعد فقدان جميع المؤن، حتى أن مجاهداً صوّب بندقيّته على الإنجليز في السماوة الى أن نفد جميع ما كان لديه من الرصاص، ثم رمى بالبندقيّة نفسها نحو العدوّ، ثم خلع نعله ورمى بها نحو العدوّ وقال: ماذا أصنع ؟ هذا آخر ما لدي مما يمكن ضرب العدوّ به.

وكنا نشتري كل رصاصة «بروبيّة» فلا نجدها على أن الروبيّة لم تكن توجد. وكالسلاح الطعام؛ فإن الجوع أضرّ بالمجاهدين ضرراً عظيماً. هذا وعدوهم مالك لجميع الوسائل في الماء واليبس والسماء.

الثالث: من العوامل؛ ورود القوى الجديدة من إيران، فإنها كانت لم ترَ حرباً، والثائرون قد أنهكت الحروب وطول المدّة قواهم.

الرابع: ورود «سير برسي كوكس» بغداد وتعيينه مندوباً سياسياً على العراق، فإنه أبدل خشونة «ولسن» باللين، وكان كثير من العراقيين مضطرّين للدفاع؛ لاعتقادهم أن ما يرونه فيها من المصاعب يرونه صبراً لو استسلموا لولسن. فجاء كوكس وأعطى أماناً لكل عراقي يضع السلاح.

وكان أكثر العراقيين لايقنعهم إلا الإستقلال. فأعلن كوكس أنه إنما جاء لذلك، وإن الإنجليز لايعارضون العراقيين فيما يطلبون، ولهم الخيار في تعيين من شاءوا ملكاً

عليهم.

وأخذ كوكس يخابر القبائل، ويخطب رؤساءهم بتبليغهم أمانيهم كلٌ على حسب مراده.

ففتر المحاربون وخُدع من خُدع، وشُكّلت في العراق وزارة عراقيّة، وتعيّن حكّام عرب للبلاد. ولم يكن من يكشف عن خداع كوكس الستار؛ لضعف شيخ الشريعة وابتلائه بمعاناة مرضه واحتجاب الخالصي.

فانتهت الثورة وتمّ للإنجليز ما أرادوا، ثم توفي شيخ الشريعة على أثر انتهائها سنة ١٣٣٩.

وكان الخالصي قد ظهر للناس فعادت المياه الى مجاريها الطبيعيّة، وانتهت الزعامة الدينيّة اليه، ولكن (بعد خراب البصرة) إذ لم يبقَ في العراق أثر من الثورة، ولا مُطالب بحق.

الفصل الخامس

سنيّ بقائه في العراق بعد الثورة

المرحلة الخامسة:

في سنيّ بقائه في العراق بعد الثورة الى أيام نفيه

حرج موقف آية الله الخالصي بعد الثورة وانفراده

فوقف موقفاً حرجاً جدّاً. واضطر الى تأسيس جديد، إذ كان قد هُدم جميع ما بناه سابقاً، وأصبح وحيداً بعدما كان له مثل آية الله الشيرازي.

حرج موقف الخالصي وثقل حمله؛ إذ مضى جميع رفاقه من العلماء وبقي وحده، وظهر أُناس ادّعوا الزعامة الدينيّة: كالسيد أبو الحسن ومرزا حسين النائيني، وغيرهما ممن لم يكن لهم ذكر قبل هذا، وكانوا في عداد أحد الطلاب، وليست لهم أهليّة للزعامة، فكانوا ـ بدل أن يعينوا آية الله الخالصي عوناً عليه للأعداء! وكان الناهضون في العراق قد تفرّقوا وتبددوا شذر مذر.

ولكن الخالصي لم يكن ممن يثنه حرج موقف، أو يُعييه ثقل حمل، فنهض بأعباء الشريعة في سبيل الوطنيّة مذللاً جميع عقباته.

ونظر الى أعمال «كوكس» نظر الساخط الهازىء. فرأى العراق لم تتبدل فيه إلا الأسماء، أما الإستقلال فلا شئ من معناه وحقيقته موجود في العراق.

كان رئيس الإنجليز في العراق يُسمّى حاكماً سامياً. فعاد يسمّى مندوباً سياسياً. ولم يكن لأعضاء دائرته أسماء، فصار لكلّ منهم إسم؛ هذا مستشار الداخليّة، وهذا مستشار الماليّة، وذاك مستشار المعارف، وآخر مستشار الدفاع، وغير ذلك.

وكان حاكم كل بلد يسمّى حاكماً سياسياً، فعاد يسمّى مستشار الحاكم، وهكذا.

أما السلطة فهي بيد الإنجليز بأشدّ ما كانوا عليه قبل، وليس للعرب منها شئ أبداً. ثمّ إن الإنجليز شددوا سياستهم بهذا التبديل الإسمي. فكانوا بصدد أخذ اعتراف من العراقيين بالعبوديّة والرقيّة بأوراق يوقعونها لهم، فاتبعوا أمراً وأعدّوا طوق رقيّة أوثق

وهو أن يأخذوا إقرار العراقيين واعترافهم بواسطة «مجلس تأسيسيّ» ينتخب أعضاءه العراقيون أنفسهم طوعاً في الظاهر، ويُكرهون باطناً على انتخاب مرشحي الإنجليز. ولما كان هذا المجلس لايتم إلا بوجود ملك للعراق كي يتم للإنجليز إظهارهم أن العراق نفسه قبِل الإنتداب ورضي به بغير جبر ولا إكراه.

مجييء فيصل المشؤوم الى العراق

أحضروا فيصلاً وكان قد طرده الفرنسيون من سوريا، وكان يُسمّى ملكها، ثمّ فقد موقعه في الحجاز، وهو يتلهّف الى إسم الملوكيّة، ففاوضوه على أن يكون له هذا الإسم في العراق لاغير، ويكون الحكم والسلطان بيد الإنجليز بشرط أن يسعى بإخضاع كل معارض للإنجليز وإبادة كل قوّة تقاومهم، وأن يأخذ اعترافاً من العراقيين بقبول الإنتداب الإنجليزي والوصاية بتوسّط مجلس تأسيسيّ تنتخب أعضاءه الأُمّة العراقيّة. فقبل فيصل ذلك، وجاء الى العراق، وكان العراقيون قد طلبوا اخاه «عبد الله» ولكنّه لم يقبل شرائط الإنجليز فأبدلوه بفيصل حيث وجدوه أطوع لهم.

هذه كانت سياسة الإنجليز التي جاءت مع «كوكس» الى العراق والتي صححوها بنتيجة خطأ «ولسن» الذي كان بخرقه يعين مفكري العراقيين على نفسه، و هي سياسة متينة متقنة محكمة بنيت على تجارب كثيرة، ودقة عظيمة، ومطالعات طويلة، وهي لا تشبه سياسة ولسن التي كانت مبتينة على الطيش و الغرور، فكان من الصعب مقاومتها. وقد جاءت بعدما ملّ العراقيون وسئموا الحرب و فقدوا جميع وسائل الدفاع وأصابتهم نوائب وبوائق كبرى ألهتهم عن كل شئ، وعاد كثير ممن قام في وجه سياسة ولسن من الأجلاف موافقا لهذه السياسة، لأنهم إنما قاوموا سياسة ولسن بداعي السغب و الجوع، لأنهم كانوا مستخدمين في الدولة العثمانية. فلما تقلّص ظلها عن العراق لم يعد لأُولئك الأدنياء مرتزق، فجعلوا الوطنية ذريعة للتوصل الى القوت.

و حين جاءت سياسة كوكس استقبلوها بملء صدورهم فرحاً لأنها ـ أي الوطنية–

وأساسها فيما يرون، إذ أنها قبلت أُولئك الوطـنيين فـي الدوائـر و قـلدتهم المـناصب الرفـيعة والألقــاب الضــخمة؛ رئــاسة الوزراء ورئـيسها، وزارة الداخـلية ووزيـرها، ومتصرفية الحلة ومتصرفها، وإدارة الأمن العام ومديرها و هكذا. غاية الأمر أن الحكم والسلطة بيد الإنجليز لا بأيديهم، وهذا غير مهم في نظرهم لأن الوطنية الكـاملة عـلى رأيهم قبض الرواتب وقد نالوه، لا الحكم الذاتي فما صنعهم به.

وبقي فريق من الصادقين لا يملكون وسائل الدفاع، فكان لسان حالهم للـخالصي يقول: ﴿ إذهَب أنتَ وربّك فقاتِلا إنّا هٰهُنا قاعِدُون﴾.

هذه كانت حالة العراق ومنها تتجلى حراجة موقف آية الله الخالصي وصعوبة أمره والفرق بين مـوقفه ومـوقف الشـيرازي. وكـان سـير الحـوادث يـقضي له بـالسكوت والإستسلام والتمتع بما جلله من الزعامة المطلقة والرئاسة في جميع الأقـطار لولا مـا جُبل عليه من إباء الضيم والشمم الذاتي وشدّة الإستمساك بعروة الدين الوثـقى. فـإن ذلـك كان يحدوه ويسوقه الى القيام باعباء الشريعة لسلامة الوطن.

وما كان ليُعجز فكره الصائب، ورأيه الثاقب، رسم خطة متينة تقاوم تلك السياسة. لكن جهل العراقيين وضيق مجال أعينهم وبساطتهم كانت تمنع عن رسم خطة عميقة ذات وجوه، ويصد عنه شدة تصرف الدسائس الإنجليزية بالرأي العام فكان ذلك من أعظم العقبات في طريقه، وكان من المستحيل إجتيازها، وإن الجاهل ليعمل بنفسه مـا لايعمله العدو بعدوه.

الأسباب الباعثة الى موافقته على ملوكيّة فيصل

وإليك مثلا من ذلك لايقطع سلسلة هذه الحوادث وترجمة الفقيد.

جاء العراق فيصل لتنفيذ تلك الخطة التي أشرنا إليها وهو يعلم أن الحَلّ والعقد بيد في العراق، ويعلم أنه لا يمكنه تطبيق تلك الخطة الإنجليزية إلا بعد جلوسه على سرير ملك العراق، ويعلم أن جلوسه بدون موافقة الخالصي مستحيل، فأخذ يتخذ الوسائل

لإقناع آية الله بذلك.

أما آية الله فإنه فكر في هذا الأمر ملياً وطالع صوره العقلية مردداً أمره بين النفي والإثبات، فرأى أمره مردداً بين؛ السكوت أو المداخلة.

فإذا سكتَ بقي الإنجليز وشأنهم يعملون مايشاؤون بلا مدافع، فالسكوت تقاعد عن الدفاع لايجوز، وإذا تداخل في الأمر؛ فإما أن يرفض ملوكية فيصل ويأمر بعدم مبايعته، وهذا أمر حرج من جهات:

أولها: إن العراق لم تبقَ فيه قوة لتنفيذ هذا الأمر.

ثانيها: إن العراقيين لم يحيطوا علما بخبث سريرة فيصل وسوء نيته، وكانوا لجهلهم يحسبون أنهم قد ألفَوا ضالتهم المنشودة، فإذا طرده آية الله جاء طرده مخالفاً لما يعتقد العراقيون فيكون الخالصي حينئذ مضيّعا لاستقلال العراق بنظرهم بعد أن كان حافظه، ولايأتي طرده مع هذا بنتيجة.

ثالثها: إن الإنجليز على أثر رفض العراق لفيصل يؤولون ذلك بلا شبهة بأن العراق غير راغب بالحكم الذاتي، وإنه لا يريد إلا الإنجليز، ويظهرون ذلك للعالم ويكتمون حقيقة الأمر، ولاقوة للعراق ذلك اليوم على إظهار حقيقة الأمر.

وخلاصة الأمر إن طرد فيصل قبل أن يبدو منه عمل ينافي استقلال العراق كان مستحيلا ذلك اليوم، وعلى تقدير إمكانه يؤدي الى عكس المطلوب، فلم يبق إلا الموافقة على ملوكيته، ولكن الموافقة بوجه مطلق مضيعة للعراق مطابقة لآمال الإنجليز، فلا بد من تقييدها بما ينفع العراق وأخذ إعتراف من فيصل باستقلال العراق التام الناجز، والإنقطاع عن كل سلطة أجنبية أياً ما كانت، وأخذ إعتراف آخر من الإنجليز بهذه الوسيلة.

هذا ماقر عليه راي الخالصي بعد مطالعة عميقة. ولما علمتُ رأيه سألته أن يتوقف في مبايعة فيصل على ذلك الشرط.

فقال: إن توقفتُ خشيت أن يبايعه العراقيون بالملوكية مطلقاً أو مع قيد وصاية الإنجليز ـ وكان الإنجليز يسعون بذلك ـ فيموت العراق، وإن سعيت بطرده الآن لم

تكن بيدي وسيلة ظاهرة لطرده. أما إذا بايعته على هذا القيد فإن نفذه فلا نختار غيره ملكا، وإن خالفه كانت بأيدينا وسيلة لطرده.

فقلتُ: إن نيته سيئة فيما أرى، وإنه لم يجيء العراق إلا بعد أن أعطى العهود والمواثيق بإماتة الحركة الوطنية فيه.

فقال: وأنا أرى ذلك، ولكن كيف يمكن إفهام الناس مع جهلهم هذا الأمر وأنت تراهم مقدمون على مبايعته مطلقاً أو مع الوصاية الإنجليزية ولا طريق لنا نُفهم به الناس لزوم تقييد المبايعة بالاستقلال التام الناجز المنقطع عن كل سلطة أجنبية إلا أن أُبايع أنا كذلك، وتنشر بيعتي ليبايع الناس مثلها فيبقى للعراق حقه محفوظاً يطالب العراقيون به متى تمكنوا، وإلا أذهبَ العراقيون بأيديهم حقوقهم.

فقلت له: إني أخشى أن تبايع فيصلاً فلا يُعطيك مجالاً لمطالبته بالقيد والشرط، ويتسلط على البلاد ويميت فيها الحركة الوطنية ويعود خلعه مع تخلفه عن الشرط أصعب من طرده اليوم.

فقال: إن طرده غير ممكن لنا هذا اليوم، وخلعه بعد مبايعته وتخلفه عن شروط البيعة صعب؛ والمتعسّر متقدم على المتعذّر.

فأخذتُ أُلحّ بلا برهان على الإمتناع عن مبايعة فيصل خوفاً من كيده ودسائسه، فغضب وأمرني بالإقلاع والكفّ عن الكلام، فسكتُّ.

خداعُ فيصل وخيانته الصريحة لله ولرسوله وللإسلام

وجاء فيصل فجعل يده في يد آية الله، وقال فيصل لآية الله: بايعتُك على أن أسعى لجعل العراق مستقلاً إستقلالاً تاماً ناجزاً في جميع اُموره، غير مرتبط بأي سلطة أجنبية كائنة ماكانت، وإن لم أتمكن من ذلك اُحارب الإنجليز، فإن لم أتمكن منه أرجع الى الحجاز وأترك العراق وأهله، وأُشهد الله على ذلك وملائكته ورسله وأولياءه، هذا كتاب الله بيني وبينك على ذلك، وكان القرآن الكريم بينهما.

فقال آية الله: وأنا قد بايعتُك على ذلك، وإن تخلّفتَ عن إحدى هذه الشرائط فلا بيعة لك عندي.

وانقضى المجلس بذلك، وكان منعقداً في مدرستنا. ومضى فيصل الى بغداد، ثم أرسل أحد رفقائه ليأخذ نص بيعة آية الله مكتوبة موقعة بتوقيعه.

فكتب قدّس سرّه هذه الجملة:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي...

إنّا قد بايعنا فيصلاً على أن يكون ملكاً على العراق بشرط أن يكون العراق مستقلاً إستقلالاً تامّاً ناجزاً منقطعاً عن سلطة الأجنبي، لاتشوبه شائبة حماية، أو وصاية، أو أي شئ مما يُشين كرامته أو يُخّل باستقلاله. والله المعين على ذلك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الراجي محمد مهدي الكاظمي الخالصي

عُفي عنه

وأمر رسولَ فيصل أن ينشر ذلك في الجرائد. فنُشر فبايع الناس مثل ذلك لم يشذ منهم إلا قليل لا يذكر.

فانتُخب فيصل ملكاً على العراق بشرط الإستقلال التام الناجز.

وحين انتشرت بيعة آية الله، أخذ الإنجليز أنفسهم يشيعون بواسطة عمالهم أن هذه البيعة غير مشروعة إذ البيعة لا تكون إلا للإمام، ولا يليق بالزعيم الديني أن يُبايع لرجلٍ عادي مثل فيصل، يقصدون بذلك الحط من كرامة آية الله الخالصي وتقليل نفوذه.

فاضطررنا الى مقاومة الإنجليز، والإستدلال بآية أمر الله نبيه أن يبايع المؤمنات بقوله تعالى: ﴿إذَا جَاءَكَ المُؤمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ..﴾ ـ الى قوله ـ ﴿..فَبَايِعْهُنّ﴾.

ولولا ثقة العراقيين الكاملة بآية الله لكان يؤثر في الرأي العام لجهله أمثال هذه الدسائس.

ولما تمّت بيعة فيصل، أخذ الإنجليز يسعون بإهانته كي لا تطمح ألحاظ العراقيين

إليه ولا يظنونه ملكاً، فيرتبوا أثر الإستقلال علـى مـلوكيته. فـأعلنوا تـتويجه، وعـقدوا لذلك مجلساً في المعسكر تحت رئاسة «المندوب السامي» وإدارة الضباط الإنـجليز، وجاءوا بفيصل الى ذلك المجلس كزانٍ يُراد رجمه. وطرَد رجال «الدرَك» أكثر من جاء من رؤساء القبائل للإشتراك في حفلة التتويج. وتمّ بالسخرية ذلك الفصل المـضحك من فصول رواية إستقلال العراق وملوكية فيصل.

وكان ذلك مورد غضب آية الله، فاعترض على فيصل لصبره على تلك السـخرية والإستهزاء من الإنجليز وصيرورته اُلعـوبة بـأيديهم واُضـحوكة لسـفهائهم فـي تـلك الحفلة.

فيصل أقسىٰ خائن عرفناه

وبعد أن جرت بيعة فيصل، أخـذ بـتطبيق خـطة الإنـجليز ونـقض بـيعته، فأذاعت «شركة رويتر» عن وزير المستعمرات الإنجليزية تصريحه بأن حكومة العراق لم تُبلغ المندوب السامي عن العراقيين رفضهم للوصاية الإنجليزية.

فقام لهذا النبأ آية الله وقعد، وقلق واضطرب، وفارقت عينه المنام، وتـرك التـهجّد ليله، وكان آخر شهر الصيام، وجلس في مدرسته فاختلفَت إليه جـماعات العـراقـيين ليلهم ونهارهم، والليلة الثانية وكانت أول ليلة من شوال [١٣٤٠هـ].

فعلم الناس إن فيصلا لم يجيء للعراق ليكون هو ملكاً والعراق مستقلاً، بل إنما جاء ليخدع العراقيين عن أنفسهم، ويأخذ منهم إعترافا بالعبودية للإنجليز بـصورة رسـميّة متقنة، وإن تصريح وزير المستعمرات مقدمة لذلك.

المظاهرة الكبرىٰ في بغداد أول شوّال سنة ١٣٤٠ هـ

وقرّ الرأي بمحضر آية الله الخالصي على؛ إجراء مظاهرات كبرى في جميع البلدان

العراقية إحتجاجاً على تصريح وزير المستعمرات، وإفهام العالم بأسره أن العراقيين يرفضون أشد الرفض أي تداخل أجنبي مهما كان اسمه وعنوانه، وإنهم لايهدأون مالم ينالوا أُمنيتهم من الإستقلال التام الناجز، وقرر انتداب مندوبين يفاوضون الوزارة العراقية ـ وكان رئيسها نقيب الأشراف ـ ويحتجّون عليها في عدم إفهام الإنجليز رغبة الشعب وأُمنيّته، وإن كانت أفهمَتهم، يطلبون منها تكذيب وزير المستعمرات وإذاعة هذا التكذيب في العالم.

هذا ماقرّ عليه الرأي بمحضر آية الله الخالصي وصدر أمره المطاع به، فلما أصبح الناس ـ وكان أول يوم من شوال ـ نبذ الناس لبس الجديد والزينة، وتركوا مراسم العيد وأبدلوها بمراسم الحزن والعزاء ولبسوا الحداد والسواد، ونشروا رايات الحزن، وصاروا يطوفون في الأسواق والشوارع والطرقات بشعائر المصاب والبكاء، وصارت بغداد والكاظمية كمأتم واحد، ومضى الناس أفواجا الى دار النقيب محتجّين عليه.

فلما علم الإنجليز بذلك خافوا أن يستند العراقيون الى القاعدة الحقوقيّة المسلّمة وهي إن البلاد التي تحتلها دولة أجنبية تعامل بقانون الدولة السابقة ما دامت تحت الإحتلال، حتى يُبتّ في أمرها أو يُسن له قانون جديد.

ولما كان القانون العثماني يخوّل للعراقيين الإجتماع وانتداب مندوبين للمفاوضة، حاذر الإنجليز أن يجتمع العراقيون مستندين إليه، وينتدبوا مندوبين لمفاوضة فيصل والوزارة، ويكون لأُولئك المندوبين صفة رسمية فيشكل الأمر عليهم. فأوعزوا الى وزارة الداخلية بإعلان إلغاء قانون الإجتماعات والجمعيات العثماني الى أن يصدر بذلك قانون جديد. فصدرت إذاعة وزارة الداخلية بذلك.

وكان غرض الإنجليز منه أن يحرم الناس من الإجتماع إستناداً الى القانون العثماني فلا يستطيعون انتداب مندوب، وإذا اجتمعوا وانتدبوا مندوبين مع إلغاء القانون العثماني وعدم وجود قانون جديد لم تكن لمندوبيهم صفة رسمية؛ إذ لم يُنتدبوا ـ والحال هذه ـ بصورة قانونية، فيكون ذلك عذراً لفيصل والوزارة في استنكافهم عن مفاوضتهم وعدم سماع احتجاجهم.

وإذا طلب العراقيون سماح الحكومة بالإجتماع لا تأذن لهم به فلا يستطيعون انتداب مندوب لهم على أي وجه.

هذا ما كان قدّره الإنجليز لفيصلهم ووزارته في حرمان العراقيين (وقد غفلوا كما سيجيء) إلا أن العراقيين لم يعبأوا بذلك بل اجتمعوا في بغداد اجتماعاً لم يسبق له مثيل، وصوّتوا بأسماء أشخاص انتدبوهم للمفاوضة والإحتجاج في جميع الشؤون العراقية، وكنتُ من جملتهم.

فلما بلغني انتداب العراقيون إياي وكنت ماثلاً بين يدي والدي، بانَ على وجهي الإشمئزاز من ذلك فأنكره عليّ أبي وقال: إمضِ لما أُنتُدبت له.

فقلتُ: إني لا أرغب في مذاكرة فيصل، لأني أعلم إنه لم يجيء العراق إلا لخداع أهليه عن أنفسهم، وإغفالهم عن حقوقهم. وإني أعلم إن فاوضته تنتهي المفاوضة؛ إما بقتلي أو تبعيدي، لأنه بدل أن يُفاوضني في المسائل، سيجهد بخدعي بالمال، فإن لم أقبله منه وأصر على المطالب العراقيه وييأس مني بعد الإرهاب والترغيب، يجهد هو وأسياده الإنجليز بإهلاكي بأي وسيلة.

فنظر إليّ شزراً وقال: أنفسك أعز من نفوس من استشهد في سبيل القضية العراقية من رفقائك أم دمك أغلى من دمائهم ؟ دافع عن القضية العراقية وإن تكلّفت البوائق والمُرديات.

فقلت له: إني لا أرهب الحِمام، ولا أخشى العطب، ولا أُبالي بالموت، في الحق ولكني لا أرى نتيجة من هذة الطريقة للدفاع إلا طول المدّة، وسعة المجال لفيصل في إجرائه آمال الإنجليز. وأرى الأفضل مقاومة فيصل وطرده عن البلاد التي جاء ليخدعها لامناظرته، وها هو قد نقض بيعتك، فأعلن للملأ ذلك.

فقال: لا يصلح للقضية العراقية مقاومة فيصل الآن حتى يتبيّن لكل عراقي أمره، وكثير من العراقيين لم يطّلعوا على نيّته الآن فامض لما آمرك.

فلم أجد سبيلاً للتعلل والتأخر ومضيت الى بغداد مع النفر الذين انتدبهم العراقيون معي للمفاوضة. فقلت لاولئك النفر: أظن أول أمر يبدأ به فيصل إنكار انتدابنا، ورفض

مفاوضتنا رسماً لأن الإنجليز خسروا في اعتراف «ولسن» بمندوبي بـغداد، ولا أظـنهم يعترفون بنا، ولا شك إنهم قد أوعزوا بإنكارنا لفيصل، عـاملهم عـلى الخـداع، وإمـاتة الحركة الوطنية، فما أنتم صانعون؟ فلم يكن عند أحدهم جواب.

ثم مضينا لملاقاة فيصل فجاءنا وابـتدأ الكـلام بـقوله: إنـي إنـما جـئتُ لزيـارتكم ومحادثتكم بصورة عادية لا بصورة رسمية، إذ ليست لكم تلك الصفة، لأن انتدابكم لم يكن منطبقا على قاعدة، ولا موافقاً لقانون.

فقال أحد أعضاء الوفد: فلماذا قبلتنا إذا لم تكن لنا صفة رسمية؟.

قال فيصل: كيف أرفض ملاقاتكم، وهل يسـعني الرد إذا قـيل لي أن فـلانا وفـلانا يريدون ملاقاتك، وأنتم أعز أصدقائي، وبكم أستعين في كل المسائل؟ ولكـن لاشك إنكم تعذروني في الإعتراف بانتدابكم، إذ لا يسعني مخالفة القانون.

فسكتَ أعضاء الوفد، ونهضتُ مـن مكـاني مـتوجهاً الى خـارج المـجلس، فـقال فيصل: الى أين؟.

قلتُ: أمضي الى ملاقاة ولي عهد إيران لأني ضربتُ موعداً اقترب.

فقال: اجلس قليلاً لنتحدث في ما يهم العراق.

قلتُ: إن مجلس الملك يجلّ عن أن يكون كمجالس البطّالين (مقهى) يُتكلم فـيه عبثاً، ويُصرف فيه الوقت جزافاً.

قـال: ليس هذا الكلام عبثاً، إنما نتكلم في الشؤون العراقية.

فقلت: إذا لم تكن لنا صفة رسميّة فكلامنا وكلام أصحاب الملاعب واحد، وهذا هو معنى العبث.

فقال: أرجو أن تجلس لنفكّر في هذا الأمر من وجوه أُخرى.

قلتُ: إذا سمحت بالكلام على حقيقته، ورفض المحاباة جلست، وإلاّ انصرفت.

قـال: أرجو ذلك، ولا أريد إلا إظهار الحقيقة على وجهها.

فجلستُ وقلتُ له: إنك تحتج لعدم الإعتراف بنا بأنا لم نُنتخب طبق القانون، ولست أدري أي قانون تطالبنا به؟ إن كان قانون الإجتماعات والجمعيات العثماني، وهو الذي

يجب أن نُنتخب طبقه، فقد أعلنت وزارة الداخلية لغوه، وإن كان قانون للعراق، فلم يُسنّ له قانون بعد. فاجأنا والحال هذه تصريح وزير المستعمرات البريطانية، ذلك التصريح المشين، الذي أوجب ريبة العراقيين بوزارتك. فدار أمر العراقيين بين حالتين؛ إما السكوت، وهو اعتراف ضمني بل صريح في مثل هذه الموارد بما صرح به وزير المستعمرات، وإما انتداب أُناس من بينهم للإحتجاج على ذلك، وحيث لاقانون للبلاد يُنتدبون طبقه فضرورة الأمر تحكم بانتدابهم من غير رعاية قانون، إذ لا قانون كي يُراعى، وهذه الكيفية من الإنتداب قانونية طبعاً، لأن الضرورة فوق القانون كما هو مسلّم لدى جميع الحقوقيين ولا سيما في مورد لا يوجد فيه قانون، فنحن مندوبو العراق رسماً، يحق لنا المفاوضة في شؤونه ولا يسعك إلا الإعتراف بنا إن كنت تراعي القانون.

فلما سمع كلامي هذا سكت، وأخذَته الفكرة الطويلة، ولم يحر جواباً. وكنتُ أقرأ في وجناته أثناء تفكّره مناجاة خفية، مع سيده كوكس فكأنه كان يقول: سيدي ما أصنع؟ إن استمهلتُ هؤلاء في الجواب حتى أُراجعك فيه عرفوا جلياً أني لا أختيار لي حتى في جواب سؤال، وانتشر ذلك بين العراقيين، فيصعب بعد ذلك خدعهم لك ولدولتك، وإن إعترفت بهؤلاء؛ خَشِيت أن أكون محل غضبك وموضع سخطك، فماذا أصنع يامولاي وليس جواب أُسكتهم به؟.

وكأنه رجّح أن يعترف بنا ويعتذر عن ذلك للإنجليز بأنه إنما أقدم عليه ليستطيع خدع العراقيين وتطبيق خطتهم.

فقال فيصل: نعم إن انتخابكم والحال هذه موافق للقانون الطبيعي، وإنكم منتدبو العراق، ولكم الحق رسماً في المفاوضة فيما يتعلق به.

فقلنا له: إذا كان كذلك فنحن نحتج على تصريح «تشرتشل» ونطلب منك تكذيبه، إن كنت قد أفهمته رغائب الأُمّة. وإن لم تكن أفهمته الى الآن، فيجب الإسراع بإبلاغه أن الأُمّة العراقيّة لا تقبل بوجه من الوجوه أي تداخل أجنبي في بلادها وشؤونها الداخلية والخارجية ولا يقنعها إلا الإستقلال التام الناجز. فأوعد بذلك.

ثم قلنا له: ونحن بصفتنا مندوبي العراق سنحتج برقياً على تصريح «تشرتشل» ونذيع احتجاجنا في جميع عواصم الدول، فعلى إدارة البرق في بغداد أن لاتؤخر برقياتنا.

فقال: إني سابلّغ دائرة البرق وسائر الدوائر بإعتراف الحكومة بكم، وتنفيذ جميع مطالبكم، ولا شك إن دائرة البرق تسرع في إرسال برقياتكم الى حيث شئتم.

ففارقناه ورفاقي يحسبون أنهم نالوا أُمنيّتهم، لكن لم يزدني كلام فيصل إلا علماً ويقينا بأنه لم يأت بخير للبلاد.

فجئت والدي وإذا به قلق مضطرب، ولما أخبرته بما دار بيننا من الحديث، زاد قلقه واضطرابه، ثم أمرنا بالإسراع في إرسال البرقيات الى عواصم الدول إحتجاجا على تصريح «تشرتشل» فكتبنا البرقية الآتية بنسخة واحدة الى جميع مجامع الدول الآسيوية
والأُوروبيّة والأميركية، ومجالسها النيابية، وصحف العالم الكبرى، وعصبة الأمم، وهي:

برقية الإحتجاج على تصريح وزير المستعمرات الإنجليزية

«لقد أذاع «المستر تشرتشل» إن أهالي العراق الى الآن لم يبلّغوا المندوب السامي عدم رغبتهم في قيمومة الإنجليز، مع إن الأهالي قد أظهروا للعالم بأسره بصور متعددة ووسائل مختلفة رغبتهم في الحرية المطلقة، والإستقلال التام الناجز، وأدلّ دليل على ذلك نهضتهم المعروفة سنة ١٩٢٠، واليوم على أثر إظهاراتهم السابقة قد انتدبونا لتبليغ العالم بأسره بأنهم يرفضون قيمومة الإنجليز بجميع قواهم، ويطالبون باستقلالهم التام الناجز، ونستمد من كل حر يهمه حرية الملل الضعيفة، أن يعيننا على آمالنا التي لانرغب بغيرها؛ وهي الحرية المطلقة، والإستقلال التام الناجز».

أرسلنا هذه البرقية الى دائرة البرق، وأعطينا ثمنها ألفا وأربعمائة (١٤٠٠ روبية)

وظننّا أنها أُبرقت، وبعد عشرين يوما أذاعت جريدة «التايمز» البغدادية؛ إن البرقيات لم يُسمح بمخابرتها، فاحتججنا على فيصل، فإذاً يخادعنا في تغيير بعض عباراتها، وإلحاق جملة بها يُستشعر منها الرضا بالقيمومة لِتُخابر.

لكنا أصررنا على عدم تغيير شئ منها، فأظهر العجز عن حمل دائرة البرق على مخابرتها مع إصرارنا، وأخذ يجتمع بنا فرداً فرداً، ويخادعنا فأفهمتُه أنّا لا ننخدع.

ولما يئسنا منه، أمر آية الله الخالصي أن تُرسل البرقيات الى إيران لتخابر منها، فارسلناها وحدث في طهران عوائق إنجليزية عن مخابرتها.

الميثاق الوطني العراقي

ثم أمر آية الله أن ينظّم ميثاق وطني فنظِّم، وهذا نصّه:

«نحن أهل العراق قد تعاهدنا فيما بيننا على أن لانقبل قيمومة الإنجليز على العراق بوجه من الوجوه، وأن نبذل قصارى جهدنا في المطالبة بحقوقنا، وأن نردّ أي مداخلة أجنبيّة في شؤون بلادنا الداخليّة والخارجيّة، ونبذل أموالنا وأنفسنا في هذا السبيل، ونستعين الله ونسأله التوفيق لذلك».

فنظّم نسختان من هذا الميثاق وقعهما أكثر زعماء العراق؛ باديه وحاضره. وأعطينا فيصلاً نسخة منها وأودعنا نسخة عندنا وهي محفوظة عندنا الى الآن.

تصدي الإنجليز لإلقاء الخلاف بين العراقيين طبقاً لقاعدة «فرّق تسد» وتصدي آية الله لِرفعه طبقاً لقوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا﴾

فلما رأى ذلك الإنـجليز عـمدوا الى اتـخاذ الوسـائل الفـعّالة لايـجاد النـفاق بـين العراقيين، وتهييج العواطف، وإلقاء الإختلافات المذهبيّة، وكادوا ينجحون مستمدّين من جهل العراقيين. إلا أن علم وسرعة إقدام وحزم آية اللـه تـدارك الأمـر فـذهبت مجهوداتهم أدراج الرياح بعد إذاعة أذاعها في العراق وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي...

يجب على كافّة المسلمين أن يسعى كل منهم في مساعدة الآخر ومعاضدته ومؤازرته، وأن يبتعدوا عن كل ما يؤدّي الى النفاق والإختلاف.

وكل من يخالف هذه الطريقة إرضاءً للأجانب فهو في عداد الكافرين، ويحرم على عامّة المسلمين؛ معاشرته، ومكالمته، وعيادته إذا مرض، وتشييع جنازته، ولايسوغ دفنه في مقابر المسلمين وهو حقيقٌ بغضب الله وسخطه، مستحقٌ لعذاب جهنّم وساءت مصيرا.

الراجي محمد مهدي الكاظمي الخالصي عُفي عنه[١].

---

(١) وعندي نسخة مطبوعة نشرت في العراق ونصها فيما يلي:

منشور من حضرة العالِم العلامة حجة الإسلام حضرة الشيخ محمد مهدي الخالصي دام ظلّه

بسم الله الرحمن الرحيم

⇐

فلما انتشرت هذه الفتوى، أثّرت على العراقيين تأثيراً عظيماً، وانقلبت الإختلافات الى اتفاق كامل ووئام وتعاضد لم يسبق له في تاريخ العراق مثيل، وحصل تآخ إسلامي حقيقي؛ سواء بين القبائل التي كادت تنقسم على بعضها، أو أهل المذاهب الإسلامية الذين أوشكوا أن يقوم بعضهم في وجه بعض.

مؤتمر كربلاء والغرض الأهم منه

فلما رأى الإنجليز ذلك أيقنوا أنّ سيف الإختلاف الذي كانوا يـذبحون بـه الأُمـم الضعيفة، قد كهمه في العراق صارم عزم آية الله، فعاد لايعمل في العراق كما عمل لهم

⇐ وبه ثقتي... الى المسلمين وعامّة العراقيين:

قال عزّ من قائل في محكم كتابه وبيّن خطابه: ﴿ لاخيرَ فِي كثيرٍ مِن نَجواهُم إلاّ مَنْ أمرَ بِصدقةٍ أو مَعروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس ﴾ . وإن أفضل المعروف وأنجح الوسائل الى السعادة هو الإصلاح بين الناس ولاثمرة للإصلاح مالم يبن على قواعد التحابّ والتوادّ القويمة، وبذلك تصلح أمور العباد وتعمر البلاد ويشيّد البنيان وتقوّم الأركان. ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولاتفرّقوا فتهلكوا وينفرط عقد جامعتكم، وعليكم؛ بالإجتماع ورفع الحسد والبغي بعضكم على بعض، وملاحظة شؤون بلادكم وأوطانكم، وأن تحرروا نفوسكم عن كل غرض شخصي لايعود بالنفع على الأُمّة، واجتهدوا في الإئتلاف على ماهو أعود على الملّة. فانبذوا الإختلافات المذهبيّة والمشاغبات الدينيّة التي شتتت كلمة الجامعة الإسلاميّة. مراعين مصالح مواطنيكم من أهالي الملل الأُخرى الذين يتفقون معكم على إعلاء كلمتكم وإنقاذ بلادكم. قال عزّ من قائل: ﴿ لايَنهاكُم اللهُ عَن الذينَ لَم يُقاتِلوكم في الدينِ أنْ تبرّوهُم وتُقسِطوا إليهِم إنّ اللهَ يُحبُ المُقسِطين ﴾ . فعليكم بنبذ الإختلاف فإنه حياة البلاد وسعادة العباد، وهو الصلاح وبه السداد: ﴿ وٱعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرَّقوا وٱذكروا نعمةَ اللهِ عَليكم إذكُنتُم أعداءً فَألّفَ بينَ قُلوبكُم فأصبحتُم بنعمَته إخواناً وكنتُم على شَفا حُفرةٍ مِن النارِ فَأنقذكُم مِنها كذلكَ يُبيّنُ اللهُ لكمُ آياته لعَلّكم تهتَدون وَلْتكُن منكُم أُمّةٌ يَدعونَ الى الخَير ويأمرونَ بالمَعروفِ وينهَونَ عن المُنكرِ واوُلٰئكَ هُمُ المُفلِحونَ ولاتكونُوا كالذينَ تَفرّقوا وٱختَلَفوا مِن بَعدِما جاءتهُمُ البيِّناتُ واوُلٰئكَ لهُم عذابٌ عظيمٌ ﴾ . هذا حكم الله تعالى في كتابه المجيد ومَن شذّ عنه فعن حكم الله شذّ، وكتابه نبَذ، وإنما المسلم من تمسّك بالكتاب واعتصم بحبل الله في التوادّ والتحابّ وأتمَرَ بأوامر الإسلام وانتهى عن نواهي سيد الأنام ومن الله التوفيق وبه الإعتصام.

في ١٧ ذي الحجّة سنة ١٣٣٩

الراجي عفو ربه

محمد مهدي الكاظمي عُفي عنه

في سائر أقطار العالم.

فعمدوا الى مخالف للعراق من الأُمّة العربية حليف للانجليز إلا أنـه غـير عـراقـي؛ وهو «ابن سعود» أمير نجد، فأغرّوه بالهجوم على العراق. وكان غـرضهم مـن ذلك أن يعجز العراقيون عن دفاعه، فيلجأوا الى الإنجليز، ولا يدفعونه حتى يمضي العراقـيون لهم صكّ العبوديّة، ويرضوا بقيمومتهم على العراق.

هذا ما كان يخالج فكر شيطان الإنجليز، لكن النجم الثّاقب ـ رأي آية الله الخالصي كان يتبعه في كل حالاته فيهلكه.

أوعز الإنجليز الى ابن سعود بالهجوم على العراقيين. فهجمت قبائل من الوهّابيين برئاسة «فيصل الدويش» على قبيلة «البدور» من القبائل العراقيّة، وكانت بـالقرب مـن ضفة الفرات الأدنى. فقتلت رجالها وأطفالها، وبقرت بطون نسائها، وانتهبت جميع مـا كان لديها من مال وماشية. أجرت كل هذه الفجائع بين قبيلة البدور وهددت القـبائل الأُخرى بامثالها.

وكان الإنجليز قد مدّوا أيديهم ينتظرون أن تمدّ لها اليد العراقيّة بالرضا بـالقيمومة، وقد رفعوا أرجلهم لسحق الرؤوس العراقيّة التي ظنوها مطأطأة بعد هجوم الوهاّبيين.

فنهض آية الله الخالصي بالأمر فرأى؛ أن يـؤلف جـيشاً مـن العـراقـيين يـصد بـه هجمات الوهّابيين أولاً، ثم يُخرج به جيش الإحتلال ثانياً. فكان يفكر في ذلك أيّاماً، ثم صار يدعو القبائل سرّاً لتلبية دعوته متى دعاهم الى دفاع الوهّابيين، وكان يشتغل بهذا الأمر ليله ونهاره؛ لايقرّ في نوم، ولايلتذ في طعام.

وكان يخشى أن يخالفه في ذلك علماء النجف؛ لما كان يعهده فيهم من الخـمول والجبن.

فطالبُته يوماً في إظهار دعوته فقال: أخشـى أن أُظـهرها فـيخالفها عـلماء النـجف، ويحتجّ بهم من يخشى الحرب، أويرهب الإنجليز، وأخشـى أن يـتعللوا إذا دعـوتهم، والأولى أن نتخذ خطّة تبعثهم الى الإقدام والموافقة دون أن ندعوهم.

وبينا هو يفكر في ذلك إذ عمّ الإضطراب أهل النجف؛ لأنها كانت معرض هـجوم

الوهّابيين. فاستغاثوا بآية الله، وورردت برقيّة من النائيني والأصفهاني هذا نصّها:

كاظمية:

حضرت حجّة الإسلام الشيخ محمد مهدي دامت بركاته.

لاينبغي الإطمئنان والإعتماد بوجه من الوجوه على أقوال الإنجليز في دفع الخوارج الوهّابيين، فنرجوا أن تحضروا في كربلاء مع جميع الرؤساء الذين هم حاضرون عندكم لنتفاوض في شؤون هذا الأمر. محمد حسين الغروي النائيني أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

فلما وصلت هذه البرقيّة الى آية الله الخالصي سُرّ بها وأظهر دعوته. فأمر من كان لديه من رؤساء القبائل بالحركة الى كربلاء فوراً، وأبرق الى جميع قبائل العراق من الموصل الى البصرة هذه البرقيّة:

بعد العنوان...

قد تقرر أن يجتمع جميع العلماء ورؤساء القبائل في كربلاء من اليوم العاشر من شعبان [١٣٤٠] الى اليوم الخامس عشر منه، فيجب عليكم الحضور في الموقع المذكور هناك.

وكتب اُلوفاً من الكتب الى رؤساء القبائل، وأعدّ السيّارات العديدة والرسل الى جميع أنحاء العراق، ثم أرسل كثيراً من الرسل بكتبه في السكّة الحديديّة.

ثمّ دعا فيصلاً للحضور في كربلاء، فأجاب. وكان غرضه أن يجعل كربلاء مقرّاً للجيش، ويمنع فيصلاً ويحبسه عن الرجوع الى بغداد حتى يدفع غائلة الوهّابيين، ثمّ يعود بجيشه يطالب الإنجليز باستقلال العراق، وفيصل الذي تسمى ملكاً، وكان يرى أن يفاوض ابن سعود في أمر العراق إذا أمكن التفاهم معه، سالمه العراق بشروط أهمها أن ينفصل ابن سعود عن الإنجليز ويستقلّ سلطانه. ومع هذا الشرط كان يرى وجوب تسلطه على العراق وانضمام العراق الى ممالكه؛ لأنه مسلم فهو أولى بالحكم على المسلمين من فيصل الذي ليس له من أمر العراق مقدار مالأقِل «دركيّ» أو جندي إنجليزي، والأمر كله في العراق للإنجليز.

ومن هنا يُعلم أنه لم يكن يهتمّ بأمر الوهّابيين، وإنما كان همّه متوجهاً نحو الإنجليز لاغير.

فمؤتمر كربلاء عُقد ظاهراً لمقاومة الوهّابيين، ولكن حقيقته لم تكن إلا لمقاومة الإنجليز ودفاعهم[١]. وكان يكتم هذا الأمر عن كل أحد بحيث لم يشعر به أحد غيري. ثم أبرق للنجف هذه البرقيّة:

حجّتَي الإسلام الأصفهاني والنائيني دامت بركاتهما.

سنأتي الى كربلاء يوم العاشر من شعبان مع جميع رؤساء القبائل الذين هم حاضرون عندنا، وقد ألزمتُ جميع رؤساء قبائل العراق بالحضور ذلك اليوم، وسيحضر الملك فيصل.

الراجي محمد مهدي الكاظمي الخالصي

عُفي عنه[٢].

---

(١) كما صرّح بذلك ساسة الإنجليز من حكام العراق، قالت «مس بيل» في مجلس حافل بالأعيان ورؤساء العراق:

(ان الخالصي لم يكن غرضه في مؤتمر كربلاء دفاع الوهّابيين عن العراق، بل إنما كان غرضه إعلان الحرب وإشهار السيف في وجوه الإنجليز وطردهم من العراق)».

وقال «كوكس» مثل ذلك وأزاد هذه الجملة:

(ان الإنجليز لم يكن يستقرّ أمرهم وتثبت لهم مركزيّة في العراق مادام الخالصي فيه، وبعد نفيه يستقرّ أمرنا فيه ويخضع أهلوه إلينا ونعرف أنه أحد مستعمرات الإنجليز).

ولاجل ذلك إن حاكم الحلّة جاء الى كربلاء ومثُل بين يدي آية الله، ثم منع الإجتماعات العامّة تحت السماء في كربلاء، وأشغلوا أهالي الحلّة بالطيارات ومنعوا إدارة البرق من إرسال البرقيّات قبل ذلك، وأخلعوا على «عدّاي الجريان» سيفاً من ذهب حيث لم يحضر مؤتمر كربلاء ولم يلبّ الدعوة ولم يشترك مع رؤساء القبائل في إصلاح الأمر. ومنعوا عن الحضور فيصلهم وكانوا يجسّون النبض. (الناسخ)

(٢)الذي نشرته جريدة الإستقلال في بغداد من البرقيّات والمكاتيب بهذه الصورة، نذكر ذلك مع العنوان والإضافات التي فيها:

اجتماع عام

في كربلاء المشرّفة في العاشر من شعبان

اهتمّت الأمّة العراقيّة بحادثة الإخوان اهتماماً زائداً وقامت رؤساء القبائل لهذا الخبر وقعدت، وعلى الأخص فإن علماء الدين قد قرروا عقد اجتماع في كربلاء للنظر في اتخاذ الوسائط اللازمة لرد الأخطار، وقد وردت برقيّة الى مولانا حجّة الإسلام الشيخ محمد مهدي دامت بركاته من

⇐

ثمّ أمرني بالمضي الى النجف لتعجيل حركة علمائها الى كربلاء خوفاً من توانيهم. فمضيتُ ودخلتُ على السيد أبي الحسن وقت الظهيرة وهو نائم، فأوقض وقلتُ له:

⇐ *النجف الأشرف والى القرّاء نصّها:*

(الكاظمية:

حجّة الإسلام الشيخ مهدي الخالصي دامت بركاته.

إنه لا ينبغي الإتكال على وعد السلطة البريطانية في دفع شرّ الإخوان عن سكان العراق، فبناءً على ذلك نؤمّل أن تحضروا في كربلاء قبل الزيارة بأيام وأن تأمروا رؤساء القبائل؛ كالسيد نوري، وأمير ربيعة وسائر الرؤساء ـ بعد إبلاغ سلامنا لهم ـ بالحضور كما إننا سنحضر مع رؤساء القبائل الموجودين في طرفنا جميعاً لاجل المذاكرة في شأنهم إن شاء الله تعالى.

الأحقر أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

الأحقر محمد حسين الغروي النائيني)

فجاءت هذه البرقيّة موافقة لآمال حضرته وآرائه، فدعا الرؤساء الذين هم الآن في العاصمة. وبعد أن كلّفهم بالقيام بواجبهم الأقدس لبّوا هذه الدعوة بكل ارتياح. ثم أرسلت البرقيّة الى جلالة الملك. ثم أبرق الى رؤساء القبائل هذه البرقيّة:

(لقد اهتمّت المقامات الدينيّة العليا بأمر الإخوان؛ وعليه فقد تقرر أن يجتمع زعماء الدين ورؤساء القبائل بكربلاء، فيجب عليكم أن تحضروا في هذه المدينة المشرّفة في اليوم العاشر من شعبان إن شاء الله تعالى.

محمد مهدي الخالصي)

ثم أبرق شدّ الله أزره الى علماء النجف ما يأتي:

(لحضرتَي حجّة الإسلام أبي الحسن ومحمد الحسين المحترمين.

بعون الله سنحضر في كربلاء يوم ١٠ شعبان مع كافّة الرؤساء الذين لبّوا الدعوة حالاً وسيشترك في الإجتماع زعماء القبائل المختلفة على ضفاف دجلة والفرات.

محمد مهدي الخالصي).

ثم كتب أدام الله بقاه الى جميع سكّان العراق من الموصل الى البصرة الكتاب الآتي وأرسل منه نحو ١٥٠ نسخة بواسطة البرق:

(أما بعد ياأهل العراق!

فقد أمكنتم الرامي من الرمية حتى ملكت منكم الأطراف، وغزى بلادكم الأجلاف، وما غُزي قوم قَطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا، هؤلاء الأخوان (الوهّابيّة) تجاوزوا على حدود العراق ويُخشى أن يَلِجوه. ومن رَتعَ حول المرعى يوشك أن يدخل فيه. فاستيقظوا من نوم الغفلة قبل أن تلبسوا ثوب الذلّة، وقد تقرر لحلّ هذه المسلمّة؛ أن يجتمع العلماء ورؤساء القبائل في كربلاء يوم العاشر من شهر شعبان المعظّم الى اليوم الخامس عشر منه، فيلزم الحضور في الوقت المعلوم، والسلام.

محمد مهدي الكاظمي الخالصي).

ثم نشر إعلان تحت ١٣ مادة بأمر آية الله الخالصي في ترتيب سفره واستقبال الزعماء في كربلاء وغاية الإجتماع وغير ذلك.

ثم سار قدّس سرّه ماراً ببغداد فالحلّة فكربلاء. وتم له الأمر على رغم الإنجليز. ولو لم يتدارك الإنجليز أمرهم لتمَّ له، حسبما ذكر العلامة المؤلف حفظه الله تعالى. (الناسخ)

أرجو أن تمضي سريعاً الى الكاظميّة.

قال: ولِمَ؟.

قلتُ: عسى أن يراك أبي فيتعلم النّوم لأنه لاينام ليلاً ولا نهاراً.

فضحك! وعزم على السفر الى كربلاء فسافر من يومه.

ثم مضيتُ الى مرزا حسين النائيني، وإذا به قد هاب الأمر ونكل عن الحضور الى كربلاء!! وكلّما عالجتُه وطالبتُه بوعده لم يفِد، فلما يئست منه تركته كاتماً أمره وتوجّهتُ الى كربلاء.

فلما صار يوم العاشر من شعبان سنة ١٣٤٠ أخذت القبائل وأهل المدن تفد الى كربلاء، والجموع ترد، حتى اكتمل الى اليوم الخامس عشر ماخمّن بثلمائة ألف، بينهم ما يربو على ألفي وخمسمائة رئيس.

وورد آية الله الخالصي ؛ فاتخذ دار آية الله الشيرازي مقرّاً له.

ونكل فيصل عن المجيىء لأن الإنجليز حذّروه ذلك الموقف. ووردت ثلّة من الجيش، وكان الغرض منها ممانعة المؤتمرين عمّا يضر الإنجليز. فكان آية الله يأمرني بملاقاة رؤساء القبائل في دورهم والترحيب بهم نيابة عنه، وتحريضهم على التمسّك بالحقوق العراقيّة، وقتال كل من يبغي عليها.

فأمرني يوماً بزيارة تلك الثلّة من الجيش فخطبتُهم بما أمرني به محرّضاً ومشوّقاً. فعاد ذلك الجيش لاينفع الإنجليز شيئاً، وأجاب الضباط بأنهم عراقيون لايقدّمون شيئاً على مصلحة العراق، فلما رأى آية الله الخالصي تخلُّف النائيني، ونكول فيصل، علم أن ماعزم عليه من إعداد القوى للدفاع عن العراق من الجهة الإنجليزية قبل الوهّابية لايتم، لأن تخلفهما وإن لم يؤثر أثراً على ذلك الإجتماع في الوقت الحاضر، إلا أنه من الممكن أن يؤثر على الحرب في مصلحة العراق فيما إذا أعلنها الخالصي على الوهّابيين، ثم الإنجليز.

لذلك انصرف عما كان قد عزم عليه، وعقد اجتماعاً من العلماء ورؤساء القبائل برئاسة السيد أبي الحسن الأصفهاني من علماء النجف كان بخدمته، وأجرى حلفاً بين

القبائل، كتب به هذا الميثاق:

«نحن الموقّعين في هذه الورقة بناءً على دعوة علمائنا الأعلام الذين تجب إطاعتهم علينا وهي فرض في ذمّتنا، قد اجتمعنا في كربلاء يوم الخامس عشر من شعبان المعظّم سنة ١٣٤٠ وتعهدنا أن ندافع عن العراق في قبال كل حملة أجنبية؛ سواء كانت من الوهّابيين أو غيرهم وأن نعيد الى العراق كل ما اغتُصب منه، وأن لانشحّ بأموالنا وأنفسنا في سبيل دفع المتجاوزين على استقلال العراق».

وقد وقّع هذا الميثاق بعد عدّة اجتماعات كبرى في دار آية الله الشيرازي برئاسة آية الله، ومذاكرات طويلة، وتحريض وتحريص، وتشويق وترغيب، جميع من كان في كربلاء من الرؤساء والزعماء من أهل القبائل والمدن.

المعاهدة العراقيّة

فلما رأى الإنجليز ذلك يأسوا من أن يُقنعوا العراقيين بإمضاء قيمومتهم على العراق، فتركوا اسم القيمومة باسم «المعاهدة» والغرض واحد إلا أن الإسم مختلف. ومن شأن الإنجليز أنهم لايعبأون بالأسماء؛ يُسّمون العراق مستقلاً وهم حكامه، وفيصلاً ملكاً وأقل رجال الدرك أملك منه.

أذاعوا عزمهم على عقد معاهدة مع العراق المستقل، وكان آية الله يتخوّف منها أشدّ التخوّف، ويترقب الإطّلاع على موادّها ليقاومها.

وهنا أمرني بتشكيل حزب سياسي يحق له المداخلة رسماً في شؤون العراق السياسية، ليستطيع الوقوف أمام تلك المعاهدة المشؤومة. وكنّا قد شكلنا حزباً سرّياً في كربلاء قبيل الثورة باسم «الحزب الوطني العراقي» وكان له سوابق مهمّة في كربلاء والنجف.

فشكلنا الحزب الذي أمر به آية الله الخالصي وسُمّي باسم «الحزب الوطني

العراقي». وكانت هيئته المؤسسة من نخبة رجال العراق، وأعضاؤه من الشباب المتحمّسين في الشؤون العراقية، المشتهرين بالصدق والعزم والثبات والوطنيّة الحقيقيّة [١].

وتخوّف الإنجليز من هذا الحزب وكذلك فيصل الذي كان عزمه خدمة الإنجليز، فهو يتخوّف من كل مايخالفهم.

لذلك أوعز الى بعض عمّاله وهو السيد محمد بن السيد حسن سيد هادي المعروف بالصدر. وكان عامل الإنجليز من قبل[٢] دفعته الحوادث وخيانة أسياده الإنجليز في دراهم معدودة الى الإشتراك بالثورة أياماً معدودة، ثم عادت به طبيعته الخائنة الى خدمة فيصل رأساً [٣] والإنجليز ثانية بالواسطة، وهذا الخائن هو سيد محمد بن سيد حسن صدر الدين، فشكّل حزباً سمّاه «حزب النهضة» وكان الغرض منه معارضة الحزب الوطني وخدمة فيصل وساداته الإنجليز، وخدع كثيراً من الوطنيين الصادقين فدخلوا فيه، ولعلهم يغضبون إذا قرأوا هذه الجملة عن حزبهم الذي خُدِعوا له. لكن الأولى فيما أرى أن يرجعوا عن خداعهم الى الحقيقة. وأدل دليل على ما أقول: إن الحزب الوطني مات شريفاً مدافعاً عزيزاً[٤]. وعاش حزب النهضة ذليلاً حقيراً

---

(١) وكنتُ أحد أعضائه وبعض عمّاله والمعارضين لأحزاب الإنجليز، وعندي من آثاره الى الآن مهره الذي نُحت في كربلاء سنة ١٣٣٨ هـ في الحزب الذي أشار إليه العلامة المؤلف وعمل به فيه، ولم يُنحت مهر آخر جديد وهذه صورته.

(٢) كان متعاوناً مع المحتلّين ومؤيداً للإنجليز في العراق مقابل ما يستفيده منهم، وكان راتبه خمسمائة روبيّة شهرياً. كما أنه الآن رئيس مجلس الأعيان في العراق، ونديم فيصل، وخادم الإنجليز معه بعدما كان أحد أعضاء المجلس، وراتبه ثمانية عشر ألف روبيّة سنوياً تكون ألف وخمسمائة روبيّة شهرياً، ماعدا الرشوات وهدايا الإنجليز والسرقات وغير ذلك، يأكلها من خالص أتعاب وكدّ فقراء العراق وضعفائه. وهو أول من صدّق على الضرائب الفادحة في هذه الأيام فأقفلت الأسواق والدكاكين في بغداد والكاظميّة وكربلاء والعراق متظاهرين على تلك الأعمال المفجعة، ورماه الوطنيّون ببنادق أرادوا قتله فتحاماه الإنجليز.

(٣)ولما فرّ بعد انتهاء الثورة الى الحجاز، رجع مع فيصل الى العراق وكانا على عهدة من الامر، اتفقا في الطريق على ان يعملا معاً على غاية واحدة في خدمة الإنجليز وبيع العراق وخداع أهليه لهم.

(٤)وأُعيد الآن تحت رئاسة الحرّ الغيور الحاج محمد جعفر أبي التمّن، كما كان سابقاً في عهد العلامة المؤلف في بغداد. اضطر الإنجليز الى إعطاء الإذن والرخصة في فتحه ثانياً لأمر اقتضى ذلك، لكن الحزب ⇐

مستعبَداً.

على هذه الكيفيّة تشكّل حزبان للبلاد ـ استغفر الله حزبان أحدهما للبلاد والآخر عليها. وأخذ الحزب الوطني يعمل بجدّ ونشاط لتوسيع نطاقه من جهة، ومقاومة الإنجليز من جهة أُخرى.

فنظّم الإنجليز المعاهدة العراقية الإنجليزية المؤرخة مصادقتها في ١٩ صفر ١٣٤٠ هجري الموافق للعاشر من تشرين سنة ١٩٢٢ ميلادي.

وكان إسمها «معاهدة» ومعنىً «عهداً» من الإنجليز أن لايدَعوا حقاً للعراقيين في ماء العراق وترابه وهوائه، وكانت كل مادة منها تثبت القيمومة على العراق تثبيتاً لاتزلزل بعده، وكانت موادّها طوق عبوديّة ورقيّة، بل طوق لعنة في أعناق العراقيين إن قبلوه الى يوم القيامة.

نظّم الإنجليز تلك المعاهدة، وحيث كانوا يعلمون إن المدافع عن العراق هو وحده وإنه صعب لايذلل؛ راموا خدعه، فأوعزوا الى فيصل عاملهم أن يرسل تلك المعاهدة المشؤومة الى آية الله ويقنعه بها؛ حيث اشتملت على لفظ الإستقلال في مقدمتها، وإن كانت موادّها الثمانية عشرة كلها تنقض الإستقلال وتُميت العراق.

فجاء وزير معارف فيصل، وهو السيد محمد علي الشهرستاني[١] وكان متلبساً

⇐ لايكاد يستطيع أن يعمل شيئاً من مهمّات الأمور كما كان يعمل سابقاً لكثرة معارضيه من حزب العهد ـ الذين باعوا وطنيّتهم وأوطانهم بدراهم معدودة ـ وغيره، وشدة الضغط من السلطة. والعمدة في ذلك؛ فقد مساعد مثل آية الله الخالصي قدّس سرّه، وغيبة نجله العلامة المؤلف حفظه الله. (الناسخ)

(١) وهو رئيس مجلس التمييز اليوم؛ وهو أحد الخائنين والناكثين العهد مع آية الله، وأول من جسّر فيصلاً وسائر الخونة من الوزراء على تصديق المعاهدة بإمضائه ذلك قبلهم حيث هو ينسب الى أهل العلم الديني كما ذكر الأستاذ المؤلف، وكان معروفاً بالوطنية أيام الثورة، وقد قرأت على صفحات الجرائد بيعته حسيناً شريف مكّة بالإمامة والخلافة بعبارات لم تكن من خدام نفس الشريف وعبيده في الحجاز، وكان مضامين بعضها:

إني أتشرّف بلثم أعتابكم والتبرك بتراب أقدامكم في قبول بيعتي ـ إني الحقير فلان ـ لكم بالخلافة والإمامة.. الخ.

وتابعه على ذلك السيد محمد علي بحر العلوم معاون رئيس مجلس الأعيان ـ السيد محمد الصدر ـ مع أن إمامهما «صاحب الزمان» عجّل الله تعالى فرجه. وهما من الشيعة ولاتصح بيعتهما لغيره بذلك. (الناسخ).

بلباس أهل العلم الديني الى آية الله الخالصي وخلا به سرّاً ظانّاً أنه يخدعه. فناجاه مليّاً حتى علم أن فكره الصائب ورأيه الثاقب أعلا وأنور من أن تطمس أشعّته تلك الظلمات، أو يؤثر عليه ذلك الغي. فانصرف خائباً آيساً من خدعه ولما مضى قال آية الله: عجباً للإنكيز؛ ماسدت في وجههم باب إلا فتحوا أُخرى! إن هذه المعاهدة؛ أمرّ وأمضّ من القيمومة، يقضي على العراق أن يكون ويبقى مِلكاً للإنجليز. فالويل كل الويل للعراقيين إن لم يرفضوها. وهنا أمر بتنظيم ميثاق ليوقّعه العراقيون فكُتب، وإليك نصّه:

«نحن قبائل وزعماء العراق؛ إصالة عن أنفسنا ونيابة عن أفراد قبائلنا وجميع أتباعنا قد أمضينا المواد الآتية وحلفنا أن نرعاها كلها رعاية كاملة، وأن تكون هي ميثاقنا الوطني والديني. وعاهدنا الله على العمل طبقها، وعدم التخلّف عن أي جزئي من جزئياتها.

١ـ تشكيل حكومة مشروطة «دمكراتيّة» مسؤولة أمام الله؛ مستقلّة إستقلالاً تاماً في سياستها، مصونة عن أي مداخلة أجنبيّة.

٢ـ ردّ قيمومة الإنجليز، ونقض كل معاهدة مضرّة باستقلال العراق التام الناجز، مخلّة بالشرف الوطني.

٣ـ تأييد وتقوية الملك فيصل مادام ساعياً في استقلال العراق التام الناجز على الصفة المتقدمة».

نُظّم هذا الميثاق على هذه الصفة لكي لايبقى عذر لفيصل، ووقعه جميع الرؤساء والزعماء لم يشذ منهم إلا النادر، وكتب منه نسختان، أُعطيت إحداهما فيصلاً، وأودعت ثانيتهما عندنا.

وأصبح الناس يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٠ في هياج عظيم، وتعطّلت الأسواق والأشغال، وجرت مظاهرات كبرى في بغداد ضدّ المعاهدة. ومضى المتظاهرون فوجاً فوجاً الى دار «عبد الرحمن النقيب » ـ وكان رئيس الوزراء ـ محتجين على المعاهدة.

وكنتُ آخر من مضى إليه في ثلّة من أهل بغداد فحلف إنه ساع في نقض المعاهدة وإنه سوف يسعى في ذلك ولو كان في رفضها إراقة دمه، وإزهاق نفسه، وإنه لم يبق من عمره إلا القليل ورجلاه على شفير قبره، وقد فقد أكثر حواسّه. وغاية أُمنيّته أن يصرف آخر عمره في خدمة المسلمين بنقض تلك المعاهدة.

حلف لي بذلك، وطلب مني أن أُبلّغ قوله والدي، ففارقتُه وأنا أعتقد أنه كاذب في قوله حانث في يمينه.

وجئتُ والدي؛ فرأيتُه قلقاً مضطرباً والحماس قد بلغ منه غايته، فسألني عما جرى في بغداد فأخبرته به، ولما بلغتُ ماقاله النقيب، كذَّبتُه.

فقال لي: لا تكذّب أحداً قبل اختباره.

فقلتُ: كفانا اختباراً موقف هذا الرجل في صفّ الإنجليز في كل موقف تقابل فيه المسلمون والإنجليز.

فقال: لعل الله هداه في آخر عمره.

فقرأتُ الحديث الشريف: «إذا رأيت الرجل يزداد على السن شرّاً فظن به شرّاً».

فقرأ الآية الشريفة: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤمِناً﴾.

وقال: ظَنُّ الشرّ حسن، وإبداء ذلك الظنّ بالقول منهيّ عنه، فهو قبيح. وبهذا يُفهم معنى الآية والحديث.

ثم قال: كيف رأيت فيصلاً؟.

قلتُ: إنه مجدّ في إمضاء المعاهدة إرضاء للإنجليز، مخادع إيانا فياقواله وأعماله.

فأمر بدعوة رؤساء القبائل وزعماء البلدان الى الكاظمية.

ولما حضروا قال قدّس الله نفسه الزكية:

> **«إن العراقيين بايعوا فيصلاً على أن يحتفظ باستقلال العراق التام الناجز، ويقطع تسلط الأجانب فإذا أصرّ فيصل على عقد هذه المعاهدة وأمثالها، فلا بيعة له في أعناق العراقيين».**

فصدّق الحاضرون على كلامه وصادقوا على نقض بيعته.

وجرى في تاسع ذي الحجة [١٣٤٠هـ] في كربلاء مثل هذا الإجتماع، وفي النجف في ١٨ منه تحت رئاسة السيد أبي الحسن مثله، وبلّغوه فيصلاً بواسطة حاكم كربلاء.

ووردت من جميع أنحاء العراق برقيات بهذا المضمون:

«رئيس الوزراء:

نحن لايمكننا قبول المعاهدة التي هي الآن في مجلس الوزراء، وكل معاهدة تعقد بعدها، مالم تجل الجيوش البريطانية عن العراق جلاءً كاملاً، وسنقاوم بجميع قوانا كل ماهو من هذا القبيل».

وأجرى الحزب الوطني مظاهرة كبرى في ١٦ ذي الحجة في بغداد احتج فيها على المعاهدة، وكان شعار المتظاهرين:

«لتسقط قيمومة الإنجليز والمعاهدة، وليحيى العراق المستقل الحر».

وقدم بذلك مذكرة الى «المندوب السامي» وفيصل بنسختين، وإليك مضمونها:

«نحن أعضاء الحزب الوطني، والمنتسبين إليه، قد عقدنا اجتماعاً وأجرينا مظاهرة في ١٦ ذي الحجة احتججنا فيها على مخالفة الإنجليز لاستقلالنا، وعدم جلاء جيشهم، وإبقاء المستشارين في الدوائر الرسمية الى الآن. ونطلب بجميع جهودنا جلاء جيشهم فوراً، والمصادقة على استقلالنا، وعدم المداخلة بوجه من الوجوه في شؤون العراق الداخلية والخارجية».

وحملت الجرائد بلهجة شديدة على المعاهدة وأخذت بشرحها ونقدها أياماً متوالية.

ووردت من القبائل بعد ذلك برقية الى فيصل تنذره بقطع الصلات والروابط بينها وبين وزارة العراق المجدّة في إمضاء المعاهدة ما دامت مصرّة على ذلك. وهذا ملخصها:

«جلالة الملك فيصل دامت سلطنته.

نحن عموم قبائل العراق قد قطعنا روابطنا مع الوزارة الحالية، ولسنا

نمتثل أوامرها بعد ذلك، ولا نؤدي الضرائب المالية حتى تجري المواد الآتية:

١ـ إعلان الغاء المعاهدة رسمًا.

٢ـ تصديق الإنجليز باستقلال العراق، وجلاء جيشهم، وكفّ وزارة المستعمرات الإنجليزية عن المداخلة في شؤون العراق. وإذا رغب الإنجليز في إيجاد روابط وديّة مع العراق فليكن ذلك بوسيلة وزارة الخارجية.

٣ـ إعلان حرية المطبوعات».

وكان الإنجليز قد أجروا من الضغط على المطبوعات ما لايوصف! ولم يزل الهياج يشتد في العراق ضد المعاهدة، والإحتجاجات تتوالى، والأنظار متوجهة الى آية الله، والقلوب منقادة إليه، ينتظر الناس أوامره. وهو يشدد النكير من حين لآخر على فيصل لارتكابه ذلك الأمر الشنيع، ونقضه العهود الوثيقة. وكل ما استعمله فيصل؛ من المكر والخداع لإرضاء الخالصي لم يزدد إلا غضباً.

فهناك يئس الإنجليز من إقناع آية الله، ورأوا أن يستعملوا أشدّ أنواع الخشونة لإرهابه عسى أن يكفّ عن مقاومتهم، وما علموا أن الليث يَضرى إذا خُدش.

فأمروا وزراة العراق فاستقالت، ثم أمروا فيصلاً فتمارض ولزم فراشه وأظهر أنه على شُرف الموت، وكنتُ أحس من وراء ذلك الشر، وأعتقد أن فيصلاً مريض الدين، والوجدان، والحمية، لا مريض البدن. إلا أن رفقائي من أهل بغداد لم يكونوا يعتقدون ما أعتقد، حتى أن أحدهم أرسل اليّ من بغداد أن أعود فيصلاً.

فقلتُ: إنه متمارض لا مريض، وما كاد يصله رسولي حتى قُبض عليه وأودع السجن. فصدّق كلامي، ولكن بعد خراب البصرة.

وبعد ذلك قبضت السلطة الإنجليزية على أزمّة الأمور في العراق، وصاروا يُجرون ضروب القسوة في البلاد، فأعلنوا غلق الحزب الوطني وقبضوا على أعضاء هيئته المركزية، ونفوهم مع كثير من العلماء والزعماء والرؤساء الى هنجام واعلنوا تعطيل

جميع الجرائد الوطنية وقبضوا على أربابها ونفوهم.

وعهدوا الى إرهاب آية الله، فأرسلوا إخطاراً بإمضاء «السر برسي كوكس» يصرح فيه أن لا أبقى في العراق أكثر من أربع وعشرين ساعة، وإلا فالسلطة العسكرية تجري ما لا يستطيع ردّه.

وحين علمتُ بذلك كبر عليّ مفارقة والدي في ذلك الموقف الحرج، واخترتُ البقاء في العراق ولو جرّ الى الحرب على مفارقته.

ولكنه أمرني أن أمضي الى إيران حقناً للدماء من جهة، ومن جهة أُخرى كان يظن أني أستطيع أن أخدم العراق في إيران خدمات لا تتيسر في العراق. فامتثلت أمره ومضيت الى إيران لخدمة القضية العراقية.

وسيأتي ملخص ماجرى لي في إيران من الأعمال كما كتبتُه له من محبس «خواف».

نفتني السلطة الإنجليزية، وكانت تظن أنه قطعت ساعد والدي بذلك، ونقضت قوادمه التي بها يطير، وسوف لايقاومها بعد ذلك، فتستطيع أن تلقي في عنق العراق ماشاءت من السلاسل والأغلال.

وماعلِمَت أني لم أكن ساعده الذي به يصول، ولا قادمته التي بها يطير، وماكنتُ إلاّ عبداً ممتثلاً لأمره، يلقيني في لهوات المخاطر، فلا أستطيع إلاّ إسراعاً إليها رغبة في رضائه عني، وكانت شيمتي الى الإحجام أقرب منها الى الإقدام، ولكن حبّ امتثال أمر أبي فوق ذلك كله فكانوا يحسبونني مقداماً.

أبعدتني السلطة المشؤومة [١] في الرابع من محرم ١٣٤١ إرهاباً لأبي، ولكن مازاده

---

(١) وأرسلت السيد محمد الصدر الآنف الذكر معه جاسوساً عليه ولغايات أُخر أراد بها الإنجليز التمويه على أهل العراق من الوطنيين ليقرّب إليهم السيد محمد بنفيه وصبغه بصبغة وطنيّة فيقنعهم بمقاصد الإنجليز وأعماله السيئة ويحملوا نصائحه إليهم على الشفقة والإرشاد الى الحقيقة والخدمات الصحيحة، وهي في الحقيقة إهلاكهم والوصول الى مانيويه الإنجليز.

ولاجل ذلك أرجعوه وقرّبوه ثم عيّنوه عضو مجلس الأعيان؛ حيث كان كرسي الرئاسة مشغولاً بيوسف السويدي، فلما مات أجلسوه مكانه. وحضرة العلامة المؤلف محكوم عليه بالنفي حتى الآن فانظر الفرق بين الأمرين وقس أعمالهما في الحالين تعرف نتيجة ماذكرناه. (الناسخ)

بُعدي عنه إلا نشاطاً وحماساً وإقداماً على الجدال والنضال عن مجد الإسلام واستقلال العراق.

المجلس التأسيسي

حسِب الإنجليز أن آية الله الخالصي رهبهم وأن ابنه نأى عنه فأخافه نفيه وأنه لايعارضهم ـ فأعلنوا انتخاب أعضاء المجلس التأسيسي للعراق، وكان غرضهم من ذلك تصديق المعاهدة بتوسط ذلك المجلس كما قدمنا، وتقييد العراق بقيود العبودية التي يأباها كل أبيّ حميّ ـ فطلب آية الله الخالصي حرية الإنتخاب، ومن ذا يسمح للعراق به؟.

فجرت حوادث كبرى لمقاومة الإنتخاب، حيث أخذ عمّال الإنجليز يجبرون الناس على انتخاب من يرشحه الإنجليز، وتمسك الناس بحقوقهم، فأخذ ضباط الإنجليز يجرون أنواع الظلم والقسوة لإخضاع الناس على ما يطلبون. وصارت طياراتهم تتجول في العراق، وتلقي قنابلها في كل مكان لم يقدم على انتخاب مرشحي الإنجليز، حتى أنها أُلقيت في «الدغارة» على محفل اجتمع فيه أهلها لإقامة عزاء الحسين عليه السلام ٥٦ قنبلة. وحدثت حروب عظيمة في أنحاء مختلفة من العراق؛ كالرميثة والغراف وغيرهما، وكان آية الله الخالصي يشجع الناس ويأمرهم بالثبات في كتبه ورسله ورسائله، والناس متمسكون بحريّتهم. والإنجليز يأبون للعراق إلا العبودية والخصام بينهم وبين العراقيين بالغ أشدّه. ولما تفاقم الأمر استجار الناس بآية الله وبباقي العلماء، وكتب رؤساء «الغرّاف» إليهم ما يلي ملخصه:

«حضرات حجج الإسلام الشيخ محمد مهدى، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والمرزا حسين النائيني دامت بركاتهم:

ساقتنا الوطنية والدين الى إظهار مطالبنا للحكومة وطلب إجرائها، وحيث امتنعت الحكومة عنه قطعنا روابطنا معها، فقابلنا «مستشار

المنتفك» بطياراتـه، وأمـطرتنا نـاراً حـامية؛ التـهمت الشـيوخ الركّـع، والأطفال الرضّع، ولكن لم تحصل من ذلك للإنجليز أدنى نتيجة. والآن قد تقطعت الطرق والأسلاك البرقية، وقبل يومين أرسلوا من النـاصرية ثلة من الخيّالة تـبلغ الثـمانين الى قـبيلة «الأزيـرج» فـصادفتهم قـبيلة «خفاجة» في طريقهم وأبادتهم كما أبادت قبيلة الأزيرج من كان عندهم. والآن ـ بحمد الله اتحادنا وروابطنا على أحسن مايرام، وبعض البلدان كالناصرية والشطرة معرض لهجومنا ومحاصرتنا، والطيارات لا تزال تتساقط بأيدينا.

فالرجاء أن ترشدونا الطريق وتُعيّنوا لنا مايجب أن نعمله هذه الأيام. التوقيعات».

واحتجّت القبائل على أعمال ضبّاط الإنجليز، وأرسلوا بذلك رسائل الى المندوب السامي وفيصل وأظهروا رغبتهم في السلم مالم يصرّ الإنجليز على غصب حقوقهم فيضطرون الى الحرب.

وفي خلال هذه الإضطرابات أُبلّ [١] فيصل من مرض بدنه، وزاد مرض وجدانه وحيائه، فشكّل وزارة للعراق برئاسة ألأم خلق الله وأبغضهم عليه «عبد المحسن السعدون» أنذل أجلاف العرب[٢]. فأُعلنت المعاهدة، وأصرّت على انتخاب مرشحي

---

(١) أي عوفي.

(٢)شوّه سمعة العرب وسوّد وجوههم في صفحات التاريخ. كان ناصحاً للإنكيز، لم يجد الإنجليز في العراق أنصح منه، ومَن يبيع وجدانه وينبذ دينه ويُردي قومه ويهلك شعبه في نصرة بريطانيا الجائرة القاسية سواه؟ قام له بأمر وأخذه على عاتقه حتى نفّذه، مما لم يكن يتوقع الإنجليز إن ذلك يكون بمقتضى سياسته، ولم يكن يؤمّل إن أحداً يريحه من آية الله بعد تلك الأتعاب وتقلّباته في السياسة والإضطراب.

وقد تكررت وزارته خمس مرّات لم يتخللها إلا بعض أيام لنوع من السياسة، فيرجعه لأن ينفذ له كثيراً من الأمور المهمة لايقوم بها غيره ولم يصدّق عليها أحد كان ماكان سواه. وكانت عاقبة أمره أن جُنّ في حب الإنجليز وضربت به سكرات طربه وصوّب رأسه بمسدسه وقتل نفسه تلك النفس الأمارة بالسوء، وما الله بغافل عمّا يعمل الظالمون.

وكان قد دخل في وزارته عبد الحسين جلبي الحجيجي وخان آية الله وساعد الإنجليز على أعماله وباع ⇐

الإنجليز لعضوية المجلس التأسيسي.

وكان آية الله الخالصي قد يئس من أن يترك للناس حريتهم، وخشي أن ينعقد ذلك المجلس فيعترف للإنجليز بما يشاؤون، ويحسب النائي عن العراق العراقيين راضين بذلك إذا لم يعارض الإنجليز أحد فيه، وربما تكون لمطالب الإنجليز الغاصبين صورة قانونية وإن كانت مشوهة مدلسة.

فلم يجد مناصاً من الحكم بمنع الناس عن الإنتخاب؛ لتبقى صورة الغصب محفوظة الى أن يقيّض الله للعراق يوماً يرغمون فيه أنف الغاصب، فحكم بتحريم الإنتخاب، وتابعه على ذلك جميع العلماء إلاّ من كان إنجليزياً بصورة مسلم فامتنع جميع الناس عن الإنتخاب ولم تجد تلك الوزارة الجاحدة لها وسيله إلا تكذيب ما شاع بين الناس من الحكم بتحريم الإنتخاب فسأل العراقيون هذا السؤال:

بسمه تعالى

حضرات علمائنا الأعلام وحجج الإسلام متّعنا الله بطول بقائهم مدى الأيام.

بلَغَنا أنكم بمقتضى وظيفتكم الدينية ورئاستكم الروحانية حرّمتم على كافة الامّة العراقية المداخلة في هذا الإنتخاب المضرّ بالامّة، وحرّمتم المساعدة فيه بكل وجه، وجعلتم المساعدة عليه محاربة لله ولرسوله. فنسترحم منكم أن تبيّنوا لنا صحة، ذلك حتى نمتثل أوامركم الشريفة التي أمَر الله بامتثالها، أدام الله ظلّكم.

١٥ ربيع الاول ١٣٤١

فكتب آية الله الخالصي في الجواب:

⇐ ناموسه ودينه حباً بالوظيفة لجمع المال، فوعظه آية الله ونصحه فلم ينفع، وقد نُكّس قلبه فطرده وتبرأ منه، فنفره الناس لَما رأوا ذلك من آية الله ومنعوه من الدخول الى الصحن الشريف وصارحوا بكفره ونفاقه وهجوه بالشعر من جميع أنحاء العراق، وهددوه بالقتل فلم يكترث من ذلك، لكنه اضطر الى إيجار داره في الكاظمية وانتقل في القصر، ثم صدّق على نفي آية الله مع رئيسه، ولازال حتى الآن يتسابق الى تصديق مهمات الأمور للإنجليز لتثبيت مركزه.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي...

نعم قد صدر منّا الحكم بتحريم الإنتخاب على كافة الامّة العراقية، فمن دخل أو تداخل أو ساعد فيه فقد حادّ الله ورسوله، وقد قال عزّ من قائل في محكم كتابه المجيد: ﴿أَلَم يَعلَموا أنّه مَن يُحادِدِ اللهَ ورَسولهُ فإنّ لهُ نارَ جهنّمَ خالِداً فيها ذلكَ الخِزي العظيم﴾ أعاذ الله الجميع من ذلك.

١٥ربيع الاول ١٣٤١

الراجي محمد مهدي الكاظمي الخالصي عُفي عنه

وتابعه على ذلك؛ السيد أبو الحسن الأصفهاني، والمرزا حسين النائيني، وأكثر العلماء فكتبوا مثل ما كتب.

وحيث أن الإنجليز كانوا قد منعوا من نشر تلك الفتوى في الجرائد، كتب منها اُلوف من النسخ، واُلصقت في الجدران، والأبواب، في المعابر العمومية والمساجد[١] وتعطّلت الأسواق في أكثر البلدان يوم ٢٥ ربيع الثاني [١٣٤١هـ] واُجريت مظاهرات عظيمة، واشتدّ الخصام بين الإنجليز باسم تلك الوزارة الخائنة، وبين العراقيين، حتى كادت تيأس تلك الوزارة من تنفيذ خطة الإنجليز التي أخذتها.

فتصدت الى إرضاء آية الله الخالصي فجاء أعضاؤها وطلبوا منه أن يأمر برجوعي من إيران، وكأنهم حسبوا أنهم يسترضونه بذلك.

فقال: إن رجع الى العراق فاتحاً فهو إبني، وإلا فلستُ أرضاه لي إبناً. تبعده السلطة الإنجليزية كرها ويعود الى العراق برضائها؟.

لاكان ذلك أبداً حتى يعود وهي كارهة كما أخرجَتْه وهو كاره.

---

(١)وكان أكثرها قد كتبتها وألصقتها بيدي في تلك الأماكن؛ حيث كان الناس يخافون من الإقدام على ذلك العمل وكنتُ كلما الصقتُ نسخة تأتي دائرة الحكومة بنفسها من المركز معها كثير من الشرطة ويمزقونها فأُكرر العمل أمامهم ولايمكنهم أن يمنعوني حتى أعجزتهم فتركوا ذلك على حاله. وكانت تزداد رغبة الناس وشوقهم الى قراءتها واستنساخها من على الجدران والأبواب لمّا يرون ذلك الحال، وكانوا يقصدون ذلك من أماكن قاصية وبلاد بعيدة.(الناسخ)

فلما سمعوا ذلك منه لم يبق عندهم مايسترضونه بـه، لأنـهم كـانوا قـد عـلموا أن «ملايين الجنيهات» لم تؤثر عليه في أدنى الأمور[١] وإن أعظم النكبات وأشد البوائق لم تثن عزمه عن أهون المسائل فكيف بهذا الأمر الخطير يوم وقف فيه العراق بين الموت والحياة. لذلك انصرفوا خائبين خاسرين.

وجدوا في حمل الناس على الإنتخاب بكل مايمكنهم من الترهيب والترغيب فلم يفلحوا، فعادوا الى آية الله، وسألوه عمّا يرضيه في أمر الناس بالإشتراك في الإنتخاب. فقال: إن الناس لا يرضيهم إلا إجراء المواد التالية:

١ـ لغو المعاهدة وإعلان الإنجليز استقلال العراق وحريته.

٢ـ تُصرّح الحكومة العراقية الجـديدة بـعدم إجـراء قـانون التـجنيد الإجباري.

٣ـ إرجاع جميع المبعدين الى أوطانهم وإطلاق سـراح المسـجونين والسماح للصحف الوطنية بالصدور بحرية كاملة.

٤ـ تأسيس وزارة خارجية للعراق.

وعلى أثر ذلك نشرت الهيئة المركزية للأحزاب السرية فـي العـراق بـلاغاً شـديد اللهجة يشتمل على مايقرب من هذه المواد.

وأخذ الإنـجليز بـالشدة والصـرامـة والإسـتئصال والإصـطلام بـاسم تـلك الوزارة الخبيثة في جميع أنحاء العراق لم يَدَعوا مايسمى؛ جرماً أو فاجعة إلا ارتكـبوها، فـلم يزد العراقيين إلا امتناعاً وإباءً وشمماً، حتى أشاعوا إن آية الله الخالصي وجميع العلماء

---

(١) كما اتفق ذلك في أثر تلك القضايا حيث أرسل المندوب السامي له بتوسط معاونه مـحمد حسـين خـان مائة ألف روبيّة أو أكثر وطرحها بين يدي آية الله وقال: إنها هديّة من المندوب السامي لتستعين بها على أمور دنياك.

فازورّ آية الله وغضب وظهر شدّة ذلك على وجهه المبارك وقال: ما أنا والمندوب، أي معرفة جرت بيننا حتى يهدي اليّ المال؟ إرفع هذا المال وأرجعه الى المندوب وقل له نيابة عنّي لتعتقد بريطانيا إن ذلك من المحال أني أُخدع بالمال وأبيع ديني وأخون وطني ولو كان ذلك بملايين من الجنيهات ـ أو قال: من الباونات ـ فلما يئس محمد حسين من قبول آية الله لها رجع بها الى المندوب وبلّغه مقالة آية الله وبيّن له شدّة تأثره من ذلك (الناسخ).

أباحوا للناس الإشتراك بالإنتخاب[1]. وضيّقوا على الناس بالذهاب والإياب، خصوصاً الى العتبات، كي لايكذّب العلماء تلك الإشاعة. إلا أن العراقيين لم ينخدعوا لها بل اتخذوا الوسائل للوصول الى العلماء فألقوا إليهم هذا السؤال:

حضرات علمائنا الأعلام وآيات الله على الأنام دامت بركاتهم.

حكمتُم سابقاً بحرمة الإنتخاب، فهل الحكم باقٍ على ماكان أو ارتفع المانع عن الإشتراك فيه بيّنوا لنا حقيقة الحال؟.

فأجاب السيد أبو الحسن الأصفهانى والميرزا حسين النائيني بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم! قد حكمنا سابقاً بحرمة الإنتخاب ولم يتغير حكمه، ولم يتبدل والأمر كما كان.

١٥ شوال ١٣٤١ – الأحقر أبو الحسن الأصفهاني الموسوي

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم! قد حكمنا سابقاً بحرمة الدخول في أمر الإنتخاب والإعانة فيه بأي وجه كان على كل مسلم مؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا الحكم كما كان لم يتغير موضوعه ولم يتبدل.

١٧ شوال ١٣٤١ – النائيني

وكتب آية الله الخالصي بعد توقيعهما وتوقيع غيرهما:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي...

نعم! ما حكم به حجج الإسلام وآيات الله الملك العلام، ماضٍ نافذ

---

(١)وأذاعوا أيضاً في أثر ذلك إن آية الله الخالصي ترك المداخلة في شؤون العراق واعتزل الأمر وفوّض للعراقيين كلما يصنعون في قبال الإنجليز من الإستقلال التام أو الرضا بانتداب الإنجليز.
فأذاع قدّس سرّه في قبال ذلك منشوراً خاصّاً قرأتُه وكان مضمونه تكذيب تلك الإشاعة وإنها من دسائس الإنجليز، وإنه لم يفتر عن إقداماته ولم تزعزع همّته. يبذل النفس والنفيس وجميع ما يهمّه في مقدرته ووسعه لإنقاذ العراق ومقاومة الإنجليز والطلب باستقلاله التام. (الناسخ)

بل الرّاد عليهم رادّ على الله وهو على حد الشرك بالله.
الراجي محمد مهدي الكاظمي الخالصي عُفي عنه [١]

---

(١) النسخ التي هي عندي من صور الفتاوى بتحريم الانتخابات التي نقلتها عن نسخ الاصل، ومن بعض الاصحاب في الفتوى الثالثة بعد رجوعي من الحج، هي هكذا كما يلي: وكانت الاولى منها من خصوص أهل بغداد ومن حضر من رؤساء القبائل وزعماء العراق في الكاظميّة ؛ استفتوا آية الله خاصّة وكتب بها أخوه الشيخ راضي وسائر علماء الكاظميّة وطلابها. والثانية والثالثة من عموم أهل العراق استفتوا علماء النجف وكربلاء، وخصوص آية الله الخالصي في الكاظميّة:
الاولى:

بسم الله الرحمن الرحيم

مايقول حجج الاسلام دامت بركاتهم في جواز المداخلة في الانتخابات؛ لاجل المجلس التأسيسي، وذلك في ان ينتخب شخصاً، أويقبل اذا انتخبوه لذلك، أويرشّح نفسه، أو غيره لان ينتخب الناس لذلك أو يُعين على الانتخاب بقلم أولسان ؟.

أفتونا مأجورين.

فأرسلها آية الله الى سائر علماء الكاظميّة أولاً ليكتبوا في جواب ذلك، فكتبوا:

بسم الله الرحمن الرحيم

كل مداخلة في الانتخاب المذكور محرّمة على كل أحد لانها مضرّة بالعراق.

حرره الأحقر حسن صدر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم كل مداخلة محرّمة على كل أحد لانها مضرّة بالعراق.

حرره الراجي محمد مهدي صدر الدين عفي عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم كل مداخلة محرّمة على كل أحد لانها مضرّة بالعراق.

حرره عبد الحسين آل يس قدّس سرّه

وكتب غيرهم كالسيد أسد الله حيدر، والسيد مهدي الخراساني، والشيخ مهدي المراياتي، والشيخ محمد أسد الله، وغيرهم بمضمون ما ذكر.
لكن تخاذل هؤلاء بعد نفي آية الله عن تطبيق فتواهم، وتبرأ منها بعضهم حيث اعتراه الخوف وأخذته الدهشة من أعمال الإنجليز (وهو السيد حسن بن سيد هادي صدر الدين، فانه كتب الى فيصل بعد تبعيد آية الله وسائر العلماء الذين الحقوا به في النفي الى ايران ما وصلنا بعض كلماته: الحمد لله الذي طهّر البلاد وأراح العباد من رجال كانوا يسعون في الارض الفساد، وانني بريء مما كانوا يعملون.. الخ. وما كانوا يعملون سوى تحريم الانتخابات كما كتب هو وأصحابه.
ثم كتب أخوه الشيخ راضي رحمه الله بما يلي:

«كل ما وسم في المتن من المنكر يجب على عامّة المسلمين الردع عنه».

⇐

⇒

الراجي عفو ربه ورضاه آل الشيخ عزيز طاب ثراه

ثم كتب هو قدّس سرّه بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم لما كانت الانتخابات مبتنية على أساس مخالف لرغائب الامّة العراقيّة بواسطة السلطة العسكرية والحزب الحرّ الذي أُسس بالقهر والقوّة، وسد الاحزاب الموافقة لرغائب الامّة وتسويق أهلها وتشتيت جمعها وإصابة المتخلف عن حزب الحر بالطيارات؛ حتى قتل بقنابلها الاطفال والعجزة والابرياء من النساء وغير ذلك، مما لو مات المسلم دونه أسفاً لما كان عندي ملوماً بل كان به جديراً، كانت المداخلة في الانتخابات وكل ما يبتني على هذا الاساس المضرّ بمستقبل العراق بل بجميع شؤونه حتى في الحال الحاضر محرّمة شرعاً بإجماع المسلمين، ونحكم بخروجه عن ربقة الاسلام.

ومن الله التوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير.

الراجي محمد مهدي الكاظمي الخالصي عُفي عنه

ثم كتب قدّس سرّه في التصديق على ما حرره العلماء وان ذلك بخطوطهم وامضاءاتهم بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم السواد مطابق لاصله، واللازم على كل من لم يكن خارجاً عن المسلمين العمل بمقتضاه وإلاّ فيكون خارجاً عن ربقة المسلمين، ويجب على كل مسلم أن يمنعه عن الدفن في مقابر المسلمين، وفي وادي السلام عند أمير المؤمنين عليه السلام وحشره الله مع الظالمين.

الراجي محمد مهدي الكاظمي

الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات علمائنا الاعلام وحجج الاسلام متّعنا الله تعالى بظلهم مدى الايام.

بلغنا أنكم بمقتضى وظيفتكم الدينيّة ورياستكم الروحانيّة حرّمتم على كافّة الامّة العراقيّة المداخلة في هذا الانتخاب، وحرّمتم المساعدة فيه بكل وجه، وجعلتم المساعدة فيه محاربة لله ورسوله. فنسترحمكم أن تبينوا صحة ذلك حتى نمتثل أوامركم التي أمر الله بامتثالها. أدام الله تعالى ظلّكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم قد صدر منّا الحكم بتحريم الانتخاب على كافّة الامّة العراقية، فمن دخل أو تداخل أوساعد فيه فقد حادّ الله ورسوله. قال عزّ من قائل في محكم كتابه المجيد: (أَلَم يعلموا أَنّه مَنْ يُحادِدِ اللهَ ورسولَه فإنّ له نارَ جهنّمَ خالداً فِيها ذلكَ الخِزيُ العظيم) أعاذ الله الجميع عن ذلك.

الراجي محمد مهدي الكاظمي الخالصي الخراساني

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم قد صدر منّا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر على كل بادٍ وحاضِر، فمن دخل فيه أوساعد عليه فهو كمن حارب الله ورسوله وأولياءه صلوات الله عليهم أجمعين.

الاحقر أبو الحسن الموسوي الاصفهاني

⇐

⇐

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم حكمنا بحرمة الانتخاب، وحرمة الدخول فيه على كافّة الامّة العراقية، وان من دخل في هذا الامر أوساعد عليه أدنى مساعدة فقد حادّ الله ورسوله والائمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، أعاذ الله الجميع عن ذلك.

الاحقر محمد حسين الغروي النائيني

ثم ان آية الله شهد بصحة تلك الخطوط والامضاءات والخواتيم بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم هذا السواد مطابق لاصله بامضاءاته وخواتيمه.

الراجي محمد مهدي الكاظمي الخالصي الخراساني

ثم جاءت نسخة من هذه الصورة كتب فيها السيد عبد الحسين الحجّة والسيد حسن الحجّة من علماء كربلاء مايلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم ان انتخاب المؤتمر العراقي في هذه الايام حرام شرعاً على الامّة العراقية، فمن تداخل فيه، أوساعد عليه. فهو كمن حارب وليّ العصر عجّل الله تعالى فَرَجَه. أعاذنا الله وجميع اخواننا المؤمنين من ذلك.

الجاني عبد الحسين الطباطبائي

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم ان انتخاب المؤتمر العراقي في هذه الايام للامّة العراقيّة حرام شرعاً. فمن تداخل فيه، أوساعد عليه أقل مساعدة، فهو كمن حارب امام عصره عجّل الله تعالى فرَجَه. أعاذنا الله وجميع أخواننا المؤمنين من ذلك.

الجاني حسن الطباطبائي

الثالثة:

بسم الله الرحمن الرحيم

حجج الاسلام وآيات الله في الأنام أدام الله بكم عزّ الدين وحماية الشريعة.

هل يجوز المداخلة ببعض الوجوه في انتخاب المجلس التأسيسي العراقي، أو لاتجوز لكل واحد من العراقيين بوجه من الوجوه؟ أفتونا أدام الله ظلّكم على العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّا قد حكمنا سابقاً بحرمة الدخول في الانتخاب، ولم يتغيّر الحكم ولم يتبدل، والامر كما كان.

١٥ شوّال ١٣٤١ – *الاحقر أبو الحسن الاصفهاني الموسوي*

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم قد حكمنا سابقاً بحرمة الدخول في أمر الانتخاب والاعانة فيه بأي وجه كان على كل مسلم مؤمن بالله واليوم الآخر. وهذا الحكم كما كان لم يتغيّر موضوعه ولم يتبدل.

١٧ شوّال ١٣٤١ – *الاحقر محمد حسين الغروي النائيني*

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم لاتجوز المداخلة فيه والاعانة عليه في هذا الحال بأي نحو كان، ومن أقدم على شئ من ذلك فقد برئت منه ذمّة

⇐

فلما صدر هذا التوقيع كُتب منه «ألف» من النسخ وأُرسلت الى جميع البلدان وأُلصق في الأبواب والجدران فى المساجد والمعابد.

واشتدّ الخلاف بين أهل البلاد وبين الإنجليز وعمّالهم، وبلغ السيل الزُبىٰ، وتجاوز الحدّ ولم ير الإنجليز وسيلة لإرضاء الناس بالعبودية وقسرهم على قبول الرِقّيّة. وكان موقف فيصل في جميع تلك الإختلافات موقفاً عجيباً! كان مثالاً للرذيلة والبعد عن الفضيلة، والعراء عن الإباء والشمم والدين والوجدان، كان لا يهمه في كل تلك المواقف، إلا إظهار أهميته للإنجليز وقدرته على إخضاع العراقيين لهم، وإفهام الإنجليز بوسائل عملية أنهم محتاجون إليه في قهر العراق وتسخيره، فكان يخلو بنا ويحثنا على التظاهر برفض الحماية والوصاية والعداء للإنجليز، حتى إذا تظاهرنا بذلك ـ لا اغتراراً بقوله بل بسائق طبيعي من أنفسنا يخاله هو اغتراراً، ولقد كان في

⇐ *الاسلام، وعرّض نفسه لسخط الله الملك المنتقم الجبّار عظم سلطانه، نعوذ بالله من ذلك.*

١٨ شوّال ١٣٤١ – *الاحقر علي الشيرازي الحسيني*

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم حكم التحريم باقٍ لم يتغيّر ولم يتبدّل.

الاحقر حسن صدر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم الحكم في أمر الانتخاب كما كان لم يتغيّر ولم يتبدّل.

عبد الحسين آل يس قدّس سرّه

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم (فمَن بدّلهُ بَعدما سَمِعهُ فإنّما إثمُه على الذينَ يُبدّلونه).

محمد مهدي الصدر

ثم كتب عمّنا الشيخ راضي، والسيد ابراهيم الاعرجي وأفراد أُخر بمضمون ما ذُكر. ثم كتب آية الله مفتياً وحاكماً وشاهداً على خطوط وامضاءات ماتقدم فيمايلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم ما حكم به حجج الاسلام وآيات الله العلاّم ماضٍ نافذ، بل الرادّ عليهم رادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله.

الراجي محمد مهدي الخالصي الكاظمي عُفي عنه

ثم اتفق معهم المرزا علي الشهرستاني عالم كربلاء المشهور، ولم يكتُب، فنُفي مع من نفي الى ايران، وأنف الرجوع مع من رجع الى العراق حتى مات في كرمانشاه رحمه الله (الناسخ).

العراق ولم يكن فيصل فيه ـ عاد الى الإنجليز فأفهمهم أنه قادر على تسكين فورة مخالفيهم إذا توسلوا به، فإذا توسلوا به يرجع فيوصينا بالسكوت موقتاً، يقول: أُسكتوا موقتاً لمصلحة الوطن. فيرجع الى الإنجليز بظفر ونجاح يوكد فيهما حسن خدمته لهم من جهة، ويعرفهم احتياجهم إليه من جهة أُخرى.

أجرى هذا العمل مراراً وكلّف العراقيين فيه صعوبات عظيمة جرّت الى بوائق وحوادث كبرى، وكوارث لا تطاق، فلم تؤثر على عاطفته الشريرة القسية، بل يزداد بذلك فرحاً وسروراً؛ حيث يزيد رضاء ساداته الإنجليز عنه. وإن رُمّلت في سبيل ذلك من المسلمات نساء، وأُيتم من المسلمين أطفال، وخربت ديار.

طالما خلا بي لهذا الغرض فاقرأ في ناصيته سوء نيته وغرضه، فأعود الى سيدي ومولاي آية الله وأُخبره بذلك، فيقول: أنا أعلم إن غرضه فاسد رديء لكنا نستفيد منه في إثارة العراق، وحمله على مخالفة الإنجليز، ولا نوافقه متى أراد إخضاعه، فنستفيد فائدتين؛ شدّة تمسّك العراقيين بحقوقهم في إثارتهم وإعلام الإنجليز بعدم أهميّة فيصل في عدم موافقته على إخضاعهم.

وكان فيصل يتجسس بطرق مختلفة للإنجليز، ويأتي بزي وطني صادق ليطّلع على ما بيننا وبين «الكماليين» من الروابط التي كان يظن وجودها.

ولقد اقترح يوماً عقد معاهدة سرية بين العراق والكماليين فاملى عليّ موادّها، وكتبها ولما تمّت وأردت أخذها معي الى الكاظميّة لأعرضها على والدي؛ أظهر فيصل إنه يخشى من حملي لها أن يظفر بها الإنجليز الذين يراقبونني في جميع أحوالي، فأخذها مني وأرسلها مع أمين له بعد انصرافي منه. وكان غرضه أن يطّلع بهذه الوسيلة على ما بيننا وبين الكماليين لو كان ثمة شيئ، فلما جاءت صورة المعاهدة السرّية على ما يزعم فيصل، قال والدي: أرجو أن يكون صادقاً.

فقلتُ: ما أخّرها عنده إلا ليطّلع الإنجليز عليها لتكون عندنا بعد علمهم.

فقال: إن كان كذلك فتكليفنا الشرعي يقضي بعدم إظهاره والتظاهر له بالقبول مع التحاشي عن إطلاعه على ما يُخشى عليه منه.

ولم تكن تمويهاته مقتصرة في العراق، بل في كل مكان يحتمل إمكان كشف مخبأ فيه لساداته الإنجليز.

فإنى لما كنت في طهران أرسل لي رجلاً من أذناب العرب وهو «سيد قاطع» ـ اشترى دينه فيصل بثمن بخس ومعه كتاب بخط فيصل يعتمده فيه، وطلب أن يلاقي سفيرا؛ تركيا وروسيا ليطّلع على مابيننا وبينهما.

ولما كنت أعلم كذب فيصل وتدليسه وسوء نيته، لم أقبل رسوله وطردته، فعاد الى العراق وكان من المحرّضين على قتل والدي فيه.

وحين يئس الإنجليز من إقناع آية الله، دسّوا إليه السُّم فشعر به الخالصي قبل أن يتناول جميع ما دسّ له، وأسرع الأطباء فى معالجته فأُبِلّ، وبعد ذلك أصر فيصل على المعاهدة، فتظاهر آية الله قدّس سرّه بفكّ أعناق العراقيين من بيعة فيصل، فأراد خدعه لتأخير خلعه، فكتب كتباً عديدة يتضمن كثير منها ترتيب قيام عام في وجه الإنجليز، وحرب شاملة للعراق بأسره، بتفصيل يحسب من لا خبرة له بأخلاقه الرذيلة وتدليسه إنه صادق في قوله، ولما عزم على إطاعة الإنجليز في أن يكون تبعيد آية الله مستنداً إليه أرسل الى آية الله يطلب منه تلك الكتب وكان قدّس سرّه عالماً بما نوى الإنجليز وفيصل، ولكن فتوّته وأمانته أبت أن يُظهر ماكتبه له ذلك الخائن اللئيم الخبيث الزنيم، فردّ تلك الكتب إليه في يومٍ كان يعلم أن تبعيده سيكون ليلتة على يد فيصل.

القبض على آية الله الخالصي بعد نفي أولاده

لما اشتد النزاع بين آية الله وبين الإنجليز وفيصلهم ويئسوا من إقناعه قدّس سرّه وإرهابه، عزموا على نفيه من العراق، فجاءت ثلة من الجند ورجال الدرك تحت قيادة الضبّاط الإنجليز ومنعوا من نشر فتوى تحريم الإنتخاب والصاق أوراقها في المعابر، وأنزلوا ما كان عُلّق منها على أبواب الصحن والمساجد، فكتب أولاده نسخاً عديدة وعلّقوها هناك ثانية.

وأخذ الناس يمانعون رجال السلطة من إنزالها فأرسل الإنجليز باسم فيصل بعد أن تظاهر بالخيانة للإسلام والعراق عدة كثيرة من الجند وحاصروا مدرسة آية الله وهو فيها، ثم قبضوا على ولديه(١) وحفيده(٢) وبعض طلاب المدرسة(٣) فأرسلوهم الى بغداد وسجنوهم هناك ثم، أرسلوا الى آية الله مَن يكلّمه في التنازل عن فتواه ليطلقوا أولاده، فلم يزدد إلا تمسكاً بحقه وإصراراً على حكم الله، وقال: إنلم يُطلق سراح المبعدين والمسجونين، ولم تعط الحرية للصحف والأحزاب وجميع الناس في أمر الإنتخاب، فلا أكف عن تحريم الإنتخاب، ومن المستحيل أن أدع العراق يلقى في عنقه طوق العبودية باختياره في هذا الإنتخاب، ولو كلّفني ذلك؛ زهوق نفسي، وهلاك أولادي، فليذهب بهم الإنجليز حيث شاءوا فإن الإنتخاب لايكون مباحاً بذلك بعد أن كان حراماً.

فلما رأوا ذلك منه شددوا الحصار، ومنعوا الناس عن التردد الى المدرسة وداره، فلم يعبأ بذلك، وكان يخرج الى الصلاة وحده ولا يجرؤ أحد على مكالمته إلا حيث يبتعد عن المدرسة، ويأتي الى مصلاه وهو لا يكترث بذلك.

فلما شاهدوا ذلك منه، ترك فيصل بغداد ومضى الىالبصرة، وأرسلوا جميع ما كان في الكاظمية ليلة الثاني عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤١ وعدة سيارات مدرعة، وشددوا الحصار على البلد، وأشغلوا جميع المراكز المهمة، فلما دنت الساعة السادسة من تلك الليلة هجموا على آية الله داره وأخرجوه منها ونفوه من البصرة الى عدن من طريق الهند.

وكانوا قد حاصروا الكاظمية ليلة القبض عليه بحيث لا يستطيع أحد الخروج والولوج، فاتخذ بعض أهلها وسائل للخروج منها وقصدوا كربلاء والنجف، وأعلموا علماءها بفاجعة القبض على آية الله الخالصي فنفر جميع علماء النجف؛ صغيراً وكبيرا

---

(١)الشيخ علي والشيخ حسن.

(٢)علي نقي.

(٣)سلمان القطيفي الصفواني.

وجاءوا الى كربلاء ليتخذ علماء البلاد الثلاثة تدبيراً لحل هذه المعضلة، والإحتجاج على هذا العمل الشنيع.

فلما اجتمع علماء النجف وكربلاء جاءت عدّة كثيرة من الجند الى كربلاء وأشغلوا أكثر مراكزها حتى صحني الحسين والعباس عليهما السلام، ثم قبضوا على جميع المجتهدين هناك ونفوهم من طريق بغداد بحيث لم يمّروا بهم على مدينتها، ولا على الكاظميّة الى ايران. فوردوا الى «كرمنشاه» يوم ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٤١ هجرية[١].

وقامت قيامة العالم الإسلامي بأسره لهذا الحادث، فاضطر الإنجليز الى إطلاق سراح آية الله الخالصي بعد وصوله الى عدن.

وحيث كان ذلك في موسم الحج مضى الى بيت الله الحرام فتشرف بالحج [٢]

---

(١)فلما رأى الإنجليز صدق فيصل وخلوصه معهم وحُسن خدماته لهم مع صاحبه عبد المحسن السعدون في إجراء مالم يمكن إجراؤه على أيديهم أو يد أحد غيرهم، طلبوا من ملكهم أن يُرسل لهما وساماً ليشجعوهما على العمل ويُنشطوهما على إجراء مهماتٍ أُخر ولا يفترا عن عزمهما ولا تأخذهما الدهشة من انقلاب العالم الإسلامي. فمنح فيصلاً هذا الوسام فيما يلي:

«فيصل فارس الصليب الأعظم».

وللسعدون لقب: «سير».

وكان غرضه تحقير فيصل بذلك الوسام إذ هو فيه تمام المناسبة مع أعماله حيث باع دينه، وبذل ناموسه في نصرة الصليب وخدمة نصارى دولة بريطانيا، لكنه لا يشعر بذلك بل فرح هو وصاحبه فرحاً عظيماً وسُرّا به بخيال تقربهما عند الإنجليز وتعظيم شأنهما لديهم، ولم يحسبا إن الإنجليز هو عدو لكل خائن مع دينه ووجدانه، محبٍ لكل ناصح لدينه وناموسه ولو كان مقاوماً لهم شاهراً سيفه في وجوههم. فهُم يحبون آية الله ويقدّرون أعماله من حيث صدقه وذبّه عن دينه ووطنه، يكرهون فيصلاً وأصحابه لخيانتهم مع الدين والوطن، ولو أنهم قضوا مآربهم منهم لخلعوهم كما تخلع النعل الخليقة من الرجل كما فعلوا ذلك مع غيرهم فيما شاهدناه.

(٢)واجتمع في مكة مع الشريف حسين والد فيصل، فأظهر الشريف لآية الله شدة تأثره وغضبه على فيصل في تلك الاعمال ونكثه العهد وخيانته للإسلام. وزعم أنه كتب إليه يقضعه ويلومه على ماصدر منه، وقال: إنه عاصٍ لله ولرسوله، عاقٌ لابيه. ثمّ لامَ آية الله على عدم ضربه فيصلاً وتأديبه، والتوقف عن طرده من العراق قبل أن يستفحل أمره ويستنصر الإنكليز بشؤونه.

وآية الله وكل أحد يعلم إنه كاذب في مدّعاه ويتكلم على خلاف حقيقته استرضاءً وتملقاً لآية الله.

ومن المعلوم إن فيصلاً كان مستشار أبيه وناصره وقائد جنده وعساكره في قبال الدولة العثمانية حينما شقّ عصا المسلمين بالعصيان ومحاربته لها. حتى ذبح فيصل في جدّة من عساكر المسلمين من الأتراك صبراً ⇐

وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله، والأئمة الميامين في المدينة المنورة على مشرّفها أفضل الصلاة والسلام ثم عاد آية الله الى إيران.

وللإطّلاع على ماجرى في إيران يجدر أن أُثبت هنا رسالة كتبتُها له قدس سره وأنا مسجون في «خواف» على حدود الأفغان.

وذلك أني لما قبضت عليّ وزارة رضا خان بإيعاز من الإنجليز وأنا في طهران ونفتني الى «خواف» وسجنتُ هناك. لم يكن لي همّ إلا همّ والدي ولا فكرة إلا فيما يعود إليه. لأني كنت أعلم أنه لم يكن يترقّب من الإيرانيين مثل هذا العمل الفضيع، وأن إيران كان الواجب الانساني يقضي عليها بتدارك ما عمله الإنجليز مع آية الله من الفجائع، وهذا هو الذي كان يترقبه منها آية الله الخالصي وقد أدّت واجبها بعد ورود آية الله إليها كما ستطّلع عليه! ـ فإذا عاضدَت الإنجليز وقبَضَت على ولده ونفته وحبسته، فلا شك أن ذلك يكون أعظم مصيبة تكبدها آية الله في حياته، لأن جميع ماراَه من الإنجليز، لم يكن على خلاف ما يُقدّر، فلم يضره ضرراً روحياً. إلا أن ما أجرته معي وزارة رضاخان فيه من الأضرار الروحية ما كان يُخشى على آية الله منه.

وحيث كنتُ خبيراً بأخلاقه، كان يقلقني وأنا في منفاي في السجن حالة والدي التي كانت تخيلها مخيلتي أمامي في نومي ويقضتي وقيامي وقعودي وفي جميع أحوالي، حتى أنستني نفسي، وكنت لا أحسب لها حساباً. ولا أهتم بما كانوا يجرونه من التضييق في الحبس عليّ.

وكان يُقلقني مع ذلك خشية أن تكون حوادث طهران لم تبلغ والدي كما هي فيظن أني قصّرتُ في سيري، أو لم أهتد الطريق فيغضب علي.

لذلك رأيتُ وأنا في السجن أن أكتب له رسالة تكشف عما جرى لي وله من

⇐ أربعة عشر ألف نفر بعدما صوّبتهم البواخر الحربية بقنابلها وحاصر جميع قوات الأتراك التي كانت في الحجاز وعساكره في «جبل الغائر» ـ ثلاث مراحل عن المدينة المنورة ـ حتى أبادهم جوعاً وعطشاً. وقد شاهدتُ مواقعهم فيه، وحدّثني بعض أعراب الحجاز عن تفصيل تلك الحادثة وكذلك الشريف نفسه حدّثنا بتفصيل ذلك والغاية في حربه ووثوبه على الأتراك، وقد أطال في حديثه ما يقرب ساعة وكان الفرح والسرور والطرب بادٍ على وجهه المشؤوم لانتصاره على الأتراك.(الناسخ)

الحوادث في إيران الى أن حُبستُ في «خواف»، ليعلم أني لم أُنازع وزارة إيرانية، ولم تخرجني من طهران دولة إيران وإنما نازعت الإنجليز في إيران حذراً من أن تؤثر دسائسهم في إبادة هذه الدولة الإسلاميّة كما أبادوا غيرها، ولم يخرجني من طهران إلا الإنجليز، أجروا على يد رضاخان ماكانوا أجروه على يد فيصل من قبل، إلا أن الثاني أظهر من الأول، كما أني لم تكن لي غاية إلا صلاح العراق وإيران وتخليصهما من دسائس المستعمرين الظالمين واستبدادهم.

وقد لاقيتُ في كتابة هذه الرسالة وإرسالها صعوبات كان يصعب تذليلها، وعقوبات كان يشقّ اقتحامها، لأني كنتُ ممنوعاً عن كتابة كل شيء وعن ملاقاة كل احد.

فتحملتُ مصائب في كتابة هذه الرسالة وإرسالها. ولولا عشق إفهام والدي لما قدرتُ على تذليل تلك الصعوبات؛ وإليك تلك الرسالة بنصها:

الفصل السادس

خلاصة ما لاقيتُهُ في إيران

غرّة ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ

من سجن خواف على حدود بلاد الأفغان
الى المشهد الرضوي عاصمة خراسان.

خلاصة ما لاقيته في إيران

أقدّم ذلك الى والدي «روحي فداه» وأرجو ترجمته الى الفارسيّة وطبعه.
محمد الخالصي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين..والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

اللهم! كما جعلتني مورد سخط الظالمين والكافرين، اللهم! فاجعلني مظهر رحمتك ورضاك ياأرحم الراحمين.

وبعد..

فإني أُقدّم هذه الوريقات بين يدي والدي «روحي فداه» ليطّلع على نتيجة أعمالي في إيران، وما لقيته فيها من عمّال الإنجليز، وأعداء الإسلام الذين تلبّسوا بلباس الإيرانيين.

وأرجو أن ينتفع بها كل من يهمه خدمة الإسلام وإيران، وألتمس من كل مسلم أن ينقلها إلى اللغة الفارسيّة ليكون نفعها أعم، وفائدتها أتم، ومن الله التوفيق، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وردّت أرض إيران؛ في اليوم السادس من المحرّم سنة ١٣٤١هـ وأنا أتّقد غيضاً على

الإنجليز الذين غصبوا بلادي، وأبعدوني عنها قهراً.

فنزلت «قصر شيرين» ـ وهو أول بلاد إيران من جهة العراق ـ ضيفاً على «اللاري» أحد تجّار تلك البلدة، ولم أمكث سوى ليلة واحدة، وفي صبيحتها ركبت سيّارة الى «كرمنشاه» وأنا مبتهج؛ لظنّي أني سوف أستطيع القيام بواجب العراق في إيران، وأني سأؤثّر على مركز الإنجليز في العراق. فدخلت «كرمنشاه» دون أن يشعر بي أحد، ونزلت ضيفاً على «عبد الحميد پوستفروش» أحد تجّارها، وأوصيته أن لايُشعر أحداً بورودي حتى آذن له.

رسالة الى وزارة الخارجية الايرانية

فكتبت برقيّة الى المرزا «محمد رضا» نجل المرحوم «آية الله الشيرازي» في طهران؛ لأنه رفيقي الوحيد فيها. وحاصل البرقيّة:

«إني أُبعدت من العراق، وإن الناس فيه على قدم وساق، وإن مظالم الإنجليز؛ أهلكت الحرث والنسل. فحياة العراقيين في خطر، ويوشك أن ينفوا جميع العلماء من العراق».

فأثّرت هذه البرقيّة تأثيراً عظيماً، وتناقلتها «اللاسلكيّة» الروسيّة؛ فانعكست الى طهران؛ فهاجت لها البلاد الإيرانيّة، وبلاد «القفقاس» و«التركستان» وعُقدت المحافل العديدة؛ احتجاجاً على الإنجليز في أكثر البلدان. إلا بعض الناس كانوا لحسن ظنّهم بالإنجليز؛ يتصورون أن البرقيّة شيئاً من المبالغة، إذ يستحيل فيما كانوا يظنون أن ينفي الإنجليز علماء العراق. ولكن حادثة ذي القعدة ١٣٤١هـ صدّقت البرقيّة وكذّبت حسن ظنّهم، وستأتيك مفصّلة.

وكتبت كتاباً في طهران الى ثلاثة نفر كانت لي معهم سابقة، وكنت أظنّهم يهتمّون بأُمور المسلمين، وهم: «المرزا طاهر التناكابوني» و «السيد محمد رضا المساوات» و «سليمان مرزا» وكان هؤلاء الثلاثة مندوبين في المجلس النيابي الإيراني. فخطب بعضهم في مجلس الأمّة، واحتج على هذه الواقعة، وأبدى جميع المبعوثين نفرتهم

من الإنجليز لهذه المظالم.

وكتبت كتاباً مفصّلاً في «كرمنشاه» الى وزارة الخارجيّة، وأرسلت نسخة منه الى وزارة الحرب؛ وهو خلاصة مااطّلعت عليه من نوايا الإنجليز في «اروميه» و«آذربيجان» ونتيجة مااستفدته من سفري الى «كركوك» و «أربيل» و «الموصل» أيام الحرب العامّة، ومن الأوراق الرسميّة الإنجليزيّة التي وقعت بيدي في كثير من الوقائع. ومجمل ذلك الكتاب هو: أن الإنجليز أبادوا أهل «اروميه» و «سلماس» في الحرب العامّة؛ فقُتل من قُتل، وفرَّ من فرَّ، ولم يبق فيها إلا الآشوريون. وبعد هجوم القوى التركيّة فرَّ أُولئك الى العراق، والإنجليز اليوم يُمرنون الآشوريين في العراق ويُدربونهم التدريب العسكري، ويُجهّزونهم بأنواع القوى الحربيّة؛ وعزمهم على سوقهم الى «اروميه» ليؤسسوا هناك مملكة آشوريّة قاعدتها «اروميه» وتضم إليها شطراً من «آذربيجان» و «كردستان» و «بلاد الترك» و «الموصل» وقد ادّخروا لذلك مالاً كثيراً، وكنزوا عند انسحابهم من «اروميه» فراراً من الترك؛ مالاً كثيراً (عيّنت موقعه في الكتاب) وصدر قرارهم في هذه الأيام أن يمضي مندوبوهم برخصة من الحكومة الإيرانيّة إلى «اروميه» فيستخرجوا ذلك المال، ويشتروا أملاك المسلمين في «اروميه» بثمن بخس؛ لأن مالكيها قد استأصلتهم فجايع الإنجليز في «اروميه» وقد خربت أملاكهم وهم لايستطيعون عمرانها. فهم مضطرون الى بيعها بأبخس ثمن. فإذا مضى مندوبو الآشوريين؛ يستطيعون أن يشتروا جميع أملاك المسلمين بما ادّخروه من المال حتى تصبح «اروميه» ونواحيها ملكاً طلقاً للآشوريين، ولايبقى للمسلمين فيها عين ولا أثر.

فالمأمول من الحكومة الإيرانيّة أن لاتسمح بذهاب مندوبي الأرمن الى «اروميه» لأنهم اُناس جرّدوا السلاح في وجه الحكومة الإيرانية، وقتلوا عشرات الأُلوف من الإيرانيين، وتطوّعوا في الجنديّة الإنجليزيّة. وهذه الأعمال تحرمهم من حقّ التوطن في البلاد الإيرانية، وتسلبهم جميع حقوق المدنيّة؛ طبقاً للقوانين العامّة، ولحقوق مابين الملل. وبذلك أصبحت أملاكهم وأموالهم ملك الدولة الإيرانيّة؛ طبق تلك

القوانين. فلتستخرج كنوزهم ولتملكها الدولة.

والأمل أن تهتم الحكومة؛ بإعادة المسلمين الى أملاكهم، وتعميرها؛ ولو بأن تعقد لذلك قرضاً أهليّاً؛ كي تبقى «آذربيجان» للمسلمين، ويُقضى على آمال الإنجليز؛ التي يُريد الوصول إليها باسم «الآشوريين». وأسأل الله التوفيق لكم، ولجميع المسلمين، والسلام.

هذا خلاصة الكتاب، ولم يؤثر أدنى تأثير؛ إذ أن الحكومة أجازت (ولعل ذلك بدسائس الإنجليز) «للآشوريين» التوطن في بلاد إيران، ولمندوبيهم الذهاب الى «اروميه» متمتعين بجميع الحقوق التي يتمتع بها الإيرانيين، بل لهم بعض الإمتيازات التي لاينالها الإيرانيون أنفسهم. ولاندري ماذا ستكون عاقبتهم مع خمول الإيرانيين، وتنبههم واليد الأجنبيّة معهم؟. جعل الله يده مع الإيرانيين، وأصلح شأنهم.

ولما وردت الى «كرمنشاه» كنت أظن أني أستطيع أن أستنجد «بروسية» «وتركية» في استخلاص العراق من الإنجليز؛ بواسطة الدولة الإيرانيّة. وزاد ذلك رسوخاً في نفسي ماكان يأتي الى «كرمنشاه» من أخبار النصر الباهر الذي أحرزه «كمال باشا» على «اليونان» وتطهير «الأناظول» من لوثهم. فأبرقت برقيّة الى «مصطفى كمال باشا» شرحت له فيها حال العراق، وأعلمته استعداد العراقيين للدفاع عن بلادهم وتطهيرها من الإنجليز، واستنجدته؛ بصفتي مندوباً عن جميع العراقيين. ولم يكن للكماليين إذ ذاك ممثل في «كرمنشاه» حتى أُفاوضه.

اللقاء بممثل روسيا في كرمانشاه

أما «روسية» فقد كان لها في «كرمنشاه» ممثل يدعى: «پرلين» فاجتمعت به ليلة الى الصباح؛ شرحت له فيها جميع مطالب العراقيين، فأوعد أنه يحمل حكومته على إجابة العراقيين الى جميع مطالبهم. وكتب كل ماقلته له، وقرَّ القرار على أن أتناول جواب الحكومة الروسيّة بتوسط سفيرها في طهران.

وبعد ذلك أذنتُ «ليوستفروش» أن يُخبر بورودي الى «كرمنشاه».

ونشرتُ في جريدتي «بيستون» و «صباح» منشوراً كشفت فيه حال العراق وما يجريه الإنجليز فيه من المظالم «الجزويتيّة» والإعتسافات «الجنكيزيّة». فهاج الناس لذلك، وانثالوا لملاقاتي؛ إذ علموا بورودي، فأقبل العلماء والحكّام والأُمراء، وجميع طبقات الناس، والأحزاب السياسيّة؛ وكلهم يُظهرون النفرة الشديدة من الإنجليز وأعمالهم. وأخذ الوعّاظ يمزجون؛ بمراثي «سيد الشهداء عليه السلام» مراثي العراقيين، ويُضيفون الى مظالم «يزيد» مظالم الإنجليز؛ حيث صادفت هذه الواقعة محرّم الذي تغص فيه المجامع الإيرانيّة، وتكثر فيه المحافل الحسينيّة في إيران.

وهناك وردت برقيّات الترحيب؛ من علماء طهران، ومن رئيس الوزارة الإيرانيّة «قوام السلطنة». ومكثت عدّة أيام في «كرمنشاه» أتبادل الزيارة مع علمائها وأهلها ومأموريها. وقد انتقدت عليهم؛ قلّة اهتمامهم بالمسائل الإسلاميّة، وقناعتهم من الوظائف العلميّة؛ بالإسم والعمامة، إلا من شذّ منهم.

التوجه نحو طهران

وبعد ذلك ركبت سيّارتي الى «همدان» ولم يُمكنني أن أدخل تلك المدينة مختفياً؛ لأن أهالي «كرمنشاه» أخبروا أهل «همدان» بحركتي؛ بآلة الصوت «تلفون».

فلما وصلت على مسيرة فرسخين؛ منها رأيت أصناف الناس وقد خرجوا للإستقبال. فتوقفت قليلاً ثم قصدت المدينة، حتى وردت قريباً منها؛ وإذا بعلمائها يمشون على الأرجل، فترجّلت وانضممت إليهم، وكثر الزحام، وقرّبت القرابين؛ حتى وردتُ دار «ثقة الإسلام» أحد علمائها. وكان أهل المدينة قد أعدّوا تلك الدار لضيافتي. فنزلت هناك على نفقة الأهلين.

وازدحم الناس لزيارتي؛ حتى لم يبق في المدينة شخص إلا زرته، حتى الملل الخارجة. ولم يمكنّي إعادة الزيارة عليهم لضيق الوقت وكثرتهم. فمضيت الى هيئة نقابة الأصناف. وهناك اجتمع الناس؛ وتُليت خطب الترحيب. وخطبت أنا خطابة طويلة؛ شرحت فيها حال العراق، وما ينويه الإنجليز من الشر للبشر عامّة وللعراق

وإيران خاصّة، ومايجب على المسلمين أن يعملوه أزاء منويّات الإنجليز من الجدّ في إنقاذ بلادهم، ونبذ الجهل والخمول والكسل، وتوثيق عُـرى الإتـحاد والإخـاء بـينهم. فشاهدت من الجميع حالة حماس وتأهب للقيام بكل مايجب. فشكرتهم وانصرفت الى محل إقامتي.

وقد شاهدت من جميع أهل «همدان» نفرة شديدة من بعض علمائها؛ حيث أنهم لم يقوموا بالواجب الديني تجاه ماحلّ بـالبلاد الإسـلاميّة، والديـن الإسـلامي مـن جـور أعدائه. وزاد الطين بلّة؛ تموّل أولئك العلماء حتى أصبحت بيدهم رقبة الأرض والعقار والديار. وهذا مما يُنافي المسلك الروحاني طبعاً والتعاليم الدينيّة.

وفي اليوم الثالث من ورودي؛ طُلِبْتُ الى دائرة البرق، فمضيت إليها، وإذا بفريق من علماء طهران في إدارة برقها قد حضروا للمخابرة. وبـعد التـرحـيب بـورودي؛ طـلبوا سرعة الحركة إلى طهران، فأجبتهم إلى ذلك. وتـحركت صـبيحة اليـوم الآخـر؛ إلا أن السيّارة أُعيبت في الطريق، فاضطررت الى المبيت في قرية بين «قزوين» و «همدان». وكان أهل «قزوين» ينتظرون ذلك اليوم، فلما جنَّ الليل وهم في الإنتظار؛ أرسلوا سيّارة لتستخبر حالنا، فجاءتنا صباحاً فركبناها تاركين سيارتنا. ولما صار وقت الزوال وردنا قريباً من «قزوين» على مسافة فرسخين، وإذا بفريق من العلماء قد أعدّوا وسائل الراحة هناك، مع بعض أهل البلد. مكثنا قليلاً ثم انتقلنا الى المدينة؛ وإذا بالناس يهرعون حتى وردنا خيمة ضربها العلماء خارج المدينة، واجتمعوا فيها للإسـتقبال. وحـين وردتـها نهض «السيد حسين» أحد علمائها؛ فخطب خطابة الترحيب، وأجبته بـخطبة طـويلة؛ بيّنت فيها فجايع الإنجليز، وسبب تبعيدنا عن العراق. فتهايج الناس، وذرفت دموعهم، وعلا الصراخ من جميع الطبقات. ثم انتقلنا مع العلماء الى دار «السيد حسين» وقُرّبت القرابين، وجاء جميع أهل البلدة؛ رئيساً ومرؤوساً، وحاكماً ومحكوماً، فزرتُ الجميع هناك.

وكان ذلك اليوم هو مـوعد ورودي إلى طـهران؛ إلا أن السـيّارة لم تسـمح بـذلك. فأعلمونا بآلة الصوت؛ أن الناس خرجوا جميعاً إلى الإستقبال، وأتى كثير إلى «شاه عبد

العظيم» وأجروا مظاهرة كبرى من هناك الى طهران؛ اشترك فيها جميع أهالي طهران؛ ركباناً ومشاة، وأظهروا التنفّر الشديد من الإنجليز، ونادوا باسمي غير شاعرين بأني لم أرِد الى طهران.

ولذلك أبرق «السيد محمد البهبهاني» أن أرد ليلاً. فركبت السيّارة بعد الظهر، وفي منتصف الطريق؛ رأيت ثُلّة من العلماء على سيّاراتهم، فمضينا جميعاً ودخلنا البلد ليلاً الى الدار التي أعدّتها الوزارة لضيافتنا؛ وهي دار «السيد علي البهبهاني» ولم يشعر إلا القليل؛ بأني لم أرِد ليلة قبل.

وهناك أعدّت الوزارة ضيافة؛ مدّة سبعة أيام، أطعمت أكثر أهل البلد، ولم يبق أحد إلا زرته في تلك الدار، عدا وزير الحرب، فإنه لم يجيء لزيارتنا، مع أنه عيّن وقتاً لذلك.

والسبب هو؛ أنه تحامل عليه مبعوثو «آذربيجان» في المجلس النيابي، واحتجّوا على بقاء الحكومة العسكريّة في «تبريز» واجحافها الشديد. فلم يُجبهم كوزير قانوني، بل أجرى مظاهرة عسكريّة في شوارع طهران لتهديد النوّاب. فأنكرت ذلك في نفسي أشد الإنكار، وعلمت أن إيران ليست بلاداً دستوريّة، بل الحكم فيها لمن غلب، لا للقانون. وعلمت أن حكومة طهران إذ ذاك حكومة عسكريّة؛ فزاد أسفي، وكاد اليأس يستولي عليّ خصوصاً مع ماكنت أعلمه من حال وزير الحرب، وأنه الرجل الذي جاء به الإنجليز الى طهران، وسلّموه أزمّة الأُمور.

وإليك خلاصة قصة وترجمة وزير الحرب إذ ذاك «رضا خان» على ماسمعته منه:

ترجمة حال رضا خان وزير الحرب في إيران يوم ورودنا لها

إن أباه من أهل «سوادكوه» التابعة لـ «مازندران» وأُمّه من مهاجري «القفقاس». مات أبوه؛ وهو طفل، وكانت أُمّه لاتستطيع تربيته؛ لأنها فقيرة، ولم يُخلّف أبوه شيئاً. فنَقَلَته

الى طهران، وكانت أيام الشتاء؛ فأشرف على الموت من شدّة البرد، إذ لم يكن عليه لباس؛ حتى اسودَّ جلده، وسكن نبضه، فتداركه رجل كانت له «مقهى» في الطريق، فأشعل له ناراً حتى سخن جلده، وعادت حياته؛ بعد أن كانت أُمّه قد يئست منه؛ لظنها أنه مات. ثم نقلته الى طهران؛ وبكل صعوبة من المعيشة، وضيق وصل إلى سنّ العاشرة.

وكان لأُمّه قريب في الجنديّة (وكان الجند يُسمى: قزاق لأنها كانت تحت إدارة معلّمين من الروس) فأخذه معه لإعاشته، وبقي معه حتى انتظم في سلك أفراد الجند دون أن يتنعمَّ بنعمة التحصيل. وكان في جميع أدواره مورد سخط الضبّاط؛ لأنه كان خشناً لجوجاً، لايُنفّذ أوامرهم.

قال: وكنت سائماً من الحياة؛ لضيق معيشتي، فكلّما حدثت حرب أُلقي بنفسي في لهبها عسى أن أُقتل فأستريح. ولكني أحرز فيها نصراً؛ فأستحق بها منصباً جديداً. ودمت على ذلك حتى بلغت درجة «سرتيب» (وهو منصب يعدل أمير اللواء في تركية).

وحين أتيت طهران لم آتها بقصد الإستيلاء عليها؛ بل بقصد أن أُقتل فأستريح. ولكنّي أحرزت نصراً؛ فاستوليت على طهران.

تبييت رضا خان وزير الحرب لطهران

وكيفيّة مجيئه الى طهران ـ على مايقول هو: إن «البلاشفة» لمّا هجموا من جهة «أنزلي» [١] كان هو رئيس الجيش الإيراني المدافع؛ فنالوا عناءً شديداً، وسئموا الحياة لقلّة ذخيرتهم ومؤنتهم، واضطروا الى الفرار الى «قزوين».

قال: فجاءني بعض الضبّاط وقالوا: إنّا إنّما نلاقي هذا العناء؛ لأن مَن بيدهم أزمّة الأُمور في العاصمة لايهتمّون بأمر المملكة؛ فاللازم أن نذهب نحن الى طهران

(١) ميناء انزلي يقع شمال ايران على بحر الخزر (قزوين) ويفصل بين ايران وروسيا.

فنستولي عليها، ونقبض على أزمّة الأُمور، وننقذ المملكة من التلف. ولسنا أقلّ من «الكماليين» الذين أنقذوا مملكتهم.

قال «سردار سبه» [١]: ولم يكن لي علم بارتباط أولئك الضباط بالإنجليز وبمذاكرة «سيد ضياء». إلا أني رأيت ضابطاً إنجليزياً طاعناً في السنّ أتى «قزوين» مع ضبّاط إنجليز أخر فقالوا: نحن قوّاد الجيش الإيراني مكان الضبّاط الروس الذين كانت بيدهم قيادة الجيش الإيراني الى ذلك الحين. وإني كنت مضطراً الى إطاعتهم؛ فلذلك امتثلت أمرهم بالزحف على طهران إذا كان بترتيب من الإنجليز؛ فإني أستفيد منهم وأشتغل لصالح إيران.

هذا خلاصة ماقصّه عليَّ «سردار سبه» بعد ملاقاته، ولكن الذي كنت أعلمه عن هذا الأمر، مضافاً الى ماقاله هو؛ أن الإستيلاء على طهران خطّة دبّرها الإنجليز، وذاكروا بها «سردار سبه» نفسه بلا واسطة؛ وذلك لأنهم لمّا رأوا مقاومة الإيرانيين الشديدة لمعاهدة «وثوق الدولة» وتقرّب «البلشفك» من إيران، وثورة العراق؛ وجدوا أنفسهم مضطرين الى سحب قواهم من إيران، وألغوا تلك المعاهدة التي تتضمّن استيلائهم على الجنديّة والماليّة الإيرانيّة؛ فدبّروا خطّة لإلغائها قولاً وإجرائها عملاً.

وكان الجيش الإيراني يومئذ منقسماً الى قسمين:

«قزاق» ويُديره معلّمون من الروس؛ وكلهم أُمّيّون، إلا من شذَّ، فاقدو الترتيب العسكري، والحس الوطني؛ لأن الروس كانوا قد هيأوهم لهم لا لإيران.

و«جندرم» ويُديره معلّمون «أسوجيّون» وهو جند مهذّب، متحمّس بالحس الوطني، كامل التدريب؛ يُماثل جند «أوربا» تقريباً.

وكان «القزاق» لايستطيعون أن يعملوا خلاف صالح إيران لمقاومة «الجندرم» لهم. وهكذا «الجندرم».

فرآى الإنجليز أن استمالة أحد الجيشين؛ لاتكفي للإستيلاء على الجيش الإيراني؛

---

(١) سردار سبه تعني قائد الجيش وهو اللقب الذي كان يطلق على رضا خان حين كان قائد الجيش وقبل أن يعتلي عرش ملوكية ايران.

لمقاومة الجيش الآخر له، ورأوا أن استمالة «الجندرم» لاتفي بمقصودهم؛ لأن لضبّاطهم من العلم والحس الوطني ما يحول دون تنفيذ مقاصد الإنجليز. فدّبروا استمالة «القزاق» ومحو «الجندرم» وتوحيد الجيش الإيراني والقبض عليه بواسطة رجل من الإيرانيين. ولم يجدوا أقرب من «سردار سبه» لهذا الغرض؛ سيّما وأنّه كان متنفراً من «البلشفك» منهزماً أمامهم في محاربة «رشت» التي دبّرها الإنجليز لتنفير الإيرانيين من «البلشفك» وكانوا هم السبب في هزيمة الإيرانيين والفجائع التي ارتكبت في «رشت» باسم «البلشفك».

ففاوضوا «سردار سبه» بلا واسطة، ووافقهم على ذلك وأمدّوه بالمال العظيم، والرأي. وخططوا له الخطط؛ حتى استولى على طهران، وحبس جميع أشرافها الذين كانوا قد صوّبوا معاهدة «روسيا وإيران» وقاوموا معاهدة «انجلترا وإيران» وعزلَ الوزارة التي كانت قد اعترفت بالحكومة «البلشفيّة» وسعى باضمحلال «الجندرم» حتى أبادهم، ووحدّ الجيش، وأفنى كل من قاوم معاهدة «وثوق الدولة» تدريجاً، وأباد أغلب رجال إيران في «رشت» و «خراسان» و «تبريز».

هذا مجمل ماكنت أعلمه عن تبييت «سردار سبه» في طهران وتفصيله بأدلته في كتاب كتبه لي عن هذه الحادثة أحد الضبّاط الإيرانيين الذين كانوا مشتركين في هذه الحادثة، إن وفقني الله نشرته[١].

فلذلك كنت سيىء الظن جداً بهذا الرجل، وكنت أرى من المستحيل انصرافه عن الإنجليز وعمله لصالح إيران؛ سيّما أن الجند كان يدير ماليّته البنك الشاهنشاهي - الإنجليزي. ولما رأيت أن قوى إيران كلها على ما وصفت؛ صرت أُفكر في هذا الأمر ويئست من أن أستفيد من إيران للعراق. بل انصرفت عن ذلك الى الفكرة في إنقاذ إيران من شرِّ الإنجليز.

وهناك لقيت رئيس الوزارة الإيرانيّة «قوام السلطنة» وفاوضته في أمر العراق؛ فرأيته

---

(١)كتب المؤلف هذه الإشارة ولم يُعلّق عليها حاشية فحررناها كما وجدناها (الناسخ).

على أتم إستعداد للمعاونة. ولكن ماذا يصنع واختيار إيران بيد وزير الحرب.

وبعد ذلك لاقيت «شومياتيسكي» نائب سفير الروس ذلك الوقت مع «المرزا محمد رضا» نجل «آية الله الشيرازي» ففاوضناه في أمر العراق خاصّة، وفي شأن سائر البلاد العربيّة والمستعمرات الإنجليزيّة، فأجاب بأنه يُراجع حكومة «موسكو» فيما فاوضناه، وأنه على أتم استعداد لإقناع حكومته بالعمل معنا على استخلاص الشرق. ولكني لم استشعر الخير من مقابلته؛ لأنا كنا نكلِّمه بصراحة القول فيُجيبنا بلسان سياسي مشوب بالتزوير على عادة الساسة المتلونين؛ فحدست أن «البلشفيّة» أجمل من رسمها وأنها لاتخلو من شوائب السياسة «الأوربيّة» ففارقناه منتظرين جواب حكومته.

إجتماعان هامّان في طهران

وبقيت في طهران أياماً حدث في خلالها أن بعض الجرائد تجاوزت في مقالاتها الحدود الدينيّة، وأن «سليمان مرزا» تكلّم في المجلس النيابي بما يُشم منه رائحة الإنحراف عن الدين الإسلامي بنظر خرافي العلماء المزوّرين؛ فتهايج الناس وفي مقدّمتهم العلماء، واجتمعوا في المسجد الجامع؛ محتجين على تلك الجرائد، وعلى ذلك النائب. وكنت أرى يداً أجنبيّة تُدبر هذا الإجتماع لمقاصد سياسيّة، فدام هذا الإجتماع وعارضه أُناس آخرون في مسجد «سبه سالار» الجديد؛ باسم الحريّة؛ والحقيقة أن وراء ذلك مقاصد سياسيّة في كلا المسجدين؛ هذا باسم الدين، وهذا باسم الحريّة؛ لا المتدينون وراء الدين، ولا الأحرار بصدد الحريّة.

وانتهت تلك الإجتماعات بعد أن كادت أن تُلقي الإضطراب في جميع المملكة باصدار قانون من المجلس النيابي: يقضي بتعييني ناظراً للشرعيّات في وزارة المعارف يحق له توقيف الجرائد وسائر المطبوعات؛ إذا كتبت مايخالف دين الإسلام. وبتبرئة «المدرّس» أحد العلماء والنواب لـ «سليمان مرزا» بأن ماتكلّم به لايستوجب

الكفر، والحقيقة أن المقاصد السياسيّة من تلك الإجتماعات انتهت.

ولكني لم أُشاهدها والحمد لله؛ فإني تحركت لزيارة ثامن الأئمة «علي بن موسى الرضا عليه السلام عند انعقاد أول الإجتماعات.

في طريق خراسان وفي المشهد

أعدّت لي الوزارة عجلة «كالسكة» إذ لم يكن الطريق صالحاً لسير السيارات، وأدّت مصرف الطريق؛ فقطعت ثمانمائة كيلو متر تقريباً من طهران إلى خراسان بين هضبات ذلك الطريق الوعر، وسهوله المنخفضة، وجباله الشاهقة الّتي لم تـعبّدها يـد الإنسـان. ولكنّي شاهدت من أهل المدن والقرى مـن الحـفاوة والتـرحـاب فـي أثـناء الطـريق؛ ماجعلني أشكر عواطف الإيرانيين وأخلاقهم الحميدة. ووجدت «قوام السلطنة» مُبْرقاً الى جميع الحكّام في المدن التي مررت عليها؛ أن يُجروا مراسم التـجليل والتـبجيل، فقاموا بما يجب.

على هذه الحال الشائقة مررت من «سمنان» فـ «دامغان» فـ «شاهرود» و «ميامي» فـ «سبزوار» و «نيشابور» حتى وردت قريباً من «المشـهد الرضـوي» قـاعدة «خـراسـان» فوجدت في «طُرقُبة» على بعد فرسخين من «المشـهد» ثـلّة مـن المسـتقبلين؛ بـينهم رسول «المرزا محمد» نجل المرحوم «آية الله الخراساني» وهو من عـلماء خـراسـان، ليدعوني إلى ضيافته، وكنت عازماً على ذلك فأجبته.

ومكثت قليلاً؛ ثم ركبت «كالسكة» «نـظام السـلطنة» والي خـراسـان إذ ذاك، وكـان أرسلها لذلك مع ثُلّة من الخيّالة. وحين تحركت صادفت أمير جيش الشرق «حسـين خان الخزاعي» في ثُلّة من الجند ورئيس «الدرك» «باشا خان» في ثُلّة من دركه. فصحبوا عجلتي بصورة شائقة؛ يحملون الأعلام العسكريّة على الرماح، وحـفّ خـيّالة الجـند

بالعجلة من جميع أطرافها متظاهرين بالإبتهاج والسرور[١] يبدون من الألعاب الشائقة مايُبهج الناظر.

وبينا نحن سائرون إذ رأينا الناس يهرعون أفواجاً، اُلوفاً مؤلفة، مشاةً وركباناً، فثقلت العجلة خطاها رعاية للمشاة الى أن وصلنا قريباً من المدينة، وإذا بعلمائها يقدمهم «المرزا محمد» فترجلتُ من العجلة وصافحتهم، وأقبل طلاب المدارس. إلا أنهم كانوا سكوتاً لاينشدون الأناشيد فاستغربتُ من ذلك، وانثال الناس لمصافحتي، فأثّرني الزحام.

وهناك عمل «أمير الشرق»، ورئيس الدرَك دائرة من الدرَك جعلوني وسطها وكانت فاصلاً بيني وبين الناس فسِرت على ذلك وأنا أنظر الى الناس وهم سكوت إلا مَن يذرف دمعه حزناً، ولايتكلّم أحد بشيء، لا ينادون بفناء الإنجليز ولابحياة العلماء، خلاف عادة جميع البلدان التي مررتُ عليها، فعلمتُ أنّهم ممنوعون عن الكلام، وعجبتُ أشدّ العجب من نفوذ الإنجليز هناك، حتى وردتُ الى حمى الحَرَم فتنحّى الدرك وحلّ محلهم سدنة الروضة الرضوية، لأن الدرَك لا يباح لهم المداخلة في أي أمر في حمى الحرم.

مضى بي السدنة الى الحرم والناس على حالهم حيارى مبهوتون، فزرت ثامن الأئمّة عليه السلام، وقدّمت قصيدة استغاثة كنتُ نظمتها في الطريق أولها:

ألا يا أيها الثاوي بطوسٍ شكايةً أبُثُّكها عن والِه القلب محزونِ

الى آخر القصيدة.[٢]

---

(١) أكتب هذا لأُبين بعد ذلك ما فعله أمير الشرق معي من الإجحاف عند تبعيدي من طهران (المؤلف).

(٢) ونشرها مدير جريدة «فكر آزاد» في خراسان «المشهد» ملحقاً للعدد ٣٥ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٣٤١ في منشور خاص، وإليك نصّه فيما يلي:

«ملحق العدد ٣٥ لجريدة «فكر آزاد» بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٣٤١»

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه القصيدة العصماء التي نظم دررها علامة عصره حجة الإسلام المجاهد في سبيل الله، الفقيه الورع، جامع المعقول والمنقول، المُتقِن لصنعتي الفقه والأصول، المهذب، التقي الأوحد شيخنا ومولانا الشيخ محمد، ⇐

⇐ نجل شيخ الطائفة الجعفرية، ورئيس الفرقة الإثني عشرية، آية الله العظمى وحجته الكبرى، سند الإسلام، وسيد المسلمين، ملاذ الأنام وكهف المؤمنين حضرة الشيخ محمد مهدي الكاظمي الخالصي الخراساني متع الله المسلمين بطول بقائه، وظفّره بأعدائه، وبلّغه أمله وأمانيه، بمحمد وآله الميامين الطيبين الطاهرين.
وقد نظمها ناظمها... [أهداها] ثامن الائمة علي بن موسى الرضا عليه أفضل الصلاة والسلام ومستغيثاً ... ومستنجداً... [الله] بعد استيلاء الإنجليز على مراقد الأئمة الأطهار عليهم السلام في العراق وإخراجهم الناظم وفريقاً من المسلمين من تلك الديار، وإبعادهم الى أقصى البلاد، وحين تشرّف الناظم بزيارة المرقد الرضوي المبارك... [أهداه] هذه القصيدة، وطلب أن تُعلّقَ أمام ذلك الضريح المقدس ولا تُنزل حتى يُطهِّر الله العراق من شرّ الكافرين.
وهذه هي القصيدة:

[قصيدتي]... لأبي الحسن الرضا عليه السلام

ألا أيــها الشــاوي بــطوسٍ شكــايةً ... أبــثُّكَها عــن والِـهِ القـلب مـحزونِ
أنـا الغـصنُ، فـرعي جَـدُّه منِّي العِدا ... ومــن أصــل دوحِ طـيِّبٍ قـطعوني
تــركتُ ليَ آبــناً بــالعراق، ولي بـهِ ... أبٌ عــنه بــالرَّغمِ العِــدا فـصلوني
يُــنادِي أبـاهُ الطـفلُ، والشـيخُ هـادي ... فــيُزعجهُ ذكــرُ آبــنه بشــجونِ
وأحسبُ بـينَ الطـفلِ والشـيخ شـيخةٌ ... تُــردِدُ تَــذكار آبــنها بــأنينِ
ووالدةٌ للــطفلِ أوقــعها آبــنُها ... بــذكرِ أبــيهِ فــي بُكــاً وحَــنينِ
سَــلوتُهُمُ لُكــنْ لك آبــنٌ ووالدٌ ... أأســلوهُما؟ لا! لا سَــلَوتُ يــقيني
بــلىٰ إنَّــني أبـصرتُ لي فـيكَ سَـلْوةً ... تُــذَكِّــرُني مــا فــاتَني وتُــريني
يُــهَوِّنُ لي الأعــداءُ مــنفايَ أنَّــهم ... إلىٰ جــنَّةٍ مــن جــنَّةٍ صــرفوني
أرادوا بِــيَ الحُــزنَ المُـقيم ومـا دَرَوا ... بــأنَّ الرِّضــا فــيهِ تَــقَرُّ عــيوني
يــا عــينُ قَـرِّي لا يُـؤَرِّقْكِ النَّـوىٰ ... وَتَسكـابُ دَمـعٍ فـي الخـدود هَـتونِ
إذا بــنتُ عـن مـوسى فـحسبي ابـنُهُ ... مـجيري مـنْ مكـر العِـدا ومـعيني
فـما أنـا بـالشّاكي ابـتعادي وإن يَكُـنْ ... جُـفاةُ العِـدا عـن مَـوردِي حَـرَموني
ولكــنني أشكــو ولَستُ بِــجازعٍ ... وإن أجْــرَت الجُـلَّىٰ فـجيع شـؤوني

....

....

ألَـم تَـرَ فـي أرضِ العـراقِ قُـبورَكُـمْ ... تَــدوسُ ثــراهـا رِجـلُ كـلِّ مَـهينِ
يـميناً، بـدينِ المُـصطفىٰ قـد تـلاعَبَتْ ... هــناكَ مــن الكــفارِ كــلِّ يَـمينِ
وذلَّتْ رقــابُ المســلمينَ إليــهمُ ... وَداســوا مِــنَ الإسـلامِ كـلّ عَـرينِ
وَمَــدُّوا إلىٰ الأعــراضِ كَـفَّ خـيانةٍ ... فَـلَمْ يَـبْقَ مِـن عِـرضٍ يُـصانُ وَدِيـنِ
⇐

ثم استلمت الضريح المقدّس، وخرجت من الحرم، فـوجدت النـاس فـي صـحن مسجد «كوهرشاد» على حالتهم من البهت، فعلمت أن نفوذ الإنجليز في خراسان حال بينهم وبين إجراء المظاهرة التي كانوا بصددها. فقلت لأمير الشرق: عليّ بمنبر. فأسرع وجاء بمنبر عالٍ؛ رقيته فشرحت للناس حال العراق ومايجريه الإنـجليز فـي العـتبات المقدّسة من الظلم والإعتساف، ونوايا الإنجليز تجاه العالم الإسلامي، وكـيف يسـعى الإنجليز لمحو الإسلام خاصّة.

فضجَّ الناس ضجّة واحدة، وأبدوا من الحماس؛ ماأثلج قـلوبهم التـي كـانت تـتقد لمنعهم عن إجراء المظاهرة اللازمة، وكلّما أراد الناس أن يقولوه لي عند ورودي أبديته لهم.

⇐ ألستَ رئـيس المسـلمين؟ فَـوافِـهِم ... بِـــــنصرٍ مِـــنَ اللهِ العـــزيزِ مُـــبينِ

....

....

....

ســـياسةُ مكـــرِ الإنـــجليز دَعَـــتْهُمُ ... إليـــها لِـــحقدٍ فـــي النّـفوسِ كَـمينِ

وَمـــا فـادحٌ فـي الديــنِ إلّا تـرىٰ بــهِ ... يَـــدَيْ إنـــجليزيٍّ عَـــدَت بـــفنونِ

همُ صمموا على أن لا يُبقوا على الهدى ... فـــلا تُـــبقِ مِـــن بـقيا لكـلّ لعـينِ

....

نَـــلوذُ إذِ الأســـبابُ طُـــرّاً تَـقَطَّعَتْ ... بِـــحَبلِ سَـــدادٍ مِـــن هُـداكَ مَـتينِ

وَنَـــروِي وإنْ سَـــدَّ الْـــمَوارِدَ كـلَّها ... عِـــدانـــا بِـــصافٍ مِـن رَواكَ مَـعينِ

عَـلَيكَ سـلامُ الله، مـا خـابَ مَـن لَـجَا ... الىٰ حـصنِ عـزٍّ فـي حِـماك حَـصينِ

تحريراً في اليوم الحادي عشر من شهر ربيع الأول سنة الألف والثلثمائة والحادي والأربعين هجرية

محمد الخالصي

كما نظم هذين البيتين حين زيارته لموطيء قدم الرضا الواقع على طريق مدينة «نيشابور»:

للّــه مِـن قـدمٍ بـموطئهِ سـمَت ... قِمم الملوك سمَت بـها التـيجان

وأنا المليك بماً حبيتُ مِن العُلى ... بـــتشرُّفي، فـــما السـلطان؟

(انتهـــــــــى)

ثمّ أنّ صاحب الجريدة ترجم هذه القصيدة وما عنونَهابه فيما تقدّم الى اللغة الفارسية، وألحق ذلك في نـفس المنشور. (الناسخ)

وهناك علمت أنّ طلاب جميع المدارس كانوا خرجوا خارج المـدينة مـتحمّسين فأُتي بهم الى خان بحجّة الإستراحة وأُغلق باب الخان لئلا يتظاهروا ضد الإنجليز، ولم يعلموا بورودي حتى وردت الحرم.

ومضيت بعد ذلك الى دار «المرزا محمد» وكان قد أعدَّ فيها جميع لوازم الضـيافة، فمكثت فيها إثني عشر يوماً؛ زرت في خلالها جميع أهـل خـراسـان عـلى اخـتلاف طبقاتهم، وشاهدت في «المشهد» العجب العجاب!.

أما نفوذ الإنجليز فقد كان بحيث يجلب قنصلهم مَن يشاء الى القـنصليّة فـيضربه ويحبسه دون أن يُخبر «الدرك» وكفى من ذلك أنه أوعز الى الدرك أن يُصادروا القصيدة الإسـتغاثيّة التـي نـظمتها فـي الطـريق؛ مـن المـطبعة، فـصودرت بـعد خـروجي مـن «المشهد»، وجُمع مابأيدي الناس منتشراً.

وبالجملة: لايستطيع أحد أن يـعمل عـلى خـلاف إرادة القـنصليّة شـيئاً. حـتى أن «حكيم أُف» قنصل الروس تصدى لملاقاتي مراراً فلم يستطع؛ إذ أنه كلّما أرسل يطلب تعييني وقتاً له يُخبروه عن لساني بأني لايسعني الآن ملاقاته. ولم أعـلم بـذلك حـتى خرجت من «المشهد» فتبعني الى «طروق» وعتب عليَّ لعدم تعييني وقتاً له! فقلت: إني عجبت؛ حيث أنك لم تزرني فأخبرني بما جرى له وعجبتُ أشدّ العجب من جـديّة مأموري الإنجليز!.

وأما الوالي؛ فلم يكن له إلا الإسم في «المشهد» والأمر والنهي كله بيد «أمير الشرق» فكانت الحكومة في خراسان عسكريّة معنىً، وإن كانت ملكيّة إسماً.

وأما العلماء: وهم الطبقة الممتازة في خـراسـان، فـلم يكـونوا شـاعرين بـما حـلَّ بالمسلمين والإسلام، ولذلك كان يغلب عليهم؛ الكسل والخمول والإنحياز عـن كـل عمل؛ كأن لاتكليف من الله، أو المكلّف بـنشر الإسـلام، وإصـلاح البـلاد الإسـلاميّة، والذبّ عن كيانها؛ غير العلماء!.

عدا «مرزا محمد» نجل «آية الله» فإنه كان يخدم الإنجليز، ويغدر بالإسلام عـامداً عالماً؛ كموظف؛ من أشدّ وأقسى مأموري «لندن» العسكريين وإن القنصليّة الإنجليزيّة

في خراسان؛ لَتَكتفي به عن كل مأمور، وتعتمد عليه أكثر من كل أحد، وهذا كان سرّ بروزه.

أحزنني ماشاهدته جداً حتى أنساني العراق، وصرتُ أُفكر في الطريق التي توصل الى تبديل تلك الحال السيئة التي تنذر بالخطر والدمار.

وكان الإنجليز قد وضعوا الجواسيس عليّ وأحاط بي عمّالهم حتى في منزلي الذي كان، ولم أكن أعلم به فرع القنصلية الإنجليزية، ووقت منامي، وهم يتخذون الطرق العديدة لمنع الناس عنّي، ومنعي عن مكالمة أحد في أمر المسلمين، ويدسّون لذلك أنواع الدسائس والحيل.

سرعة العودة الى طهران وسببه

حتى أعدتُ الزيارة على أمير الشرق في داره فكان من جملة ما قاله: إني شعرتُ من خطابك أنك تلومني وتلوم مَن في خراسان على نفوذ الإنجليز، وتعنّف مَن يخدم مصالح الإنجليز قبال مايأخذه منهم من مال، وإني أُؤكد لك بأن الإنجليز لا يصرفون هنا درهماً ولاديناراً، وإنّا ممتثلوا أوامر العاصمة على أي حال، فإن يبذل الإنجليز مالاً أو يدسّوا دسيسة فإنما ذلك في العاصمة، وتأتينا الأوامر فننفذها دون أن نشعر بها، وإذا أردتَ إصلاح خراسان والمملكة كلّها فعليك بإصلاح العاصمة، وإذا أردت أن تقطع نفوذ الإنجليز من خراسان، فإنّما يمكن ذلك بقطعه من منبعه، وهو العاصمة، لا من خراسان.

فرأيته محقّاً في قوله، وعزمت من فوري على الرجوع الى طهران. فعدتُ إليها ولم أمكث في خراسان سوى اثني عشر يوماً، وهي مدّة لا تكفي لمثلي إذا زار خراسان، ولكن ما عسى أن أصنع والإسلام يطالب كلّ مسلم بخدمته.

مضيتُ الى الحرم فودّعته بكل أسف وخرجتُ خارج المدينة، وخرج كثير من الناس متلهفين آسفين على سفري. وهم يلومونني على العجلة ويظهُرون أنهم كانوا

يُؤمّلون إصلاح خراسان بوجودي، وكـان بـين النـاس فـريق مـن العـلماء، و«المـيرزا محمد» وأمير الشرق ورئيس الدرَك وقد سقط من ظَهر جواده ذلك اليوم، فأسـفتُ له وودعت الجميع، وقصدتُ طهران.

فصادفتُ في الطريق من حفاوة الأهلين فوق ما رأيته في المجيء، وأعجبني دماثة أخلاق الحاج «ميرزا حسين» رئيس علماء «سبزوار» وعلمه، فمكثتُ يومين في داره، قضّيناها بالمسائل العلمية.

وفي «شاهرود» رأيتُ عالماً ورعاً تـهمّه المسـائل الإسـلامية ويشـعر بـما يـنتاب المسـلمين مـن حـينٍ لآخـر وهـو «الشـيخ أحـمد» رئـيس عـلمائها، وشـاهدتُ مـن «شريعتمدار» في «دامغان» أخلاقاً مرضية وحُسن إلتفات الى ما يجب أن يعمله علماء الدين في هذا الزمان.

ولمّا وردتُ طهران نزلتُ ضيفاً على «الحاج حسين آقا أمين دار الضـرب»، وكـان «الميرزا محمد رضا» نجل آية الله الشيرازي ضيفاً هناك.

وماقمتُ فيه من الأعمال يلخص بما يلي:

جمعية الوفد العراقي

حيثُ كنتُ ممثلاً عن كافة العراقيين، سعيتُ أولاً بتشكيل جـمعية مـن العـراقـيين المقيمين في طهران للنظر في مصالح العراق، فاجتمتُ بكثير من العلماء، ووفـقنا الى تشكيل جمعيّة باسم «نمايندكان عالي بين النهرين» (جمعية ممثلي العراق العليا).

وأخذت جلساتها تنعقد ثلاثة أيام في الإسبوع، واشترك فيها كثير من الإيـرانـيين، فكانت تلك الجمعية تنظر في أحوال العراق من جهة، وفي وضعية العالم فيما يـعود الى العراق من جهة أُخرى، فتنشر المنشورات، وتذيع الإبلاغيات المهيّجة في العراق، وتخابر عصبة الأُمم وجميع عواصم أوربا وأمـريكا بـمقاصد العـراقـيين، ومـا يـجريه الإنجليز من حين لآخر من المظالم والإعتساف فـي العـراق، وتـمانع كـلّ دولة تـريد

الإعتراف بحكومة العراق على شكلها الحاضر، من بقاء قـيمومة الإنـجليز فـيه، ولقـد ساعد الإيرانيون مساعدة تُشكر في جميع أعمال تلك الجمعية، حتى أنّ والدي روحي فداه لمّا كتب عنّي قنصل إيران في بغداد قوله: إنّ الوزارة الإيرانية، اعـترفت بـحكومة العراق، ضجت الجرائد الإيـرانـيّة ومـجلس النـواب الإيـرانـي احـتجاجاً عـلى «قـوام السلطنة» رئيس الوزراء ووزير الخارجية، واضطرّ الى الحضور في مجلس المبعوثين، والجواب على سؤال «محمد دانش الخراساني» بتكذيب تلك الشائعة رسماً، وتوالت الخطب الحماسية من المبعوثين في ردّ ذلك، حتى جمعوا الوثـائق التـي وردت مـن العراق، وصوّبوا طبعها في مطبعة المجلس رسماً، فطُبعت مرتين ضـمن كـتاب كـتبتُهُ لمجلس النواب الإيراني عن أحوال العراق ونُشر في جميع العالم.(×)

وبالجملة، إنّ الجمعية قامت بأعمال كبرى لا أستطيعُ شـرحـها وأنـا فـي السـجن ممنوع عن الكتابة إلا متخفّياً. ولكنّها مثبّتة في دفاتر تلك الجمعية.

تأثير القبض على والدي روحي فداه

في حين كانت الجمعية مشغولة بأمر إيران، كان العراقيون وفي مـقدمتهم العـلماء؛ يبارزون الإنجليز وعمّالهم أشد المبارزة، وأشدهم مبارزة والدي روحي فـداه. حـتى مَنَعَ عـن انـتخاب أعـضاء المـجلس التأسـيسي الذي أراد الإنـجليز انـتخابه ليُـمضي العــراقـيّون صكَّ عُـبوديّتهم «المـعاهدة الإنـجليزيّة العـراقـيّة» بأيـديهم، ولم يسـتطع الإنجليز إجراء الإنتخاب ورأوه مستحيلاً مادام والدي روحي فداه في العراق. فقبضوا عليه ليلاً ونفوه الى اليمن بعدما أجروا من الفجائع قبل القبض عـليه فـي دارنـا وفـي

(×) وهو كتاب «مظالم إنگليس در بين النهرين» (أي مظالم الإنجليز في ما بين النهرين) باللغة الفارسية، وقد أُعيد طبعه للمرة الرابعة في طهران عام ١٣٤١هـ وكانت الطبعة السادسة عـام ٢٠٠٥ م فـي فـصلية الدراسـات والبحوث التاريخية الايرانية والسـابعة عـام ٢٠٠٧ ضـمن كـتاب «رسـائل سـياسي آيت اللـه خـالصي زاده» (الخطاب السياسي للامام الخالصي). ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي أرّخت أحداث الثورة العراقية الكبرى في وجه الإنجليز حينها.

المدرسة، وفي جميع العراق؛ ماتقشعر له الأبدان، حتى فقدنا بسبب الهجوم على دارنا طفلين؛ أحدهما ولدي ولم يبلغ سنة من عمره، والأُخرى بنت أخي وعمرها سنة، وفُقد بسبب ذلك عمّي المرحوم «الشيخ محمد صادق» الذي توفي متأثراً من تلك الفجائع.

ولما قُبض على والدي هاج العراق وماج بأهله؛ فأجرى الإنجليز لإخماد هيجانه مايجزع له كل إنسان من المظالم. وهنالك بارح علماء النجف وكربلاء ديارهم، وجاءوا الى كربلاء محتجّين؛ فنفاهم الإنجليز الى إيران.

وبينا نحن مشغولون في طهران بأمر العراق إذ فاجئتنا «رويتر» بخبر القبض على والدي. فاعترتني حال أشبه بالرعدة، وشملني الذهول ودهاني من البهت؛ ماأثّر على حواسّي، حتى أني لم أكن أفهم كلام الجماعات التي كانت تأتي لتُسليني.

وفي اليوم الثاني داهمتنا البرقيّات من «قصر شيرين» تُشعر بورود علماء النجف وكربلاء إليها؛ فعاد إلي روعي لأني علمت أن لتبعيد والدي سيكون أثر عظيم في العراق وإيران، وإنا سنستفيد من ذلك قطع نفوذ الإنجليز في كلا المملكتين. وكنت أُحسن الظن بالروس، وأنهم سيُعاونوننا على الإنجليز؛ لما بينهم من الإختلاف.

وفي ذلك اليوم جاء «والدين» مدير إدارة الشرق في سفارة الروس بغتة الى دار «حسين أمين الضرب» وكان فيها منزلنا؛ وهو على أشد التأثر، وكان «الميرزا محمد رضا» جالساً؛ فقال: هل تعلمون ماحدث؟ قلنا: وما ذاك؟ فقال: إن الإنجليز صمموا على ذبح الإشتراكيين في إيران، فاحتالوا لذلك بأن أرسلوا إليها فريقاً من العلماء بحجّة أنهم مبعدون، فإذا جاءوا الى طهران قتلوا الإشتراكيين، ويسري ذلك الى «القفقاس» فيكون مزاحماً «للبلشفيّة» فيها. وكان يحمل معه صورة فتوى بإمضاء «السيد أبو الحسن» و «الميرزا حسين» وهما رئيسا العلماء الواردين الى إيران بنفي الإنجليز، تقضي تلك الفتوى بتكفير الإشتراكيين. فأظهرها لنا وقال: يجب إذا كنا مشتركين في المصلحة أن نسعى جميعاً لمحو هؤلاء العلماء الواردين الى إيران.

فضحكت متعجّباً، وقلت له: إعلم إن أول المبعدين؛ والدي، وإن جميع العلماء إنما

أُبعدوا لمبارزتهم مع الإنجليز في العراق، ولكن الإنجليز كانوا يخشون من نـفيهم الى إيران أن يشتغلوا بقطع نفوذهم، ويستفيد من ذلك الروس طبعاً، فدبّروا لذلك مكيدة؛ بأن أوعزوا الى عمّالهم فمضوا بنظام اشتراكي إيران الى العـلماء واسـتصدروا فـتوى التكـفير مـنهم، وأوعـزوا الى مـن يـقنعكم بـما ذكـرتم؛ لتسـعوا فـي مـقابلة العـلماء، فيستفيدوا من ذلك أربع فوائد:

١ـ لايشترك الروس والعلماء معاً ضدّ الإنجليز.

٢ـ تُقاومون العلماء؛ فيتنفّر منكم الشرقيون عـموماً لا إيـران وحـدها؛ وهـذا خـير طريقة لمقاومة البلشفيّة في الشرق.

٣ـ ييأس الشرقيون بتاتاً من روسيا التي يُعوّلون أشدّ التعويل عليها فـي مـعاونتهم ضدّ الإنجليز.

٤ـ يُقاوم الإنجليز أعداءهم العلماء بأعدائهم الروس؛ فيكون لهـم المـهنا وعـليكم الوزر. وإن إنكلترا كانت تستخدم روسيا المستبدّة في مصالحها من طريق الصداقة فلا تُعطوا مجالاً لأن تستخدم روسيا البلشفيّة من طريق آخر. وإن الذي قال لكم إن هؤلاء العلماء أبعدهم الإنجليز ظاهراً وهم على وطيئة معهم لمحو الإشتراكيين، والعمل ضدّ روسيا هو عامل من عمّال الإنجليز، فإذا كنتم واثقين به فاحذروه.

والذي أراه هو أن تنشطوا لمعاضدة العلماء؛ كـي نشـتغل مـعاً لإنـقاذ الشـرق مـن الإنجليز، وتقلِبوا هذه الدسيسة على الإنجليز.

أما تكفير الإشتراكيين؛ فإنا نتعهد لكم أن لايكون له أثر في إيران، وأن نتداركها بما يضرّ الإنجليز.

هذا ماقلته لـ«والدين» فأثّر في نفسه، وتحقق صدق ماأقول. ولكن لم أستطع في كل ماقلت وعملت أن أستجلب معاونة روسيا، بل استطعت أن أصرف الروس عن مقاومة العلماء ومناوءتهم.

وأخذت أتتبع فكرة «والدين» من أين جاءته، وبعد تتبّع عميق؛ ظهر لي أنـها مـن «سليمان مرزا» أحد المتظاهرين بالإشتراكيّة في طهران؛ فعجبت أشد العجب! وبـهت

لحال ذلك الرجل؛ كيف يقدم مسلم على محو علماء الإسلام بأيـدي الروس بـعد أن لجأوا الى إيران وأبعدهم إليها الإنجليز ظلماً، ولاذنب لهم سوى أنهم كانوا مجدّين في حماية الوطن الإسلامي، والعتبات المقدّسة.

إني أُنزه أي فرد من أفراد البشر ولو كان من وحوش صحارى أفريقا، أو من عمّال «الجزويت» عن مثل هذه الجناية؛ فضلاً عن إيراني ينتحل دين الإسلام.

كان سليمان مرزا يشتغل معنا في «جمعيّة الوفد العراقي» وكنت أُحس منه عـداوة خاصّة لعلماء الدين وحقداً شديداً، إلا أني ماكنت أظن أن يبلغ به الأمر الى مارأيت. وحين رأيت ذلك منه علمت أن الرجل يعمل لصالح الإنجليز، وزاد ذلك رسوخاً في نفسي تصريح رفيقه «السيد محمد صادق الطباطبائي» حيث قال لي يوماً: إنّـا نـجلب لمن يشتغل معنا سفارتي الإنجليز والروس؛ لأن لنا يداً فيكلا السفارتين.

إني لا أُنزه المتريسين باسم العلم الديني من الرذائـل إذ شـاهدت أعـظمها مـنهم، وأقبحها من أكبرهم، وما أولئك بالعلماء، أولئك علماء السوء الذيـن أخـبرَتْ عـنهم أحاديث آخر الزمان، ولكنّي أعجب من مسلم يـقدم عـلى إتـلافهم حـين مـقاومتهم للإنجليز بيد الروس لمصلحة الإنجليز حـين لجأهـم الى إيـران؟. عـلى أن صـالحي العلماء هم ورثة الأنبياء حقيقة، وأولئك أحق بالإصلاح من «كارل ماركس» اليـهودي مقتدى «سليمان مرزا» وإن مداد هؤلاء أفضل من دماء الشهداء. وبين العلماء المبعدين الصالحون من العلماء الذين قَلَّ أن تقوم النساء بَعْدُ عن أمثالهم، فكيف يستحلُّ دمهم سليمان مرزا؛ الذي لايعرف أيَّ طرفيه أطول؟!.

ولما رأيت جلب معاضدة الروس إنما يمكن من طـريق سـليمان مـرزا؛ لم أقـطع مفاوضته على سوء ظني به، فكنت كـلّما كـلّمته فـي مـعاضدة العـلماء والعـمل ضـدَّ الإنجليز ازدادَ امتناعاً.

فاضطررت الى تشكيل جمعيّة للنظر في هذا الأمر، فشكلّنا هيئة من: الشيخ إبراهيم الزنجاني، والميرزا محمد رضا، والسيد محمد صادق الطباطبائي؛ فلم تُجدِ نفعاً.

وكنت أُشـوّقه؛ بأن الإسـتفادة فـي عـمران المـملكة، وتـهذيب الأخـلاق، وتـنوير

الأفكـار؛ إنّـما تـمكن تـلو الحـوادث الكـبرى، وتـبعيد العـلماء أكـبر حـادثة يـتلقاها الإيرانيون فلا نُضيّع هذه الفرصة من أيدينا ونحن نستطيع إذا عملنا معاً أن لانُبقي لنفوذ الإنجليز عيناً ولا أثر؛ لا في إيران وحدها؛ بل في الشرق بأسره.

فلا أراه يعبأ بهذا القول، بل تظاهر مراراً بشدّة التأثر لمـا رآنـي مُـجدّاً فـي مـقاومة الإنجليز؛ حتى صرّح يوماً في دار الشيخ إبراهيم الزنجاني بذلك؛ فإنّا دعوناه للإشتراك معنا في مصيبة تبعيد العلماء، فقال مخاطباً لي: كم تشتغل ضدّ الإنجليز؟ أمـا تـخشى أنهم يسوقون جيشاً الى إيران؟ فقلت: إن عملي لاقيمة له تعدل مصارف الجيش. فقال: إن سفارة الإنجليز أرسلت احتجاجاً الى وزارة الخارجيّة على أعمالك. فقلت: ولست أخشى من الإحتجاج؛ إذا استطاعت إيران أن تحميني مـن الإنـجليز بـقيت فـيها، وإلا أُفارقها الى غيرها. فهنالك تغيّر لونه، واحتدّ واشتدَّ. وجـرى بـيني وبـينه مـن الكـلام؛ ماانفضّ له المجلس، وخرج (الى حيث ألقت رحلها أُمُّ قشعم).

إن إصراري على جلب سليمان مرزا لم يكن لذاته، فإنه من الرعـاع الهـمج؛ فـاقد التحصيل، لاميزة له؛ أخلاقيّة ولا علميّة. ولكنّي كنت أقصد من جـلبه؛ جـلب سـفارة الروس من جهة، ومن جهة أُخرى كنت أرى بعض السذّج من الإشتراكيين يعتقدون بصدقه، وما كنت أرغب في صرف الوقت لتفهيمهم ماهيّته وضرره. ولكنّي لما رأيـته مصرّاً على خدمة الإنجليز، ومناوءة العلماء؛ حتى أني أردت السعي مراراً في تصحيح منهج الإشتراكيين، ورفع غائلة الخلاف؛ فمانعني عن ذلك، وكلما أردت أنا أو غيري تسوية الأمر؛ سعى هو في إيقاد لهب التشاجر وتثبيت حكم تكفير الإشتراكيين؛ لأنـه يتصوّر أن منفعته وتبرّزه إنما يكون بذلك. وإلا فلا علم يمتاز به، ولا أخلاق تُميّزه. لما شاهدت منه ذلك علمت أنه رجل يستحيل أن يشتغل إلا ضدَّ الإسلام، ولخراب إيران. فيأست منه وأظهرت للناس طوّيته، وكشفت نيّته، أعاذ الله المسلمين منه ومن أمثاله.

ولما ورد العلماء الى «قصر شيرين» مضيت مع ثلّة من العـلماء الى دائـرة البـرق؛ فأحضرنا أحدهم وخابرناه حضوراً؛ فسألناه عن كيفيّة تبعيدهم؟ فأجاب ذاكراً مالاقوه في الطريق من العنف؛ من حين القبض عليهم في كربلاء الى حين ورودهم الى «قصر

شيرين». فرحّبنا بهم، ولمناهم على تكفير الإشتراكيين، وأوصيناهم أن لا يُصدروا بعد ذلك مايشابه الفتوى.

وحين عَلِمت البلاد الإيرانية بورود العلماء هاجت جميعها، وقامت عن بِكرة أبيها، فكانت البلاد الإيرانيّة كلها مظاهرة واحدة، وأقبلت الإحتجاجات تتوالى الى الوزارة، والى السفارات الأجنبيّة المقيمة في طهران، حتى جاوزت البرقيّات والكتب مئات الألوف، وعُقدت الإجتماعات في جميع البلاد، وغصّت جميع المساجد بالمجتمعين.

أما طهران فكان لها شأن عجيب حيث أن الناس فيها كانوا يتّقدون غيضاً على الإنجليز، ولم يكن لهم اجتماع عام؛ حيث كانوا ينظرون الى العلماء وينتظرون أمرهم في ذلك على حسب عادة الطهرانيين في أمثال هذه الأُمور.

وكان للعلماء شأن عجيب! فإن اليد الإنجليزيّة كانت تتلاعب بينهم؛ فتصدّهم عن اتخاذ قرار قطعي في هذا الشأن محتجّين بأنهم يخشون إذا قاوموا الإنجليز؛ أن يستفيد البلشفك من ذلك، وكانوا يعقدون مجالس خصوصيّة في دورهم تنقضي بصرف «البطيخ» والشاي؛ كأنهم يتبادلون الزيارات بينهم. وكانوا لايرعون أُذناً لمن يرونه مجدّاً في هذا الأمر حتى أنهم أهانوا «السيد أبا القاسم الكاشاني» أحد أعضاء جمعية الوفد العراقي، وضربوه في دار «شريعة مدار الرشتي» ولاذنب له سوى الجدّ في مقاومة الإنجليز.

ولكن تحامل الناس على العلماء وتهايجهم؛ ألجأهم الى عقد اجتماع عام؛ فعقدوه في «مدرسة المروي» وكان الناس يجتمعون هناك؛ والخطباء يُلقون الخطب المُهيّجة احتجاجاً على الإنجليز، إلا أن اختلاف العلماء بينهم، وأغراضهم الشخصيّة؛ لم تترك الإجتماع واحداً؛ حتى أُسس اجتماع آخر في «مسجد السيد عزيز الله» يرأسه من العلماء مَن كان يُضاد العلماء المجتمعين في مسجد المروي. فصار الإجتماعان يُبارز كل منهما الآخر؛ كأن كلا من المسجدين مَن يحسب الإنجليز في المسجد الآخر فيعمد الى مبارزتهم.

أما أعضاء جمعيّة الوفد العراقي؛ فكانوا يعملون ببطء وهدوء؛ فلم تكن تحصل

منهم الفائدة المطلوبة، ومن وراء ذلك أمثال سليمان مرزا؛ يُثبّطون الناس عن القيام بأي عمل.

وكان قلبي يتّقد غيضاً، وعقلي مودعاً عند ذلك الشيخ الذي يُناهز السبعين من عُمُره، والصبيان الذين نُفوا معه؛ فكنت أتلقّى تلك الحركات في طهران بكل سُخط. ولم أرَ بُدّاً من أن أُفرّق جمعيّة الوفد (ولذلك انحلّت) واجتماعات العلماء، وأقوم منفرداً بما أستطيع.

فانفردت في «المسجد الجامع» مع بعض صالحي العلماء، وانثال الناس هناك، فصرت أرقى المنبر كل يوم، مع أني لم أكن من أهله، وأخطب الناس بلغتهم؛ موضحاً فجائع الإنجليز في العالم الإسلامي، وما يقترفونه في العراق من الفضائع المؤلمة، فأثر ذلك أثراً عظيماً في الفكر العام.[1]

المظاهرات الكبرى في طهران

لما رأى العلماء ذلك دعونا الى توحيد الإجتماع خوف الفضيحة بين الناس؛ فكنت أول مَن أجاب. فاجتمعت المساجد الثلاثة في «المسجد السلطاني» فطلبوا منّي أن لا أرقى أنا المنبر، فأجبت بعد أن علمت أن الغرض من توحيد الإجتماعات أن لا أرقى أنا المنبر ولاتهيج الأفكار ضدَّ الإنجليز، ولكن إجابتي هنا لم تجدِ نفعاً؛ فإن الناس ضجّوا ضجّة واحدة، وأنزلوا خطيب العلماء من المنبر وأصعدونيه قهراً. وفرَّ العلماء في اليوم الثاني، فلم يحضر منهم أحد، وخُتمت بذلك اجتماعاتهم، وبقي الناس يجتمعون كل يوم في المسجد السلطاني وأرقى المنبر ذاكراً كل ما أستطيع من فضايع الإنجليز.

---

(١)ونُشرت أكثر تلك الخطابات في الجرائد «الوطنية» في طهران وخراسان، ثم جُمعت منها وطبع الجزء الأول في مطبعة خراسان، عدد صفحاته ١٢٦ صفحة تحت عنوان: «مواعظ إسلامي حضرت مستطاب حجّة الإسلام والمسلمين آقاي آية الله خالصي أدام الله أيّام إفاضاته در طهران» أي (الإرشادات الإسلامية لآية الله في طهران) – نشر في ذي الحجّة الحرام ١٣٤١ هجري. (الناسخ)

وهنا تأسست «جمعيّة المجتمعين في المسجد السلطاني» وهي جمعيّة قويّة شُكّلت على أساس متين، وعقيدة راسخة، وقامت بأعمال كبرى.

لما شاهد سفير الإنجليز «سر برسي لورين» ماصارت إليه البلاد الإيرانيّة؛ من الهياج العظيم، وأخفقت مساعيه في طهران؛ حيث كانت أشد البلاد تهايجاً، وأعظمها وجداً على الإنجليز. وسرى هيجان إيران الى القفقاس والتركستان، وشمل الأفغان والهند. لما شاهد سفير الإنجليز ذلك طلب من رئيس الوزراء «مشير الدولة» يتوقف العلماء في «كرمنشاه» ولا يتجاوزونها؛ حتى يمضي هو الى بغداد ويسعى برجوع والدي روحي فداه من منفاه، ورجوع العلماء الى العراق. فأجاب العلماء الى ذلك وتوقّفوا في كرمنشاه، ومضى السفير في طيّارة الى بغداد ليفاوض «سر هنري دوبس» المندوب الإنجليزي في هذا الأمر.

وإني وإن لم أكن موافقاً على توقف العلماء في كرمنشاه، وكنت أعتقد أن هذه مكيدة أُخرى دبّرها الإنجليز لتسكين فورة المسلمين وإيقافهم موقف المنتظر المتردد، لاموقف المتحمّس المتهايج. ولذلك لم أكف عن العمل، بل لزمت الإجتماع كل يوم، ودامت المظاهرات من المجتمعين؛ حتى عاد سفير الإنجليز، فصدق اعتقادي حيث أنه قال عند رجوعه لرئيس الوزراء: إن رجوع العلماء الى العراق غير ممكن؛ إذا لم يوافق فيصل والمندوب الإنجليزي عليه.

وإن تبعيد الشيخ الخالصي لم يكن بباعث مخالفته للإنتخاب فقط، بل إنه صمم على خلع فيصل، ولو لم يُقبض عليه ويُنفى لخلعه، وغير ذلك من الكلام الفارغ.

ولما علم الناس برجوع السفير بخفَّي حُنين زاد تهايجهم، وعادت البرقيّات من الولايات وجرى الحماس في عروق الناس، وصمم مجتمعو المسجد السلطاني على إجراء مظاهرة كبرى في شوارع طهران، وأمام السفارات الأجنبيّة.

وبينا نحن مشغولون في ترتيب مقدّماتها؛ إذ ورد «السيد محمد رضا المساوات» قائلاً: إني رسول من الحزب الإشتراكي إليكم. فقلت له: لتشتركوا في المظاهرة؟ قال: لا! بل لتمتنعوا أنتم عن إجرائها؛ لأنّا نخشى أن تنجرّ الى الإغتشاش والإضطراب،

وتنتهي بقتل الإشتراكيين. فقلت له: إنكم خَرِفتم فخَرِفت مفكراتكم؛ إذ لاربط لهذه المظاهرة بالإشتراكيين، وإنما هي ضدَّ الإنجليز الذين أبعدوا العلماء؛ فإن كنتم تخافون على أنفسكم فلا مجال للخوف، وإن كنتم لاترغبون أن يتظاهر الناس في الإشتراك بفاجعة العلماء؛ فإن رغائب الناس بأسرها ضدَّ رغائبكم، وإن كنتم ترغبون أن تُزوّروا على البسطاء؛ بأن الرأي العام معكم؛ فإن هذه المظاهرة ستكشف أن الرأي العام خلافكم.

لما سمع ذلك انصرف يائساً. وأجرى المجتمعون مظاهرة لم تُشاهد طهران نظيرها الى ذلك اليوم؛ فقد اجتمع في المسجد السلطاني زُهاء عشرين ألفاً. وبعد أن خطبتهم وأوصيتهم بالإنتظام في جميع حركاتهم. تحرّكوا يحملون الأعلام المكتوب عليها عبارات التنفّر من الإنجليز، وطافوا كثيراً من شوارع طهران، وتجمهروا أمام جميع السفارات؛ فكانوا يقفون أمام كل سفارة من تلك السفارت ويقرأون بصوت عالٍ ورقة احتجاج على أعمال الإنجليز العدائيّة في العراق، وجنايتهم بتبعيد العلماء، وشدّة تنفّر المسلمين من أعمال الإنجليز. ثمّ يُسلمون تلك الورقة الى السفارة وينصرفون. داموا على ذلك حتى أتمّوا السير الى جميع السفارات. وعادوا الى المسجد ولم يحدث أي حادث خلاف ظن رفقاء «المساوات» فأقبل هو وقال: أشهد أن الله معكم! إذ لم يتفق في طهران عُشر هذا الإجتماع سالم من الحوادث المؤلمة. فقلت: فاعملوا أعمالاً يكون الله بها معكم.

وأجرى المجتمعون مظاهرة أُخرى في شوارع طهران يتلون فيها الأناشيد المحزنة تنفّراً من الإنجليز، ومضوا الى مجلس المبعوثين؛ فقرأوا ورقة تُنفّر من الإنجليز، وذكروا أن الأمّة الإيرانيّة تطلب من مبعوثيهم أن لايتذاكروا في مسألةٍ قبل مسألة العراق، وأودعوا تلك الورقة في إدارة مباشرة المجلس؛ لتُقدّم إليه عند افتتاحه.

وأجرى المجتمعون مظاهرة أُخرى خارج مدينة طهران في ساحة واسعة أمام حديقة «مخبر الدولة» اشترك في تلك المظاهرة جميع أهل طهران؛ حتى الأمم غير المسلمة؛ من اليهود والأجانب المقيمين في طهران، وعُطِّلت لتلك المظاهرة؛ الأسواق

والمدارس، اشتركت جميعها في تلك المظاهرة. وتُليت فيها ثلاث خطب:

١ـ في حقد الإنجليز على العالم الإسلامي.

٢ـ أعمالهم الهمجيّة في إيران.

٣ـ فضايعهم في العراق.

وكان طلاب المدارس يُنشدون الأناشيد بين خطب الخطباء.

فعجب الإيرانيّون والأجانب من تلك المظاهرة التي لم يشاهدوا نظيرها. وأبدى الطهرانيّون من الحس الإسلامي، والغيرة الوطنيّة ما لامزيد عليه. وقد ذكرت الجرائد تفصيل تلك المظاهرات .

العلماء في قم

وبعد رجوع سفير الإنجليز خائباً، تحرّك العلماء من «كرمانشاه» قاصدين «قُم»، فشاهدوا في طريقهم من مفاداة النّاس ومن عواطفهم الدينية، ما أعجبَ كل أحد، وبلغ من الناس أنّهم يلقون بأنفسهم أمام سيارات العلماء، وحين وردوا قُم أغلق الايرانيون جميعاً في جميع البلاد جميع الأسواق والمخازن ثلاثة أيام احتجاجاً على تلك الفاجعة، وحزناً على ما دهى المسلمين من فظائع الإنجليز.

الإفراج عن آية الله

وقد اُفرِج عن والدي روحي فداه في اليَمَن وخُلّي سبيله، فاختار المضي الى زيارة بيت الله الحرام، لأن الموسم كان موسم الحج، فوردَت الى طهران برقية تخبر بحركته من اليمن الى مكّة.

ولمّا لاقى عدوّ الإسلام والعرب والشرق، «حسين» الذي تسمّى ملكاً على الحجاز، أنذره سوء عاقبة أمره وأمر ولده، وفضيحة الدارين لما يبدو منهما من الولاء للإنجليز،

والتحامل على المسلمين، والخيانة لهم، مما يؤدي الى زوال أكبر سلطان وأعظم مملكة، فكيف بمملكته الحقيرة وسلطانه المقهور؟.

فلَم تُجدِ نصيحته «للشريف» إلا ضعة وشوهة وإصراراً على الغي، وتمادياً في الضلال، حتى رأى سوء عاقبة أمره، وسيلحق به ابنه، ذلك خزي الدنيا، ولَعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.

وكان لآية الله في مكة والمدينة مقام عظيم، قلّما شوهد مثله لأحد قبله. وأحدث إصلاحات في النادي العربي الذي عُقد تلك السنة في الحجاز، ولكنها لم تُجدِ، إذ كان رأس ذلك النادي مِلك الحجاز، رأس الفساد، عليه وعلى أولاده لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ما طلعت شمسٌ وغربت.

وبعد إكمال الخالصي فريضة الحج وتشرفه بزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قصَدَ إيران بطلبٍ من الوزارة الإيرانية، فلما جاء «البحرين» خرج أهلها الى باخرته يطلبون نجاتهم من الإنجليز، وإرسال حاكم من طهران إليهم، على نحو سائر البلاد الإيرانية، فوعدهم بذلك ظانّاً أنّ إيران ستُلبّي طلبهم، ثم قصد «بُوشِهر»، وهناك كان اجتماع أهل البلد وملحقاتها، وأهالي البلاد النائية الذين أمّوا بوشِهر لاستقباله، فجرى له من الإستقبال مالم يسبق له مثيل.

ومن الغريب أنّ إنجليزياً هجم على سيّارته هناك قاصداً ضربه، حقداً وحنقاً ـ وليس ذلك من حقد الإنجليز بغريب ـ! فكادت تقع بسبب ذلك اضطرابات بين المسلمين والإنجليز، ولكن انتهت الحادثة بسلام.[1]

ولمّا استخبرناه عن تلك الحادثة أبرق إلينا قائلاً: «إن صوت بنادق الإنجليز طنين الذباب فلا تعبأوا به».

وبارَحَ «روحي فداه» بوشهر قاصداً قُم من طريق «شيراز» و«أصفهان»، فأجرى المسلمون في جميع المدن التي مرّ عليها ما هو مقتضى ديانتهم وحميّتهم، وما أذهب

(١) ولقد تقدّم منا بعض الكلام عن تلك الحادثة، وفتواه في بوشهر وملاقاته لشريف مكة في هذا الكتاب. (الناسخ)

عناءه الذي لاقاه من الإنجليز، وكان في طريقه ضيفاً على الوزارة، وفي البلدان ضيفاً على علمائها.

وفي شيراز أصدر أوامره بجمع المال ولو كان من سهم الإمام، أو الوجوه البِريّة لشراء بواخر حربية تقي ساحل إيران، فطُبع ونشر هناك[1]، وقام والي شيراز «فيروز ميرزا» هناك بخدمات لائقة خلّدت له ذِكراً جميلاً في التاريخ؛ حتى قال يوماً لآية الله: «ليس في إيران مسلمٌ إلاّ الشيخ أحمد شاهرودي» ـ لأنه جمع له من أغنياء «شاهرود» مالاً وأرسله اليه.

فقال آية الله: «إذاً يجب البقاء في إيران والسعي الحثيث في حمل الإيرانيين على الديانة الاسلامية».

ولمّا ورد قم وجد العلماء الذين أُبعِدوا على أثر تبعيده قد أوفدوا رسولين منهم لمذاكرة فيصل، فتأثّر من ذلك أشدّ التأثر وقال للعلماء: «إنّ عملكم هذا غاية في ضعف النفس، وكيف تفاوضون رجلاً أبعَدَكم عن بلادكم خدمةً للانجليز؟!».

وطلب منهم الإقلاع عن هذا الأمر، والبقاء في إيران، والسعي في إنهاضها حتى تستطيع إنقاذ العراق.

وكان العلماء لايرغبون في ذلك لسوء ظنّهم بالإيرانيين، سيّما السيد (أبو الحسن) الذي ما كان يذكُر إيران بخير، وكانوا يخشون أن يبقوا في إيران فيترأس في النجف «السيد محمد الفيروزآبادي» وكان يسعى جهده لذلك، وكتب الكتب الى إيران بعد نفي العلماء قائلاً: إن الهيئة العلميّة في النجف مشغولة في البحث والدرس، وإن العلماء على أحسن حال. وكان ينتقص العلماء المنفيين في كتبه؛ إرضاءً للإنجليز، وليتفرّد بالرياسة فيما يزعم. إلا أن مَلَكَ الموت كان من ورائه وهو غافل؛ مات ولم ينل شيئاً مما كان يأمل.

وكان «الشيخ عبد الكريم [الحائري] اليزدي» لايرغب في بقاء العلماء في قم ليتفرّد

---

(١) تقدّم إن منبع الفتوى كانت في «بوشِهر» ثم صار آية الله يرتب عليها الآثار في كلّ بلد يصل اليه من بلاد إيران. (الناسخ)

برياستها؛ فكان يُعارضهم من وراء ستار.

وبالجملة: كان المنفيّون طالبي رياسة، لاخدّام شريعة؛ فما كانوا يرغبون في البقاء فيها لحسبانهم الرياسة في النجف.

وبعد ورود آية الله الخالصي عزم «الشاه أحمد»(١) على المضي الى بلاد الإفرنج من طريق العراق، فغاض من ذلك العلماء ونهوه فلم ينته. ومضيت الى «سردار سبه» وكان رئيس الوزراء بعد «مشير الدولة» فأخبرني أنه سيمضي غداً الى قم مع الشاه لوداع العلماء. فتأثرت من ذلك وقلت: ألم ينته الشاه عن الذهاب الى بلاد الإفرنج؟ قال: لا! فقلت: أنا أمضي الى قم قبلكم، وهناك أُمانع الشاه بمحضر من العلماء.

فتبانينا على ذلك وتحركت في سيّارة قبيل الفجر الى قم مع «الشيخ حسين اليزدي» ومدير جريدة «شفق سرخ» ولكنّ سيّارة الشاه ورئيس الوزراء سبقتا سيّارتي، ولم أرد قم إلا بعد خروجهما منها، فسألت سردار سبه: هل منعوا الشاه عن سفره؟ قال: لا!. وتبيّن أنه لم ينهه أحد إلا الوالد «روحي فداه» ولم يؤثر عليه؛ لأنه كان مصمماً على الحركة على أي حال خوفاً من سردار سبه(٢).

ففارقته ووردت الى قم ونلت أقصى مناي؛ بتقبيل يدي والدي «روحي فداه». وكان الإنجليز قد فرّقوا بيني وبينه زمناً طويلاً. ومكثت بخدمته يتمتع ناظري بالنظر الى طلعته. وكنت أود البقاء بخدمته إلا أن البرقيّات كانت تتوالى من مُجْتَمِعي المسجد السلطاني، ومن جميع أهل طهران؛ يدعونني إليها، فاضطررت الى مفارقته والرجوع الى طهران.

---

(١) آخر ملوك السلسلة القاجارية في ايران اطاح به رضا خان البهلوي وأسس السلسلة البهلوية.

(٢) وكان آية الله قد حذّر الشاه أحمد من استيلاء رضا خان على الملك بفراقه إيران؛ فلم يسمع تلك النصيحة. وكان آية الله ينظر الى عواقب الأمور في جميع الحالات. وكان رضا خان قد حقد بذلك على آية الله؛ فلمّا تم له الأمر عاتب آية الله على ذلك في رسالة أرسلها إليه وهو في خراسان. (الناسخ)

أهالي قم

ولقد شاهدت في قم أعجب العجب! فإني وجدت أُناساً قد فقدوا الحس والشعور، ليس لهم علم بأُمور الدنيا ولا الآخرة، كأنهم ليسوا من أهل الأرض، أو أنـهم أمـوات يتحرّكون.

قال والدي «روحي فداه» يوماً: كنت أعجب حينما أنظر في الأخبار أن قم مصونة من البلاء إذا عمَّ أهل الأرض في آخر الزمان حتى رأيتها فعرفت سرَّ ذلك؛ إذ أن البلاء إنما يُصيب الأحياء من أهل الأرض، وأهل قم ليسوا في الأحياء، ولا من أهل الأرض!.

رأيت هذا الحال في قم فأحزنني أن يكون في بلاد الإسلام بلدة مثل قم بعيدة عن العالم الإسلامي؛ لاتدري مانزل بالمسلمين، ولا تعرف شيئاً من التكاليف الشرعيّة في هذا الزمان. فاضطررت الى صعود المنبر في الصحن الشريف؛ وأخذت أقرع مسـامع الناس بالتكاليف الدينيّة، والأوامر الشرعيّة، وأذكر لهم ماحلَّ بالمسلمين، وأُبـين لهـم الوظائف الإسلاميّة في هذا الزمـان؛ سيّما مـايجب عـلى الروحـانيين القـيام بـه مـن الواجبات الدينيّة. فتحرّك الناس، وهاجت إحساساتهم شيئاً قليلا.

وكان عمّال الإنجليز أرادوا أن يُعلموني مبلغ جهل القمّيين ليسـتولي عـليّ اليأس؛ فأتركهم وأنصرف عن هدايتهم. فأعلنوا في البلدان أن بواخر الإنجليز الحربيّة تبارزت مع بواخر إيران الحربيّة في بحر «قصر شيرين» وبعد حـرب عـظيمة أُغـرقت جـميع بواخر إيران والسبب في ذلك؛ هو ماظهر من الإيرانيين من النفرة من الإنجليز، والهياج العام ضدّهم. فاللازم على الإيرانيين السكوت لئلا يُـصيب إيـران أكـثر مـن ذلك مـن الضرر. وعلّقوا أوراقها بهذا المضمون في الأزقّة والأسواق وعلى باب الصحن. فخمد القمّيّون، وأثّر ذلك عليهم أثراً عظيماً.

وبعد عناء عـظيم اسـتطعت أن أُفـهمهم أن هـذه الأوراق أذاعـها عـمّال الإنـجليز؛ للإستهزاء بالقمّيّين، وإن إيران ليس لها بواخر حربيّة، وإن «قصر شيرين» في بـرٍّ أقـفر لايوجد فيه ماء وافر فضلاً عن البحر.

ولما أوشك الناس أن يفهموا ذلك، وتتهايج إحساساتهم؛ أذاع عمّال الإنجليز على الطريقة السالفة إعلاناً مضمونه؛ أن أهالي «يزد» أجروا مظاهرة كبرى بمناسبة تبعيد العلماء ضدّ الإنجليز؛ فجاءت طيّارة إنجليزيّة فاختطفت منهم شيخاً وعجوزاً وطفلة ومضت بهم الى لندن، فعلى أهل قمّ أن لايتحرّكوا بأدنى حركة؛ لئلا يُصيبهم مثل ما أصاب أهل يزد. فلما شاع ذلك في قم استولى على أهلها الخوف والرعب. ولم أُزل الرعب عن قلوبهم إلا بعد عناء شديد.

وقد لاقيت من طلاب قم وعلمائها مالم أكن أرجوه؛ فإنهم كانوا يرون الدين منحصر في الصوم والصلاة دون أبواب الفقه الأُخرى، وإن الرقيّ والعمران والدفاع ومساواة الأمم الراقيّة بالعلم والثروة، كل ذلك منافياً للشرع؛ فلذلك قاومني بعضهم أشدّ المقاومة، وانتهى الأمر الى أن رقى أحدهم المنبر أمام صلاة «الشيخ عبد الكريم اليزدي» وأظهر أن الدعوة الى غير الصلاة والإنعزال؛ مناف للشريعة الإسلاميّة، إلا أنه لم يؤثر على الناس شيئاً، وما لبث القمّيّون أن تهايجوا وأجروا مظاهرة كبرى مضوا الى دور العلماء المبعدين والى دار الشيخ عبد الكريم يطلبون منهم تعيين التكليف الشرعي في هذه الأزمنة التي انتاب المسلمين فيها من الأجانب أنواع المصائب. فلم يحصلوا على النتيجة المطلوبة من العلماء؛ إذ أن بعضهم وإن أوجب مبارزة الإنجليز، والسعي لرقيّ إيران وسائر البلاد الإسلاميّة، إلا أن البعض الآخر أحجم عن بيان التكليف الشرعي. وبقي الأهلون في اضطراب لايدرون ماذا يصنعون.

ورأيت أن البقاء في قم تضييع للوقت بلا جدوى، وإن إصلاحها، وتنوير أفكار أهلها؛ صعب مستصعب، وإن تنوير أفكار أهل العاصمة وإصلاحها ينجر الى إصلاح قم وغيرها. وكانت البرقيّات تتوالى بطلبي الى العاصمة، وبلغني أن إمام الجمعة هناك أغلق المسجد السلطاني في وجه المجتمعين.

فودّعت والدي «روحي فداه» وعدت الى طهران، وحين وردتها؛ وجدت جميع الإجتماعات قد تفرّقت، ووجدت فريقاً من أهل العمائم قد قاوموا مُجْتَمِعي المسجد السلطاني؛ لأنهم لم يتفرّقوا، حتى أقفل الإمام بابه في وجوههم، ولايُفتح إلا بأمر من

«سردار سبه» رئيس الوزراء.

فمكثت هناك أرقى المنبر كل يوم؛ أدعو الناس الى مافيه صلاح الدنيا والدين، ومناوأة المشركين والملحدين.

أما والدي «روحي فداه» فبقي في قم ناقماً على العلماء لإرسالهم مندوبين الى «فيصل» لمذاكرته. ولما رآهم مصممين على الرجوع الى العراق على كل حال، لم ير بُدّاً من مفارقتهم والمضي الى زيارة الإمام الرضا عليه السلام.

عزم آية الله على السفر الى خراسان

فأبرق إليّ بتهيئة لوازم السفر؛ فهيّأتها وأرسل «سردار سبه» سيّارته الى قم لنقله وتهيّأ أهالي طهران لاستقباله وأعدّت الوزارة لوازم الإستقبال، وأعدّت للناس العجلات والمواكب، وهيّأت القطار للمستقبلين الى «شاه عبد العظيم». وأعدّت نقابة التجّار مأدبة شائقة على بُعد فرسخين من «شاه عبد العظيم» ومجتمعوا المسجد السلطاني مثلها على بعد فرسخ، والوزارة في حديقة «ملك التجّار» والأحرار في حديقة «سراج المُلْك».

فتحرّك «روحي فداه» من قم بمن معه؛ حتى ورد الى أوّل المستقبلين، وأقبلت العجلة السلطانيّة فركبها. وتوقّف قليلاً في كل الأماكن التي أُعدّت للإستقبال؛ حيث تُليت خطب الترحيب وظلّت العجلة تمشي بين مواكب المستقبلين؛ رجالاً ونساءً. حتى ورد الصحن الشريف، وبعد الزيارة توقّف قليلاً في مرقد «ناصر الدين شاه» وتلوتُ هناك خطبة شكر على ماقام به الناس من الوظائف الدينيّة في هذا الإحتفال العظيم. حتى مضى «روحي فداه» الى الدار التي أُعدّت لمقدمه المبارك الميمون، وتفرّق الناس راجعين الى طهران.

ومكث «روحي فداه» أُسبوعاً في «شاه عبد العظيم» زاره فيه جميع الناس؛ من علماء ورجال ووزراء وأشراف ـ مَن اشترك في استقباله ومن لم يشترك ـ وزاره أيضاً

جماعات من النساء، وزاره هـناك رئـيس الوزراء؛ وطـال بـينهما الحـديث أكـثر مـن ساعتين، فسرَّ برئيس الوزراء، وتوسّم فيه الخير لإيران.

وبعد ذلك تأهب للسفر الى «خراسان» فأعدّت الوزارة عـجلتين لسـفره، وشـايعه أصناف الناس؛ من علماء ووزراء وأُمراء وتجّار وغيرهم. ولقي في الطريق في جـميع المدن التي مرَّ عليها؛ من الإحتفالات مالم يُشاهد لها نـظير. وكـان «مـلك المـحققين» يخطب الناس في كل مدينة يمر عليها؛ يُعرِّف الناس ـ عن لسان أكـبر المـجتهدين ـ واجباتهم وما يجب أن يعملوه شرعاً؛ لترقية بلادهم، ونمو ثروتهم، وإصـلاح حـالهم لمقاومة الأجانب الذين هم بصدد الإستيلاء على ممالكهم.

فأثّر ذلك أثراً عظيماً في جـميع تـلك البـلدان؛ حـتى خـلع أكـثر أهـاليها الألبسـة الأجنبيّة، واعتاضوا بها الألبسة الوطـنيّة، ونشـطت الفكـرة الإسـلاميّة ضـدّ الإسـتعمار نشاطاً عجيباً. وهكذا قطع الطريق الى أن ورد «المشهدالرضوي».

آية الله الخالصي فيخراسان

وهناك احتفل به الناس احتفالاً شائقاً، فاشترك في استقباله؛ العلماء والأُمراء وجميع الطبقات. وجرى له من التبجيل مايليق بمقامه ممّا لم يجر لأحد قبله.

وأقام في «المشهد الرضوي» مشتغلاً بالتدريس والتأليف وإرشاد الناس وتـنبيههم والإفتاء ونشر الفتاوى على المقلِّدين، سدّده اللـه وأبـقاه لتـثقيف الإوَد، وإقـامة عـمد الحقّ.

عودة العلماء المنفيين الى العراق

وأمّا بقيّة العلماء؛ فإنهم بقوا في «قم» يُفاوضون «فيصلاً» بواسـطة مـندوبهم؛ عـلى غاية من ضعف النفس، وبُعْدٍ من واجبات الشرع، حتى انتهى الأمر بـإذن «فـيصل» أو

الإنجليز برجوعهم الى العراق؛ على شرط أن لايرجع الوالد «روحي فداه» وأولاده إليه. وأن لايتداخل العلماء في الأُمور السياسيّة، ولاينشروا فتاوى تضرّ بمصالح الإنجليز.

رضي السيد أبو الحسن والميرزا حسين بذلك فاقتسموا الشرع هم والإنجليز؛ فكانت لهم من أبواب الفقه: الطهارة والصوم والصلاة والنكاح والإرث، وللإنجليز: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والدفاع والسبق والرماية والتجارات والحدود وجباية الأموال وغيرها، لايُباح للعلماء المداخلة فيها!.

رضي ضعفاء النفس بذلك فعادوا الى العراق في وقت كان لإيران بهم أشدّ الإحتياج؛ كما سيأتي في فصل الجمهوريّة. ومانعهم الإيرانيّون فلم يمتنعوا ونقم الناس عليهم أشدّ نقمة.

ولمّا وردوا حدود العراق؛ أوقفوهم عليها عشرة أيام حتى أخذوا منهم صكّاً بالشرطين المتقدمين. ودخلوا العراق على سُخط من أهله يلومونهم في كل مكان، ويُطالبونهم بمجيء الوالد «روحي فداه» قائلين: على مَ ذهبتم ورجعتم؟ (لم يكونوا قد اعطوا صكّاً للإنجليز بعدم المداخلة في الأُمور السياسيّة، فمضوا الى إيران ليعودوا مقيّدين بذلك الصكّ).

وقد صادف رجوعهم إجتماع المجلس التأسيسي الذي كانوا حرّموا انتخابه؛ فأوجب ذلك شدّة نقمة العراقيين، وكان الإنجليز على ثقة من ضعف نفوس أولئك العلماء؛ ولذلك لم يعبأوا بتلك الإحتجاجات والمظاهرات الشديدة من العراقيين والإيرانيين؛ لعلمهم أن أولئك العلماء سوف يرجعون الى العراق راضين باقتراحات الإنجليز، ويفتّوا بعضد المتظاهرين والمحتجّين.

ولقد حدّثني «مشير الدولة» عمّن حدّثه ـ لما كان رئيساً للوزراء ـ عن سفير الإنجليز قوله: إنّا لانعبأ بهذه الإجتماعات والمظاهرات ؛ لأن هؤلاء العلماء سوف يعودون الى العراق؛ إذ أن دكاكين رياستهم إنما تُفتح هناك، وهم لايقدمون على إغلاقها. فحقق العلماء ظن سفير الإنجليز. لكنّا أقدمنا على إغلاقها، وهي أوفر من دكاكين غيرنا خدمة

للحق ونصرة للدين(١)

حالة إيران بعد رجوع بعض المنفيين من العلماء

وقبل رجوع أولئك العلماء الى العراق؛ كانت تـفرّقت جـميع المـجامع الإيـرانـيّة، وعرى الناس سبات دائم لطول المدّة، ولئن تلك المـجامع كـان أسـاسها مـتزلزلاً؛ إلا المسجد السلطاني فإنه دام اجتماعه، وقام بأعمال تُذكر.

وكنت أُفكر في حال إيران؛ فتحزنني حتى أنستني العراق تقريباً، ولذلك اغـتنمت فرصة تنبه الأفكار لحادثة تبعيد العلماء؛ فأخذت أسعى جُهدي بـإزالة الأخـطار التـي كانت تُحيط إيران وتهددها من كل جانب. وقد ساعد الرأي العام الإيراني على ذلك؛ فتأسست «جمعيّة المسجد السلطاني» وداومت على أعمالها. وكان موقعها حرجاً جداً تنتابه الأخطار؛ من الداخل والخارج.

ولمعرفة ذلك، يجب النظر في حالة إيران العامّة؛ ليـنكشف حـراجـة مـوقف مَـن يتصدّى للإصلاح مع تلك الحالة التعسة.

نظرة عامّة الى وضعيّة إيران

١ـ الوضعيّة السياسيّة والإداريّة

كانت الوضعيّة السياسيّة والإداريّة في إيران على غاية من الخلل؛ فإن التشكيلات الإداريّة ناقصة مختلّة، ويُضاف الى ذلك أنها ليست بأيـدي أكـفّاء؛ لأن الإدارات فـي إيران يديرها من له نفوذ شخصيّ، أو من يحمل توصية من أهل النفوذ، أو من يخشى

(١)تتمة هذا الفصل من ترجمة «والدي قدّس سره» بعد اختتام هذه الرسالة فراجعه. (المؤلف)

الوزراء والرؤساء لسانه أو قلمه، أو من يحمل توصية من إحدى السفارات الأجـنبيّة؛ ولاسيّما سفارة الإنجليز التي كانت تـتداخـل فـي جـميع الإدارات؛ مـن الوزارات الى أقصى الدوائر الرسميّة. فلذلك كان من يخدم مصلحة إيـران فـي دوائـرها نـادراً، بـل معدوماً؛ لأنه لم يُستخدم لذلك. وكان الأكفّاء إلا من قلَّ في معزل عن الدوائر الرسميّة وخدمة الدولة.

وكنت أعلم أن إيران دستوريّة قانونيّة، فحين خبرتها رأيتها؛ دولة مستبدّة لاتعرف للقانون معنىً وإن كانت دستوريّة إسماً.

فإن السلطة بيد «سردار سبه» لايُنازعه فيها أحـد؛ يـقتل ويـحبس ويـنفي بـإرادتـه الشخصيّة دون أن يُعارضه أحد، ويسوق الجنود الى أيّ نقطة أراد؛ فيُفني ويُبيد القبائل ويغتنم أموالهم، ويفعل مايشاء دون أن يعلم بذلك أحد؛ فضلاً عن أن يتّبع فـي ذلك القانون.

وقد مرَّ أن بعض نواب «آذربايجان» اعترض فـي المـجلس النـيابي عـلى وجـود الإدارة العرفيّة في «تبريز» فماكان من «سردار سبه» إلا أن أجرى مظاهرة عسكريّة في شوارع طهران يُهدد بها النوّاب ويُخيفهم.

فالمجلس لم تكن له إرادة قبال إرادة ذلك الرجل، فهو وإن كان وزير حرب إسماً إلا أنه كل الوزراء معنى؛ إذ لايستطيع أحد، ولاقوة، ولاقانون أن يجري على خلاف إرادته. أما المجلس النيابي؛ فمضافاً الى أنه كان ضعيفاً أمام «سردار سبه» وجدت أكثر أعضائه يستولي عليهم؛ الجهل، والخمول، وضعف النفس، وفقدان الشهامة والشجاعة الأدبيّة، لايصلحون لأي عمل يُجدي في إصلاح البلاد. ولذلك كان عملهم منحصراً في مناظرة رؤساء الوزراء؛ لأن رئيس الوزراء كان ضعيفاً إذ ذاك. فهم يوقفونه كل يوم ويسألونـه عن الدرهم والدينار، ويُنادون بعزله. وقد استوقف واستوضح «قوام السـلطنة» رئـيس الوزراء في المجلس النيابي لثلثمائة تومان صرفها من إدارة البـريد فـي سـبيل عـجلة أركب فيها أحد العلماء الى خراسان. وأصر سليمان ميرزا ورفاقه مـن النـوّاب؛ حـتى اضطرّوه الى الإستعفاء.

أما «سردار سبه» فلم يكن أحد يستطيع سؤاله وإن فرّط في نفوس إيران وأموالها جميعاً! ولذلك تبدّلت ثلاث وزارات مدّة ثلاثة أشهر:

وزارة «قوام السلطنة» ووزارة «مستوفي الممالك» ووزارة «مشير الدولة».

إلا أن «سردار سبه» في كلها وزير حرب لايستطيع أحد تغيره. وأغرب من ذلك أنه يُداوم على عمله حين استعفاء رئيس الوزراء الى تشكيل الوزارة الأُخرى كأن الوزارة لم تستقلّ، أو أنه مستقلّ بنفسه لاتشمله استقالة الوزراء!.

والحقيقة أنه لم يكن يعتني بقانون المملكة؛ فإن مجلس النوّاب حين أظهر عدم اعتماده على وزارة «قوام السلطنة» استقال جميع الوزراء إلا وزير الحرب. وهكذا حين أظهر عدم اعتماده على وزارة «مستوفي الممالك».

والعجيب أنه بعد استقالة «مستوفي الممالك» دعى معاوني الوزراء وحثهم على العمل كأنه رئيس الوزراء، والقانون يقضي بانعزاله عن وزارة الحرب!.

٢ـ الوضعية العسكريّة في إيران

ومن هنا تعرف وضعيّة العسكريّة الإيرانيّة؛ فإن لإيران من الجند زُهاء (ثلاثين ألفاً) تحت إدارة وزير الحرب؛ إلا أنها لم تكن مجرية للقانون، ولم يكن لهيئة الوزارة فيها أدنى دخل، بل كانت تابعة لإدارة وزير الحرب يُصرِّفها حيث يشاء. وقد انكشف ذلك جليّاً حين استعفائه من رئاسة الوزراء؛ على أثر إخفاق مساعي الجمهوريّة كما سيجيىء. فإن أُمراء الجند أبرقوا الى مجلس النوّاب برقيّات الإنذار والوعيد، وهدّدوهم بالقتل، وضربوا موعداً لرجوعه؛ ثمانية وأربعين ساعة، إن لم يعد في خلالها؛ يُهاجمون طهران بجيشهم، ويقتلون كل مَن خالف إرادة «سردار سبه».

من هنا يُعلم أن الجند لم يكن جنداً قانونيّاً إداريّاً، بل كان أشبه بأفراد القبائل الذين يلتفّون حول رئيس القبيلة لإجراء إرادته الشخصيّة. نعم إن رئيس القبيلة يُموِّن قبيلته من ماله، وهذا من مال الأمّة!.

وكان في إيران رؤساء متعددون أُلوا قوّة وسلاح؛ فأبادهم «سردار سبه» وخلع

سلاحهم، وحصر القوّة بنفسه لشخصه لا للأُمّة.

فلذلك كنت ناقماً خلع سلاح القبائل؛ لأنه لايعود بالخير على المملكة مالم يكن جندها قانونيّاً، وإن وجود السلاح عند القبائل رُبّما يعود على المملكة بالخير في بعض المواقع؛ كما انكشف ذلك في معاهدة «وثوق الدولة» ومقاومة بعض القبائل لها و«لدَرَك» الجنوب الذي شكّله الإنجليز للإستيلاء على جنوب إيران.

وكنت أعتقد أن تلك المقاومات من القبائل؛ أعطت درساً جديداً للإنجليز في السياسة الإيرانيّة. فصمموا على خلع سلاح القبائل بهذه الطريقة.

حتى إذا خلت القبائل عن السلاح؛ عملوا ماشاءوا. ولايمكن الإطمئنان بأن «سردار سبه» لايسعى غداً مع الإنجليز فيما يضرّ إيران، ولو أراد ذلك فمن الذي يصدّه وهو لايعرف حرمة للقانون.

بالأمس إذا أرادت إحدى القبائل موافقة الإنجليز هُددت بقبيلة أُخرى. وبماذا يُهدد اليوم «سردار سبه» إذا وافق الإنجليز؟.

مشاهدة هذه الوضعيّة كانت تقلقني، وكنت أُفكر في الطريقة التي تجعل هذا الجند ملكاً للدولة والقانون، لاشخصيّاً.

وكنت على خلاف بعض المفكّرين الذين كانوا يرون ضرورة حلّ هذا الجند، بل كنت أرى لزوم إصلاحه. (راجع استيلاء سردار سبه على إيران).

٣ـ الوضعيّة الماليّة والقضاء في إيران

أما ماليّة إيران فكانت مختلّة جداً؛ قوانينها وإدارتها. وهكذا القضاء؛ فإن وزارة العدليّة إسم بلا رسم، والقانون الشرعي معطّل في تمام المملكة، وليس فيها قوانين تصلح للقضاء بوجه من الوجوه.

٤ـ وضعيّة إيران الخارجيّة

هذه من الجهة الداخليّة، وأما خارجيّتها فكانت تتنازعاها جارتاها روسية وإنجلترا؛

أما الإنجليز الذين مُنوا بنهمة الإستعمار فلم يكن همهم إلا الإستيلاء عليها، ولذلك مهّدوا وسائل متينة للغاية جعلت نفوذهم سارياً في جميع شرايين المملكة وأوردتها. وأما الروس فإن نيّتهم وإن كانت إحداث انقلاب «بلشفي» في العالم بأسره إلا أن همتهم في إيران كانت منصرفة نحو تقليص نفوذ الإنجليز لاغير؛ لأنه المرحلة الأولى من طريقهم الى مقصدهم الأصلي، فكانوا يسعون لذلك جهدهم.

٥ـ الوضعيّة الإقتصاديّة

رزق الله إيران من الثروة الطبيعيّة مالم يرزق غيرها من البلاد. ولقلّة نفوسها، ووفور أراضيها وصلاحها للزراعة، وكثرة معادنها؛ كان يجب أن يكون أهلها على جانب عظيم من الثروة. إلا أن الجهل يُبيد كل شيء؛ فالفقر شامل جميع أفرادها، تراهم يتضورون جوعاً في الأراضي الخصبة. وصادراتها التي كانت منحصرة من طريق روسيا بلغت حدّ الصفر بعد الإنقلاب الروسي؛ فكانت واحداً من مائة بالنسبة الى وارداتها. والذهب فيها نقله الإنجليز وأبدلوه بورق نقدي باسم «المصرف الشاهنشاهي» الذي تُديره شركة إنجليزيّة، وأسواقها بيد ذلك المصرف؛ فهو يجدّ في أن يبقيها بحال الكساد.

وشوارعها وطرقها لاتصلح للحمل والنقل، لم تُعبّد ولم تُمدّ فيها السكك الحديديّة.

ومعادنها لم تُكتشف؛ سوى نفط الجنوب الذي قبض عليه الإنجليز ولم تنتفع به إيران. والناس فيها في عطالة دائمة؛ لعدم وجود شغل فيها لأحد.

والزراعة فيها منحطّة جداً، لم تُستعمل فيها الوسائل الزراعيّة الحديثة.

ومياهها تُدّخر في بطون الأرض لم ينتفع بها الزارعون.

٦ـ حالتها العلميّة

لايوجد في إيران كلها مدرسة عالية، ولا دار للعلوم، ولا مدرسة للصنايع عدى

مدرسة للصنايع المستظرفة في طهران تُعرف بمدرسة «كمال الملك» وهي كالماشطة لوجه العجوز السوداء. وليس في قُراها مدرسة ابتدائيّة. ويوجد في العاصمة، وفي بعض الولايات؛ قليل من المدارس المتوسطة على غاية من الإختلال، قد لاتساوي المدارس الإبتدائيّة في البلاد الأُخرى، وقليل من المدارس الإبتدائيّة مختلّة غاية الإختلال.

لها وزارة معارف؛ لا أدري ماذا تصنع؟ وما عسى أن تصنع وميزانيتها لاتفي بشيء؛ لأن أكثر ماليّة الدولة خُصصت للجند الذي وصفناه.

منهاج معارفها يُضحك الثكلى. لم يبق فيها من مدارسها الديـنيّة الكـثيرة إلا بـقيّة أنقاض بالية تسكنها هياكل الأوساخ والقذارات الذين يرون شم الهواء خروجاً عن الدين.

ليس في اللغة الفارسيّة مؤلفات مفيدة؛ لا إبتدائيّة ولا عالية، مع أن إيران كانت مهد التأليف سابقاً في جميع العلوم.

غالب أهلها أُميّون لايعلمون شيئاً من أُمور الدنيا ولا من أُمور الدين مع ما رزقهم الله من الذكاء الفطري.

٧ـ حالتها الصحيّة

ليس في إيران معاهد طبيّة إلا المجلس الصحي فيطهران الذي يُديره «سردار أمير أعلم». وليس من المستشفيات إلا النزر اليسير. ولوازم الصحّة مفقودة في جميع قراها، وأكثر مدنها، فلا يرون طبيباً قط، ومن بُلي من أهل القرى بمرض من أهون الأمراض لامندوحة له إلا أن يصبر حتى يموت.

فالأمراض فيها تفتك بلا رحمة؛ مع حسن هوائها، وعذوبة مائها ويبس جوّها.

وكثير من أهلها تغلب عليهم الشهوة؛ وقد أتحفتهم المدنيّة الأوربيّة بتحفها الثمينة من الأمراض الزهريّة، وأمراض المُسْكِرات. والبطالة معينة على ذلك، ومجلبة للفساد؛ حتى فشى فيها الزنا، وكثرت الزواني، وفشت الأمراض السارية بسبب ذلك.

ولقد حدّثني بعض أطبّاء طهران: أن ثمانين بالمائة من أهل طهران مصابون بالأمراض السارية، وتسعين بالمائة من أهالي «رشت» وأيد ذلك كثير من الأطباء.

وقال أحد نوّاب «كرمان» «سردار نصرت» وهي من أهم أكبر ولايات إيران: إن خمسة آلاف طفل فُقِدوا بإصابات الجدري في مدينة كرمان، ولم يوجد طبيب للتلقيح، مع أنه من أسهل الأدواء، ودواؤه أسهل دواء.

فإذا كانت هذه حال أكبر الولايات؛ فما عسى أن يكون حال القرى والقبائل.

ويزيد على انهماك الإيرانيين باللذات الجالبة للأمراض المبيدة للنسل والثروة المؤدية الى البطالة أن لهم انهماكاً غريباً؛ بـ«الأفيون والحشيش» وغيرهما من أنواع الدخانيّات المضرّة التي تفتك بالإيرانيين فتكاً ذريعاً؛ لشيوع استعمالها عندهم، ولاسيّما «الأفيون» الذي شاعت زراعته في إيران.

٨ـ الأحزاب السياسيّة والنقابات

إذا كان يوجد في ممالك أوربا بعض الأحزاب والنقابات؛ فإن جميع ما في أوربا من الأحزاب موجود في إيران. ولايسمع الإيرانيون إسم حزب شُكِّل في أوربا إلا أسسوا له ممثلاً في إيران. ويُضاف الى ذلك أحزاب تؤسس باسم الدين كـ«جمعيّة أحرار إسلامي» و «ديانة مليّون إسلامي» وغيرها. والغرض من تلك الأحزاب المختلفة واحد؛ وهو تفوّق مؤسسيها على غيرهم، واتخاذها وسيلة لاستجلاب الرزق من طريق البطالة.

ولم أجد واحداً من تلك الأحزاب بصدد تغيير إيران، وإخراجها من حالتها التعسة الحرجة. وإن كانت أنظمة تلك الأحزاب الأساسيّة مشعشعة تُبهج الناظر، إلا أنها حبر على ورق، لايعمل بها أحد؛ كُتبت لخدع العوام، واتخاذهم آلة لأغراضهم الشخصية.

رأيت ممثلي الإشتراكيين يعترضون على «قوام السلطنة» رئيس الوزراء في آخر الدورة الرابعة محتجّين بأنه فرّط في إرسال بعض أشخاص مجّاناً في بريد إيران، وهذا لايُكلّف الدولة أكثر من خمسين توماناً مثلاً، ثم رأيتهم يُصوبون إضافة عشرة آلاف

توماناً في كل شهر الى راتب «الشاه» ومقدار ستين ألف تومان الى رواتب أعضاء السلطنة والبلاط الملكي.

وواجهت أحد ممثليهم «سليمان ميرزا» فوجدته ناقماً على «سردار سبه» ذاكراً له بكل سوء، وما لبث أن وافقه وصار من أشدّ المدافعين عنه! ولما عِيب عليه بذلك قال: إن «سردار سبه» سيف مسلول؛ إن لم نقبض عليه بأيدينا شهره غيرنا في وجوهنا. سبحان الله! «سردار سبه»: إمّا أن يكون نافعاً للمملكة فيجب معاضدته ولا معنى للنقمة عليه، أو يكون ضارّاً فيجب مُقاومته؛ سيفاً كان، أو عصا؛ استعمله الغير، أو لم يستعمله.

وإذا كان الخوف من «سردار سبه» يُبرر معاضدته مع الإعتراف بضرره؛ فقد فتح باب عذر واسع لمن يخدم الإنجليز والروس وسعى باضمحلال إيران. وإذا كان درء الخوف مقصد هؤلاء الجهّال؛ فلماذا يُثبتون موادّاً في نظامهم الأساسي، وليكن نظامهم الأساسي مادّة واحدة وهو: درء الخوف عن أنفسهم؛ ولايتوقف ذلك على تأسيس جمعيّة ومنهاج ونظام وجدال ونزاع، بل يتم ذلك بالجلوس في الدور وإغلاق الأبواب فيأمنوا من كل أحد. إلا أن هذا لايُجدي نفعاً لسليمان ميرزا وأمثاله الذين لاعلم لهم، ولاشغل، ولاملك. وقد اعتادوا الإرتزاق من هذا الطريق؛ بالبطالة والراحة والخداع والتزوير.

اشتراكي؛ يُضيف الى راتب البلاط الملكي ماذكرنا، ويُدافع عن«سردار سبه» الذي حصر ثروة إيران بشخصه تقريباً، وأبادت جرائمه كل ضعيف وقوي وفقير وغني فليفرح به اشتراكيو العالم!.

وعلى هذه الوتيرة جميع ما رأيت من الأحزاب، ولذلك تراها تتكاثر أيام الإنتخاب لمجلس المبعوثين؛ كي ينال مؤسسوها شرف العضويّة في المجلس، فيُصيبهم مايُصيب أعضاءه من الرشى والجلال.

ولما رأيت الأحزاب في الدورة الخامسة؛ أن حق الإنتخاب اغتصبه «سردار سبه» من الأُمّة، واضطر الناس الى انتخاب مرشحيه كرهاً دون أن يكون لهم أدنى اختيار؛ التفّت حوله جميع الأحزاب مُبررين عمله، متملقين له، طالبين منه أن يأمر بانتخاب

أفرادها.

وهذا غاية في ضعف النفس يُمثل حال تلك الأحـزاب، ويُـثبت جـلياً؛ أن أولئك المنتسبين إليها لاهمَّ لهم إلا النفع الشخصي؛ وإلا فكان الواجب يقضي باتفاقهم جميعاً على مقاومة «سردار سبه» واسترداد حقّ الأمّة الذي اغتصبه بمرآى ومسمع، ولم يُـبال في ذلك أحداً.

هذه حال الأحزاب السياسيّة. وتوجد في إيران نقابات بعدد نقابات أوربا وأمريكا؛ للتجّار ولكل صنف تُعرف باسم «اتحاديّة» إلا أن الغرض من الجميع واحد وهو عين الغرض من الأحزاب السياسية؛ جـلب النـفع الشـخصي الآنـي، وإن جـرَّ عـلى البـلاد الويلات.

ولذلك لم تأت تلك النقابات بفائدة مطلوبة.

٩ـ الجرائد الإيرانيّة

إذا كانت في أوربـا وأمـريكا جـرائـد ومـجلات مـختلفة؛ سـياسيّة وعـلميّة وفـنيّة واقتصاديّة وزراعيّة وطبيّة، جدّية وهزلية، وغير ذلك؛ فـإن فـي إيـران كـذلك جـرائـد كثيرة، ولكن الغرض مـنها واحـد؛ وهـو السبّ والشـتم والنـيل مـن أعـراض النـاس وشرفهم بعبارات بذيئة ركيكة؛ ليضطر الناس الى سدّ أفواه تلك الجـرائـد بـلقمة ولو كانت لقمة الكلب، فإن تلك الجرائد تقنع باليسير.

ولما كانت الأشغال وموارد الإرتزاق معدومة في إيران؛ كثرت أمثال تلك الجرائد، ولم يسلم منها أحد. إلا أنها لاتستقر على حال فتراها تذم إنساناً أقبح الذم هذا اليـوم، وتمدحه غداً أحسن المدح؛ لأنه أرسل إليها يسيراً من الدراهم.

أُنظر جريدة «ستاره إيران» وهي من أكبر جرائد طهران؛ ذمّت «سردار سـبه» يـوماً أشنع ذمّ وسمّته «لياخوف جنوبي» ولياخوف هو القائد الروسي الذي أطـلق مـدافـعه على مجلس المبعوثين الإيراني بدء تشكيله، وحارب الأحرار انتصاراً للإستبداد بـدء الإنقلاب الإيراني. وإنما وصَفَته الجـريدة بـالجنوبي انـتصاراً بأن «سـردار سـبه» مـثل

«لياخوف»: همّه محو الحريّة، واضمحلال إيران. إلا أنـه مأمـور مـن جـانب الإنـجليز الواقعين في جنوب إيران.

هكذا ذكرت «سردار سبه» هذه الجريدة، ومالبثت أن سمّته؛ منقذ إيـران، وحـامي الحريّة، وقائد العالم الإسلامي، الى غير ذلك من الأوصاف التي لم يتصف بها أحد الى الآن؛ لا في الشرق ولا في الغرب. ولم يكن يتغيّر حال «سردار سبه» سوى أنه؛ لما كانت تقدح فيه تلك الجريدة لم يكن يغصب حقّ الأمّة صريحاً، ولما مدحته كـان غـصب حقوق الأمّة الطبيعيّة، وعدى على حـريتها، ولـم يـترك لهـا مـجالاً لانـتخاب مـبعوث واحد. نعم يوجد تغيير ما؛ وهو أنه أعطى الجريدة بعض الدريهمات فاستحق كل تلك الأوصاف.

وكان أمر تلك الجريدة بالنسبة لي معكوساً؛ فإنها كانت تذكرني بصفات لست أهلاً لها ولاتليق إلا بالأنبياء والمقرّبين. وما لبثت أن ذكرتني بصفات لاتليق إلا بأدنى الناس وأرذلهم، ولاسبب لذلك سوى أني مانعت «سردار سبه» في دوسه القوانـين، وتـعديه على الحقوق الشخصيّة والنوعيّة. وكان «سردار سبه» قد منح تلك الجريدة شـيئاً مـن عطاياه.

ولما عِيب على «حسين خان» مدير تلك الجريدة هذا الحال قال: ماذا أصنع وهـا جروح بدني لم تلتئم من ضربات «سردار سبه».

سبحان الله! إن الخوف لايكون داعياً الى المدح بعد الذم على خلاف من الحقيقة، بل يدعو ضعفاء النفوس الى السكوت. ولكن الدريهمات سببت المدح (واللُهى تفتح اللَهى)[1].

وعلى هذا القياس جميع جرائد إيران، إلا ماشذّ. ولتلك الجرائد قدرة غـريبة عـلى

---

(١)اللُهَى الأولى بضم اللام وفتح الهاء وبعدها ألف مقصورة؛ جمع إلهاء. أو بضم اللام وكسر الهاء بعدها ياء مشددة جمع لَهوة بفتح اللام وضمها؛ العطيّة، أو أفضل العطايا وأجزلها، أو الحفنة من المال، أو مايُلقى في فم الإنسان من الطعام؛ شبيهاً له بفم الرحى. واللهى الثانية جمع لَهَاة بفتح اللم؛ وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم جمعها لهوات، وللهات ولِهيّ بضم اللام وكسرها وشدّ الياء، ولَهاً ولِهاء بفتح اللام وكسرها.

اختلاق الأخبار والكذب والتهم. ولقد شاهدت منها ما أدهشني؛ حيث أني أجلس في داري وأقرأ في كل جريدة خبراً؛ أني مضيت الى دار فلان، وتكلمت معه بِكَيت وكيت، ولاعلم لي بشيء من ذلك، وبعض الجرائد تُعيّن ساعة مخصوصة لِمُضيي ومذاكراتي كي تُصَدَّق، وربّما تذكر بعض الجرائد؛ مذاكرات لي وملاقات في يوم واحد لايفي بها خمسون يوماً.

إلا أني لم أكن أرى قيمة لتلك الجرائد فكنت أمر عليها مرَّ الكرام على لغو اللئام.

والخلاصة: لم أر في إيران جريدة تُدافع عن عقيدة، بل هي تتلوّن تلوّن الحِرباء(١) وغرضها أدنى الأغراض.

وحيث فقد أربابها المزايا العلميّة؛ تراها في جميع مقالاتها تخرج عن حدّ الإعتدال، وتُخفي الحقائق، ولذلك لاتؤثر على الرأي العام أدنى تأثير.

فالجرائد التي كانت تُدافع عن الجمهوريّة حماية لـ «سردار سبه» حصرت أدلتها على لزوم الجمهوريّة لإيران؛ بسب الشاه ولعنه. مع أن الجمهوريّة إن كانت لازمة لاتتوقف على ذم الشاه، بل هي لازمة وإن كان الشاه من أصلح الملوك. وقد أفرطت بسبّ الشاه وشتمه بأرذل العبارات حتى أهاجت الرأي العام؛ فصدّ الجمهورية وانعكس الأمر عليها.

والجرائد التي كانت تُخالفها أفرطت في ذم «سردار سبه» وسبّه، وأنكرت عليه كل شيء؛ مع أن لـ «سردار سبه» أعمالاً يجب أن يُعترف بها؛ كتأسيسه الجندية الإيرانيّة، وإيجاده قوّة في البلد استتب بواسطتها الأمن في جميع أنحاء المملكة.

وقد أفرطت الجرائد الأولى في مدح «سردار سبه»؛ بأنه القائد والمنقذ وغير ذلك، مع أنه لايستحق شيئاً من تلك الصفات؛ لأن تلك القوى التي أوجدها يعتبرها العقلاء قوى أوجدها الإنجليز لصدّ هجمات «البلشفك». وخلع سلاح القبائل يعتبره المفكّرون انتقاماً منهم لأنهم قاوموا الإنجليز في ظروف مختلفة، ولأن «سردار سبه»

---

(١) الحِرباء والحِرباءة بكسر الحاء وسكون الراء دويبة تتلون في الشمس ألواناً مختلفة، جمعه حَرابيّ بفتح الحاء وتشديد الياء. (الناسخ)

وحدّ القوى وحصرها في الجنديّة، وحصر قيادتها بنفسه. فإذا أقدم على خيانة البلاد، أو خدمة مصالح الإنجليز؛ لم يبق بيد الأمّة سلاح تُدافعه به، ولأن تلك الجنديّة لاتستحق المدح؛ لأنها جنديّة شخصيّة لا وطنيّة؛ إذ كلها بيد «سردار سبه» لا بيد الأمّة، ولذلك يُخشى من تلك الجندية على حياة إيران؛ فإن «سردار سبه» إذا فُقِد اليوم لايستطيع أحد قيادة الجند، إذ لاقاعدة مُتّبعة فيه ولاقانون، بل يعم الإضطراب جميع المملكة، ويستقلّ كل أمير بجيشه، وربّما يُهاجم بعضهم بعضاً وعلى إيران بعد ذلك السلام.

ولأن «سردار سبه» اختصّ بكثير من مال الأمّة حتى أصبح من أثراها بما غصب، ولأنه عدى على الأمّة فغصبها حريّتها التي نالتها بدماء أبنائها وعنائها الشديد؛ فأجرى انتخاب الدورة الخامسة بقوّة السلاح، ومنع الأمّة عن إبداء رأيها، ولأنه لم يُجر أي إصلاح أساسي في المملكة ولم يسع في أدنى طرق الرقي والعمران.

هذه الملاحظات تمنع عن أن يوصف «سردار سبه» بصفات المدح والثناء، ولايجب أن يُعطى لقب القيادة والإنقاذ؛ إلا متى أصلح الجنديّة وجعلها بيد الأمّة طوع مجلسها الحرّ، وقسّم قوى المملكة الى قسمين، ورتّب القوانين النافعة، يستطيع إلغاء الإمتيازات الأجنبيّة، وحاكميّة السفراء والقناصل، وسعى بمدّ السكك الحديديّة، وتزييد موارد الثروة، ونشر العلم؛ كما يصنعه رجال الأناظول، وملك الأفغان. ومالم يصنع ذلك؛ فجدير أن يوصف بأنه رجل نشيط يعمل لنفسه لا لأمّته.

ومن الجهة الخارجيّة؛ تُتلقى أعماله على سبيل الترديد؛ هل هي لمنفعة الأجانب أو لا، والقرائن شاهدة أنها من الإنجليز وللإنجليز.

غالت الجرائد؛ فمن مدحته أفرطت في مدحه، ومن قدحته لم تعتدل في قدحه. وكان كل ذلك باسم الجمهوريّة، مع أنه لاربط لها به، فيكشف ذلك؛ أن الغرض شخص «سردار سبه» والجمهوريّة وسيلة له. ولم تطرق ذكرها تلك الجرائد عن عقيدة بها على عادتها في سائر الموضوعات؛ يُحركها الدرهم والدينار لا الإعتقاد.

١٠ـ الأخلاق الإيرانيّة

ولقد أدهشني ما شاهدته في ايران من مساويء أخلاق الخاصة، فإنها نوعاً على غاية من الفساد؛ فالشهامة، والتقوى، والنشاط، والإعتماد على النفس، والتضامن، والتحابّ، والشفقة، والإنصاف، والمروّة، والحنان، وإيثار الغير، وحبّ الفضيلة، ونصرة الحق، ومعاونة الضعيف، وحسن الجوار، والصدق والصفاء، وغيرها ميّتة في نفوس الخاصة، إلا ما يوجد لدى قليل من الأفراد، ولدى الأقليات الإيرانية من اليهود، والأرمن، والبهائيين، ويوجد بدل ذلك عند الأكثرية؛ وهم المسلمون مضافاً الى ما ذُكر سابقاً، من فرط الشهوة المؤدية؛ الى الهلاك، والجُبن، وعدم المبالات، والكسل، والخمول، والإيكال على الغير، والحسد، والبغضاء، والشحناء، والقسوة، والذلّة والمسكنة، والإجحاف، والغلوّ، والإستئثار على الغير، والإقدام على الرذيلة، وترويج الباطل، والرضوخ للقوي، وإيذاء الجار، والتزوير، والخداع، والكذب، وغير ذلك.

هذه الرذائل عند مبرّزي الأكثرية، وليست غريزة فيهم وجبلّة في نفوسهم، ولكنها كسبية أوجدها الإنجليز وعمّال الأجانب في نفوس المتهوّسين، لإفساد أخلاق الإيرانيين.

أمّا عامّتهم، فقد جُبلوا على معالي الأخلاق، إلاّ أنّ لهم من الخمول والإنقياد لأقويائهم والجهل، ما يمنعهم عن إبراز مكنوناتهم، فهم في الغالب آلة بيَد أولئك المبرّزين.

كما قلتُ؛ أدهشني ما شاهدتُه في إيران من مساويء أخلاق الخاصّة، ويكفي من ذلك أن يوجد فيها اُناس يُستأجرون لاغتيال النّاس وقتلهم في الشوارع والطرقات بثمنٍ بخس، هكذا هانت لديهم النفوس المحترمة.

إنّا نرى كثيراً من الأُمم ترتكب فظائع الإغتيال والقتل المنفرد تأييداً لعقيدة، أو حياداً عن مبدأ مقدّس في نظر القاتل، لا قبال دريهمات يتقاضاها القاتل من اُولي الأغراض السافلة الدنيئة، وحسبُك من دناءة الأخلاق أنّ بعض اُولي الأغراض الشخصية السافلة يؤسسون أحزاباً سياسية يجعلونها ذريعة للوصول الى أغراضهم،

فإذا أرادوا إجراء مظاهرة لغرضٍ من الأغراض، استأجروا متظاهرين بمالٍ زهيد، ومن هنا تعلم كيف تُباع العقائد وتشترى في إيران. ولقد بلغ الحقد والحسد فيهم أنك لاتُكلم أحدهم إلا وصوّب سهام الطعن على غيره واتهمه بالخيانة.

كنت أظن في سليمان ميرزا خيراً، فكنت أسأله عن أفراد من الإيرانيين لنشتغل جميعاً في خدمة الأمّة؛ فما سألته عن أحد إلا اتهمه بالخيانة، ودليله على ذلك واحد؛ وهو أن مصارف ذلك الرجل غير معلومة المنشأ، كأن شرط الناصح أن يموت جوعاً. وحين تحققت الأمر وجدت ذلك الرجل يرمي الناس بالخيانة عمداً؛ ليتفرّد بين الأمّة بالنصح، ولايذكر أحداً عندي بخير ليتفرّد معي وحده.

ساءني منه هذا الخُلق جداً، ومالبثت أن اطّلعت على ماهو أدهى وأمرّ ؛ وهو أن حزب الإشتراكيين الذي ينتمي إليه ذلك الرجل، أسس شعبة من أفراده سمّاها «كميته إتّهام» ووظيفتها اختلاق التهم، وجعل الأخبار الكاذبة في شأن كل من يرون له نفوذاً بين الأمّة ونشرها في الأفواه والجرائد حتى تسوء سمعة ذلك الرجل ولايستطيع أن يعمل أدنى عمل، ويسقط عن درجة الإعتبار، ويتفرّد أولئك النفر القليل بالنفوذ بين العامّة. وبسبب ذلك ساءت سمعة كثير من صلحاء الإيرانيين، وحُرِموا عن صالح الأعمال؛ بسبب تلك الوصمات الكاذبة.

وربّما يُعين عمّال الإنجليز على ذلك ليسيء الناس الظن بعضهم ببعض، ويُحرموا من الأعمال الإجتماعيّة.

ولقد بلغ سوء الظن بالناس بعضهم ببعض؛ أني ماكلّمت أحداً إلا وجاء من يتهمه بالخيانة ويمنعني عن مكالمته، وما لاقيت أحداً إلا رأيت من يعذلني على ملاقاته، متهماً له بالجاسوسيّة للأجانب، وغيرها. حتى انحصر عملي بسليمان ميرزا وبعض رفاقه، وحين اطّلعت على حقيقة الأمر؛ نفرتهم، واعتقدت أن هؤلاء هم الذين يُلقون إيران في أعظم المهالك؛ لمنافع آنيّة شخصيّة. أبعدهم الله فإنهم يُفسدون في الأرض ولايُصلحون.

ولقد بلغت الخسّة ودناءة الطبع من الخاصّة؛ أن سليمان ميرزا يُدافع عن «سردار

سبه» في حين أن «سردار مقتدر» في سجنه بلا ذنب؛ سوى خدمته لإيران، وبعده عن الأجانب.

و«سردار مقتدر» رئيس قبيلة «السنجابيّة» هو الذي دافع عن سليمان ميرزا؛ حتى فنت قبيلته، نساءً ورجالاً. وحارب الإنجليز حتى اضطر الى الفرار الى الموصل؛ يوم كانت بيد الأتراك. فنسي سليمان ميرزا حسناته كلها، وتركه في السجن هو وأخاه «سردار ظفر» وأقبل يُدافع عن ساجنه.

وإني لاعلاقة لي بـ«سردار مقتدر» سوى ماعملته معه من المعروف؛ حين وروده الى الموصل لاستحقاقه. وكم اعترضت على «سردار سبه» لحبسه. وسليمان ميرزا الذي كان بقاؤه وحياته بسبب «سردار مقتدر» وفضلاً عن مدافعته عن ساجنه؛ يُصوب حبس ذلك الرجل الذي لم يُعرف إلا بالصدق والنصح لأمّته ومملكته.

١١ ـ الرأي العام الإيراني وقادته

ذكرت الإيرانيين بمساوي الأخلاق وغرضي الخاصّة منهم؛ فاضطررت أن أفرد للعامّة فصلاً مستقلاً:

نعم! إن عامّة الإيرانيين يمتازون عن جميع الملل بأخلاق فاضلة، تجدها كامنة في غريزة كل فرد منهم قرويّاً كان أو مدنيّاً، جبليّاً أو بدويّاً. وتلك الأخلاق الممتزجة بالذكاء الفطري تؤهل الإيرانيين الى نيل أعلى درجات الرقي. وللعامّة قضاء سريع ومحاكمة غريبة في جميع أمور المملكة وشؤونها؛ بسببها لايستطيع الخائن من أهلها أن يُثابر على خيانته؛ لأنه يُفتضح بسرعة، وينفره الرأي العام، وربّما يضطروه الى الخروج عن المملكة. ولعامّة الإيرانيين علاقة تامّة بمملكتهم مازجت طباعهم، فعلاقتهم بشؤون المملكة على جهلهم لاتقلّ عن علاقة كثير من الأمم العالمية بممالكها.

ولايُعوز العامّة إلا قادة مُصلحون، وهم لا وجود لهم في إيران، فإن قادتهم؛ المتهوّسون الذن وصفناهم سابقاً وهم يسوقون البلاد وأهلها الى الدمار والإضمحلال.

والعامّة غالباً تكون آلة في أيدي المتهوّسين الى أن تشعر بفسادهم فتتركهم. فهي كل يوم آلة بيد فريق من أولئك المتهوّسين البطّالين، ولكن سرعان ماتنبذه الى الفريق الآخر. ولم تجد الى الآن قادة صلحاء يسوقون الأمّة الى الصلاح مع شدّة تعطشها له ورغبتها فيه.

وبوجه الإجمال؛ ينتهب الرأي العام فريقان اعتادا البطالة والإرتزاق بانتهاب الرأي العام؛ فريق ينتهب الرأي العام باسم الدين، وفريق ينتهبه باسم التجدد والمدنيّة.

الفريق الأول: أهل العمائم، ولا أقصد بذلك جميعهم، بل الأعم الأغلب. وهذا الفريق يُسيطر على الرأي العام باسم الدين؛ ونعم الذريعة الى أمور الدنيا والآخرة لو كان على حقيقته كما جاء به صاحب الشريعة السهلة السمحة. ولكن هذا الفريق؛ إمّا لجهل أو غرض شوّهوا وجهه ونقلوه للناس معكوساً؛ فترى بين ما يدعون إليه وبين الدين الإسلامي بوناً بعيداً؛ لأنهم حصروا دعوتهم في بعض أنواع العبادات، ودعوا الناس الى الخمول والمسكنة، وعدّوا جميع وسائل الرقي؛ علميّة أو فنيّة أو صناعيّة؛ منافية للدين!. ولاشك أن هذه الدعوة منافيّة للدين الإسلامي الذي يدعو المسلمين في كل آية وحديث الى التفوّق على غير المسلمين، وإحراز قصب السبق في ميدان الحياة بجميع الوسائل؛ ماديّة كانت أو أدبيّة، صناعيّة أو علميّة.

وهذه الدعوة مع منافاتها للدين الإسلامي ومناقضتها للشرع المحمدي، تؤدي بالمملكة وأهلها الى البوار والدمار. ومع ذلك لاتستطيع مقاومة السيل الجارف الذي يُهاجم إيران من جميع حدودها؛ حاملاً معه المدنيّة الأوربيّة والأمريكيّة، والآراء البلشفيّة. فليس نصيب هذه الدعوة إلا الإنهزام أمام ذلك السيل، فإذا حُصر الدين الإسلامي بها، ولم تظهر للناس حقيقته؛ فسوف تصبح إيران بلاداً إباحيّة لاترى للدين فيها عيناً ولا أثراً.

فعلى مَن يهمّه الدين الإسلامي أن يُبدّل تلك الدعوة بالدعوة الى حقيقة الدين كما جاء به سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلّم، ويُنزهه من الخرافات والأوهام التي ألحقها به أولوا الأغراض والمُدلّسون، وما أنزل الله بها من سلطان.

أثّرت هذه الدعوة على الرأي العام حتى حرمته من تحصيل العلوم والصنائع، والوقوف مع أهل العالم في معترك الحياة، وتركته محتاجاً في جميع شؤون حياته الضروريّة الى الأجانب، وتركتهم مسيطرين حتى على دوائر المملكة؛ باسم مستشارين. وأبعدت أناساً ممن عشقوا الرقي والإصلاح عن الدين الإسلامي، فتركوه بتاتاً وتظاهروا بمناوأته؛ لإنهم حسبوا أن الدين الإسلامي منحصر بما يدعو إليه أولئك المعممون، ورأوا ذلك غير كافي لسدّ حاجات الحياة، والوقوف أمام المدنيّة الغربيّة؛ فنبذوه واتخذوا مدنيّة الغرب المهلكة شعاراً لهم وحُرموانعمة الأخلاق والدين.

ومن غريب أمر المعممين أنهم يرمون؛ بالكفر والزندقة والإلحاد كل مَن يدعوهم الى حقيقة الدين، فكأنهم آلَوا على أنفسهم أن يُظهروا الدين بغير ماجاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم؛ ليضمحلّ أمام آراء الغربيين الفاسدة! صحح الله عقولهم وأبعدهم عن الجهل.

الفريق الثاني: المتجدّدون، وأعني بهم الأعم الأغلب، وهؤلاء لفيف من الشبّان عشقوا المدنيّة الأوربيّة، وغرّتهم زخارفها، وفتنهم زبرجها؛ فاتخذوها شعاراً لهم، ودعوا الناس الى الإباحة وفك قيود الأخلاق، والتبرّج والزينة والفسق والفجور، واستعمال الملاهي والمسكرات والرقص والطرب، وأنواع المنكرات، وارتكاب الجرائم والفضائع[١] كل ذلك باسم التجدد.

ولاشكّ أن هذه الدعوة تؤدي الى إهلاك الحرث والنسل، وهدم أساس الإجتماع الإنساني، وتخريب بناء تشكيل العائلات، ومحو العواطف الشريفة الضروريّة لبقاء نوع الإنسان، وانتشار الأوبئة والأمراض، والبطالة؛ بسبب الملاهي والفقر.

وبالجملة: هذه الدعوة إن لم تمتزج بالأخلاق الفاضلة؛ كافية لإبادة النوع الإنساني،

---

(١)وقد بلغت دعايتهم الى ذلك لدرجة؛ أن مدرِّساً منهم في مدارس الحكومة في طهران تزوّج ببنته، بعدما خطبها منه كثير من الناس، فأبى أن يزوجها لأحد وقال: أنا ربّيتها وأنا أحق بها، والحريّة المطلقة تبيح لي ذلك. وصار يفتخر وينشر تلك الدعاية أمام الطلاب، وسائر الناس، فلم يزجره أحد، ولم تطرده حكومة البهلوي من الوظيفة، ولم تتخذ لذلك من الأهميّة. (الناسخ)

بأنواع المظالم والشرور واللذات.

ومن غريب أمر هذا اللفيف؛ أنهم يرمون بـالإرتجاع، وحبّ الخـرافـات كـل مـن ينهاهم عن هذه الرذائل. وبسبب هذه المنكرات؛ نفر كل من عشق الأخلاق الفـاضلة، وزانته العواطف الشريفة؛ عن التجدد واسمه، والمدنيّة ورسمها. فحُرموا من تـحصيل العلوم والصنائع، وتركوا أولادهـم يـتخبّطون فـي ظـلمات الجـهل، وقـنعوا بـما لدى المعممين من آثار الدين؛ لأنه أهون الضررين، واتخذوه شعاراً لهم؛ لأنهم حسـبوا أن تـحصيل العـلم والصـنائع مـقترنة بـالإباحة المُـردية، واللـذات المـهلكة، والشـهوات المنكرة. ولم يعلموا أن دين الإسلام الذي بُني على معالي الأخلاق، ومنع أشدّ المـنع عن الملاهي والمنكرات؛ يدعو أشدّ الدعوة، ويحث أبلغ الحث الى تـحصيل العـلوم والمعارف، وترقية المسلمين فيهما بحيث لايستطيع غيرهم أن يقف في مصافِّهم.

هذان الفريقان؛ قادة الرأي العام في إيران، وإليهما ينقسم الرأي الإيرانـي، وكـلاهما مضرّان بالمملكة وأهلها يجران على البلاد الويلات؛ هذا يحرمها من الصنائع والعلوم، وذاك يحرمها من الأخلاق والآداب. ولكنّا إذا قسنا الفـريق الأول بـالثاني نـجده أقـل ضرراً.

كلا الفريقين من أهل البطالة؛ لافـرق بـين ذي العـمامة وذي الربـطة؛ إلا أن الأول يُكلف العمال وأهل الصنعة مقدار خبزه الخشن ولباسه الرث ومـفرشه المُـحقّر، أمـا الثاني فإنه يكلف الكاسب والزارع مايحتاجه من طيّب الأكل والشراب ولين الملبس والفراش ومايحتاجه في سبيل المـلاذ والشـهوات. والأول لايـقدم عـلى قـتل النـفس المحترمة وهتك الأعراض؛ لأن الدعوة الى الله تردعه عن ذلك، أما الثاني فلا رادع له يردعه. وإذا وجد في الصنف الأول خائن فخيانته أن يجلس على الدست ويمد للتقبيل يده، وإذا جييء له بشيء من أموال الفقراء واليتامى شاركهم فيه. أمـا الصـنف الثـاني؛ فخائنهم يبيع إيران بما فيها من نفوس ومقدّسات بـ«مائة وعشرين ألف ليرة إنجليزيّة» أما خائنهم الذي ينهب بيت المال، أو يزهق نفوس الملّة ويستولي على مالها ليصرفه في ملذّاته وشهواته؛ فحدّث ولاحرج، وضع يدك على من شئت.

ويجب أن يُعترف للعلماء؛ بأنهم كانوا أمام الأمّة في جميع الأخطار والمشاكل؛ كتأسيس «المشروطيّة» واحتجاج الروس، ومعاهدة «وثوق الدولة» وغير ذلك. في حين أن كثيراً من المتجددين المتهوّسين لم يكن تهمّهم تلك الأمور.

وعلى أي حال فكلا هذين الفريقين؛ قد ضلا الطريق، وجنيا على الأمّة، ولم يُحسنا قيادتها. وقد نشبت بينهما حرب شعواء إلا أن القاتل والمقتول في النار.

وانقسمت الأمّة بسبب ذلك الى قسمين متعاديين؛ كل يسعى بسفك دم الآخر. ولم يبتغ في إيران من يهتدي السبيل، ويحسم النزاع، ويقود الأمّة الى الصراط المستقيم؛ وهو الدين الإسلامي بحقيقته؛ فإنه يدعو الى الرقي والعمران، ويحافظ أشدّ المحافظة على معالي الأخلاق وسعادة الإنسان.

هذان عاملان مؤثران على الرأي العام، وهناك عوامل أخرى لايُستهان بها تتنازع الرأي العام؛ أهمها دسائس الإنجليز وهي مقصورة على هذه الكلمة: «فرِّق تسد» إلا أن وسائلها متباينة جدّاً؛ فهي تستفيد من كل شيء، ومن كل حادثة، حتى أن الإنجليز لما رأوا أنفسهم منفورين في إيران؛ أخذوا يصمون أعداءهم بالإنتساب إليهم لينفرهم الناس فلا يستطيعون العمل ضدّهم.

وتقابلها سياسة الروس؛ وهي سياسة خرقاء عوجاء لا أساس لها ولامنطق؛ مبتنية على الإحساسات المحضة وإن كانت كاذبة ينفر منها كل من يُريد مقاومة الإنجليز بها، فيضطر الى تركها؛ لأنها بدل أن تقاوم الإنجليز تُعين على جريانها. وكم غُرّ بها أناس.

ومن المؤثرات في الدرجة الثانية من الأهميّة: التبشير الذي عمّ مملكة إيران باسم الدين، وهو على أقسام:

الأول: التبشير «البروتستانتي» الذي يُجريه الإنجليز والأمريكان؛ بواسطة المدارس والمستشفيات، والمبشّرين السيّارين، والكتب المضرّة. ولقد أثرّ ذلك على كثير من الفتيان والفتيات؛ سيّما في المدارس الأجنبيّة، ولم يكن أثره بجعل أولئك الشبّان بروتستاناً؛ بل حرفهم عن دينهم القويم، وانحاز بهم عن صراطهم المستقيم.

الثاني: التبشير «الكاثوليكي» الذي يُجريه الفرنسويّون.

الثالث: التبشير «البهائي» الذي يُجريه البهائيون؛ بواسطة المدارس الخاصّة، والمحافل والمجامع البهائيّة، وانتشار مبشريهم في دوائر الحكومة ومدارسها.

ويعين على نجاح التبشير؛ هو أن المبشرين على اختلاف أقسامهم يستطيعون أن يوظّفوا في دوائر الحكومة مَن يُلبي دعوتهم؛ بسبب نفوذ الإنجليز في تلك الدوائر. وإن المبشّرين البروتستانت والكاثوليك يُظهرون قرب دينهم من المدنيّة، وبُعد دين الإسلام عنها. وعامّة الإيرانيين جهلة لايعرفون الحقيقة، ولايدرون أن النصرانيّة اليوم؛ مجموعة خرافات تدعو الى الرهبانيّة والعزلة؛ فما أبعدها عن المدنيّة!.

وأن دين الإسلام دين سعادة الإنسان؛ دين العلم والرقي.

أما البهائيون؛ فإن دينهم لايستقرّ على حال، وإن لهم اثنا عشر مادّة؛ زعموا أن أساس ديانتهم منحصر بها، وهي أشبه بنظام لحزب سياسي، ولكنهم يسيرون مع الزمن؛ فكلما رأوا الرأي العام يستحسن شيئاً؛ أنزلوا لوحاً يزعمون أن الله أوحى به على ولي الأمر عندهم، وجعلوه جزء ديانتهم. ولهم مبلّغون غرضهم محو الدين الإسلامي[(١)]. وهم مجدّون بذلك، والإنجليز يُساعدونهم سرّاً ويؤيدون محافلهم السريّة. وجهل الأمّة خير مساعد على رواج تلك الخرافات.

وأكبر مساعد على رواج التبليغ بجميع أقسامه؛ هو سكوت الروحانيين وخمول علماء الدين، ولَيتهم سكتوا فقط! ولكنّهم انكبّوا على نشر خرافات ليست من الدين،

---

(١)وكان من جملة مبلّغيهم في طهران «عبد الله خان» حضر هو وأصحابه لدى العلامة المؤلف بعد رجوع العلامة من خراسان ـ بمحضر الملأ العام واحتجّ عليه العلامة من بعد العشاء الى الساعة السادسة والنصف صباحاً. فلم يأتي البهائي أي جواب عن أي مسألة، ورجع خائباً خاسئاً. ثم ختم الشيخ ذلك بخطابة. وجميع ذلك مطبوع في كتاب في طهران.

ولما رأى البهائيون ذلك رجع منهم من كان على قلبه غشاوة وكان بصدد طلب الحقيقة الى الإعتراف والإذعان بالحق على يد الشيخ الى الإسلام.

وألّفوا كتباً بردّ أصحابهم، وبيان فضائحهم؛ فكانت الطامّة الكبرى على البهائيين؛ منهم صاحب كتاب «كشف الحِيَل» وصاحب «فلسفه نيكو» وخانم صاحبة «بارقه حقيقت» وغير ذلك. إلا أن عبد الله خان بعد رجوع العلامة من خراسان وبيان فضائحهم لم يزدد إلا عناداً للحق وضلالاً عن الهدى واغتال الشيخ، ورماه بثلاث رصاصات فأخطأته. (الناسخ)

وأوهام تُباين الشرع المبين. فوجد المبلّغون ميداناً فسيحاً لتبليغهم ناشرين بين العامّة؛ أن هذه الخرافات هي أساس الدين الإسلامي، فينفّرونهم منه. وليس للعامّة علم يكشف لهم حقيقة الأمر.

وعلماء الدين؛ بدل أن يسعوا بنشر حقيقة الإسلام؛ تراهم قد نبذوه وراءهم ظِهريّاً، واتخذوا الخرافات الواهية بدلاً عن الحقائق المحمديّة، فهم يُعينون على هدم أساس الدين أكثر من المبشّرين البروتستانت والبهائيين.

هذه حالة الرأي العام الإيراني. وحكومته أمام هذه الأحوال كالميت أمام الحوادث الأرضيّة لايهمها شيء من ذلك. ولم يُسمع أن حكومة أو وزارة تصدّت لإصلاح الرأي العام، أو على الأقل للإطّلاع على مايجري في بلادها؛ كأن هذه الأمور ليست في بلادها، أو ليست من شؤون مملكتها أهملتها كسائر شؤون المملكة وشجونها.

١٢ـ النساء الإيرانيّات

يجب عند ذكر وضعيّة إيران أن لانهمل ذكر نسائها، فإن لهنّ من الشأن مايستحق النظر ولو إجمالاً:

عدد النساء في إيران يفوق عدد الرجال، وهنّ من أتعس نساء العالم حظّاً، وأنكاهنّ نصيباً؛ فقدن التربيّة بتاتاً، وبَعُدْن عن العلم، وضَعف النفس يغلب عليهنّ، وانهماك رجالهنّ بالشهوات أوقعهنّ في أعظم المهالك وحرمهنّ نصيبهنّ من رجالهنّ.

وشيوع الفقر والبطالة أعان على انتشار مايُسخط الله، ويُفسد الهيئة الإجتماعيّة من المنكرات. وهنّ لبُعدهنّ عن العلم لم يشعرن بما نزل بهنّ من المصائب، ولا يوجد في رجالهنّ مَن يُفكر بإصلاحهنّ. وهناك قليل من الفتيات التي أفسدت المدارس الأجنبيّة أخلاقهنّ؛ فصرن بصدد تقليد «الإفرنجيّات» بالخلاعة، ونزع أبراد العفاف، ورفع الحجاب. وليس بين نساء إيران مَن هنّ بصدد رفع ماحاق بهنّ من التعاسة مع المحافظة على العفاف والأخلاق الإسلاميّة والآداب المحمديّة؛ إلا قليل لاشأن له من التأثير على أخلاق نوع المرأة الإيرانيّة.

ويُخشى إذا لم تصلح حال المرأة بما يُطابق الشرع الإسلامي أن تتغلّب عليها أخلاق المرأة الإفرنجيّة؛ فيسوء حالها، ويتعس حظها، ويصعب علاجها بعد ذلك. وتكون سبباً لإفساد الجامعة الإيرانيّة التي تهاجمها المفاسد من كل جانب، ومن ذا يجهل أو يُنكر تأثير المرأة في الجامعة البشريّة.

جمعيّة مُجْتَمِعي المسجد السلطاني

هذه وضعيّة إيران إجمالاً. في أثناء هذه الأحوال تشكّلت جمعية المجتمعين في المسجد السلطاني. فكانت تنقسم الى أقسام متعددة: القسم السياسي، القسم الإداري، القسم العلمي، القسم الإقتصادي، وقسم الإستخبارات والمطبوعات، وقسم الدفاع، والقسم الخارجي، وغير ذلك.

وكان لها نظام خاصّ بها، فواظبت على العمل بجدٍّ ونشاط؛ وكان غرضها إصلاح جميع ما تقدّم من وضعيّة إيران بالطرق القانونيّة المشروعة.

وكنت أرقى المنبر في المسجد السلطاني عشيّة كل يوم؛ فيجتمع الألوف من رجال ونساء طهران، وكل منهم ذو علاقة تامّة بما أُلقيه من النصائح في جميع ماتقدّم من شؤون المملكة.

وكان غرضي الأهم؛ سَوق الناس جميعاً الى العمل، وتبديل الخمول والكسل والإتّكال على الغير، بالجدّ والنشاط، والإعتماد على النفس.

وكنت أهتم كثيراً بمقاومة المبشرين[1] ومدارس الأجانب، وأدعو الى إصلاح وضعية المعارف. وأكثر همّتي كانت مصروفة نحو تلقين الناس وتفهيمهم أن سعادة

---

(١)ولم يقتصر العلامة المؤلف في ذلك على الخطب، بل كان يؤلف فيها الكتب وتتطبع؛ ككتاب «الإحتراز عن حُسن الإيجاز» ألّفه قبل النفي. وكتاب «الله خالق كل شيء» ألّفه بعد الرجوع من خراسان وغير ذلك. (الناسخ)

البشر منحصرة بتطبيق القانون الإسلامي والشرع المحمدي كما هو حقّه[١] لا كما يفهمه علماء الدين في إيران؛ لأنهم كتموا حقيقة الدين، وأبدلوه بخرافات ليست منه في شيء؛ إذ الدين الإسلامي يأمر بتهيئة جميع وسائل الحياة الدنيويّة، والتفوّق والسبق في جميع العلوم والفنون والصنائع. وهؤلاء حصروه بنزر من العبادات، وأهملوا جميع أبواب الفقه، وجاءوا من تلقاء أنفسهم بأشياء لم يأت بها الدين.

وكنت مُجدّاً في إيقاف الناس على حقيقة الإسلام وإعلامهم أن؛ التجدد الحقيقي، والرقي المادي والأدبي، والسعادة في الدنيا والآخرة إنما تحصل للبشر؛ باتباع دين الإسلام، مبرهناً على ذلك بالأدلّة الساطعة من الآيات والأخبار، مبيّناً أن متهوّسي المتجددين؛ إنما يسوقون الناس الى أهلك المهالك، في أوعر المسالك، حائدين عن الأخلاق والعقائد التي لو خلى منها البشر لباد نوعه بأفظع الشرور وأشنع الويلات.

فإن عقيدة المادّيين لاتنتج إلا نشر الفساد، وخراب البلاد، وإهلاك العباد. وعدم التقيّد بقيود الشرع الإسلامي، تترك البشر يُهاجم بعضهم بعضاً تبعاً للشهوات بلا رادع، من ذلك؛ سفك الدماء، ونهب الأمول، وهتك الأعراض، وخراب الديار، ومن وراء ذلك؛ انحلال عقد الجامعة الإنسانيّة، وإبادة النوع البشري.

كنت أطرق هذا الموضوع كثيراً بعبارات شتى، لأقف على الصراط المستقيم وسطاً؛ بين متهوّسي المتجددين المادّيين نابذاً سوء أخلاقهم، وبين مدلّسي العلماء نابذاً جمودهم وخرافاتهم؛ ورائدي في ذلك هو الدين الإسلامي كما جاء به الرسول الأمين، وبلّغه الأئمة المعصومون عليهم الصلاة والسلام، غير مُبال بما يقوله أولوا الأوهام والخرافات ممن؛ جهلوا حقيقة الدين، وحاد عن الصراط المستقيم.

وكانت الجرائد تنشر ما أُلقيه من الخطب في جميع إيران؛ فأثّر ذلك تأثيراً حسناً في نفوس أغلب الإيرانيين حتى اجتمع إليّ عامّتهم، وأولوا الأخلاق الفاضلة من المتجدّدين، ومن يهمّه ترويج الشرع من علماء الدين.

---

(١)ويتكفّل بذلك كتابه «المعارف المحمدية» بجميع أجزائه الإثني عشر.(الناسخ)

وقد شاهدت كثيراً ممن لم يكن مقيّداً بأحكام الشرع من محصّلي وخريجي المدارس؛ لأنهم لم يكونوا يفهمونه كما هو حقّه، مواظبين على العبادات، معتذرين نادمين تائبين مما كان قد صدر منهم من مناوأة الدين؛ لأن العلماء لم يُفهموهم إياه كما هو.

ورأيت كثيراً ممن كان يحسب تحصيل العلم منافياً للدين؛ لأنهم لم يُميّزوا حقيقة الدين والعلم، ويحسبون مايصدر من بعض متهوّسي المتجددين من المنكرات من لوازم التحصيل في المدارس؛ يُرسلون أولادهم الى المدارس بكل اشتياق.

ورأيت كثيراً من منوّري الأفكار من النساء والرجال؛ مواظبين على كتابة ماأُلقيه من الخطب حتى جُمع بسبب ذلك مجلّدات عديدة طبع بعضها وبقي البعض الآخر[١]

وكنت أجهد في إعلام الناس بما يجري في جميع البلاد الإسلاميّة؛ ليشترك الإيرانيون في مايجري على إخوانهم المسلمين في شرق الأرض وغربها؛ حتى أن الإحتجاج الذي أرسله «لورد كورزن» الى دولة الأفغان متهماً فيه الأفغانيين بقتل الضبّاط الإنجليز في حدود الهند؛ أثّر تأثيراً عظيماً على الإيرانيين. وأجرى له مجتمعوا المسجد السلطاني مظاهرة كبرى في شوارع طهران وأزقّتها، ومضوا الى دار السفارة الأفغانيّة، فخطبت هناك خطبة أبنت فيها مشاركة الإيرانيين للأفغان في كل ماينتابهم. وأجاب السفير بالشكر والثناء على عواطف الإيرانيين.

ثم مضى المتظاهرون الى دار رئيس الوزراء، وخطبت هناك مُبيّناً لزوم اشتراك إيران إذا انتابت الأفغان نائبة، ولزوم اتحاد إيران وتركية والأفغان، وتصميم الأمّة الإيرانيّة على الإشتراك بالحرب؛ فيما إذا نشبت بين الإنجليز والأفغان.

فأجاب رئيس الوزراء بأنه لايُخالف رأي أُمّته، وشكر المتظاهرين على ما أظهروه من الإحساس الديني.

ثم مضى المتظاهرون الى السفارة التركيّة، وخطبت هناك مُبيّناً إحساسات

---

(١)قد سبق منّا بيان المطبوع منها ومحلّه كائن في هذا المقام مع تغييرما عما سبق. (الناسخ)

الإيرانيين نحو الترك والأفغان، داعياً دولة الترك الى الإتحاد مع هاتين الدولتين. فأجاب السفير التركي بما ابتهج له المتظاهرون.

وكان لهذه المظاهرة وأمثالها تأثير حسن في البلاد الإسلاميّة؛ سيّما بلاد الأفغان.

وقد دام هذا الإجتماع سنة كاملة؛ كنت أرقى المنبر فيها كل يوم بدون انقطاع؛ حتى شاهدت تغيّراً محسوساً في الأفكار الإيرانية. وكان المجتمعون يزدادون كل يوم، وقاموا بأعمال تُذكر، منها:

أنهم جدّوا في منع الفتيان والفتيات عن التحصيل في المدارس الأجنبيّة، وانتخبوا هيئة لمذاكرة الدولة في: إصلاح منهاج معارفها ومدارسها، وحمل المدارس الأجنبيّة على قبوله، وقبول مفتشي المعارف وإرسالهم الى تلك المدارس، ومنع حريّة التدريس خارج منهاج المعارف في المدارس الأجنبيّة.

وكنت في تلك الهيئة؛ فذاكرنا رئيس الوزراء «مشير الدولة» و «حكيم الدولة»وزير المعارف؛ فجدّا في ذلك، وقبلت جميع المدارس، إلا المدرسة الأمريكيّة. وقبل ختام هذه المسألة استقال «مشير الدولة».

وجدّت الجمعيّة بإخراج مستخدمي الإنجليز وأطبّائهم من المستشفى الدولي في طهران؛ لما رأت عدم الإحتياج إليهم، وإضرارهم بالمستشفى، فأُخرجوا وأُبدلوا بأطباء إيرانيين.

وسعت في منع المسكرات وقطع جرثومها من إيران، وانتخبت لذلك هيئة كنتُ فيهم، ففاوضنا «مشير الدولة» لسنّ قانون موقّت؛ يمنع دخول المسكرات من الخارج، ومن صنعها في الداخل، الى افتتاح المجلس النيابي فيقترح تصويبه. فأجاب رئيس الوزراء الى ذلك؛ إلا أن «مليسبو» المستشار الأمريكي للماليّة عارض في هذا الأمر؛ بحجّة أن فيه ضرراً كبيراً. فأجبت بأن المال إذا كان من طريق مضرّ بالجامعة يجب أن يُترك، وليس هذا بمال مشروع.

دامت المفاوضات في ذلك الى وزارة «سردار سبه» ففاوضناه وأوعد بسنّ ذلك القانون. وسعت الجمعيّة جهدها بترويج الأمتعة الوطنيّة، وتربية اليتامى وأطفال

الفقراء، وغير ذلك من المساعي الجميلة.

وكانت تتوالى اجتماعاتها في الإسبوع؛ ثلاثة أيام، فأحضر جميع اجتماعاتها. الى أن كُشفت لي خيانة «سليمان ميرزا» وعدم مبالاته، وعداوته للدين، وخدمته في الكمرك تحت يد «البلجيك» وتدليسه على الأمّة؛ فاضطررت الى حلّ تلك الجمعيّة إذ كان في أعضائها من يعتقد بصدق ذلك الرجل منخدعاً أمام تدليسه.

إلا أن اجتماع المسجد السلطاني كان على حاله لم يتغيّر؛ فرأيتني مضطراً الى إعلان خيانة سليمان ميرزا والإبتعاد عنه، وعن كل من له حسن اعتقاد به.

وتشكّلت بعد ذلك من مُجْتَمِعي المسجد السلطاني؛ جمعية باسم «جمعيّة استخلاص الحرمين والعراق» قامت بأعمال خطيرة.

ولما واظب المجتمعون وجمعيّتهم على الأعمال الإصلاحيّة، كثر أعداؤهم في إيران؛ لأن كثيراً من الإيرانيين وغيرهم يكرهون كل حركة إصلاحيّة:

فقد عادانا الإنجليز؛ لأني كنت مواظباً على كشف دسائسهم وتحذير الإيرانيين منها، وعمّالهم في إيران كثيرون؛ كلهم نصبوا لنا العداوة والبغضاء.

وعادانا اللادينيّون وفي مقدّمتهم سليمان ميرزا؛ لأني كنت بصدد نشر الدين الإسلامي، وإظهار حقائقه المكتومة. فرددت اعتراضات ذلك الرجل وأمثاله وهم قليل، وسددت عليهم باب رزقهم ونفوذهم، وكشفت للناس جهلهم وهمجيّتهم.

وعادانا كثير من الروحانيين؛ لأنهم كانوا لايرغبون في الإصلاح، ويودّون أن يبقى الناس في ظلمة الجهالة، مقتصرين على؛ الخرافات والأوهام التي يتلقوّنها من أولئك الروحانيين.

وعادانا كثير من أشراف المملكة ووجهائها ومأموريها؛ لأن إصلاح الأفكار وتنويرها، كانوا يعدّونها بمثابة حرب معهم.

وعادانا كل مَن أراد أن يجعلنا آلة لأغراضه ونفوذه فلم ينجح؛ وهم كثير من المتنفذين.

وعادانا المبشّرون على اختلافهم؛ لأنا كنا مواظبين على كشف تدليسهم وبهتانهم،

وتحذير الأمّة منه.

كثر الأعداء، وأخذوا يُهاجموننا من كل جانب ومكان؛ بأنواع الحيل والدسائس. فلم نعبأ بهم؛ لأن من عشق الحق وطلب الإصلاح، لايبالي الصعوبات التي تعترضه في سبيله مهما كانت شديدة.

والرأي العام الإيراني كان يعضدنا، والله ناصرنا. فلم يستطع أولئك الأعداء على كثرتهم، وشدّة تهاجمهم؛ أن يؤثروا علينا أدنى تأثير؛ حتى توسلوا بالقوّة العسكريّة في ظروف ساعدت على ذلك، فنفوني من طهران وحبسوني في «خواف» على حدود الأفغان (كما سيأتي تفصيل ذلك) وهذا في جنب الله قليل، والله ينصرنا على القوم الظالمين والكافرين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الإنتخابات للمجلس النيابي وجريانها في إيران

في أُخريات الدورة الرابعة للمجلس النيابي؛ شُرع في طهران بإجراء الإنتخابات للدورة الخامسة. ولم أكن إذ ذاك متداخلاً في شؤون إيران، وكانت أعمالي مقتصرة على مسائل العراق. فكنت أُشاهد جريان الإنتخاب؛ فيأخذني منه العجب.

بينا كانت طهران في سكون؛ إذ أُعلن عن إجراء الإنتخاب فيها. فصرت لا أمرّ في زقاق أو جادّة إلا أرى لوحة على باب شاهق مكتوب عليه؛ الحزب الفلاني. وانتشرت إذ ذاك عدّة أنظمة أساسيّة لجمعيّات كثيرة؛ دينيّة وسياسيّة واقتصاديّة وغيرها. وكثرت الإجتماعات والمظاهرات ؛ في المعابر العموميّة، ولم يمرّ يوم إلا ويُنشر كثير من المنشورات مشحونة بالإطراء والثناء على أفراد رشّحوا أنفسهم لعضويّة المجلس النيابي، ودعوا الناس الى انتخابهم. وحلّ المتمولون أكياسهم؛ لشراء الأوراق الإنتخابيّة. وكثر الجدال واللغط بين الأفراد والجماعات. وباع كثير من الراغبين في الإنتخاب ـ ولم يكن لهم مال ـ أملاكهم وصرفوها في سبيل الإنتخاب. ولاتكاد تمرّ بإنسان إلا تراه مُجدّاً أبلغ الجدّ في الإنتخاب. وكثر الطامعون في عضويّة المجلس؛

حتى زاد المرشّحون لها على خمسة آلاف، مع أن لطهران؛ اثني عشر عضواً.

وما تم الإنتخاب حتى أُنزلت جميع الألواح، وانحلّت جميع الأحزاب السياسية، وتعطّلت المحافل الدينيّة، والمجامع الإقتصاديّة، وانفضّت الإجتماعات والمظاهرات ، وسكتت حركة المطابع عن طبع المنشورات، وكسد سوق الأوراق، وسكنت المدينة، وفاز بالعضوية مَن فاز.

تمّت انتخابات طهران وكان «سردار سبه» لم يتداخل بانتخاب طهران؛ لأنه كان في زمن افتتاح المجلس النيابي.

وجرى انتخاب الولايات، وكنت إذ ذاك مشتغلاً بمسائل إيران، وكان اجتماع المسجد السلطاني قد انعقد. فكنت أنظر الى انتخاب الولايات نظر الناقد المتصدّي للإصلاح.

ولد أدهشني سير الإنتخابات فيها؛ فقد مثّل ضَعف نفوس الإيرانيين، وعدم مبالاتهم بضياع حقوقهم الأساسيّة، وجبنهم أمام القوّة، ورضوخهم للمستغلبين. جرت الإنتخابات في الولايات؛ ولم يجرء أحد على إبداء رأيه أبداً، بل كان أُمراء الجند يُعلنون للناس مرشّحي «سردار سبه» فلا يُخالفهم أحد؛ وإن كانوا أضرّ الناس!.

هذه «تبريز» مهد الحريّة الإيرانيّة ومصدر انقلاب الدستور الإيراني؛ كان مبعوثوها اعترضوا في الدورة الرابعة على أعمال الجند فيها، لم يستطيعوا في الدورة الخامسة أن ينتخبوا عضواً واحداً، بل كل منتَخَبيهم كانوا ـ ممن لم يسمع التبريزيون بأسمائهم ممن رشّحهم «سردار سبه» للنيابة عن تبريز ـ من أهل طهران. وعلى هذا القياس جميع الولايات لم يكن في واحدة منها انتخاب، بل تعيين تُحَمِّله القوّة العسكريّة على أهل البلاد. ولم يكن لي الى ذلك الوقت أدنى ارتباط بـ«سردار سبه» لأني كنت أسوء الظن به لِما تقدّم، وزاد أمر الإنتخاب سوء ظنّي به؛ سيّما وأن كل مرشّحيه أو جلّهم، كانوا ممن لهم سوء سابقة في البلاد عُرفوا بالخيانة لمملكتهم، والخدمة للإنجليز.

وكان أهل الولايات لايُدافعون عن أنفسهم، بل جُلّ مالديهم أن يكتبوا إلي شكواهم من القوّة العسكريّة التي تجبرهم على تعيين مرشَّحي «سردار سبه». حتى أن بعض

الولايات تلقّت فيها القوّة العسكريّة أمراً بانتخاب مرشَّحي «سردار سبه» ولو أدّى ذلك الى قتل عدّة أشخاص. فعجبت من تهاون ذلك الرجل بدماء المسلمين، وسرعة إقدامه على قتل النفس المحترمة.

ولم تزل الكتب تتوالى إليّ، والناس يلجأون في كتبهم ويضجّون من تداخل الجند في أمر الإنتخاب. وكانت بعض الولايات تطلب الإستقالة من الإنتخاب بتاتاً؛ لئلا تُجبر على انتخاب الخائنين.

ولم يكن ذلك مقتصراً على الأمّة الإسلاميّة؛ فإن اليهود كانوا ناقمين لكرههم على انتخاب رجل عُرف بالجاسوسيّة للإنجليز والعمل لهم.

لمّا شاهدت ذلك؛ رأيتني مضطراً الى ملاقاة «سردار سبه» لعلي أستطيع أن أصرفه عن هذه المداخلة غير المشروعة، وعن غصب حقوق الأمّة. وفي هذا الوقت جاءني رجل من حاشيته فطلب منّي ملاقاته. وبعد الإمتناع طويلاً، وإظهار اليأس من أن يثوب هذا الرجل الى خدمة الأمّة، والإنصراف عن غصب حقوقها. أقنعني أن أُلاقيه؛ فإذا يأست منه انصرفت عنه وقطعت ملاقاته.

فلاقيت «سردار سبه» في داره، وجرى بيني وبينه كلام طويل. وتعقّبت هذه الملاقاة عدّة اجتماعات معه في أوقات مختلفة في ظرف شهور عديدة.

وخلاصة مادار بيني وبينه من الحديث باستثناء ما يعود الى جمهوريّة إيران؛ فإنها ستذكر في فصل مستقل، ينحصر بما يأتي:

كنتُ أنصحه في عدم المداخلة في أمر الانتخاب، وأطلب منه أن يترك للأُمّة حريّتها، ويربيها على المعرفة بحقوقها، وعدم الرضوخ لسلطان المتغلبين، وتحكيم إرادة الأمّة في أمور المملكة، وكفّ الجند عن المداخلة في الأمور السياسية، والادارية، والاعتناء بالجنديّة، وجعلها بيَد الأمّة بدل أن تكون بيد الاشخاص، وتنزيه دوائر الدولة عن غير اللائقين، ومَن عُرفوا بخدمة الإنجليز، وإبدالهم برجال أكفّاء عُرفوا بخدمة الملّة، ووثقت بهم وغير ذلك.

كنتُ أُقدّم له أمثال هذه النصائح كلّما لاقيته، بلطائف العبارات وحسن البيان.

ذَكَرَ يوماً «نادر شاه»؛ ورأيتُ منه شوقاً الى أن يقتدي به.

فقلتُ له: إنّ «نادر شاه» كان أبن عصره، وأنّه ليس من نوابغ الرجال؛ فانّه لم يعمل شيئاً بقي بعده، لأنه أسس دولة كبرى زالت بموته، فلا يُعدّ من القادة والمؤسسين، وإنّ المصائب التي انتابت إيران، والإضطرابات التي بقيت فيها من يوم قتل «نادر» الى هذا اليوم كلّها من سيئاته؛ لأنه لم يُؤسس دولة على أساس متين مع سنوح الفرصة له وقدرته على ذلك لو كان بصدده، فهو أشبه برؤساء القبائل الذين يغيّرون على القبائل المجاورة لهم فينهبونها ويعودون، لا بمؤسسي الدول ونوابغ القوّاد.

فاذا أردت أن يبقى ذكرك وتكون من المؤسسين؛ يجب أن تتناسى «نادراً» وأعماله، وتعمل عمل النوابغ المحنّكين، وتُحكم تشكيلات الدولة، وتسعى بترقيتها؛ من الوجهة الماديّة، والأدبيّة، والسياسيّة، وتوزع الوظائف توزيعاً عادلاً متمايزاً، وتجعل كل ذلك بيَد الأمّة. فإنّ الرجل مهما كان قادراً محنّكاً يغتاله الموت؛ فاذا نيطت قوّة الدولة به تموت بموته، أما الأمّة فإنها لا تموت، وإذا نيطت بها قوّة الدولة بقيت ببقائها. اُنظر هذا الجند الذي شكّلتَه، أترى إذا أصابك مصيبة الموت ـ والعياذ بالله هل يبقى منه أثراً؟ ويقوم بعضه على بعض ويفنى هو والمملكة في أسرع وقت، فبدل أن تكون قد خدمتَ المملكة بهذا الجند تكون قد سبّبتَ اضمحلالها ـ والعياذ بالله ـ

مازلتُ أذكر له بصراحة أمثال هذه النصائح؛ فكانت نقشاً على ماء، ونفخاً في هواء، وما عسى أن تؤثر نصائحي في قبال أقوال المتملّقين الذين يدخلون عليه من كل باب، ويقولون له: أنتَ «داريوش» و «إسكندر» وأنتَ «نادر» و «عباس شاه»[١].

وقد قال لي يوماً: إنّك لا تزال تلومني، وغيرك بالعكس يحثّني على لبس التاج المكلل بالجواهر، لأني أهل له.

فقلتُ: إنّ من يدعوك الى ذلك؛ إما أن يكون متملّقاً، أو عدوّاً يريد تضييعك. ولم أزل أنا والناس على طرفي نقيض، هم يبرّرون جميع أعماله وأنا انتقد أكثرها. ولقد بلغ

---

(١) داريوش و نادر شاه وعباس شاه ملوك حكموا ايران في عصور مختلفة.

من تملّق حاشيته أنهم ينظرون إليه؛ فكل شيء يرتضيه صوّبوه، وأثنوا عليه، وكل ما لايرتضيه خطّأوه وقبّحوه، وإن كان الأول خطأً والثاني صواباً، حتى أني كنتُ إذا هممت بملاقاته يجيئني من أولئك المتملّقين مَن يبيّن لي مايحبّه ويهواه، كي أتكلّم معه بما يطابق هواه، ولكنّي لا أعبأ بذلك، وأرى من الخيانة أن أُخفي الحق، وأغشّ المُستنصح والمستشير، فلا زلتُ أُكلّمه بخلاف ماتهواه نفسه. ولكن المتملّقين لم يدعوا مجالاً لأن يؤثر فيه نصحي، فلم يؤثر عليه أدنى تأثير؛ حتى أنّه لم يكتفِ من الإنتخاب بإكراه الناس على انتخاب عمّال الإنجليز، بل تعدّى الى إكراههم على انتخاب جواسيس للإنجليز ليسوا من أتباع الدولة الإيرانيّة.

ومازالت الشكايات تتوارد إليَّ من الولايات. والنّاس لمّا رأوني أُكثر التردد على «سردار سبه» أخذ الكثير منهم يوسّطوني في حوائجهم، فكنتُ أُكلّفه فلا ينثني عمّا يريد أن يعمل.

ولمّا زاد إصراري عليه في أمر الإنتخاب قال يوماً: إنّ هذه الأُمّة (يعني أُمّة إيران) يجب أن تُلجم بلجام، ولا يترك لها نصيب من الحريّة في جميع شؤونها، والتاريخ يشهد بذلك، فإنّ إيران متى تُركَت وشأنها لا تعمل أُمّتها أي عمل؛ وإذا حصل من يلجمهم، ويسوقهم قهراً أدّوا أعمالاً كبرى.

هنا يئستُ منه، وأيقنتُ أنّه يستحيل أن يقف موقف المربّي لأُمّته، وإنّ له أسقم الأفكار، وأسوأ النيّات. يُريد أن تكون إرادة الأمّة دائماً تابعة لإرادة أفراد يقودونها، إمّا الى السعادة، أو الى الشقاء، وليس بصدد أن يكوّن أمّة عارفة بحقوقها، مواظبة على تحصيل السعادة لنفسها.

يريد أن يكون لإيران من يُلجم الأمّة ويسوقها قهراً، فإذا مات ذلك المُلجم والسائق ماذا يكون نصيبها؟ أو إذا ساقها الى الشقاء مَن ذا يثنيه عن ذلك ؟.

سمعتُ منه هذا الكلام، وقستُه بما سمعتُه من «كمال پاشا» من قوله: ما زلتُ أُفكّر منذ عرفتُ نفسي في إظهار إرادة الأمّة الى منصّة الظهور، وجعل شؤون المملكة تابعة لإرادتها، حتى وُفّقتُ الى تشكيل المجلس الوطني الكبير.

فرأيتُ البون الشاسع بين الفكرين، والفرق الواضح بين الرأيين.

نتيجة حُسن رأي ذلك؛ تشكّل مجلس الأمّة الكبير الذي أنقذ تركية بعد الهلاك. ونتيجة رأي هذا تشكّلت الدورة الخامسة للمجلس النيابي الإيراني، وممن تشكّلت به؟. تشكّلَت ـ باستثناء بعض أعضائها الذين انتُخبوا برغم «سردار سبه» – من جواسيس الإنجليز، وممن عُرف بالخيانة لإيران، ومِن أجلاف عرفوا بالصلف والوقاحة والسرقة وقطع الطريق، ومن أفراد أُمّيين لا ميزة لهم إلا أنهم أجادوا الرقص، أو ضرب العود والطنبور أمام مُنقذ إيران!! فأمر أن يكونوا أعضاء المجلس النيابي لحسبانه أنّه محفل رقص.

ومأأدري ماذا سيجرّ هذا المجلس على إيران؟ وقى الله من شرّه البلاد والعباد.

ومن الغريب أنّه طالما كان يقول عند اعتراضي عليه في انتخاب عمّال الإنجليز وجواسيسهم: إنّ الخير فيما وقع، إذ لو لم آمُر بانتخاب هؤلاء لبقوا مثابرين على خدمة الإنجليز، والآن إذ انتخبوا للمجلس النيابي؛ سيكفّون عن خدمة الإنجليز، ويقل عمّالهم. وهذه طريقة مستحسنة لصرف عمّال الإنجليز عن خدمتهم، وإذا كان لهم طمع بمال الإنجليز؛ فإني أُعطيهم من المال مايكفيهم، فلا يخدموا الإنجليز.

هذا قوله وأترك الإعتراض عليه لكل مَن يُطالعه.

وعلى أيٍّ فقد تشكّل المجلس لدورته الخامسة كما وصفنا، وقد دُعيت يوم افتتاح المجلس النيابي إليه. فلما رأيت أعضاءه واقفين أمام كراسيهم؛ تمثّل لي سوء ماسيجرونه في البلاد من الأضرار. وقلت في نفسي: ما أكبر جناية «سردار سبه» في تمكين هؤلاء الأشرار من هذه الكراسي التي أعدّتها الأمّة بدمائها لخيرها وصلاحها.

فخرجت من المجلس مغضباً آسفاً على ماجرى، فلقيني مَن أثق به وقال: إن بعض أعضاء المجلس قال: إنّا سنعترف بحكومة العراق في أول مذاكراتنا بشكلها الحالي. وإني كنت أترقب أمثال هذه الأعمال من أولئك الرجال؛ خصوصاً بعد أن جاء خادم «فيصل» الى «سردار سبه» ووعده بذلك.

وحدّثني «سردار سبه» في أول تشكيل وزاته بأن «فيصلاً» كاتبه وطلب منه الجواب،

وأرسل له معتمداً، وقال لي: إنني سأسعى بإرجاع العلماء الذين عجز «مشير الدولة» قبلي عن إرجاعهم.

ولما لم أكن راغباً برجوع العلماء على تلك الكيفيّة؛ لأني كنت أعلم أن ثمن رجوعهم سيكون ارتباط «فيصل» بـ «سردار سبه» واتفاقهما على تنفيذ أوامر الإنجليز، واعتراف إيران بحكومة العراق بشكلها الحاضر.

قلت: لـ «سردار سبه» إيّاك أن تسعى برجوع العلماء؛ لأنك إذا فعلت ذلك أول رياستك للوزراء اتهمك الناس بالإرتباط مع الإنجليز، بدليل أنك استطعت إرجاع العلماء في حين أن «مشير الدولة» قبلك لم يستطع؛ وما ذلك إلا لأنك على رابطة مع الإنجليز و«فيصل» ففكر مليّاً وانصرف عن ذلك.

وكان بعض ممثلي المجلس النيابي مضى الى العراق قبل افتتاحه فلاقى «فيصلاً» و«المندوب السامي» الإنجليزي في بغداد وعاد بسرعة.

كل هذه كانت إمارات تدل بمجموعها على ماحدّثني به ذلك الثقة. ولما سمعت حديثه أورثني القطع بسوء نيّة أولئك الممثلين.

فمضيت من المجلس الى المسجد، وقلت على المنبر: بمحضر من أكثر أهل طهران: إن ممثلي المجلس لم تنتخبهم الأمّة وهم أعداؤها، فكل قرار يُصدره هذا المجلس تعتبره الأمّة صادراً من سفارة الإنجليز، وعلى الأمّة أن تتأهب للهجوم على المجلس فيما إذا أراد إصدار قرار يُخالف مصالحها، وتنظر نظر الناقد البصير الى جميع حركاته وسكناته وأقواله.

قلت ذلك في ضمن خطبة طويلة؛ فتناقلته الأفواه والأقلام، وأثّر على تلك الأمّة الحيّة أعظم تأثير، كما أنه أثّر على «سردار سبه». فقال لي يوماً: إن لنا في هذا المجلس مآرب كثيرة، وأعمالاً جمّة، فلماذا تتحامل عليه هذا التحامل الشديد؟ فقلت له: إني لم أتكلّم إلا بالحق؛ لأن الأمّة لاتعتمد على هؤلاء الممثلين الذين اغتصبوا كراسي المجلس كرهاً برغم الأمّة. وإني سمعت أن بعض الممثلين يعد بالإعتراف بحكومة العراق على شكلها الحالي، فبصفتي إيرانيّاً أردّ جميع مقررات هذا المجلس، وبصفتي

ممثلاً عن جميع العراقيين أُمانعه عن الإعتراف بحكومة العراق الإنجليزيّة. ولما سمع ذلك كان جوابه: إني جئت بهؤلاء الممثلين وهم لايخرجون عن إرادتي. فضحكت من ذلك الجواب، ولم يعلم أنّ معنى هذا الجواب أن الحكومة الوطنيّة تلاشت في إيران، وأبدلت بحكومة استبداديّة تابعة لإرادة «سردار سبه». فقلت له مستهزءاً: أخشى أن لايُطيعون؟ فقال: إن القوّة العسكريّة بيدي، ومن ذا يستطيع أن يتخلّف عن إرادتي. وهذا اعتراف آخر بمحو الحكومة الوطنيّة. فرأيت الرجل لايُحسن الصنع، ولايقبل النصح، ولايفهم الكلام.

فلما تحققت شدّة قصوره؛ خشيت على المملكة الإضمحلال، فطلبت منه؛ أن يختار هيئة من رجال المملكة وعُقلائها ومجرّبيها، فيشترك معهم بالرأي، ويكون هو مجريه. فرأيته يخشى من ذلك. ونازعته مَليّاً حتى يئست، ففارقته عازماً على عدم ملاقاته.

سير الجمهوريّة واضمحلالها

افتُتِح المجلس النيابي وبقي مدة شهر ينظر في الأوراق الإنتخابيّة ولم تُشكّل جلساته العلنيّة، وفي تلك المدّة مضى بعض أعضائه الى العراق لملاقات «فيصل» و«المندوب السامي» وجاء من العراق من خدّام «فيصل» مَن لاقى «سردار سبه» ومضى سفير الإنجليز من طهران الى لندن عن طريق روسية. وجرت حركات أخرى كانت تدل على أن حركة قويّة ستجري في إيران، ولم أكن أعلم كنهها إلا أنها بوجه الإجمال في نفع الإنجليز وضرر العالَم الإسلامي وإيران.

بينا أنا أُفكر في ذلك؛ إذ علا نباح الجرائد بالجمهوريّة، ولكن أدلّتها كانت منحصرة بسب «الشاه» وتمجيد «سردار سبه» وفي أثناء ذلك أخذت البرقيّات تتوارد من كل جانب وناحية من نواحي المملكة؛ قُراها ونواديها، بمضمون مانشرته الجرائد؛ سب «الشاه» وشتمه، والثناء على «سردار سبه» وطلب خلع «الشاه» وإعلان الجمهوريّة.

فتحققتُ هذه الحركة؛ وإذا الجرائد مُستأجرة على ذلك صراحة، والبرقيّات أُخذت بالقهر؛ فإن الجند في كل مكان كان يضرب الناس ويشتمهم ويسوقهم الى إدارات البرق ويُكرههم على إمضاء برقيّاتهم. لذلك كانت البرقيّات تأتي من مثل «كرنت» و«خواف» و«سقز» وغيرها.

وعلمت أن حاشية «سردار سبه» قد رتّبت قانوناً أساسيّاً للحكومة الجديدة؛ من موادّه أن يبقى «سردار سبه» رئيساً للجمهوريّة مدّة اثنين وعشرين سنة، وغير ذلك من الموادّ التي تدّل بصراحة أن الغرض الأصلي من هذه الحركة؛ إلغاء الحكومة الوطنيّة والقانون الأساسي، وتبديلهما بحكومة استبداديّة مطلقة؛ قانونها إرادة «سردار سبه» مادام حيّاً، ولم يُفكر فيما سيكون بعده.

وهذا كان بتشويق من الإنجليز؛ لأن القانون الأساسي هو الذي ألغى معاهدة «وثوق الدولة» وحَلَّ درك الجنوب. وطالما كان عثرة في سبيل أطماع الإنجليز؛ وبِلَغْوِهِ يسهل عليهم استعمار إيران حتى لو كان شخص «سردار سبه» مانعاً عن تسلّط الإنجليز فإنه يضرّ بخطّتهم؛ لأنهم ينظرون الى الزمان الذي بعد «سردار سبه» ويؤملون الإستفادة فيه.

وقد كثر اللغط والقال والقيل في طهران من الجرائد والبرقيّات التي تنادي بالجمهوريّة بدليل سبِّ الشاه وآل قاجار ومدح «سردار سبه» فلما رأيتُ ذلك؛ ألغيتُ «الحزب الجمهوري» الذي كنتُ شكّلته في طهران بعد المذاكرة مع أعضائه، وظهور أن الأجانب اتخذوا إسم الجمهوريّة وسيلة لأطماعهم السافلة.

وبعد صراع الجرائد وعويلها؛ قامت في طهران بعض الجرائد بالدفاع عن هذه الحركات وهي كثيرة فسدّها «سردار سبه» بدون مسوِّغ قانوني، ونفى بعض أربابها بلا ذنب؛ سوى أنهم دافعوا عن حركات مضرّة بنظرهم.

وقامت في طهران حركة عنيفة ضدّ الدين حتى قال أحد شعرائها في الإحتفال الذي أجراه في «غراند هوتيل»:

تا كه آخوند وقجر زنده در إيرانند اين ننگ را كشور دارا به كجا خواهد برد

أي: إذا كان العلماء والقجر في إيران فإلى أين يذهب ملك «دارا» بهذا العار؟.

قال ذلك بين الأرامنة واليهود، في حين ضرب العود وعزف الموسيقى. وتظاهر كثير من النساء الجاهلات بتقليد «الإفرنجيّات» بالتبرّج والرقص في محافل الرقص، وتظاهر البهائيّون وأخذوا يحتجّون على الناس بصدق معبودهم «ميرزا حسين علي» حيث يقول في كتابه الأقدس مخاطباً لطهران:(١)

وسيحكم فيكِ جمهور الناس. وأخذ البهائيّون يؤيدون مدّعاهم بما صمم عليه «سردار سبه» من إعلان الجمهوريّة في أول أيام برج الحمل؛ وهو يوم العيد الديني للبهائيين الذي ينتهي صومهم في اليوم الذي قبله.

حتى أن والدي روحي فداه كان أصدر حكماً بعدم إجراء مراسم ذلك اليوم الذي اعتاد الإيرانيّون على إجرائه حزناً على احتلال الإنجليز للعتبات العاليات، وسيطرته على الحرمين الشريفين. فكبُر ذلك على البهائيين جداً وكان قد نشر بذلك بلاغاً في «خراسان».

ولما أردت تجديد طبعه في طهران مانعت قوّة الدرك عن طبعه، ولامني «سردار سبه» قائلاً: إنّا سنجري في ذلك اليوم احتفالاً عظيماً. فتبالهت أمامه وقلت: إن هذا البلاغ يتم بمنفعتك؛ لأنك لاتود أن تقف بين يدي «ولي العهد» لإجراء مراسم السلام ذلك اليوم، ويمكنك أن تحتجّ بهذا البلاغ ولا تُجري فيه مراسم السلام. فقال: لا! إني لا أُجري فيه سلاماً «قاجارياً». فسكتُّ ولم أجد بدّاً من الكفِّ عن نشره.

وطاف في شوارع طهران ثلّة من الصبيان يلبسون اللباس الأحمر، ومنهم من صبغ

---

(١) كتاب الأقدس: هو كتاب البهائيين الديني وفيه عبارتان إحداهما هذه، والأخرى: وإذا شاء الله يؤيد سريرك بالذي يحكم فيك بالعدل.

وكان البهائيون يتقرّبون الى كل سلطان جديد بهذه العبارة الى أن قامت ضوضاء الجمهوريّة فتركوها وأخذوا يتلون على الناس العبارة الأولى على عادتهم في الإستفادة من كل حادثة «المؤلف».

وقد طُبع هذا الكتاب قبل ثلاثة أشهر في بغداد، والبهائيّون شديدو الحرص على نشر كتب معبودهم وطبعها خوف الفضيحة لما فيها من الهذيانات والخرافات، لكن هذا الكتاب قد خدعهم في استنساخه مبشر الأمريكان في بغداد حينما كان يتجوّل في نواحي «أذربايجان» ولما جاء الى بغداد نشره في مطبعة «دار السلام» بعد أن انتقده فيما ألحقه فيه من المقدّمة (الناسخ).

شعر رأسه يُنشدون أناشيد الجمهوريّة، وفيهم من يحمل معه مسدساً إشعاراً بأنهم رجال الإنقلاب الذين يُريدون تبديل «المشروطة» بالجمهوريّ، فكانوا سبب إيذاء الناس.

وبالغت الجرائد في سبِّ «الشاه» حتى حبّبته للناس بعد أن كان منفوراً؛ للقاعدة الطبيعيّة: (كلّ شيء جاوز حدّه جامع ضدّه).

وهنالك جاء المتملّقون أفواجاً أفواجاً الى «سردار سبه» يُسلمون عليه، ويُباركون له بالجمهوريّة (وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى) هذا يقول: أنا أسست الجمهوريّة قبل عشرين سنة، وذاك يقول مخاطباً «سردار سبه»: إن الجمهوريّة بنتٌ ربّيتها ثمانية عشر سنة والآن أضعها في حضنك. وغير ذلك من عبارات التملّق.

ونشر خمس وثلاثون وزيراً من الوزراء السابقين منشوراً يطلبون فيه إعلان الجمهوريّة؛ بطمع أنهم ينالون منصب الوزارة إذا تقرّبوا الى «سردار سبه» بذلك.

وأقبلت الدوائر والوزارات بجميع أعضائها تطلب إعلان الجمهوريّة، ومضت الى «سردار سبه» تبارك له برئاسة الجمهوريّة. يالها من جمهوريّة تُعيّن رئيسها قبل إعلانها!.

ورأت الجرائد الموافقة أن الأمر قد تمّ لها فبالغت في نشر مايُنافي الدين؛ من إعلان ازدواج البنات، ونشر صفتهنّ على صفحات الجرائد، وسمّت الأنبياء والأئمّة صلوات الله عليهم ممثلين روائيين على مسارح التمثيل، واستهزأت بحقيقة الدين!!.

هذا وأمثاله؛ أوجب نفرة العامّة الذين كانوا نافرين من المشروطة، لأنهم لم يروا منها إلا فساد الأخلاق، والجهر بالفسق والفجور. وقد رأوا أن الجمهوريّة قائمة على أساس اللادينيّة، وإن مروجيها أعداء الدين والأخلاق.

بينما سخط العامّة يزداد ويشتد، والمتملّقون يتقرّبون الى رئيس الجمهوريّة «سردار سبه» وإذا بالمجلس النيابي قد باشر بجلساته العلنيّة؛ فرأى الناس مروّج الجمهوريّة فيه وقائدها هو الرجل الذي كان خطيب معاهدة «وثوق الدولة» ومروّجها. فاعتقد الناس أن هذه الجمهوريّة خطّة إنجليزيّة لإجراء تلك المعاهدة التي ألغاها

القانون الأساسي. فاشتدّ سخطهم، إلا أن المتملّقين ازداد تملّقهم، ولم يوصلوا الى «سردار سبه» أفكار العامّة وسخطها، ويقولون له: إن الناس في فرح وسرور عظيم من هذه الحركات.

وكنت إذ ذاك مقاطعاً لـ«سردار سبه» وكان الناس يأتون أفواجاً أفواجاً يسألونني عن تكليفهم، وما يجب أن يصنعوا، فكنت محجماً عن الكلام.

وعند اشتداد الأزمة، وحسبان كل أحد أن أمر الجمهوريّة قد تمّ ولايمكن إزالته. كنت أهزأ في نفسي بهذا الإعتقاد، وأعتقد أن إزالتها من أسهل الأمور:

لأن قادتها لم يقدم أحد منهم عليها عن عقيدة بها، إذ أن قادتها في المجلس يريدون التقرّب الى الإنجليز من جهة؛ بِلَغو القانون الأساسي، والتقرّب الى «سردار سبه» من جهة أخرى يجعله سلطان إيران المستبدّ، الجمهوريّة هي المرحلة الأولى بزعمهم للوصول الى سلطنة «سردار سبه».

والجرائد مُستأجَرة من جهة، وخائفة من جهة أخرى.

والمتملّقون خارج المجلس لاغرض لهم إلا التقرّب من «سردار سبه» ولاعقيدة لهم بالجمهوريّة أصلاً.

ويكفي في ذلك أن كل من لاقيته من مروّجي الجمهوريّة يعتذر إليَّ من عمله، ويُظهر سوء ظنّه بـ«سردار سبه» ونقمته على هذه الحركات، معترفاً أنها تتم بضرر إيران ونفع الأجانب، ولكنه يقول: إن الأمر قد تمّ واستفاد كثير من الناس بالقرب من «سردار سبه» فلماذا أُحرَم منه ولافائدة ولاجدوى من المقاومة إذ أن الجمهوريّة أمر محقق الوقوع ؟.

وناديت يوماً «عارفاً» الذي ظهر منه في الإحتفال الذي أقامه ماظهر ضدّ الدين والروحانيين، فقلت له: إنك تحلف برأس «كُلُنَيل محمد تقي خان» وتراه أكبر رجل ظهر في إيران، فكيف تُثني على قاتله «سردارسبه» وتؤيده؟ فقال: إني محتاج الى شيء من المال لأمضي الى «شميران» مصطاف طهران، وجعلت المناوءة باسم الجمهورية وسيلة له حتى أصابني من تلك الحفلة ثلاثة آلاف تومان. ولما رأيت أن الأمر قد تمّ،

وحفلتي لاتنقص فيه ولاتزيد أجريتها، وسأمضي الى «شميران» وأستودعك الله، فافعل مابدى لك.

ولكني لما شاهدت عدم اعتقاد قائدها بها؛ أيقنت أن مقاومتها ومحوها سهل جدّاً، إذ لايُدافع أحد عمّا لاعقيدة به (وليست المُستَأجَرَة كالثَكْلى) وكيف يتم أمر جميع قادته ومروجيه يعتقدون خلافه؟ وإنما جعلوه وسيلة لأمر آخر. حتى أن قائدها الأعظم! ورئيسها «سردار سبه» كانت عقيدته على خلافها؛ لأنه كان يُريد أن يكون سلطاناً مستبدّاً، وهو في عهد المشروطيّة لم يرع قوانينها، فكيف يهتم بالجمهوريّة؟.

وبالجملة كان الناس ثلاثة أصناف:

العامّة: وكلّهم ناقمون على الجمهوريّة؛ لِما تظاهر به قادتها من سوء الأخلاق، وعدم المبالاة بالدين، وغير ذلك.

الخاصّة: وهم صنفان؛ صنف يعتقد بلزوم الجمهوريّة إلا أنه يُسيىء الظن بـ«سردار سبه» وينقم على ماظهر من الحركات التي كانوا يعتقدون ضررها بإيران وقضاءها على الحريّة. وصنف لاعقيدة لهم بالجمهوريّة، ولكنهم نادوا باسمها؛ تقرّباً من الإنجليز ومن «سردار سبه» لأغراض سافلة.

إلا أن الناقمين على هذه الحركات لم يجرؤ أحد منهم على المقاومة خوفاً من «سردار سبه» الذي كان رئيس الوزراء والقائد العام لجميع القوى الإيرانيّة؛ بخطل رأي «الشاه». فلم يكن من سبب للقضاء على تلك الحركات إلا سوء رأي المنادي باسم الجمهوريّة؛ فإنهم يعملون أعمالاً تكفي وحدها لمحوها وملاشاتها وإن لم يُعارضها أحد، إذ أن سوء رأي المعمّرين أقوى سبب للتدمير.

كنت أُطالع هذه الأوضاع، وأنا معتقد أن الإنجليز اتخذوا خطّة متينة في إيران لمحوها والقضاء على حرّيتها، وأكد ذلك في نفسي ماكنت أُشاهده من ممثلي الروس من شدّة المقاومة لهذه الحركات بجميع مالديهم من الوسائل، وتأهبهم للمقاومة ولو أدّت الى سوق الجيش. فأيقنت أنهم على بصيرة من أن هذه الحركات تجري بإرادة الإنجليز لمآرب أخرى. وإلا فإن روسيا «البلشفيّة» كيف تُعارض الجمهوريّة؟ بل

يجب أن تؤيدها تقوية لمبدئها «البلشفي». فلابد من أنها اطّلعت على أن الجمهوريّة إسم معناه: الإستعمار الإنجليزي، فخافته وأعدّت عُدّتها لمقاومته.

وبينا أنا في ذلك؛ إذ جاء «الشيخ محمد حسين اليزدي» أحد علماء طهران وشيوخها؛ فأخبرني عن «سردار سبه» أنه يقول: إن إبن [١] يسعى ضدّنا وهو مخالف للجمهوريّة. قال الشيخ: فأنكرت ذلك عليه، وقلت له: أن سأُلاقي إبن وأستطلع رأيه. فماذا تقول؟ فضحكت من قوله، وقلت له:

قل لـ «سردار سبه» لستُ ضدّه إذا كان بعيداً عن الأجانب، راعياً مصالح إيران، وإني لست ضدّ الجمهوريّة إذا كانت على أساس متين يوافق الأخلاق الصحيحة والدين الصريح. ولكني ضدّ الإستعمار الإنجليزي، وكل حركة تؤدي الى خراب البلاد والإضطراب، ومخالف لكل مايُنافي الدين. وإذا كنت أتحامل في خطبي ومؤلفاتي على العلماء فذلك؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم من ترويج الدين، وإظهار حقيقته. ولست بساكت أمام استهزاء السُكارى ـ في مجالس الرقص ـ بالعلماء؛ بغية القضاء على أصل الدين وهدم أساسه. فإذا دامت منكم أمثال هذه الحركات؛ فإني أُقاومها بكل وسيلة، وإذا انصرفتم عنها وأسستم أساساً متيناً لايضرّ بمصلحة المملكة وأخلاقها فأنا معكم.

بعد أن سمع الشيخ منّي ذلك طلب ملاقاة «سردار سبه» وأن أكلّمه بما تكلّمت به شفاهاً، فأجبته ومضينا معاً لملاقات «سردار سبه».

لاقيناه؛ فأخذ يلومني على السكوت وعدم الموافقة في أمر الجمهوريّة. فبيّنت له السبب؛ فتظاهر بأنه يقتل جميع العلماء إذا لم يوافقوه. فأنكرت عليه ذلك، ولمته على مقالة «عارف». فاعتذر بعدم الإطّلاع عليها.

فقلت: إن فتوى والدي بعدم إجراء مراسم العيد؛ تطّلع عليها وتمنع نشرها، ومقالة «عارف» تجري في حفلة عظيمة، وتنشرها جميع الجرائد ولاتعلم بها؟. وحيث كان

---

(١) كان الإمام الشيخ محمد الخالصي رحمه الله يُعرف بهذا الإسم «خالصي زاده» أي إبن ؛ تفريقاً بينه وبين والده الإمام الشيخ محمد مهدي الخالصي الكبير رحمه الله. (الناشر)

في المجلس رجل ثالث؛ لم نُتم الكلام، وبقي تمامه الى الليلة الأخرى، وهي قبل أول «الحمل» بخمس ليال.

مضيت على الموعد فرأيت في غرفته الكبرى ثلّة من الصبيان وباعة الجرائد متمكنين من الكراسي المنضّدة فعجبت من ذلك! ولم أجد خادم «سردار سبه» فمضيت وجلست بينهم. فقام أحدهم خطيباً مفتخراً بأنه؛ أمام أكبر العلماء، في دار أكبر الوزراء والقوّاد، فضحكت من ذلك. وأقبل الخادم عجلاً معتذراً وأشار الى غرفة أخرى فدخلتها، وسألته عن أولئك الصبيان؟ فقال: هم أولاد «كاوه» قلت: وماشأنهم؟ قال: هم حملة عَلَم الجمهوريّة، ومؤسسوا النهضة والإنقلاب. ولمّا تحققتُ أمرهم؛ وإذا أحد المدلّسين تحيّل بهم على «سردار سبه» ليأخذ شيئاً من دريهماته، فوفِّق لذلك. وأسفت لبساطة «سردار سبه» واستعذت بالله منها لإيران.

وبينا أنا مفكّر فيما ستجرّه هذه البلاهة على البلاد إذا دامت في رأس إداريّتها، إذ دخل «سردار سبه» فاتكينا على المائدة، وبدأ بقوله: إن القوّة بيدي، وإني أعطي من المال؛ كيت وكيت، وإنّك تستطيع أن تطلب منّي أي شيء تُريده وإن بلغ مابلغ. وإذا لم تُعنّا على مشروعنا؛ فلا تنتظر معاونتنا.

فقلت له ساخراً: وأي معاونة أرجوها منك؟.

فقال خجلاً: لافيما يعود الى شخصك بل فيما يعود الى العراق.

وبعد أن أفهمته أني لا أرهب قوّته، ولا أرغب في ماله، وإنما أتبع الحق، وصالح البلاد، أتطلّب رضاء الله تعالى؛ بإصلاح المملكة الإسلاميّة وبقاء الإسلام. ثم قلت له: أوضح لي ما أنتم عليه من العزم والنيّة؟ فإذا كنتم مصيبين وافقتكم.

فقال: إن المجلس النيابي سيخلع «الشاه» ويلغي السلطنة، ويُعلن الجمهورية، ونحتفل بسلامها أول يوم من «الحمل».

قلتُ: والقانون الأساسي؟.

قال: نسنّ القانون الأساسي بعد ذلك.

فبيّنتُ له تفصيلاً عدم إمكان موافقتي، وضرر هذا الرأي بالمملكة، وما يسببه من

دمارها كما سيأتي في الخطبة العمومية.

وأخذني العجب منه كيف أقنعه المتملّقون بامكان تغيير شكل الحكومة في ظرف خمسة أيّام، وهي لا تكفي لشراء داراً أو إجارتها، فكيف بتغيير المملكة من حكومة الى أُخرى؟!.

أليس الغرض من ذلك القضاء على المملكة وإدامة الإضطراب فيها؟.

ولكن لم أستطع إقناعه بما ينجم من هذا الإقدام، عليه وعلى المملكة؛ لأنّ جوابه عن كلّ ما ذكرته كان كلمة واحدة؛ وهي: لِمَ لا يقول غيرك ما تقوله؟ وكلّ من لاقيته يرى إنّ الأمر قد تمّ ولا محذور فيه.

فقلتُ: لَم يُلاقك إلاّ متملّق يطمع أن ترضى عنه فيصيبه شيء من بِرّك. وكيف يستطيع المجلس أن يفعل ما ذكرتَ ولم يتمّ النظر في الأوراق الإنتخابيّة، فهو لا يستطيع المذاكرة في الأمور العاديّة، فضلاً عن هذا الأمر المهم؟.

فقال: لِمَ لا يقول غيرك ما تقول؟.

فرأيتُ من المستحيل أن أقنعه وحدي، فقلتُ له: إنّي أقترح أن يشترك معنا بعض عقلاء العاصمة ورجالها المجرّبين، فإذا رأوا صلاح ذلك شاركتكم فيه. فرضي بذلك وتراضينا على رئيس المجلس «مؤتمن المُلك» و «مشير الدولة» و «مستوفي الممالك» وهما ممن تقلبا في الوزارات، وقرَّ القرار أن ينتظرنا صبحاً في داره.

فمضيتُ ليلاً لملاقاة أولئك الرجال، ولاقيتُ اثنين منهم حدثتهما بما جرى بيني وبين «سردار سبه» وحذّرتهما عقبى السكوت وما يجرّ على البلاد من الوبال، فأجابا الى ملاقاة «سردار سبه» ومضينا صبحاً لملاقات رئيس المجلس كي نمضي جميعاً، فرأيناه قد مضى الى المجلس، فقرّ القرار بيني وبين «مستوفي الممالك» أن يمضي هو الى المجلس ويفاوض «مؤتمن الملك» ويمضوا جميعاً الى ملاقاة «سردار سبه» فلمّا مضى الى المجلس صادف أنّ حاشية «سردار سبه» الذين حمّلهم على الناس ضربوا «المُدرِّس» في المجلس، فكثر اللغط هناك والإضطراب وامتنع أُولئك الرجال من ملاقاة «سردار سبه»، وكأن حاشية «سردار سبه» كانوا قد علموا بملاقاتنا له، وخشوا إذا

لاقيناه أن ينكشف له خبطهم فيُحرموا حُسن نظره لهم، فأجروا ذلك ليحولوا بيننا وبين كشف الأمر له؛ وبينا كنتُ عابراً أمام المجلس مع «سامي بك» قنصل تركية في «اروميه»؛ إذ لحقنا مَن أخبرنا بحادثة ضرب «المدرّس» [١]، واضطراب المجلس، فيئستُ من ملاقاة «سردار سبه».

وقبيل العصر دعاني «مؤتمن المُلك» الى المجلس فمضيتُ ورأيتُه متأثّراً مما جرى، وأخبرته بحديث «سردار سبه»، فأخبرني إنّهم أرسلوا له خبراً مع «مصدّق السلطنة»؛ وزير الخارجية سابقاً وأحد ممثلي طهران في المجلس النيابي، بأنّ ما جرى للجمهورية لا يكفي لإعلانها، وإنّ المجلس النيابي لا يستطيع ذلك، وإنّ المدّة الى أول «الحمل» قصيرة لمثل هذا الأمر الخطير.

فكنتُ أظنّ ذلك يؤثر على «سردار سبه» فكيف عن عمله؟.

ولكنّي لم أرَ له في الخارج أثراً؛ إذا أنّ «سردار سبه» لم يزل مواظباً على عمله، وحاشيته يخبطون خبط عشواء، والرسل تترى من رئيس الوزراء أو الجمهور الى ولي العهد بتخلية «دار السلطنة» ليجروا فيها مراسم السلام أول «الحمل». ويستأرثها رئيس الجمهور. وأخرج من كان فيها من نساء وخدم، ومضى مستخدموا البلاط فباركوا لـ «سردار سبه» برياسة الجمهور.

أمّا المجلس فكان ممثلوا «سردار سبه» يجدّون في تصويب انتخاب عدّة كافية منهم ليتسنى لهم المذاكرة قانوناً ـ قبل «الحمل» ـ فيعلنوا الجمهورية.

إلاّ أنّ «المُدرّس» كان يعارض في كل ورقة انتخاب تكون مطرح المذاكرة ليطول الأمد فلايستطيعون إعلان الجمهورية قبل «الحمل»، وكان يعارضه رجل أبله يسمّى «سيد محمد تديُّن» وهذا الرجل من الطبقة الدنيا المُتسكّعين، وكان يتسكّع في بخارى، ويخدم في مقاهيها، وهو من أهالي «بيرجند» من أعمال خراسان، على حدود الهند، فجاء الى طهران وصار معلّماً في إحدى المدارس، ولم يزل يتملّق للأشراف، ويساوم

(١) آية الله السيد حسن المدرّس نائب أهالي طهران في البرلمان وزعيم الأقلية المعارضة لرضا خان في البرلمان.

في مملكة إيران؛ حتى انتُخِب للدورة الرابعة. وخدم «وثوق الدولة» في ترويج معاهدته بكل ما يمكن من الوسائل، فأصابه نصيب من المال الذي باع به «وثوق الدولة» إيران، فنزع لباسه الرّثّ، ولبِس اللباس الجيد، وأثرى. واتصل في آخر الدورة الرابعة بـ «سردار سبه» لمّا اعترض عليه ممثلوا تبريز، وأخذ ينقل إليه أسرار المجلس، وتقرّب منه. وجاء يحمل لواء الجمهورية لسلطنة «سردار سبه»، ويحثّ ممثليه في المجلس أن يوافقوا ذلك الرجل، فوافقوه؛ حتى صار الرئيس الثاني، ومقدّم الجمهوريين، وهو أحد أسباب نفرة الناس من الجمهوريّة وسوء ظنهم بها.

هذا الرجل هو الذي كان يُعارض «المدرّس» وهو على غاية من البلاهة وخطل الرأي. كان يحسب أنّ أمر الجمهورية قد تمّ، وإنه يستطيع أن يُهلك كل مَن يعارضها، فلم يحسن الإستفادة من قوى «سردار سبه» وأورد عليه أضراراً بسوء رأيه.

وكان يعارض «المدرّس» في المجلس مايُضحك الثاكل الحزين من حركات الجهل والبلاهة، وكان النزاع دائماً في تصويب أوراق الإنتخاب، وهو يحسب أنّ المجلس سيعلن الجمهورية، وآخر رأيه في تسريع الأمر أن ضرب «المدرّس»، فجرّ على نفسه ضرراً عظيماً.

في هذه الأوقات كان تهايج الناس متزايداً، ويأتون أفواجاً أفواجاً يسألونني تكليفهم؛ فرأيت السكوت حينئذ خيانة كبرى لإيران، وللعالَم الإسلامي. فوعدت الناس أن أُبيّن حقيقة الأمر بلا تحاش في المسجد السلطاني، فاجتمع فيه أكثر أهل طهران، وخطبت هناك الخطبة الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَشَاوِرهُم فِي الأَمْرِ)

إن الله أمر بالشورى في جميع الأمور؛ أهمها أمور المملكة. وقد وصف الله المؤمنين بقوله: (وأمرُهُم شُورى بَيْنَهُم) وهذا يدلّ على أن الشورى في الأمور محبوب لله تعالى، والإستبداد بالرأي مذموم. ومن هنا يُعلم أن أمور المملكة إذا

جرت بمشورة المسلمين ورأيهم؛ وافقت الشارع المقدّس.

وليس لأحد أن يقول: إن الجمهوريّة موافقة للشرع أو مخالفة له، بل أي شكل من أشكال الحكومة وافق رأي المسلمين؛ فهو الموافق للشرع. فإذا أردنا أن نعلم أي أشكال الحكومة يُرضي الله؛ يجب أن نرجع الى آراء المسلمين؛ فما يرتضونه فهو المرضي لله.

ومن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُفهم؛ أن لجميع المسلمين حق أداء الرأي في أمورهم، خصوصاً مثل هذا الأمر المهم. ويُومي الى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلّم: (كلّ راع وكلٌّ مسؤول عن رعيّته).

هذا من الوجهة الشرعيّة، وإذا أردنا أن ننظر في أن أي الوجهين أصلح بحال المملكة؛ فالذي أراه أن الجمهوريّة والمشروطيّة سواء. إذ أن رُقي المملكة لايتوقف على أحدهما، ويظهر ذلك من الموازنة بين؛ الصين الجمهوريّة، وإنجلترا المشروطة. وإن القانون الأساسي سلب كل سلطة من «الشاه» فرئيس جمهوريّة أمريكا مثلاً: له من السلطة ماليس لـ«شاه» إيران فهو لايستطيع أن يُعارض في رقي المملكة إذا وجد لها رجال عاملون. فالأولى أن نُفكّر في إيجاد رجال عاملين للمملكة قبل أن نفكّر في تغيير شكل حكومتها. ولكن هذا رأيي شخصاً، ولايُجدي في البتّ في الأمر إلا الرجوع الى الرأي العام.

أما هذه الحركات الجارية في إيران؛ فإنها إذا تُركت وشأنها؛ تجرّ الى البوار والدمار وضياع المملكة من جهات عديدة داخليّة وخارجيّة:

١ـ كلّنا يعلم أنّ البرقيّات تؤخذ من الناس على رغمهم، والأمّة بأسرها ساخطة على الجمورية بهذا الوضع، فإذا اُعلِنت والحالة هذه؛ وقع اختلاف بين الأمّة والدولة لا محالة، ربّما ينجرّ الى اضطراب يؤدي بالمملكة الى الهلاك.

٢ـ إذا أردنا أن نعلن الجمهورية مستندين الى برقيات وردت من الولايات كرهاً؛ صار قانون مملكتنا الأساسي اُلعوبة بيد المتغلّبين، فإذا تغلّب غداً رئيس الوزراء أو غيره وأراد تبديل الجمهورية الى حكومة مطلقة، أصدر من الولايات

كرهاً برقيات كما يشاء، وبدّل شكل الحكومة فيكون القانون الأساسي بإرادة البرقيات دون الأُمّة.

٣ـ إذا أرادت إحدى الدول أن لا تعترف بشكل الحكومة الجديدة مُحتجّة بأنه ليس من رأي الأُمّة، كان لها الحقّ بذلك. وبأي شيء نستطيع أن نجبرها على الإعتراف، وليست لنا قوّة روسيا أو تركية ـ على الأقل ـ لنقول نحن نقف بسلاحنا أمام من لايعترف بنا حتى نجبره على الإعتراف، سيّما والأُمّة بأسرها ناقمة على هذه الحركة، فحينئذٍ تستطيع كل دولة أن تقترح ماتشاء عوض الإعتراف بنا، ولا ننسى اقتراحاتنا ـ مع ضعفنا ـ على روسيا ـ مع قوّتها ـ من الشرائط قبال اعترافنا بها. وإنّكم لم تتناسوا ما جرّه إنقلاب المشروطية على إيران من الإضطراب والحروب الداخليّة التي كان يضرم لهبها الأجانب، حتى انتهى الأمر الى معاهدة ١٩٠٧ التي اقتسمت فيها روسيا وإنجلترا إيران، وجرّ الأمر الى احتجاج الروس باحتلال إيران؛ لولا أنّ الحرب العامّة انتهت بانقلاب روسيا لَما كان لإيران في الوجود عينٌ ولا أثر، وإذا استقرّت إيران بعد ذلك الإنقلاب فلا نسوقها بسوء اختيارنا الى مثل تلك الوضعيّة المردية، من غير حاجة الى ذلك.

٤- إنّ المجلس النيابي ليس له حق إعلان الجمهوريّة وتغيير شكل الحكومة؛ لأنّه انتُخب ضمن القانون الأساسي الحاضر فليس له حقّ إلغائه، وحقّه محصور بتقنين القوانين ضمن ذلك القانون، ولا يستطيع تغيير الحكومة والنظر في القانون الأساسي إلا المجلس التأسيسي، والهيئة المقَنِّنة ليس من حقّها أن تكون مؤسِّسة. على أنّ هؤلاء الممثلين لم تنتخبهم الأُمّة وليست حسنة الظنّ بهم، وأكثرهم لصوص اغتصبوا كراسي المجلس النيابي بقوّة «سردار سبه».

٥ـ إنّ «سردار سبه» الذي زاحم الأُمّة فغصبها حقّ الإنتخاب كيف يصدق في قوله: إنه يريد للأُمة حريّة أوسع من حريتها؟ فإذا أراد غداً لغو القانون الأساسي الحاضر، وعدم تشكيل قانون أساسي جديد، مَن ذا يجبره على ذلك؟.

٦ـ إنّ الأُمّة الإيرانية بمثابةٍ من الجهل لم تستطع معه الإحتفاظ بحقوقها في

الإنتخاب، كيف تستطيع غداً الإحتفاظ برئيس الجمهور؟ وإذا كـان اليـوم بـعض ممثّلي المجلس مبرّزي جواسيس الإنجليز وعمّالهم، فسيكون رئيس الجمهور غداً مَن له التفوّق في خدمة الإنجليز.

والذي يلزم الإصرار عليه الرجوع الى الرأي العام في لزوم المجلس التأسيسي وتأسيسه، بشرط أن يكون انتخابه حرّاً، لا كانتخاب المجلس النيابي.

وأمّا ما يُجريه عمّال الجمهورية المصنوعة من المنكرات ومنافيات الديانة؛ فلا بدّ من كفّهم وصرفهم عنه، ولا ربط له بأساس الجمهورية بل هو من مقتضى سوء أخلاقهم وشهواتهم الشخصية.

ولمّا خطبتُ هذه الخطبة تلّقاها الناس بالإبتهاج والسرور، وكان لها أعظم تأثير في النفوس، وجاء كثير ممن وافقوا على تلك الحركات الهمجية باسم الجمهورية معتذرين مما جرى منهم.

وجدّ المتهوّسون المتملّقون في الشوارع والطرقات بالمظاهرات ، فقاومهم الناس، وحمل ثلاثون نفراً أعلام الإنقلاب ليمضوا الى المجلس النيابي يطالبونه بإعلان الجمهورية، فانثال عليهم الناس وفرّقوهم وأخذوا أعلامهم، وصمموا على إجراء مظاهرة في ميدان المدفعيّة، وحين رقى خطيبهم المنبر هجم الناس عليه فأنزلوه وفرّقوا المجتمعين، ولم يكونوا يبلغوا الأربعين.

وحينئذٍ صمّموا على إجراء مظاهرة خارج البلد أمام حديقة «مُخبر الدولة» مقلّدين مظاهرتنا التي أجريناها هناك احتجاجاً على الإنجليز عند تبعيدهم والدي «روحي فداه» فتوسّلوا بنقابة التّجار؛ فدعت رؤساء الأصناف والجمعيّات والمحلات للإشتراك فيها، وصرفوا لها الأموال الطائلة، فلم يحضرها أحد، ولم تُقفل الأسواق، وتلقّاها الناس بالنقمة عليها والإنزجار.

ولما رأوا الأسواق مُفتّحة؛ أرسلوا قُبيل العصر إليها عشرة أنفار يلبسون اللباس الأحمر يحملون مسدّساتهم فأطلقوا فيها رصاصات إرهاباً للناس. فنزل إليهم صبيان

الكسبة بالعصي وقاوموا الإنقلابيين حتى أوجعوهم ضرباً، وأنزعوهم لباسهم، وأخذوا من أيديهم مسدّساتهم. ولولا أن الشرطة تنقذهم وتمضي بهم الى دائرتها لأهلكوهم.

وهنالك تعطّلت الأسواق حنقاً على هذه الحركات الهمجيّة المردية. واجتمع الناس في المساجد، فقبضت الشرطة على بعض الأفراد وزجّتهم في السجن. فتفاقم الأمر وأقبلت الشرطة على المساجد فسدّتها جميعاً، وبقي الناس في الأسواق يموج بعضهم في بعض بينهم الشرطة مشاة وركباناً. هذا كان حال الأسواق.

أما المجلس النيابي فكان أعضاؤه البله مصمّمين على إلغاء السلطنة وإعلان الجمهوريّة ذلك اليوم. فأوعزوا الى المتظاهرين ـ وهم زهاء مائة رجل أكثرهم من الموظّفين في إدارات الحكومة اشتركوا بتلك المظاهرة احتفاظاً بمناصبهم ـ أن يأتوا من ساحة المظاهرة أمام حديقة «مخبر الدولة» الى المجلس يحملون أعلام الجمهوريّة. فجاءوا وركّزوا تلك الأعلام أمام باب المجلس ودخلوا ساحته منادين بالجمهوريّة، ولغو السلطنة. وجلس الممثلون على كراسيهم، وكان يعوزهم تصويب أوراق ممثل واحد ليكمل به العدد الذي يمكنه رسماً الدخول في المفاوضات؛ فقدّموا أوراق «مؤتمن المُلك» رئيس المجلس ظانين أن أحداً لايُعارضها، فخالف فيها «المدرّس» فخرج «تديّن» الى المتظاهرين وخطب فيهم؛ إن «المدرّس» هو الرجل الذي يحول بينكم وبين سعادتكم، ولايدعنا أن نُبلّغكم أمانيكم في إعلان الجمهوريّة. واللازم أن نسحبه من المجلس ونُلقيه إليكم لتقطّعوه إرباً إرباً. فنادوه: اسحبوه وألقوه إلينا لنقطّع أوصاله.

فرجع «تديّن» الى غرفة المجلس وقال: إن العيد قد اقترب ولابدّ من إعلان الجمهوريّة يوم العيد «أول الحمل» [1]. وساد اللغط، وعمّت الضوضاء، وظل «المدرّس» بين الممثلين وحيداً وهم يهمّون؛ تارة بسحبه، وأخرى بقتله.

---

(١) الموافق ٢١ آذار ١٩٢٤ م

هذا كان حال المجلس، والناس في الأسواق لا يعلمون بما في المجلس وإلا لأنقذوا «المدرّس» وفرقوا جميع الممثلين.

هذه الأحوال كانت عشية الأربعاء ثالث عشر شعبان، قبل «الحمل» بيومين، ولم يكن لي علم بما في المجلس، فجئت الى المسجد لأُصلّي صلاة المغرب والعشاء على العادة، ولمّا رآني الناس أحدقوا بي من كلّ جانب حتى إذا دنوتُ من باب «المسجد السلطاني» وإذا به مغلق، وأُخبرتُ أنّ جميع أبوابه مغلقة، فدعوتُ أحد رؤساء الشرطة وسألته عن سبب غلق أبواب المسجد، فاعتذر أنّ ذلك كان بأمر الرئيس العام، فقلتُ لمن معي: لنمضِ الى مسجد «السيد عزيز الله» ونصلّي فيه.

فقال الشرطي: إنّ أبوابه مغلقة.

قلتُ: الى مسجد التُرك.

قال: إنّه مغلق.

ولم أزل أُعدد مساجد العاصمة، وما ذكرتُ مسجداً إلاّ قال: إنّه مغلق، قلتُ: إذاً اين نصلّي وقد فات وقت فضيلة الصلاة؟.

قال الشرطي: والله لا أدري إلا أنّ جميع المساجد مغلقة.

فعجبتُ لجرأة هؤلاء البله على مثل هذا العمل في عاصمة مملكة إسلامية ولم أجد مكاناً أُصلّي فيه بالناس؛ فاضطررتُ الى طرح عباءتي وسط السوق، واسترجعتُ وأومأتُ للمؤذّن بالأذان، فشرع المؤذن واصطفّت الصفوف، وعلا النحيب والبكاء من الناس لمنعهم عن مساجدهم، واضطربت الشرطة؛ وأحرمتُ بالصلاة على تلك الحال، فلمّا فرغتُ من صلاة المغرب جاء رئيس الشرطة العام وهو يرتعد اضطراباً، وإذا به «يقتل الحسين ويسأل عن دم البعوض»، فقال: سيدي إنّ الصلاة في الشارع العام لاتخلو من إشكال.

قلتُ: تحذرُ كراهتها؟.

قال: نعم!

قلتُ: وسدُّ أبواب جميع المساجد مستحبٌّ أم واجب؟

فسكتَ وانصرف حتى أكملتُ العشاء، فجاء وقال: إئذن لي أن آتي بخدمتك الى منزلك لأُفاوضك في بعض الامور.

قلتُ: لا بأس، وعلمتُ أنّ له نيّة سيئة، فوقفتُ خطيباً في الناس وقلتُ: لا تنصرفوا حتى يُطلق جميع مسجونيكم، ويرجع الى الرأي العام، فإذا رأى لزوم تشكيل المجلس التأسيسي شُكّل وبتَّ في هذا الامر.

وانصرفتُ مع رئيس الشرطة، وإذا الشرطة تفرّق الناس عنّي بفرق، فمضيتُ قليلاً، وإذا بها قد حالت بيني وبين النّاس، فوقفتُ كأنّي أُريد مفاوضة رئيس الشرطة في أمرٍ مهم، ولا يدري غرضي من هذا الوقوف، حتى اجتمع الناس، فثقلت خطاي حتى وردتُ رأس السوق، فدعوتُ بعجلة لتحملني الى المنزل، فأظهر رئيس الشرطة أنّه قد أمر بسيارة تحملنا الى المنزل، وهي السيارة التي أُعدّت لتبعيدي، فركبتُ فيها أنا ورئيس الشرطة، وإذا بالناس قد طرحوا أنفسهم أمام السيّارة وخلفها ليمنعوها عن المسير، وهجم ثلّة منهم فأنقذوني من السيّارة، وسحبوا رئيس الشرطة منها وكاد الأمر أن يتفاقم، فدعوت الناس الى السكون، واعتذر رئيس الشرطة بأنه لم يقصد سوءاً وإنما كان غرضه أن يمضي معي الى المنزل.

وهنا أصرّ الناس أن أمضي ماشياً الى منزلي، فلم أجد مندوحة من إجابتهم ومضيت ماشياً والتحق بي كثير من الناس، وكلّ من رآنا في الطريق التحق بنا حتى وردت قريباً من المنزل؛ وإذا بألوف من الناس قد احتشدوا هناك وكانت السيّارة تُراقب سيرنا والشرطة كذلك. فخشيت إذا دخلت المنزل أن يقع التشاجر بين الشرطة والناس، وينجر الأمر الى حرب داخليّة لاتحمد عُقباها. وكانت داري بالقرب من المجلس النيابي؛ فوقع في نفسي أن أمضي إليه والشرطة لاتتعرّض للناس فيه؛ لأنه حرم الأمّة ومأمنها. فإذا حللت فيه فرّقت الناس برفق وخرجت وحدي، ولتعمل الشرطة معي ماتشاء. فاستخرت الله في ذلك فخار لي فعله، فانكفأت الى المجلس تحفّ بي أُلوف الناس، ولم يكن لي علم بما كان يجري فيه من عزم بعض ممثليه ومقاومة «المدرّس» وخطابة «تديّن» فلما وردت المجلس وإذا بأولئك المائة نفر يهددون «المدرّس»

وينادون بأعلى أصواتهم: لِيَفْنىَ «المدرّس» وبينهم «تديّن» كالجمل الهائج يرغو ويزبد، فلما شاهد الجمع الذي كان معي ذلك، نادوا بأعلى أصواتهم: ليحيى «المدرّس» ليفنى «تديّن». فارتجّ المجلس من أصواتهم، وفرّ المتظاهرون بالجمهوريّة ـ لاتنس أنّهم لم يكونوا يعتقدون بها ـ فقصدت غرفة الرئيس وأنا مستغرب من هذه الحال التي شاهدتها، وبينا أنا جالس هناك، وإذا برجل قد دخل الغرفة فحسبته من خُدّام «شاه عبد العظيم» أو «قم» وما كنت رأيت «التديّن» الى ذلك اليوم.

فقال لي: ألِلأجنبي حق أن يهجم على مجلس نيابي لدولة غير دولته؟ قلت: لا! قال: فكيف هجمت على مجلسنا، وفرّقت جمعنا؟ فقلت أوأجنبي أنا؟ أنا أعرق إيراني في الإيرانيّة. قال: هات أوراقك أنظر إليها. قلت: ومن أنت حتى أُريك أوراقي؟ وماهي وظيفتك حتى تسأل هذا السؤال؟ فقال: أنا «تديّن» أنا خادم الإنجليز، أنا الخائن ـ مشيراً الى ماقلته في خطبتي: من أن قائدِي الجمهوريّة المصنوعة؛ هم خدّام الإنجليز الخائنون ـ وأقبل عليّ ليضربني، وتطاول عليّ بالشتم والسب. فعجبت من همجيته وبذاءة لسانه! وأسفت لقوم يجعلون مثل هذا الوحشي رئيساً ثانياً لمجلسهم. فحال موظفوا المجلس بيني وبينه، ومضيت الى غرفة أخرى وسألت عن سبب إقدام «تديّن» الهمجي فقيل: إنه ورفقاءه شكّلوا جلسة استوحدوا فيها «المدرّس» وصمموا على إعلان الجمهوريّة هذه الليلة، ولمّا دخلتَ المجلس وجد المخالفون فيه فرصة فتفرّقوا وتعطّلت الجلسة وانقضّ الأمر على «تديّن» ورفقائه، وهم الآن مشغولون بتفريق الناس برفق وإخراجهم لتبقى وحدك فيسببوا إيذاءك بكل وسيلة. فعلمت أن أولئك الأجلاف لايحترمون المجلس ولايحسبونه حرم الأمّة، ولو كانوا يقولون بحرمته ماقبلوا التمثيل الإجباري فيه. وأُتي لي بعجلة فخرجت من إحدى أبواب المجلس التي كانت مقفلة بحيث لم يرني أحد، ومضيت منفرداً الى دار أحد رفقائي مخافة أن أمضي الى داري فيجتمع علي الناس ويقع التشاجر. وبقي الناس في هرج ومرج تلك الليلة؛ ينشدوني ولايجدوني.

ولما أصبح الصباح؛ كانت العاصمة في هرج ومرج عظيم، والقلق والإضطراب

شامل أسواقها المعطّلة، وأزقتها الغاصّة بالناس، فمضيت الى داري وتزاحم إليها الناس؛ أفواجاً أفواجاً، ومضى فريق من الناس الى المجلس ليمنعوه من تشكيل جلسته وهم يُنادون بسقوط الجمهوريّة. فرأيت نظم العاصمة مختلاً، وخشيت أن تختلف الكلمة، ويحدث التشاجر، ويسود الإضطراب، وتشب نار حرب داخليّة بين الناس والجند؛ فمضيت بجمع من الناس الى المجلس ودعوت الناس الى السكون والإتفاق على كلمة واحدة وهي الرجوع الى الرأي العام في تشكيل «المجلس التأسيسي».

وامتنع الممثلون من تشكيل جلستهم صبحاً، وبعد الظهر سألني رئيس المجلس عن غرض الأمّة من اجتماعها؟ فأجبته: يلزم تعطيل جلسات المجلس الى ما بعد الحمل. فقال: فإن لم نجبكم الى ذلك؟ قلت: أترككم والأمّة وأنصرف لشأني؛ لأني أعتقد أن الأمّة تهاجمكم وتمنعكم بوسائل غير مرضيّة إن لم تمتنعوا من عند أنفسكم، وحيث إني إنما جئت للإصلاح، فإذا يئست منكم أنصرف لشأني ولا أشارك الأمّة فيما تفعل بعد ذلك؛ لأني لست ممن يشترك في حرب داخليّة. قال: وما هو غرضكم الأصلي؟ قلت: أن يكفّ «سردار سبه» عن استبداده؛ فيطلق المسجونين، ويعلن حريّة المطبوعات، ويأذن للجرائد المقفلة بالأنتشار، ويُعلن للناس حرّيتهم في القول، ويرجع بعد ذلك الى استفتاء الرأي العام في لزوم تشكيل «المجلس التأسيسي» فإذا رأى لزومه شُكّل وبتّ في الأمر، وإذا أُعلنت الجمهورية بدون ذلك؛ فإن الأمّة تتلقاها بالغضب والسخط، وتعتقد أنه جُعلت وسيلة الى سلب حرّيتها، ومحو حكومتها الوطنيّة التي نالتها بدمائها.

قال الرئيس: أكتب ماقلته وأعطنيه. فكتبت ماقلت، وأشرفت على الناس فقرأته عليهم؛ فصادق عليه جميعهم، وقدّمته الى رئيس المجلس. وبقينا الى الليل حيث أمّنا من تشكيل جلسة المجلس ذلك اليوم.

ولما أصبح الصباح؛ وكان يوم الجمعة أول الحمل والمجلس معطّل. اجتمع الناس في «المسجد السلطاني» وحين غصّ بالمجتمعين قمت فيهم خطيباً؛ فأوصيت الناس

بالنظم والسكون، ونزع السلاح حتى العصيّ، والمحافظة على حسن الأخلاق والتحاب فيما بينهم، وعدم مقاومة مَن خُدع باسم الجمهوريّة بالخشونة، ومقاومة الجند والشرطة والدرك باللين والرفق؛ لأنهم من الأمّة وشركائها في جميع مقاصدها حتى إذا قبضوا على بعض الأفراد؛ سلّم إليهم من دون مقاومة، ونسعى باستخلاصه من طريق آخر. ثم دعوت الناس الى الإجتماع غداً يوم السبت ثاني الحمل لنمضي الى المجلس النيابي؛ فنُظهر مطالبنا بتوءدة وسكون.

وكان «سردار سبه» ذلك اليوم قد أذاع منشوراً أعلن فيه حرّية القول لكل إيراني، ومنع الأجانب عن المداخلة في هذه النهضة التي سمّاها وطنيّة. وغرضه من ذلك أن يمنعني عن المداخلة؛ بحجّة أني غير إيراني.

فأوعزت الى أحد الخطباء أن يُبيّن للملأ: أني إيراني، ولدي من الوثائق ماليست لأحد الإيرانيين. فأظهر الخطيب ذلك. وضجّ الناس بأجمعهم: هب أنك غير إيراني؛ فإنّا قد جلبنا؛ للماليّة مستشارين أمريكيين، والآن تطلب الأمّة أن تكون أنت مستشاراً دينيّاً. فضحكت! وضحك كثير من الناس! لأن «سردار سبه» يحسب أني أمتنع عن المداخلة في حياة أعظم مملكة إسلاميّة بهذا الإعلان، وما علم أني صرفت أكثر عُمُري في خدمة الدولة العثمانيّة، مع أني لم أكن من أتباعها؛ لجامعة الدين، فكيف بإيران التي تجلبني إليها علاقة؛ الدين والوطن والعنصر؟ فأنا أحقّ بها من «سردار سبه» الذي ليس له كل هذه العلاقات، ولم يؤثر إعلان «سردار سبه» شيئاً.

ولما صار يوم السبت ثاني «الحمل» اجتمع جميع أهل العاصمة صغيراً وكبيراً، وأقبل الناس من القرى والمدن المجاورة أفواجاً أفواجاً وتمركزوا في المسجد السلطاني، حتى غصّ بالمجتمعين أعلاه وأسفله، وتجمهر الناس في الشوارع والأسواق المحيطة بها، وكان في الإجتماع ذلك اليوم جميع علماء طهران.

فقمت في الناس خطيباً وكررت وصيّتي بحظ النظم والسكون حتى إذا ضرب الجند الناس؛ فعلى الناس أن لايقابلوهم بالضرب. وقلت: إني لم أدعكم لتضربوا وتشتموا وتحبسوا وتقتلوا، فلا تضربوا أحداً ولاتشتموه ولاتقتلوه؛ لأن من يقابلكم

هم إخوانكم من الجند والشرطة، فإيّاكم أن تصيبوا أحداً منهم بسوء. فلبّت تلك الأمّة النجيبة هذه الدعوة. وكان بين الجمع بعض مَن يحمل الأعلام، فدعوت أهلها الى طرحها لأنها ربما تُثير الأحقاد.

وجرى الناس كالسيل الى المجلس، ولم تشاهد إيران في جميع أدوارها جمعاً كهذا الجمع، وكان على غاية من الإحتشام والعظمة والسكون، يُمثّل النجابة والشهامة الإيرانيّة لكل ناظر.

ولما ازدحموا في جميع أبنية المجلس وساحاته والفضاء أمامه والشوارع التي تحدق به. مضينا لمكالمة رئيس المجلس في إحدى غرفه؛ فارتعدت فرائص موافقي الجمهوريّة الكاذبة من الممثلين وخاطبوا «سردار سبه» بآلة نقل الصوت «تلفون» قائلين: إن إبن الخالصي قد صمم على قتل اثنين وعشرين ممثّلاً، واستغاثوا به. ولعلّهم أرادوا إيقاد قلبه، وإثارة الفتنة في إيران. وإلا كل أحد يعلم أني لم أكن إلا بصدد المحافظة على النظم والسكون. أو لعلّ قصدهم كان الإيقاع بـ «سردار سبه» ولو كانوا أعوانه لما دعوه الى الحضور في مثل هذا الإجتماع، إذ أن ذلك يتم بضرره على كل حال.

وبينا أُكلّم رئيس المجلس والعلماء كلهم حضور؛ وإذا بثلّة من الجند شاهرة حرابها تضرب الناس وتطعنهم، والناس يضجّون بصوت واحد: ياابن الخالصي مع هذا الحال تدعونا الى السكون وعدم المقاومة؟ فعجبت من هتك رئيس الوزراء حرمة المجلس النيابي! وحيث أن رئيس المجلس هو المسؤول عن كل مايجري فيه؛ بمقتضى قانون إيران الأساسي.

تكلّمت مع رئيس المجلس بكلمات شديدة، ولكني رأيت علائم الغضب بادية على وجهه فتركته، فقام مغضباً ومضى الى غرفة المجلس الكبرى. وأشرفت على الناس من الغرفة؛ ودعوتهم الى المحافظة على النظم والسكون، وتحمّل الظلم والصبر عليه. وتبين أن «سردار سبه» جاء الى المجلس، فسأل الناس عن غرضهم؟ فأجابوه بلزوم عدم تغيير القانون الأساسي بصورة غير قانونيّة. فأمر بضرب الناس، ولم يرع

حرمة المجلس وحرمه، ولاحافظاً حرمة منشوره الذي أذاعه بين الناس في حريّة القول لكل إيراني.

وبعد أن أمر الجند بضرب الناس لم يقابل الناس الجند، ولم يَبدُ منهم خلاف النظم؛ سوى أن بعضهم لشدّة التأثر رضخ بالحجارة رأس «سردار سبه» وصدره، فقصد غرفة المجلس الكبرى، وصادف وروده ورود الرئيس من الباب الأخرى؛ فأخذ بتلابيبه وانتهره قائلاً: من أذن لك بما فعلت حتى تهتك حرمة المجلس وتبيح حرمه؟ وماهذه الهمجيّة والوحشية؟ وأي حقّ خوّل لك إجراء هذه الفاجعة؟ وغير ذلك من الكلمات الموجعة. فقال: أنا منقذ إيران ومنجيها، ولست كسائر رؤساء الوزراء. فقال: رئيس المجلس: إن عزلك ونصبك بيد المجلس، وأنا المسؤول عمّا يجري فيه، وما أنت إلا كسائر رؤساء الوزراء، وإني الآن أُعيّن تكليفك. فأخذ مكانه من المجلس، وأمر بتشكيل جلسة لعزل «سردار سبه» وخطب في تلك الجلسة «مشير الدولة» قائلاً إن الحق بيد الرئيس، لا أقول ذلك لأنه أخي، ولكن للمجلس حرمة يجب أن تُراعى، والرئيس هو المسؤول عنها وعن كل مايجري في المجلس. وليس لرئيس الوزراء حقّ بما صنع، وإني في رياستي للوزراء كنت أتلقى الناس الذين كانوا يعترضون عليّ في المجلس بالبشاشة، وأحتمل منهم خشن القول، مع أني كنت أستطيع أن أُعاملهم بمثل هذه المعاملة. ولكن يجب أن يُترك للناس مأمن يستطيعون أن يُظهروا عقائدهم بحريّة تامّة لايُعارضهم فيها أحد، وليس ذلك إلا المجلس النيابي. وإذا سددناه في وجوه الناس أو زاحمناهم فيه؛ فُتحت لهم أبواب السفارات الأجنبيّة ويتم ذلك بضرر إيران. فالحق مع الرئيس إذا غضب على دوس حقّه.

ثم خطب بعد ذلك «مستوفي الممالك» وجعل الحق مع رئيس المجلس، واعتذر عن رئيس الوزراء بأنه أخذته سَورة الغضب ولم يلتفت.

وارتأى بعض ممثلي المجلس أن يمضي رئيس الوزراء الى رئيس المجلس فيطلب ترضيته، ففعل ذلك.

أما الجند فإن المسلمين منهم لم يضربوا الناس، وإنما عاث بهم شرذمة من الأرمن

كانوا في الجند، ولم يدم ضربهم للناس أكثر من عشر دقائق؛ جُرح فيهاماينوف على خمسمائة رجل، وقتل فيها زُهاء ثمانية عشر. وبعد ذلك كفّ الجند عن ضرب الناس، ثمّ أقبل «سردار سبه» إلينا في غرفتنا؛ فكلّمته بمضمون ما ألقيته على الناس في خطبتي المتقدّمة، وعاتبته على تجاوزه على حريّة الناس، وغصبه جميع حقوق الأمّة في الإنتخاب، وأفهمته أنّه لايُريد الجمهوريّة حقيقة، وإنما همّه غصب جميع حقوق الأمّة، والإستبداد بجيع شؤونها. ونحن نجد أنفسنا مضطرين للدفاع عن حريّة الأمّة وحقوقها. وطال كلامي معه، وكنت أعتقد أنه سيستجيب بإجراء الإستفتاء العام للمجلس التأسيسي كما ذكرته في كلامي معه ـ ولكن لايَعْزُب عن الذهن ماقلته آنفاً من أن «سردار سبه» لاعقيدة له بالجمهوريّة ـ وهنا إذ تجلّى الغبار؛ رجع الى عقيدته الأصليّة فقال: أتريد أن أُجيبك على أُصول السياسة أو أُصول الصفاء والمحبّة. فقال «السيد البهبهاني»: قدِّم محبتك. فقال: إني قد انصرفت عن الجمهوريّة، وسوف أمنع كل من يذكرها، وقد وردت إليّ برقيّات كثيرة بتوسط علماء «قم» من علماء الولايات؛ يُعارضون فيها الجمهوريّة أشد المعارضة. وإني كنت أحسب أن الناس كلّهم راغبون فيها؛ فلذلك أقدمت عليها، وكان كثير من الناس يُعلمونني بأن الجمهوريّة تُرضي كل أحد.

فقال «البهبهاني»: لايوجد في الناس من يرغب في الجمهوريّة على هذا الشكل، ولا رجل واحد. ثم قال «سردار سبه»: ولكنّكم تصدّقون بأني لاأستطيع العمل مع «الشاه» وولي العهد بعد هذا. فقال أحد العلماء: نخلعهما ونجعل إبن الشاه ـ وهو إبن سنتين ـ شاهاً وتكون أنت نائب السلطنة، فانتهرت ذلك العالم، وقلت: ما نحن والدخول في البت بأمور الأُمّة، ولايبت في أمورها إلا ممثلوها الذين تنتخبهم بحريّة كاملة، وليس لأحدنا الحق؛ أن يُثبت شيئاً أو ينفيه على الأمّة، وإن من يطلب الجمهوريّة للأمّة كمن ينفيها عنها؛ يُعدّ غاصباً لحقّها، فلا ينبغي أن يقول أحدنا: لتكن البلاد جمهوريّة، أو مشروطة. وغاية مايمكن أن نقوله: لِتُستفتى الأمّة؛ فيعلم ماتريده ويجري للبلاد. فقال «سردار سبه»: إذا شئتَ أستعفي الآن، واشتغلوا أنتم بإدارة المملكة؟ فقلت له: ماجئنا

لرئاسة الوزراء ولاتهمنا، ولكن جئنا نطالبك بالقانون؛ لاتضيعه، ولاتغصب حريّة الأمّة، وتستبدّ بجميع شؤونها.

ثم اعتذر عمّا جرى حين دخول المجلس من ضرب الناس؛ بأنه أخذته سَورة الغضب، وهمّ بالقيام. فقلت له: لم نبتّ في الأمر، وإني أرى أن جميع أفراد المملكة ينظرون باشتياق الى مايجري في مجلسنا هذا، وإن مقدّرات المملكة ومستقبلها منوط بهذا المجلس. فلاتتفرّق قبل أن نبت في الأمر، وتتعيّن النتيجة، ويعرف كلٌّ حدّه وحقّه. وإذا لم نبتّ في الأمر هنا؛ فسيدوم الإضطراب، ويطول النزاع، ويجري على البلاد الخراب. فقال العلماء: إنّا قد حصلنا على النتيجة؛ لأنه كفّ عن الجمهوريّة. فقلت: إن هذا لايكفي بنظري، ويجب أن نُعيّن طريقة لايستطيع أحد منّا أن يتخلّف عنها، وكان نظري الرجوع الى الرأي العام واستفتائه. فقال الجميع: يكفي ماجرى قد اكتفينا. ونهضوا، وأنا قابض على يدي مَن كان الى جنبي، فلم أستطع إفهامهم. وانصرف «سردار سبه» وتفرّق العلماء، وأنا متعجّب من قصور رأي الجميع، آسف على تضييع هذه الفرصة الثمينة!! مفكّر فيما سيجري في البلاد من الإضطراب؛ إذ أنّا لم نقم على حاصل من مجلسنا، ولم نؤسس لإزالة الخلاف أساساً متيناً.

مضى كلٌّ منّا الى داره. ولكن «سردار سبه» لم يأخذه قرار، ولم تستقرّ به الدار، ومضى مغضباً الى مصطافه في «شميران» ثمّ مالبث أن عاد، ومضى الى «قم» وقابل العلماء الذين يُريدون الرجوع الى العراق؛ وتعهد لهم بأنه يؤآخذ كلّ من يذكر إسم الجمهوريّة.

وأبرق العلماء الى جميع البلاد الإيرانيّة؛ يُخبرون أهلها بما تعهد به «سردار سبه». وعاد هو من «قم» ونشر منشوراً يُنذر الناس فيه بعدم ذكر إسم الجمهوريّة. وأبرق بذلك الى جميع البلاد؛ معلناً بأنه لمّا وادع العلماء أمروه بالكفّ عن الجمهوريّة لأنها تُنافي الدين الإسلامي. فكفّ عنها وأمر كلّ أحد بالكفّ عنها وعدم ذكرها (عليه لعنة الله).

ما بعد الجمهوريّة

هكذا قامت دولة الجمهوريّة في إيران وكذلك انقرضت، وما سبب انقراضها إلا عدم اعتقاد القائمين بها كما بيّنا. وقد حدث بعد انقراضها أحوال عجيبة في إيران، تُلخّص بما يلي:

أوعد «سردار سبه» بالكفّ عن الجمهوريّة، ورجع الى أصل عقيدته؛ بأن يكون سلطان إيران المستقلّ بلا واسطة إعلان الجمهوريّة، فأوعز الى البلاد أن يبرقوا الى المجلس بخلع «الشاه» فقط من دون مطالبة بالجمهوريّة. فأقبلت البرقيّات من الولايات بسب «الشاه» وشتمه، وطلب خلعه، وما لبثت أن انقطعت، فعلمنا أنه كفّ عن ذلك. ثم فكّر بعد ذلك أن يخلع «الشاه» وينصب مكانه ولي العهد، ثم يخلعه ويتربّع هو على العرش. فتكلّم الجمهوريون؛ بنصب ولي العهد وخلع «الشاه» ومالبثوا أن سكتوا، وكأنهم علموا أن هذا الفكر لايوصل الى نصب «سردار سبه» سلطاناً، وانقطعت البرقيات من البلاد. ثم استعفى «سردار سبه» وخرج من طهران. فأقبلت البرقيّات من أمراء الجند في الولايات الى المجلس النيابي؛ تهدده بالهجوم على طهران، وقتل الممثلين، وإعمال القتل في العاصمة إذا لم يرجع «سردار سبه» الى منصبه في ظرف ثمانية وأربعين ساعة.

(هذه الحركة تمثّل كاملاً حال الجند الإيراني، وأنه شخصي لا وطني، وتظهر للعيان ماسيجري على البلاد الإيرانية من هذا الجند إذا مضى عنها «سردار سبه» قبل أن يُنظّمه ويجعله بيد الأمّة).

لما جاءت هذه البرقيّات اضطرب ممثلوا المجلس النيابي واعتراهم الخوف، وكان «الشاه» قد أبرق الى المجلس يستطلع رأيه فيمن يختاره لرئاسة الوزراء بعد «سردار سبه» فأخبروه بأنهم اعتمدوا «سردار سبه» مرّة أخرى بتسعين رأياً (متملّقاً ومرعوباً) يُقابلها أربعة عشر رأياً، وأخبروا بذلك «سردار سبه» فعاد الى طهران في منصبه، وقوي أمره بعد أن كان متزلزلاً.

أما العلماء ؛ فحسبوا أن دولة الجمهوريّة قد زالت وحلّت محلّها دولة العمائم التي لاتزول، وهم في غنىً عن كلّ شيء، فتذاكروا بينهم بأن ابن «» قد حصل له التفوّق علينا ـ وهو غريب ـ فيجب أن لانُشركه في أعمالنا.

فلم يُهمني ذلك، وودت لو أحسنوا الصنع؛ وإن حكموا بإخراجي من طهران، إذ لاعلاقة لي بها شخصيّة، وعلاقتي بها إسلاميّة محضة. ولكنّهم أساءوا الصنع، وجدّوا بنشر الخرافات والأوهام بين الناس، ودعوهم الى التدني والإنحطاط، وأحلّوا الدين غير محله.

وبالجملة: أخذوا يعملون أعمالاً ينفر منها كلّ أحد، ويمجّها الطبع السليم.

وصادف الوقت شهر رمضان؛ فقامت لهم ضجّة عظيمة، وكثرت المنابر ولكنّها بسبّ «سردار سبه» والدعوة الى الخرافات. وأسسوا بعد شهر رمضان اجتماعاً في المسجد الجامع كلّ جمعة، وجاوزوا حدّ الإعتدال، وضيّعوا من أيديهم تلك الفرصة الثمينة التي كان يمكنهم فيها خدمة الدين؛ لو كانوا جدّوا بنشره كما هو، وإعلاء شأن المملكة الإسلاميّة لو كانت حركاتهم منتظمة تابعة لأساس متين. ولكنهم أضرّوا بدل أن ينفعوا، وأماتوا من الناس حسّ الشهامة والأخلاق الفاضلة، ووضعوا الأشياء غير موضعها، مثلاً:

قُتل أحد الشعراء الحماسيين في طهران، واتهم بقتله «سردار سبه» فأرادوا الإستفادة من ذلك، وكان يجب أن يحملوا جنازته؛ كشاعر أديب؛ ولكنّهم حملوا جنازته؛ كروحاني جليل، تسير أمامها ثلّة من الناس يلطمون الصدور. وذلك لايليق بمثل ذلك الرجل، فأثّر عكس التأثير المنتظر.

وأخذوا يذكرون مخالفة أساس الجمهوريّة للدين الإسلامي، ويُشنّعون على تركيا تشنيعات واهية، ويرمونها بالكفر والإلحاد.

وبسبب أمثال هذه الأعمال؛ وجد أعوان «سردار سبه» مجالاً للإستفادة وتفريق المفكرين عن اجتماع العلماء والإشتراك معهم.

وأما الجرائد؛ فمهما ذكر اسمها، يجب أن يُعلم أن كلّ ماتكتبه في كلّ الموضوعات،

منحصر بالسبّ والشتم. وبعد انقراض الجمهورية انقسمت قسمين:

موافقة لـ «سردار سبه»؛ اشتغلت بمدحه والإطراء عليه بما لايستحق، وبسبّ مخالفيه ووصفهم بما هم بريئون منه.

ومخالفة؛ اشتغلت بالإطراء على مخالفيه ووصفهم بما لايستحقّون، وذم «سردار سبه» ووصفه بما هو مبرّأ عنه.

ثم اشتغلت الجرائد بسبّ بعضها بعضاً؛ بعبارات يمجّها طبع كلّ إنسان، وتأباها الأخلاق الصحيحة.

ولتلك الجرائد مهارة في الكذب والإفتراء. فذكرت عنّي أشياء لم تخطر ببالي؛ فما زالت تتساءل عما أصرفه في طهران؛ مع أنها تعلم أني لم أحتج الى المصرف إلا مدّة سبعة أشهر. وهي من يوم انتقالي من دار «أمين الضرب» الى يوم تبعيدي؛ لأني كنت في تمام الطريق الى يوم رجوعي الى طهران من خراسان ضيفاً على الحكومة الإيرانيّة، وفي طهران كنت ضيفاً على «أمين الضرب». وحين خرجت من داره احتجت الى الصرف الى يوم تبعيدي: وهي سبعة عشر شهراً، وقد جاءتني من الدراهم من العراق مايكفيني سنين لو أردت الإقتصاد. ولكني لم أقتصد فاستقرضت من وزارة الماليّة مقداراً يكفي لتمام هذه المدّة، لو لم أضطر الى مصارف خارجيّة. ومع ذلك تتساءل الجرايد عن مصارفي! كأنها تطلب أن أموت جوعاً في إيران، وحيث لم أمت جوعاً فذلك ذنب عظيم، وهذا منتهى خسّة الطبع. إذ كان من الواجب أن تقوم وزارة «سردار سبه» بمصارفي كلها؛ حيث أني قد نفاني الإنجليز من العراق الى إيران فعلى حكومتها القيام بجميع شؤوني فلم تفعل، ولعل ذلك بإشارة من الإنجليز. ثم جاءت جرائدها تعترض عليّ لِمَ لَمْ أمُتْ جوعاً؛ حيث أن الحكومة لم تقم بمصارفي!.

وأرادت تلك الجرائد أن تُهيّج الرأي العام ضدّي؛ فأشاعت أني قلت في مجلس عُقد في «كربلا» بدء الثورة العراقيّة: لَحكم اليهود على العراق أولى من حكم الإيرانيين، فأخذني العجب من هذه الفِرْيَة والبهتان؛ لأن الثورة العراقيّة حدثت وقت عقد معاهدة «وثوق الدولة» واحتلال الإنجليز لجميع بلاد إيران، وحين كنّا نفكّر

ونتفاوض في الثورة، قال: قائل بمحضر «آية الله الشيرازي»: إن العراق لايستطيع المقاومة؛ لأن الإنجليز يسحبون جيشهم من إيران فيقضون على الثورة العراقيّة. فقلت أنا: وهذا أعظم الفتح؛ لأنا لانفرّق بين البلاد الإسلاميّة، وغرضنا تطهيرها من الإنجليز؛ عراقيّة كانت أو إيرانيّة. فإذا وفقنا لإكراه الإنجليز على سحب جيوشهم من إيران كان ذلك أعظم الظفر، ولذلك قرّ القرار على إحداث الثورة. وكنا مع شدّة اشتغالنا بها مجدّين في ردّ معاهدة «وثوق الدولة» ومقاومتها بجميع الوسائل.

ولكن الجرائد قلبت هذه الحقيقة؛ إثارة للرأي العام ضدّي، ولكنها لم تنجح؛ فإن الرأي العام كان يتلقى تلك الإشاعات بالسخط.

وحاولت تلك الجرائد أن تُلقي اختلافاً بيني وبين «المدرّس» فأخذ بعضها بالإطراء عليّ وذمّه، وبعضها بالعكس، فلم يؤثر ذلك شيئاً؛ لأن عقل وحزم «المدرّس» أكبر من أن تؤثر عليه أمثال هذه الترهات.

وبالجملة: الجرائد ليس لها إلا الشتم، ولم تتعلّم من مدرسةٍ سياستها غيره.

وأما «المدرّس» فأخذ يُقيم المجامع ضدّ «سردار سبه» ويُنفق لها كثيراً من المال، وقد تجاوز فيما أرى حدّ الإعتدال، وخالف السير الطبيعي، ولذلك كنت أخاف أن ينعكس عليه الأمر. وكنت ناقماً على ذلك؛ لأن العقيدة أقوى سلاح كان بأيدينا، والمال يُفسدها، وإذا فسدت لم يبق لنا سلاح نُحارب به، ولذلك تزلزل كثير من المجامع. ولم يكن من الصلاح صرف المال على تلك الكيفيّة، إن المال لازم لكل شيء؛ ولكن إذا تعدّى طريق الحكمة في صرفه كان مضرّاً. ولم أكن أر من الصلاح صرفه إلا في اليوم الثاني من «الحمل» على المجروحين لاغير، وكنت صرفت لذلك كثيراً، ووزعت على جميعهم مايستعينون به على معيشتهم.

وأما المجلس فإن قلوب ممثليه كانت معنا وسيوفهم علينا، اعتمدوا وزارة «سردار سبه» ولكن كرهاً وخوفاً. وفقد «التديّن» موقعه الذي ناله بسيف «سردار سبه» وانتقلت رياسة المجلس الثانويّة لـ «المدرّس» وبقي الممثلون تكره قلوبهم وزارات «سردار سبه» وتعتمدها ألسنتهم.

وأما «سردار سبه» فلم تكن له خطة مستقيمة، وكل يوم يرى رأياً وينقضه؛ كما وصفنا حتى عاد من استقالته.

قال له «هاوارت» قنصل الإنجليز في طهران ـ على ماحدثني به سفير تركيّة، و«ظهير الإسلام»: إنّك قائد جيش منكسر؛ كلّما تعاود الهجوم تزداد هزيمة، فاصبر حتى تُكمل قواك وتُفرّق جيش خصمك، ثم تُهاجم بعد ذلك. عمل بهذه الخطّة فأخذ يُدافع عن نفسه، ويسعى بإلقاء التفرقة بين الناس بأنواع الوسائل وجلبهم لموافقته. وأخذ يبذل لذلك الأموال الطائلة، ويلاقي كل أحد بالعطف واللين، عكس ماكان صدر منه بدء الجمهوريّة من العجرفة والغرور والتكبّر.

وأقبل عمّاله ودعوني لملاقاته مراراً، فلم أتفق معه لما سيأتي.

وحاول جلب «المدرّس» واتخذ لجلب الناس وسائل منها: أنه استجلب من النجف تمثال أمير المؤمنين عليه السلام، وأجرى له احتفالاً عظيماً في العاصمة وجميع الولايات معارضاً من يتهمه باللادينيّة. ومنها أنه قدّم لائحة امتياز النفط، وإعطائه للأمريكيين الى المجلس النيابي، وأجرى لذلك تبشيرات ومظاهرات عظيمة وافقت أمذقة الناس وأميالهم؛ لبغضهم الإنجليز، وكراهتهم إيّاهم. فلما رأى ذلك أخذ يرمي كلّ مخالف له بأنه مخالف للنفط؛ ليُثير عليه العامّة.

حتى أنّي كنت أول المشوّقين الى إعطاء النفط للأمريكيين، فأخذ يُشيع «سردار سبه» وعمّاله أني مخالف لذلك، مع أن خطبي وعملي شاهدان على الموافقة والرغبة فيه. ولذلك لم تؤثر أقوال أولئك الكذّابين ضدّي؛ إذ الناس يعلمون ما أنا ٠عليه من فرط الرغبة في إعطاءالنفط لشركة «سنكلير».

بهذه الوسائل استطاع أن يُخفف من سَوْرَة غضب الناس وقيامهم ضدّه، وقد أعانه في ذلك عمّال الروس، وأجروا له تبشيرات مهمّة؛ حتى صار سفير الروس وباقي أعضاء السفارة يلاقون المخالفين ويدعونهم الى موافقته دون أن يغيّر «سردار سبه» شيئاً من حاله وعمله ويكف عن مظالمه، وكان عليهم أن يقفوا موقف المصلح في هذه الآونة، لكنهم وافقوا «سردار سبه» وأعانوه وألقوا مخالفيه في براثنه. وكان كثير من

الناس لم يقدموا على مخالفته لو لم يخالفه الروس ابتداءاً؛ لأنهم استشعروا من ذلك أنّه يعمل للإنجليز فخالفوه، وحين غرَّر الروس بالناس، وافقوا «سردار سبه» وتركوا مخالفيه طُعمة لحرابه، دون أن تأخذهم بهم رأفة، أو يمنعهم ما قطعوه لمخالفيه من العهود الأكيدة، ولذلك ساء ظنّ الناس بالبلاشفة، واعتقدوا أنّ الإنسانية قد تقادم عهدها فنسيها إبن القرن العشرين، وإنّ ثوب الأخلاق قد أخلق فخلعه إنسان العصر الحاضر، وإنّ البلاشفة كرجال الإستعمار لا تأخذهم في إنسان رأفة ولا رحمة، وليس لهم عهد ولا ميثاق، وإنّ البلشفية لا قابلية لها على إصلاح ما فسد من أخلاق البشر، «ولا يُصلح العطّار ما أفسده الدهر» فأثّرت تبشيرات «البلشفك» في معاونة «سردار سبه» بعض التأثير إلاّ أنّها أضرّت بنفوذهم في إيران كثيراً، ونفرهم العامة وأخذوا ينقمون عليهم. وكان لهم في ذلك حال عجيب فإنّهم كانوا يسمّون «سردار سبه» بأسماء مهينة في برقياتهم «اللاسلكية» ويسمّون مخالفيه؛ وطنيين وأحراراً، ويسمونني رئيسهم؛ فما لبثوا أن سمّوا وزارته وزارة وطنيّة، ومخالفيه مرتجعين، وأنا موافقهم ورئيس وطنيّي العراق، وأخذوا يحاربون الروحانيين في برقياتهم، وينسبون إليهم ما هم بريئون منه، ولا يُعلم السبب في ذلك؛ هل وافق الروس الإنجليز، وكانت لهم أغراض عند «سردار سبه» نالوها فوافقوه؟.

وغاية ما يُعلم، إنّ الروس كالإنجليز لايمكن الإعتماد على قولهم، وإنّ كل إيراني يجب أن يعمل لوطنه مستقلاً، معتمداً بعد الله على نفسه لا غير، غير منخدعٍ بقول روسي، ولا إنجليزي.

مجموع تبشيرات «سردار سبه» وأمواله أثّرت على بعض الناس، فأظهروا له الموافقة سرّاً، إلا أنّهم كانوا يخشون من التظاهر بها، ومن ذلك بعض العلماء، فانّي كنتُ مطلعاً على تفصيل مذاكراتهم مع «سردار سبه» وأخذهم المال منه. وكان هو وحاشيته يخبرونني بذلك، وكنتُ أطّلع وأرى بعض أعمالهم في بعض المجالس؛ فإنهم كانوا يعملون أعمالاً تتم بنفع «سردار سبه» وضرر الوطنيين، وكان بعضهم يعد بإجراء بعض الأعمال النافعة لـ«سردار سبه» فأطّلعُ على وعده قبل إجرائه، ثمّ يجريه

بعد ذلك.

كلّ هذه الحركات كانت تجري وأتلقّاها بالصبر، وكنتُ أستطيع موافقة «سردار سبه» فأكون المقدَّم عنده، إلا أني لم أكن بصدد نفسي حتى أجلب لها النفع بذلك، ولكنّ لي مقصداً واحداً وهو أن لا يعارض «سردار سبه» قانون المملكة، ولايغصب حقوق الأُمّة وحرّيتها، ويطبّق أعماله على قانون الشريعة الاسلامية، فإذا لم يعمل «سردار سبه» ذلك يستحيل أن أوافقه، وإن أصابني من الضرر ما أودى بحياتي. ويستحيل أن أترك الناس الذين تابعوني على مخالفة «سردار سبه» وشأنهم، وأُوافقه وحدي؛ فانّ ذلك منتهى الخِسّة والدناءة. لذلك كنتُ بصدد أن يتابع «سردار سبه» الشرع والقانون فأُوافقه أنا وجميع الناس، وإذا لم يفعل لم يمكن موافقته، وكان لي في ذلك حال غريب.

بعد اليوم الثاني من «الحمل» صرتُ أُفكر فيما يجب أن نعمله لصلاح هذه الحال، فصرتُ أمضي الى المجامع التي تشكّلت ضدّ «سردار سبه» فلم أرَ فيها إلاّ الخبط وحصل لي اليأس من أن نستطيع أن نأتي بعمل مفيد، فتركتها جميعاً، وترددتُ الى المسجد الجامع فرأيتُه يسير بالناس القهقرى، ويجدّ بنشر الخرافات؛ عوضاً عن نشر حقائق الدين، فاضطررتُ الى الإنفراد في «المسجد السلطاني» كما كنتُ قبل ذلك، ومع ذلك لم أترك المسجد الجامع لئلا يُلقي الإختلاف بين الناس، ولانستطيع صدّهم عن بعض الأعمال المضرّة التي يُقدمون عليها بلا روية.

ولاقيتُ «المُدرّس» مراراً عديدة فلم أستطع أن أُثنيه عن عزمه على بعض الأعمال التي أعتقد ضررها؛ سيّما عدم موافقته على إعطاء نفط الشمال لشركة «سنكلير».

وأثّرَ بي مخالفة الروس للوطنيين وموافقتهم لـ«سردار سبه» فاحتملتُ أن يكون قد كفّ عن العمل مع الإنجليز فيجب موافقته حينئذٍ، ولكنّي تحققت الأمر بتعمّق فلم يكن كما احتملت، بل وجدتُ «سردار سبه» باقياً على موافقته للإنجليز. فاتخذتُ خطّة مستقلّة؛ وهي الموافقة على كل ما أرى فيه صلاح المملكة وإن كان فيه نفع «سردار سبه»، والمعارضة في كل ما أرى فيه الضرر للمملكة وإن كان فيه نفع مخالفيه؛

ولذلك شوّقتُ الناس على المظاهرة في طلب تسريع امتياز النفط لشركة «سنكلير» الأميركية، والمظاهرة احتجاجاً على تصريح «كرزن» في مجلس الأعيان الإنجليزي عن جند إيران وعمل «سردار سبه» مع الإنجليز، وسكّنتُ الهياج الذي حدث بين الناس ضدّ اليهود؛ لقتلهم أحد المسلمين، وأنهيتُ الإجتماع الذي جرى في «شاه عبد العظيم» ضدّ «سردار سبه» لهتكه ذلك الحرم؛ وإخراج المتحصنين فيه من الجند قهراً، وغير ذلك من الأعمال. ومع ذلك كنتُ آيساً من نجاح الوطنيين لما أرى من الحركات التي لا جدوى لها، وكنتُ أترقب أن يعمل بعض الأعمال المضرّة بي لأنني لم أنسَ وصيّة «هاوارت» له وكنتُ أرى أعماله في الخارج موافقة لتلك الوصيّة.

وكنتُ أُكثِرُ ملاقاته وأرى في جميعها أنه بصدد جلب موافقتي له، دون أن يغيّر حاله ويتبع الشرع والدستور، أو يُحدث في الجندية أدنى إصلاح. وكنتُ أحسّ منه أنّه يريد أن أُوافقه فتتفرّق كلمة الوطنيين وتنقسم قسمين، فيسلط حرابه على كليهما؛ هذا كان يمنعني من موافقته.

ولمّا يئستُ من نجاح الوطنيين؛ عزمتُ على السفر الى بلاد الترك والإفرنج. ثمّ فكرتُ أنّ ذلك لا يُنتج إلا تخلّصي من هذه المشكلة دون أن يعود منها نفع لإيران، فانصرفتُ، إلا أنني مع ذلك لم أيأس من «سردار سبه» فصرتُ أُكثر إليه التردد في داره، فلم يثبت على قول.

عتب عليَّ يوماً سفير تركية في مخالفته، فبيّنتُ له السبب وحين رآه مشروعاً؛ توسط بيني وبينه، فقرَّ القرار على أمر أساسي فيه صلاح المملكة، وتعهد عن «سردار سبه» أن لا يخالفه، وبعد ذلك لاقيتُ «سردار سبه» فتعهد لي هو به مع ذلك، وأخبرني بتعهده لسفير تركية، وأعطاني عهداً ـ سفير تركية ـ بشرف حكومته أن لا يتخلّف «سردار سبه» عن ذلك، فمضيتُ مُجدّاً في إجراء ما قرَّ عليه القرار بيننا، وتأهب كثير من شركائي في العمل لإجرائه، فلم يمضِ على ذلك العهد يومان، حتى أذاع «سردار سبه» بلاغاً في العاصمة وفي جميع أنحاء المملكة، بنقض ذلك القرار بتاتاً. فعجبتُ أعظم العجب! وطالبتُ سفير تركية بعهده، فأسف أشدّ الأسف وقال: لعلّك تتهمني بالكذب

على «سردار سبه» وتحتمل أنه لم يتعهد لي بذلك.

قلتُ: لا! وإنّه قد تعهد لي بمثل ما تعهد لك، ولستُ أدري ما الذي حمله على ذلك، ولعلّ أعداء له بزي الصديق يحملونه على ارتكاب أمثال هذه الأعمال، وأوجب هذا الأمر خجلتي أمام رفقائي الذين كنتُ أخبرتهم بتعهده لي. ويئستُ منه أشدّ اليأس وبقيتُ منفرداً بعملي، ألوم العلماء تارة على ما يرتكبونه من خنق الأفكار وسوقها نحو الخرافات، وألوم «سردار سبه» أُخرى على استبداده وضغطه على الأفكار والمطبوعات، وقضائه على حريّة إيران.

وأخذ «سردار سبه» يتهدد مخالفيه بأنواع التهديد، وجرت في المجلس بعض الأُمور التي تدل على أنّ حكومة إيران استبدادية مطلقة، لا دستورية نيابية. فقد ضغط موافقوا «سردار سبه» على مخالفيه في المجلس حتى منعوهم عن الكلام فضلاً عن إبداء الرأي، وسلبوا حرّيتهم الشخصية، وأصبح المجلس النيابي مسرانك حاً لخادمي «سردار سبه» وتنفيذ إرادته الشخصية، لا مركز أفكار الأُمّة ورأيها؛ إذ لا يستطيع أحد إبداء رأي يخالف إرادة رئيس الوزراء.

هذه الأحوال كانت تمنعني عن ملاقاة رئيس الوزراء، حتى جاء بعض مأموري الإدارات من حاشيته وطلب مني ملاقاته، فأظهرتُ يأسي من أن يتقيّد «سردار سبه» بإرادة الوطن، واستحالة موافقتي له إذا لم يتقيّد بذلك فألح عليَّ بمقابلته لعلّه ندم على استبداده وقنع بسوء مخالفة الأمّة ودوس قوانينها، فتعهد؛ فقابلته، وتعهّد بأشياء يجريها لنفع العامّة، فلم يفعل.

ولم تزل تتكرر الملاقاة والعهود منه والخُلف! حتى طلب مني يوماً أن أُوافقه بنفسي، فقلتُ: أنا فرد من أفراد الأُمة، إذا وافقتك بلا شرط جئتك وحدي، ولا أُجديك نفعاً، وإذا أجريتَ ما اقترحه عليك من الشرائط العامّة المنفعة؛ جاءتك الأُمّة بأسرها، ويستحيل أن أخدع الأُمّة فأقول لها إنّ «سردار سبه» أخذ يعمل على صالح الأُمّة ما لم أرَكَ تعمل ذلك.

فقال: إنّ كثيراً من العلماء قد وافقوني، وإنّك تبقى وحدك.

فقلتُ: لئن أبقى وحدي خير من أن أُخادع الأُمّة وأخونها، وفارقته يائساً منه.

وطلب ملاقاته يوماً فلاقيته، فقال: الى متى أنت مخالف لي.

فقلتُ: إني لا أرى لك خطة معيّنة، لِأرى رأيي فيها. إن وافقَت صالح الأمة قبلتُها، وإن خالفت رددتها، وأراك كل يوم تقول شيئاً وتنكره في اليوم الآخر، ومع هذا التردد في الرأي والعمل، كيف تمكن الموافقة إلا أن أكون تابعاً لما تقول صلاحاً كان أو فساداً؟ وهذا لايكون. فإن تكن راغباً بموافقتي فقل لي ما تريد أن تصنع حتى إذا رأيتُه صلاحاً وافقتُ عليه، ونُرتّب لإجرائه خطّة معلومة نتّبعها في سيرنا.

فقال: إن غاية قصدي هي أن أُنظّم دوائر الدولة والجنديّة، وأجعلها بيَد الأُمّة تابعة لقوانينها؛ لأنّي كنتُ بِدء تأسيس الجندية مضطراً لمخالفة القانون، وإلاّ لم أستطع تأسيسها؛ أما الآن وقد برزتُ الى الوجود فيجب ترتيبها على أساس قانوني متين؛ لئلا تضمحل هذه القوى بذهابي.

فلمّا سمعتُ منه هذا الكلام لم أملك نفسي من شدّة الفرح والإبتهاج، واعتقدتُ أنّي قد ظفرتُ بضالّتي المنشودة ونلتُ المرام. فقلتُ له: أنا ورفقائي نعمل ذلك ونفدي دونه أنفسنا.

واتفقنا على ذلك، وتعهّد باجرائه، ففارقته مبتهجاً داعياً له بالتوفيق، وبشرتُ الناس بما قال، وأوعدته خير الأُمّة وصلاحها، ودعوتهم الى موافقته.

وكان القرار بيني وبينه أن أُلاقيه مرّة أُخرى لتخطيط الخطط الى إجراء ذلك الفكر، وقبل حلول الموعد شاع في العاصمة أنّ نيّفاً وثلاثين رجلاً من أتباع «أمير مؤيد السواد كوهي» من أقرباء «سردار سبه» قتلهم الجند بين «استراباد» و «مازندران» مع اثنين من أولاده دون محاكمة. فلمّا شاع هذا الخبر تحامل عليَّ الناس من كل جانب وقالوا: أهذا القانون الذي تعدنا به؟ وهذا هو الخير الذي تؤمّلنا فيه؟ ـ فدهشتُ من مواعيد هذا الرجل ـ وإنك تصرف الناس عن مخالفته مع ارتكابه لهذه الفجايع، وكلها في عنقك! فأسفتُ لما صدرَ منّي أشدّ الأسف، وأيقنتُ أنّ هذا الرجل يستحيل أن يكفّ عن استبداده، ويئستُ منه، ولم أُلاقه، وحين سأل عني قيل له: إني لتأثري من هذه الفاجعة

عزمتُ على عدم ملاقاته ويئستُ منه.

فقال: إنّ إدارة المملكة تقضي بأن يجري كل يوم أمثال هذه الوقائع، وهي لا توجب التأثّر.

وحين نَقل لي قوله استغربتُ أشدّ الإستغراب؛ لبساطته أولاً، ولاستهوانه بدماء المسلمين ثانياً. وما علِمَ إنّ أوسع ممالك العالم اليوم تدار أحسن الإدارة، ولم يسمع أن أحداً من أذانبها وأشرارها يُقتل من دون محاكمة.

تركت ذلك الرجل، وفي ذلك الوقت شاع في العاصمة حدوث اضطربات وحروب في بعض الولايات، وزاد الإضطراب في العاصمة؛ حتى قُتل فيها ضحوة أحد مديري الجرائد، وأخذ الناس يتجمهرون في الأسواق والطرقات؛ حتى انتهبت بعض المخازن التجاريّة، وهُجم على الدور جهاراً.

فبذلت جُهدى في تسكين الإضطرابات بجميع مالدي من الوسائل فلم أستطع، وأخذت أفكر؛ هل من الصلاح موافقة «سردار سبه» وتسكين الإضطرابات بذلك؟ وبينا أنا أفكر في هذا الأمر؛ وإذا بكتاب جاء من والدي «روحي فداه» يأمرني فيه بموافقة «سردار سبه» وإلقاء النصائح إليه؛ أن لايعمل مايضرّ بالمملكة. وفي ذلك الوقت جاءني من يخبرني عن «المدرّس» قوله: إنك مضطرب عن موافقة الروس لـ «سردار سبه». والروس لاعقل لهم ولامال، وإذا كانوا قد وافقوه فلا أهميّة لهم. وإن الإنجليز؛ أولوا عقل ومال، وهم أقوى من الروس.

فقلت: سبحان الله! إني لم أُرد موافقة «سردار سبه» حبّاً لسواد عينيه، بل إذا وافق الشرع والقانون وخالف الإنجليز. كما أني لم أُخالفه؛ نفرة من جراحة وجهه، بل لأنه غصب حقوق الأمّة، وخنق أفكارها ومطبوعاتها، وسلبها حرّيتها، واستبدّ بجميع أمورها. وإني أعتقد أن الإنجليز لايوافقون مسلماً ولاشرقيّاً؛ إلا على ضرر الإسلام والشرق، ولو كنت معتقداً أن «سردار سبه» مخالف للإنجليز لفاديته. ولكنّي أظن أن هذه الخطّة دبّرها الإنجليز لتقوية «سردار سبه» بخدع الروس، والتظاهر بموافقته لتنفير الناس منه.

وعلى أي حال رأيت مجموع الأحوال شاهدة على أن موافقة «سردار سبه» أصلح بحال المملكة فعزمت على موافقته. وحين صمّمت على ذلك؛ جاءني «سيد عبد الرحيم الكاشاني» أحد التجّار فطلب إليّ ملاقات «سردار سبه» وبعد كلام طويل؛ أجبته وسلّمته كتاب والدي «روحي فداه» الذي يأمرني فيه بالموافقة. فمضى به الى «سردار سبه» فسُرّ به واحتفظ به عندّه.

ومضيت بعد ذلك لملاقاته فقال: إني أعجب من مخالفتك! ولولا أنك لم تخالفنا في الجمهوريّة لما اضمحلّت، وغير ذلك من الكلام. فعجبت من كلامه واقتناعه؛ بأني أنا السبب الوحيد في اضمحلال الجمهوريّة وإلا لأعلنها! ولوكان لها أساس، كيف يستطيع غريب مثلي؛ فاقد لجميع الوسائل أن يقضي عليها؟ ولكن ليس لها أساس فاضمحلّت بنفسها، وإذا كانت بهذه المثابة؛ بحيث يستطيع أن يقضي عليها أضعف الناس، فكيف يمكن أن تعيش بين مكر إنجلترا وأفكار روسيا، وبين سائر العالم؟ فالحمد لله حيث قضيت عليها.

إلا أن أعوان «سردار سبه» لما لم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً؛ احتجوا بأني قضيت عليها، وإلا فإنهم أتمّوها لولا مخالفتي لها.

فكّرت في كلامه مليّاً، ولم أجد صلاحاً في مناظرته؛ لأني عزمت على موافقته إنهاءً لتلك الإضطرابات، وامتثالاً لأمر والدي «روحي فداه» فقلت له: دعنا عمّا سلف، ولننظر في الآتي. كم وعدت ولم تف؟ والآن أطلب منك أن تُبيّن بصراحة ماأنت عازم عليه لنعمل متّفقين، ولايتخلف أحدنا عن عهده؛ فإن الإضطربات قد شملت البلاد، ويوشك أن تؤدّي الى حروب طاحنة، وتقضي على البلاد وأهلها، فَأَوْضِح لي ماانطوى عليه ضميرك لِتُنهي هذه الإضطرابات؛ والله! الله! في نفوس الأمّة ومُلكها وأعراضها.

فبيّن لي قصده؛ وهو منحصر في الإصلاح والعمل على إعمار المملكة. فقلت: ومن يضمن لنا أنك لاتتخلّف عنه؟ فوضع يده على صدره وقال: شرفي العسكري. فقلت له: إني عازم على صرف الناس عن المخالفة، وكثير منهم يخشون بأسك ويقولون: إنا إذا انصرفنا عن مخالفته اشتغل بتعقيبنا وعقابنا. فقال إنك تستطيع أن تؤمن

كل واحد وتوثقه بأني لا أعاقب أحداً ولا أتعقّبه، وشرفي الشخصي وشرفي العسكري يضمن ذلك. فقلت: وإنك حاقد عليّ أشدّ الحقد؛ لإعتقادك أني أنا المخرّب لجميع ماأسست، وأخشى إذا دعوت الناس الى موافقتك: أن يخالفني بعضهم فيضعف جانبي، وتتصدّى أنت لمقاومتي والإنتقام منّي؟ فضحك وقال: هيهات! هيهات! إن شرفي العسكري يضمن لك ذلك كمال الإطمئنان، وكلّ أحد يمكنك أن تُعطيه الأمان عنّي.

ووعدته بالكفِّ عن مخالفته، ودعوة المخالفين لموافقته. وقال: إني أنفذّ كل ما تطلبه منّي للناس ممن يكون سبباً لإزالة الخلاف. وإن كثيراً من الناس جاءوني وخدعوني، وأخذوا مني كثيراً من الأموال الطائلة، ولم يعملوا شيئاً. قلت أما أنا فلا أطلب منك شيئاً من المال. قال: وأنا أعلم ذلك. قلت: والذي أطلبه منك هو؛ أن تعمل طبق رغائب الأمّة، وتحافظ على مقدّساتها وقانونها، وتكفّ عن ظلم الناس، وتُجري لهم بعض التسهيلات. فأجاب الى ذلك واعتذر عمّا جرى على آل «أمير مؤيد». وفارقته مطمئناً سائلاً له التوفيق.

ومضيت الى ولي العهد؛ فطلبت منه الموافقة مع رئيس الوزراء وإنهاء الخلاف. وبعد مذاكرة طويلة؛ أجاب الى ذلك بالإبتهاج. ثم مضيت الى المجلس النيابي ـ وكان قد لجأ الى حماه كثير من مخالفي «سردار سبه» فيهم «أمير مؤيّد» ومدير الجرائد وغيرهم؛ فدعوت الجميع الى الموافقة مع «سردار سبه» وترك الخلاف. وتعهدت بمطالبهم؛ فأجابوا ووعدوا بالخروج من حمى المجلس. ثم لاقيت بعض مخالفيه من ممثلي المجلس و «المدرّس» فكلمتهم في ذلك. ثم دعوت الناس عامتهم الى المسجد السلطاني، وقمت فيهم خطيباً ودعوتهم الى نبذ الخلاف. ثم لاقيت كثيراً من رجال العاصمة ودعوتهم الى السعي في الوفاق ونبذ الخلاف. ثم اقترحت تشكيل مجلس من جميع الرجال والعلماء للنظر في حلّ المشاكل، وتصفية جميع المسائل التي ولّدت الخلاف.

اقترحت ذلك لأني أردت إنهاء الخلاف بتاتاً؛ حتى لايبقى مخالف واحد. فتلقّى

الناس ذلك بالقبول.

وكان قد ظهرت في العاصمة كرامة للعبّاس بن علي عليهما السلام، في إحدى البُرَك المعدّة لشرب المارّة باسم «العبّاس» فزيّنت الطرقات والأسواق، وجرت لها مظاهرات دينيّة عظيمة.

وحدث أن «قنصل» أمريكا مضى متنكراً ليأخذ صورة لتلك البركة؛ فنادى أحد الواقفين هناك أن هذا «الإفرنجي» ألقى سُمّاً في ماء البركّة. فانثال عليه العامّة ضرباً حتى قتلوه، وجرحوا رفيقاً له.

وكنت وعدت «سردار سبه» أن أُلاقيه في داره يوم السبت «السادس عشر من ذي الحجّة ١٣٤١» فجاء في آلة نقل الصوت اعتذار عن ملاقاته ذلك اليوم؛ لأنه مشغول، ووعد بالملاقاة غداً. فجاء «السيد عبد الرحيم» الذي كان واسطتي في ملاقاتي الأولى وقال: إن حادثة قتل «القنصل» في صالح رئيس الوزراء؛ لأنه سيقبض على جميع مخالفيه بحجّة قتل «القنصل» فقلت: إن هذه خسّة لايرتكبها شريف، وإنّا قد أمّنا الناس، وتعهدنا لهم بأن يكونوا مُطمئنين. فقال: لايُقبض على من أعطيته أماناً وليكونوا مطمئنين، ولكن على غيرهم. فقلت إن بعض مديرى الجرائد من المتحصنين في المجلس قبض عليهم مع أني قد كنت أعطيتهم الأمان. و«سردار سبه» كان قد تعهد لي بذلك. فقال تعهد لك قبل حادثة قتل «القنصل» والآن قد وجد «سردار سبه» فرصة للإنتقام من مخالفيه. قلت: إن الترتيبات الإداريّة والشرف العسكري؛ يأبى ذلك. فقال: لاعليك! إنه قد أعطاك أماناً لك ولأتباعك فكونوا مطمئنين آمنين، وإن رئيس الشرطة يقرأوك السلام عن رئيس الوزراء ويقول: أنت وأتباعك في أمان لايعترضكم أحد.

فرأيت الرجل لايفهم الكلام، وحيث أني كنت عازماً على ملاقاة «سردار سبه» غداً، قلت: وكان في نفسي مطالبته بعهده، كففت عن مكالمة «الكاشاني» فانصرف.

فكأنه كان قد جاء من قِبَل رئيس الشرطة؛ ليخدعني فأطمَئِن ولا أتأهب للدفاع؛ فتقبض عليّ الشرطة. ولكنّ ذلك كان تدبيراً في غير محلّه؛ فإني لا أدافع عن نفسي بوجه من الوجوه، إذ يستحيل أن أُسبّب حرباً تُسفك فيها دماء المسلمين، وإني طالما

كنت أُوصي الناس وأحثهم على عدم مقاومة الشرطة، والتسليم لهم فيما إذا أرادوا القبض على أحد؛ إلا أن ذلك يجب أن لايكون مانعاً عن المقاومة الأدبيّة، وإظهار العقائد بصراحة.

وكنت قبل يوم قد خطبت الناس في المسجد السلطاني وحثثتهم على المحافظة على النظام، وعدم الإقدام على نوع من أنواع الجدال.

وإن الناس كانوا يحدقون بي بعد أن أُطلقت عليّ رصاصات في العاصمة، وكانوا يبيّتون الى جنب داري للمحافظة أفواجاً، ففرّقتهم لئلا يحدث بينهم وبين الشرطة مايُعكِّر صفو الأمن. وكان بعضهم لاينفصل عنّي لأنه يخشى غدر رئيس الوزراء. فلما رأوني مجدّاً في موافقته اطمأنوا وتفرّقوا.

وكانت الشرطة قد قبضت على بعض أصحابي صباح ذلك اليوم؛ فأطلقتهم عصراً واعتذرت عن حبسهم، بأنها لم تكن تعلم أنهم من أصحابي، فزاد ذلك اطمئنان الناس ولم يبق معي إلا القليل.

فمضيت الى المسجد لصلاة المغرب والعشاء على العادة، وبعد أن فرغت من الصلاة والدرس، كانت العادة أن يصحبني الى الدار كثير من الناس، ولكنّهم كانوا تلك الليلة مطمئنين فلم يمضي معي إلا القليل. فلما دخلت الدار جاء ثلاثة من الضبّاط ـ وكنت أظنّهم زائرين ـ فأنذروني بالخروج من الدار، فعلمت أنهم يحملون شراً، فخرجت من الدار فرأيت كثيراً من الشرطة والدَرَك والجند محدقين بالدار؛ مالئين الأزقّة التي في أطرافها. فتوقّف الضبّاط قليلاً عند باب الدار، فخشيت أن يجتمع الناس ويحدث ما لايُحمد، فطلبت من الضبّاط أن يتفرّق الجند ونمضي مسرعين من طريق قليل المارّة لئلا يعلم بنا أحد ولكيلا يحدث شيء من الإضطراب والقلق. فأجابوا الى ذلك؛ لأنهم كانوا مضطربين خائفين.

فتفرّق الجند، ومضيتُ معهم على ماوصفتُ الى إدارة الشرطة، فوردتُ دائرة الإطلاع فجلستُ قليلاً، وجاء رئيس الإطلاعات وتكلّم بكلمات لاربط لها بالمقام، فلم أُجبه بشيء.

وكتبتُ هنالك كتاباً الى رئيس الوزراء طالبته فيه بعهده، ولمته على خُلفه، وطلبتُ منه أن يعمل معي كلّ شيء إلاّ النفي الى العراق، فإنّ من الإجحاف المفرط، ومنتهى الخسّة أن يقدم رئيس وزراء مملكة على تسليم أحد أفراد تلك المملكة الى عدوّه وعدوّها.

لم أنم تلك الليلة، تأثّراً من غدر ذلك الرجل، وسوء نيّته، وما ستجرّه تلك الأعمال والأخلاق على المملكة، وكيف يتقيّد رئيسها بعهدٍ وميثاقٍ وأخلاقٍ وغيرها؟.

ولمّا أصبح الصباح أُعلنت الإدارة العرفية والحكومة العسكرية، وأقبلوا بالناس أفواجاً الى إدارة الشرطة، فيهم العلماء والسادات وغيرهم. وفيهم كثير ممن أعطيتُهم الأمان عن رئيس الوزراء، ولكنّي كنتُ في غرفة على حدة، منفصلاً عن كل أحد، لا يراني أحد، ولذلك لم أتحمّل مشقّة ملامة أولئك النفر، ومكثتُ الى الليل، فلمّا مضت خمس ساعات منه، اضطجعتُ على «تخت المنام»، فجاء أحد الضباط وقال: إنّ رئيس الوزراء يدعوك في داره، فاستشعرتُ من ذلك الشرّ، وقمتُ فتوضأتُ متأهباً لما سيجري، ومررتُ على طريقي بالعلماء والسادات الذين كانوا محبوسين في غرفة أُخرى فودّعتهم، وقصدتُ باب الإدارة وإذا بسيارة واقفة فيها أحد الضباط، وضابط آخر صغير، والضابط الذي معي، فركب ثلاثة من الضباط وتحرّكت السيارة، فنُفيت الى قرية «خواف» على حدود الأفغان، وقلتُ لأحد الضباط: إنّ الإنجليز هم الذين أبعدوني؛ غاية الأمر أنّهم تارة ينفونني من العراق بيد «فيصل» وأُخرى بيد «سردار سبه» ولا فرق؛ إلا أنّ التبعيد الذي يجري بيد الثاني أشقّ وأشدّ من التبعيد الأول، وعلى أي حال لستُ بمُنفكّ عن خدمة الإسلام وإن لاقيتُ في سبيلها أشقّ الصعوبات.

وحيثُ أنّي كتبتُ ذلك في السجن لم أكتب ما لاقيته من الصعوبات في الطريق، وفي المنفى، وأحيل تفصيله الى ما بعد الخروج والنجاة من السجن إن شاء الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كتبتُه في سجن «خواف» ساعة كانت تُغلق عليَّ الأبواب

لأنام، فأترك النوم وأشتغل بالكتابة على خوفٍ مـن المـوكَّلين بحفظي، أن لا يشعروا بي لاني كنتُ ممنوعاً عن كتابة كل شي بحكم رئيس الوزراء، فتحيّلتُ بالحصول على قلم ودواة وورق، وكتبتُ ذلك متخفيّاً.

وقد فرغتُ من كتابته يوم السبت الثامن والعشرين من شهر صفر الخير سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية.

ولم أجد فرصة لمراجعة ما كتبته، ولستُ أدري ما وقع فـيه من الخلل في التعبير، فأرجو من القاريء العذر، والسلام.

محمّد الخالصي

مستقبل ايران

نظر في مستقبل إيران من وجهتها الحاليّة، لا من الوجهة العامّة؛ فإنّي على ثقة أنّ إيران من الوجهة العامة ستكون في الأوج الأرفع إن شاء الله تعالى؛ رغم الصعوبات الكثيرة التي تعترضها. أمّا الوجهة الحالية؛ فإن لم يجدّ العالم في إظهار حقيقة الدين، ونشر التعاليم الإسلامية الصحيحة، ومقاومة تبشيرات المبشرين، وسوء أخلاق المتهوّسين من المتجددين؛ فإنّ أُولئك الجهّال يطمسون على آثار الدين الإسلامي ﴿وَيأبَى اللهُ إلاّ أن يُتمّ نُوره وَلَو كَرِه الكافِرون﴾.

وإن لم يجدَّ المفكّرون والحكومة في إصلاح الدولة وشؤونها الإداريّة خصوصاً جنديّتها؛ فسيسود فيها الإضطراب، ويكثر الهرَج والقلق، وتتجزء البلاد، وتنقسم على بعضها.

فعلى العلماء أن يجدّوا بنشر حقائق الدين، وعليهم وعلى المفكّرين أن يجهدوا في إصلاح شؤون المملكة، وجعلها قانونية بيَد الأمّة.

وآخر ما أذكره لعموم المسلمين هو أن لا يُخدعوا بزخارف المدنيّة «الإفرنجيّة» كما خُدع بها شرذمة من المتجددين؛ فإنّ من ورائها العطب والشقاء لجميع البشر، وأن ينظروا في حقائق الدين الإسلامي؛ فإنّه خير قانون يضمن سعادة البشر. وإنّ صيانة الشرق والمسلمين وحفظهما من تغلّب المستعمرين منحصرة بنشر قوانينه الحَقّة، وتعاليمه المتينة. وإن الغرب قد أدرك هذه الحقيقة، فجاء يدعو الشرقيين الى الإنصراف عن الدين الإسلامي الذي هو السياج الوحيد، والسدّ المحكم بينه وبين الغرب؛ ليسهل استعمار الشرق.

وإذا انخدع لفيف من بسطاء الشرقيين لتلك الزخارف؛ فليجهد المفكّرون أن لاينخدع الباقون، وإلا أصبح الشرق عبداً للغرب وأسيره، ولاتُثني أولي العزم من الشرقيين الصعوبات في هذا السبيل.

وإني قد لاقيت منها مايُذيب الشمّ الرواسي؛ فلم تزدني إلا نشاطاً واجتاهداً. وما

أُبْعدت ونُفيت في المرّة الأخيرة إلا لذلك. وإذا فَكَّ الله أسري فلأجهدنّ في دعوتي إن شاء الله تعالى [(١)]

﴿قُل هٰذهِ سَبيلِي أدعُوا إلى اللهِ على بَصيرَةٍ أنا وَمَن ٱتَّبَعَني ﴾

﴿وَما أُريدُ إلّا ٱلإصلاح مَا ٱستَطعتُ

وَما تَوفيقي الّا باللهِ عليهِ توَكَّلتُ وإليه أُنيب﴾

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أرسلتُ له هذه الرسالة، وكانت رفعَة نفسه تأبى أن يعترض على «رضا خان» فـي حبسي، ويأنف أن يطلب إطلاقي. وكلما ألح عليه الناس في طلب ذلك ازداد امـتناعاً

---

(١)ولقد وفّى بما وعد، وقام بالواجب، ولاقى من الصعوبات وتكبّد من الأخطار والشدائد؛ أكثر وأعظم مـمّا لاقاه أولاً، وجدّ واجتهد في الدعوة الى حـقائق الديـن، ونشـر تـعاليمه الصـحيحة، وبث النـصائح الإسـلاميّة والسياسيّة الإلٰهيّة، والأخلاق الفاضلة؛ شاغلاً بذلك جميع أوقاته لم يفتر عنه ليلاً ونهاراً. يجدّ في إرساخها في فكر البشر، وإركازها في أدمغة العامّة. ويرى التخاذل والتغافل والتماطل عن ذلك؛ عاراً وشناراً.
حتى أثّرت تعاليمه في الشرق ووصلت الى الغرب، وانتشرت بين المسلمين انتشاراً هائلاً؛ وذلك أكبر حرب للإنجليز، ولسائر دول الإستعمار، وأعظم جهاد لأعداء الديـن. إذ مـن المـعلوم أنّ ألسـنة العـلماء وأقـلامهم تؤثران وتمضّان في القلوب ما لاتعمله السيوف والرماح والمدافع، وسائر أنواع السلاح في الأبدان.
وكان سماحة الشيخ سرعان ماتنفذ أقواله في شعور الإنسان فيمن أعطى الإنصاف حقّه، ولايصده عن سُماع ذلك: الغرور، واتّباع الهوى، والعناد.
فلمّا رأى الإنجليز ذلك لم يجدوا وسيلة إلا أن يُعزوا الى عاملهم «رضـاشاه» أن يـزجّ العـلامة المـؤلف فـي السجن، ويُشدد عليه، ويمنع الناس عنه؛ حتى إخوته وأقاربه، بعد منعه عـن رقـيّ المـنابر، والصـلاة بـالناس جامعة. فامتثل «رضا شاه» ذلك وكان يود الانجليز اغتيال الاستاذ لكن لم يسع رضا شاه ذلك لتأثيره في هياج العالم الإسلامي عليه، لاخوفاً من الله، إذ هو المعروف أنه لادين له، وإنـه سـفاك للـدماء، مـتهتّك بـالنفوس المحترمةالقدسيّة، مدّة سبع وعشرين سنة كاملة ينقله من حبس الى حبس، ويحوّله من من سجنٍ الى سجن، تارة في محبس طهران، وأخرى في «تويسركان» وثالثة في «نهاوند» و «كاشان» و «يزد».
وقد شدد الإنجليز وعاملهم «فيصل» منعه عن الرجوع الى العراق أو السفر الى سـائر المسـتعمرات وضـاقت عليه الأرض بما رحبت وليعملوا ذلك إنّ الله لبمالرصاد وهو المنتقم الجبّار، شديد البـطش العـزيز المـقتدر القهّار، ولا تحسبنّ أنّ ذلك مما يُثني عزم الأُستاذ، أو يضجره عن القيام بالأعمال لو فرّج عنه، إذ هو كما وصف نفسه: «الليثُ يضرى إذا خُدش»، وفي عقيدته وعقيدة كلّ موحّد يـؤمن بـالله وبـرسوله أنّ ذلك أحـلى مـن الشهد، وأطيب للخاطر في سبيل خدمة الإسلام وإعلاء كلمة الحق، وهو حاضر في إزهاق روحه الطاهرة في سبيل ذلك، متّع الله المسلمين بطول بقائه ونفعهم بوجوده الشريف، آمين.(الناسخ)

وإباءً، حتى وردت برقيّة من طهران الى إمارة «جيش الشرق» تأمرها بالإفراج عن جميع المسجونين؛ إلا أنا! فأُطلق جميع مَن سُجن، وبقيت في السجن. ومع ذلك لم يطلب الإفراج عنّي، وأمر بعض التجار أن يُرسل لي دراهم الى السجن؛ فمنعت إمارة «جيش الشرق» وصولها.

فأورث ذلك غضبه، فأبرق الى «رضا خان» برقيّة جاء فيها:

«إن عملك هذا مناف لأصول المدنيّة، لم ترتكبه حتى الدول الكافرة. هب أن محمداً أُبعد لغرض من الأغراض وإن كان فاسداً، فما معنى عدم قيامكم بمصارفه؟ وهب أنكم جريتم في ذلك على خلاف الأصول المتَّبعة عند جميع الأمم فما معنى منعك وصول ما أرسلتُه إليه؟.. » الى غير ذلك.

فأمهله يومين، ولما لم يجيء جوابه، أبرق الى المجلس برقيّة جاء فيها:

«إن الوزارة الإيرانيّة وزارة مسلمة، ولا أظنها تقدم على ما أقدمت عليه في أمر محمد (يعنيني) بسائق شخصي، ولكنّي أظن الوزارة الإيرانيّة غير مختارة في أمورها، منقادة لإدارة أعداء الإسلام، وهم يسوقونها الى أمثال هذه الأعمال المخالفة لأُصول الإسلام، بل لأصول الإدارة الدوليّة..» الى غير ذلك.

فجاء جواب «رضا خان» يعتذر مما جرى، وأمر «إمارة الشرق» بإيصال ما أرسله لي أبي.

وجاء أمير جيش الشرق يعتذر عمّا جرى، فلم يُكلّمه آية الله بشيء. وكان يتوقّع أن يأمره بالإفراج عنّي؛ فأبت عزّة نفسه ذلك.

ولمّا رأى ذلك علماء المشهد، ويأسوا أن يتنازل آية الله الى أمر «رضا خان» أبرقوا برقية حذّروه من عاقبة ما ارتكبه معي، وأبانوا له شناعة عمله الذي لم يقدم عليه أجلاف الناس، وإن كان فيه رضاء سادته الإنجليز.

فلم يجد بُدّاً من الإفراج عنّي، فلم يُكلّمه بشيء إلا أنه أمر بإرسال سيارة الى

«خواف» استأجرها لي من ماله؛ استنكافاً من قبول سيارة يرسلها أمير الشرق من الحكومة الإيرانية، فجائتني السيارة التي أمر بها آية الله الى «خواف»، وركبتها الى المشهد.

وجرى لي في البلاد التي على الطريق من الإحتفال والإستقبال ما جاء منافياً لميل الحكومة الإيرانيّة التي أمرت باخفاء حركتي من «خواف».

وجئتُ الى المشهد ولم يكن يهمّني شيء أكثر من التشرّف برؤية طلعته الكريمة، وكنتُ أشوق الى ذلك من الإبل الظماء الى ورود الماء. فلمّا شاهدتُه لم يُحزني منظر في حياتي مثل منظره؛ إذ رأيتُ شيخاً دقَّ وضعف، وأذهبت حوادث الدهر قواه. كيف لا وعمل «رضا خان» معه؛ لم يُجره امرؤ له أدنى ميزة إنسانيّة وإن لم يكن مسلماً.

ولقد حدّثني أخي: أنه حين بلغه خبر القبض عليّ كان واقفاً فسقط الى الأرض، ولم يُطق الجلوس إلا متكأً.

لذلك عزمت على تطييب نفسه بكل ماتطيب به، وإن كلّفني ما لاأُطيقه فأسلمت نفسي له؛ لا أعمل شيئاً، ولا أقول إلا بما يَسرّه، واتخذت الوسائل لإراحة روحه التي كانت في أشدّ الإضطراب من سوء أحوال المسلمين وأعمالهم؛ ولكن جاء ذلك متأخراً عن وقته فلم يجد نفعاً.

وهنا لابدّ من ذكر ماقام به من الأعمال الجهاديّة في المشهد:

أعماله في المشهد

لما ورد المشهد، وشاهد إصرار العلماء الذين بقوا في «قم» على الرجوع الى العراق؛ عزم «قُدّس سرّه» على اتخاذ المشهد مركزاً لأعماله وإصلاحاته. واستخار الله واستفتح القرآن الكريم لذلك، فكان في رأس الجريدة قوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَـيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفورٌ﴾.

ولم يكن يهمه إلا أمر العراق، وتسلّط الإنجليز على البلاد الإسلاميّة، فأمر بتأسيس

جمعيّة سمّاها: «جمعيّة استخلاص الحرمين وبين النهرين» وكان من نيّته أن يدعو جميع المسلمين في جميع الأقطار الى الإنتساب لهذه الجمعيّة؛ حتى تكون حزباً كبيراً تمتدّ شعابه في جميع البلاد الإسلاميّة، وتسعى لاستخلاص العراق والحرمين الشريفين من أيدي المستعمرين الطامعين.

وأصدر بلاغاً باللغة العربيّة؛ يدعو فيه الناس الى الإنتساب لهذه الجمعيّة، ويحثّهم على الجدّ والإجتهاد في السعي لتطهير الأماكن المقدّسة من لوث الكافرين. وأمر بنقل ذلك البلاغ الى اللغة: الهنديّة والفارسيّة والتركيّة والكرديّة والأفغانيّة، فنُقل الى هذه اللغات [1] وطُبع منه عشرات الألوف، وأُرسل الى جميع البلاد الإسلاميّة وغيرها.

---

(١) وعندنا منها صورةُ نسخةٍ عربية جاءت بخطّه الشريف الى الكاظمية، وصورتها فيما يلي:

بلاغ عام لجميع المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي..

والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه الراشدين.

أمّا بعد، فقد قال عزّ من قائل في محكم كتابه العزيز المجيد، وبيِّن خطابه الوجيز الحميد: ﴿كُنتُم خير أُمّةٍ أُخرِجَت للناس تأمرونَ بالمعروف وتَنهَونَ عن المُنكَر﴾. وقال عزّ من قائل:﴿والمؤمنونَ والمؤمِناتُ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ يأمرون بالمعروفِ ويَنهَونَ عن المنكَر﴾. ففضّل الله سبحانه وتعالى بالأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر هذه الأُمّة على سائر الأمم ولا فضل لهذه الأُمّة على مَن سواها إن اتّبعَت هواها وتركَت مافضّلها به ربها على عداها، وتأسّت بعد السنين المتطاولة والدهور المتعاقبة بأُمّة موسى (ع) إذ قالت لنبيّها: ﴿إذهب أنتَ وربّكَ فقاتِلا إنّا هٰهُنا قاعدون﴾.

ألا فاحتفظوا بما فضّلكم به ربكم وليكن بعضكم لبعضٍ ظهيراً، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وقوموا من نومتكم، واستيقضوا من رقدتكم وانتبهوا من غفلتكم وأجمعوا أمركم واستنقذوا بلادكم من يد أعدائكم سيّما الحرمين وما بين النهرين الذين هما مجمع عزّكم وفضلكم وشرفكم، وبهما مهبط الوحي على نبيكم وفيهما مرقده الشريف ومراقد أهل بيته الطاهرين وخلفائه الراشدين، فإن لم تهتدوا السبيل الى استخلاص تلك الأماكن والمشاهد الشريفة فلا يفوتنكم الإجتماعات في كل بلدٍ ونادٍ والمواصلة فيما بينكم والإتحاد باسم (استخلاص الحرمين وما بين النهرين) يهدكم ربّكم الى سبيل الرشاد كما قال عزَّ من قائل: ﴿والذينَ جاهَدوا فينا لَنَهدينَّهم سُبُلَنا وإنَّ الله لَمَع المُحسنين﴾.

١٩ جمادى الثاني سنة ١٣٤٢هـ

الراجي محمّد مهدي الكاظمي الخالصي عفي عنه.

(الناسخ)

وكان قد صادف ذلك اقتراب عيد الفُرس في «يوم النوروز»، وهو اليوم الحادي والعشرون من آذار، وأول يوم من برج «الحمل» اليوم الذي كان تعظّمه الفُرس؛ من عهد «أصحاب الرِّس» كما ورد في الخبر، وبقي الفُرس يعظّمونه الى هذا اليوم، ويُجرون فيه من مراسم الأعياد في عيد الفطر والأضحى الإسلاميين، حتى كأنّهم تناسوهما، أو لم يعرفوهما، والعيد إذا أُطلق فلا تفهم العامّة إلا عيد النوروز!!.

فأراد آية الله تنبيه الأفكار من جهته الى حقيقة هذا العيد، وإعدادها للوقوف على عِظم مصيبة تغلب الإنجليز على الأماكن المقدسة في الحجاز والعراق، ورأى أحسن شيء لإعداد الرأي العام لذلك، حرمانُ الأُمّة من أعظم أيام سرورها وفرحها، وتبديل مراسم العيد بمراسم الحزن، والتفَجُّع ذلك اليوم لما جرى في الحجاز والعراق؛ من تسلّط أعداء الإسلام على الأماكن المقدسة، والبقاع المباركة، واسترقاقهم المسلمين، وفي ذلك نفع كبير للإيرانيين لأنّهم يتحمّلون من الأضرار الماليّة، والمصاعب في ذلك اليوم؛ ما تنفذ له ثروة الأغنياء، وتذوب له أكباد الفقراء الذين لا يجدون مالاً ينفقون، وضررٌ للإنجليز اقتصاديٌ؛ لأن أكثر ما يصرف في إيران من تجارتهم إنّما يُصرف بمناسبة ذلك اليوم.

فلمّا صدرَ أمر آية الله وانتشر في البلاد الإيرانية أقبل الإيرانيون على اطاعته، وكفّوا عن إجراء مراسم العيد، وأخذت الألسن تلهج بلعن الإنجليز وسبّهم، وتنفّرت القلوب من أعمالهم، وقام للبلاد الإيرانية وما جاورها دويّ كأنها لم تكن تعلم بفجايع الإنجليز الى ذلك اليوم.

لذلك قامت قيامة الإنجليز، وعلموا أنّ الرجل الذي نفوه من العراق دفاعاً عن الهند ـ كما يقولون ـ إتّخذ بلاداً مجاورةً للهند مركزاً لأعماله، ويوشك أن تؤثر نتائجها في الهند نفسها. وعلموا أنّ آية الله يَرمُق الهند بطرفِ مُصلح شفيق متحنن عليها، غاضب لاستيلاء أعداء الإسلام على أهلها، فاهتموا بالأمر، وشدّوا حيازيم المقاومة له، وأبدلوا قنصلهم الذي كان هناك بقنصل «كرمان» الذي كان في إيران مدّة خمس وعشرين سنة، وكان يحسن اللغة الفارسيّة، وله من الإطّلاع والحزم والدهاء مالم يكن لغيره.

فبثّ المبشّرين والجواسيس والعيون في الأنحاء؛ وأخـذوا بـقلب الرأي العـام فـي خراسان، وأعانهم على ذلك جهل الإيرانيين.

وصادف يوم النوروز ذلك العام؛ يوم الخامس عشر من شـعبان: وهـو يـوم ولادة صاحب الزمـان عـليه السـلام، فأشـاعوا أن تـحريم إجـراء مـراسـم العـيد فـي مـنفعة «البهائيين» المعاندين للشيعة في مسألة صاحب الزمان عليه السلام. وحثّوا الناس على إجراء مراسم العيد، وبذلوا لذلك أموالاً طائلة.

ومع أن يوم النوروز هو العيد الديني للبهائيين، وتحريم إجراء مـراسـم العـيد فـيه ضربة كبرى لتلك الطائفة؛ لإن عادتهم أن يـصوموا تسـعة عشـر يـوماً قـبل النـوروز، ويصادف ذلك اليوم يوم العشرين؛ وهو يوم فطرهم الذي يُجلّونه ويُعظمونه. فالقول بأن منع تعظيمه في منفعتهم؛ أشبه بقول مدلّسة أهل الشام: أنّ معاوية يحارب علياً لأنّ عليّاً لا يُصلي! ولكن لم تكن آراء أهل الشام بأحطّ من آراء عامّة المشهد، ومنشأهما واحد؛ وهو الجهل. فكادت تروج إشاعات الإنجليز، وتمايل العامة الى إجراء مراسـم النوروز باسم ولادة صاحب الزمان ، وفي مـقدّمتهم جـهل المـقدّسين الذيـن اسـتفاد الإنجليز من جهلهم. لمّا كان حكم آية الله مانعاً عن ذلك جاء عدّة من أولئك الهـمج يطلبون منه الإذن بإجراء مراسم ذلك اليـوم بـاسم ولادة صـاحب الزمـان، فـارتأى أن يجيبهم رعاية لصالح البلاد التي أوشكت أن تقع في مهاوي سحيقة بسبب ذلك، فأذن للناس أن يُجروا مراسم العيد باسم ولادة صاحب الزمان فـي اليـوم الثـاني مـن يـوم النوروز، ففعلوا وختمت بذلك تلك الغائلة.

ومثل ما أجرى عمّال الإنجليز في خراسان؛ أجروا في سائر البلدان، واهـتموا فـي طهران أكثر من كل مكان؛ إذ كانت الوزارة وفي مقدّمتها «رضا خان البـهلوي» بـصدد قلب الملكيّة في إيـران الى الجـمهوريّة، فأقـنعوها بـتعيين يـوم النـوروز يـوم إعـلان الجمهوريّة ففعلت، وجاء عزمها هذا مضاداً لحكم آية الله ؛ فكان سبب التشاجر بيني وبينها على مايأتي تفصيله.

ولم تنجح في نيّتها كما مرّ، إلا أنها أخذت تُضمر العداء لآية الله. ويزيد الإنجليز كلّ

يوم في الطين بلّة، ولاعزم لها تقاوم دسائس الإنجليز، بل هي تابعة لهم فيما يرومون انخداعاً واغتراراً بدسائسهم.

نجح آية الله في حكمه ذلك ولم يستطع الإنجليز مقاومته؛ لإطاعة الإيرانيين له؛ إلا أنه تحمّل في سبيله من العناء مالم يكن يخطر ببال، وحصلت له تجربة جديدة في إيران علم بها نواياهم بأسماء مختلفة؛ فباسم «صاحب الزمان عليه السلام» يؤثّرون على الرأي العام في «خراسان» وباسم الجمهوريّة في طهران، وهكذا. وإن العمل في إيران موقوف على رفع الجهل منها أولاً؛ وإلا فهو مستحيل. ورأى من جهة أخرى أن الأحزاب في إيران لم تقم إلا على أساس الأغراض السافلة، والمقاصد الرديّة، وإنها طالما كانت مخبأ دسائس الإنجليز، وميدان جري سياستهم.

فانصرف عن قصده الأول، واعتزل العمل، وحلَّ «جمعيّة استخلاص الحرمين وبين النهرين» وأخذ يقوم بالأعمال المفردة، ويدأب في إصلاح إيران ويُدافع عن العراق بنفسه.

فمما عمله لإيران: إنه اشتغل بالتأليف والتدريس في المشهد، ونشر مؤلفاته، وكان غرضه الأهم إيجاد علماء عارفين بما يجب عليهم في هذا الزمان ليستطيعوا خدمة إيران والعالم الإسلامي، وقد أشار الى ذلك في مقدمة «القواعد الفقهية» التي ألّفها وطبعها ونشرها في المشهد[1]. ثمّ جوّز بل ألزَم بتأسيس مدرسة جامعة فيها باسم «دار الفنون» وأن يُنفق عليها من الوجوه البرّيّة وعائدات الأستانة. وهذا الحكم معاكس كل المعاكسة لأراء أهل المشهد الذين حسبوا التحصيل بالطريقة التي أمر بها (يعنى

---

(١) بما لفظه: «أما بعد: فإنّ من حسن التوفيق أن ساقني القدر والقضاء الى التشرّف بمشهد ثامن الأئمة الاثني عشر علي بن موسى الرضا سلام الله عليه وعليهم أجمعين، فرأيت المشهد الشريف مشتملاً على جمع كثير من الفضلاء والمحصّلين والعلماء العاملين الذين هم في زوايا الخمول وفي شُرف الأفول فأحببت عند ذلك أن أقيم معهم وأشتغل في الدرس والتدريس بين أظهرهم، وأشرع في كل بحث أُدرّسه بالتأليف والتصنيف، فحررتُ إذ ذاك قبل أيام وليال رسالة وجيزة في تداخل الأغسال، ثم رأيت أن الطريق النافع لأهل التحصيل هو التنبيه على كيفية التعليم والتعلم والتدريس والتدرّس، لأن من يعرف ذلك بالمشهد نادر قليل وهو الموجب لتأخر بعض أهل التحصيل عن التحصيل، فشرعت إذ ذاك في البحث بنحو خاص حررتُ بموجبه رسالة سمّيتُها «القواعد الفقهية» مستعيناً بربّ البريّة... الخ». وقد ذكر الشيخ عنوان هذا الكتاب فيما مرّ. (الناسخ)

بالإنتظام) كفراً ولايرون إلا طريقة القدماء موافقة للديانة الإسلاميّة؛ فعِلْم الهيأة على طريقة اليونان مثلاً موافق للديانة، وهو على طريقة المتأخرين كفر، وهكذا الطبيعيّات والطب مثلاً، وكل ماجهله الأقدمون.

ومن جهة أخرى كان ذلك الحكم مضرّاً بمصلحة كل من له طمع؛ إمّا بالإرتزاق من الوجوه البِريّة، أو من عائدات الأستانة. إلا أن آية الله لم يعتن بكل ذلك ولم يستطع الطامعون مقاومته علناً، وغاية ماعمله الإنجليز أنهم حالوا بينه وبين إجراء ذلك، وأقاموا العقبات في سبيله الى هذا اليوم.

ومما عمله للعراق؛ أنه سمع بدء وروده الى المشهد؛ حينما خذله رفقاؤه وعادوا الى العراق بقرب تشكيل المجلس التأسيسي له وإظهار الإنجليز إقدام العراقيين على الإنتخاب، فأبرق برقية مهيّجة تدعو الناس الى الإعتصاب والإمتناع عن الإنتخاب حتى يُطلق لهم العنان، وممّا جاء في تلك البرقية:

«أنتم معاشر العرب العبيدُ بعد اليوم؛ رضيتم بالذل والعبوديّة، وتخاذلتم وتواكلتم حتى صرتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، وخضعتم لأعدائكم أذلّاء صاغرين...» الى غير ذلك.

وعلم يوماً بعزم الحكومة الإيرانية على الإعتراف بحكومة العراق كما هي (لفيصل الإسم وللإنجليز المسمّى) فأبرق الى رئيس الوزراء رضا خان برقية جاء فيها:

إنَّ الإعتراف بالعراق على شكله الحاضر خيانة للإسلام لايعدلها شيء، وجناية لاتُغتفر، وحرب لله ولرسوله وللمسلمين.

فجاء جواب «رضا خان» يُكذّب هذا الخبر، ويعد أنّه لايقدم على ذلك ويطلب من آية الله تكذيب هذه الإشاعة.

وأخبر أنّ بعثة «عصبة الأُمم» عازمة على المسير الى العراق لاستفتاء الرأي العام في مسألة الموصل ، وكان يعلم إنّ الرعب استولى على العراقيين بعد تبعيده وخذلان العلماء له، فخشي أن يرهب العراقيون فلا يتظاهروا بما تكنّه نفوسهم من السخط على الإنجليز والنفرة منهم، فأراد تقوية نفوسهم وحثّهم على إظهار مكنونهم؛ ورأى ذلك

منحصراً في أن يكون هو بنفسه قريباً منهم، فعزم على الإرتحال من المشهد الى حدود العراق ليكون موئل العراقيين، ومركز الأعمال للعراق، فأبرفق الى العراق برقية أخبر العراقيين فيها أنّه مستعدّ للحركة الى العراق قريباً.

وكان ذلك في وقت اجتمع الخراسانيون بأجمعهم، والأمم الإسلامية المجاورة لخراسان على آية الله وعرفوه بعد إنكاره، فأخذ الناس يفدون أفواجاً أفواجاً يطلبون توقّفه في خراسان، وبعد إصرارٍ عجيب من جميع طبقات الناس، أجاب الى التوقف موقتاً. وأخذ بإصلاح خراسان وترتيب مدارسها، وتعيين طلاب العلوم فيها، حتى بلغوا أكثر من أربعة آلاف، وفكّر في تنظيم دروسهم وإعاشتهم، ونظر الى الأمم المجاورة لخراسان نظراً خاصاً، وخطط خططاً لإنقاذهم من الجهالة والضلالة والشقاء، ومقاومة أعداء الإسلام الإنجليز. ومع ذلك لم يكن غافلاً عن العراق؛ فكان يخطط خططاً متينة لإنقاذه، فلمّا شاهد الإنجليز ذلك؛ علموا أنّ قيامه هذه المرّة سيكون مبتنياً على أُسس متينة يتعذّر مقاومتها، وقد شاهدوا من إقبال الناس على آية الله ما يبعثه على سرعة النهوض لإجراء مقاصده، فدسّوا إليه السمّ فقتلوه؛ كما سيجيىء في تفصيل حادثة وفاته قدّس سرّه وكان في مدة إقامته في المشهد يرقب جميع الأعمال الجارية في إيران، ويتصدّى لإصلاح كل فاسد فيها؛ إلّا أنّ سيرهُ وسَير الحكومة الإيرانية كان متعاكساً، فإنها تسير بجميع أطرافها وقواها نحو الإنجليز، وهو مضادّ لهم، وهم مضادّون له، فلم تكن الوزارة الإيرانية تمكّنه من أعماله وإصلاحاته باطناً، وإن كانت لا تستطيع معارضته ظاهراً، فكانت توافقه في ظاهر الأمر وتخالفه في باطنه، وكان يعلم بذلك ومعه لا يكفّ عن القيام بما يراه واجباً عليه؛ وهو كل إصلاح، وأهمّه البعد عن غدَرَة الإنجليز ومُدلّستهم.

حدث قيام التركمان في وجه الوزارة الإيرانية فتصدّى لإسكاتهم، ولكن الحكومة لم تمكّنه من ذلك، وكانت له من الوسائل ما يستطيع إخضاعهم، فلم تستفد منه الوزارة حذراً من الإنجليز، وبقي موقفها حرجاً أمام ذلك القيام؛ كلّفها من الأموال والأنفس ما ليس بيسير، ولم تنتَهِ تلك الثورة الى هذا اليوم.

وحدث قيام «خزعل» في «خوزستان»، فأبرق آية الله إليه يحذّره من ذلك، وينذره من سوء عاقبته، ويأمره بالإعتبار بما جرى لأمثاله من عمّال الإنجليز؛ كـ «شريف‌مكّة» حيث خدم الإنجليز، وكان هلاكه على أيديهم (وأظنّ خزعلاً وهو اليوم في سجن طهران عرف حقّ المعرفة صدق ما كان قاله آية الله، وندم على عدم اعتباره بأمثاله ممن خدم الإنجليز بكل قواه، وكان هلاكه على أيديهم؛ حيث سلّمه الإنجليز بيد «رضا خان» لمصلحتهم، ولاشكّ إنّه أقرّ اليوم بسفهه) وإذا لم يقلع عن قِيَمِه ولم ينتهِ عن غيّه؛ فإنّ آية الله يأمر بقتاله حتى يفييء الى أمر الله، وإذا توقف إخضاعه على أن يكون آية الله في صدر مقاتلته فإنّه يقصد خوزستان بنفسه.

وبعد هذه البرقية أمهله أيّاماً فلم يَرِد منه جواب شافٍ فأبرق الى قبائل خوزستان يأمرهم باعتزال خزعل والإنضمام الى جيوش الدولة لمحاربته[1] ثمّ انتهت غائلة

---

(١) لم تصلنا صورة البرقية، ولكن جاءنا صورة منشور مع جواب كتاب آية الله قدّس سره الى قبائل خوزستان، كانت الطيّارات الإيرانيّة قد نشرت ذلك عليهم حين التئام الحرب على قدم وساق بينهم وبين الدولة حينما قرأوا ذلك ألقوا سلاحهم وأذعنوا للدولة خاضعين مسلّمين لها الأمر على ما في المنشور، وإليك صورة ذلك المنشور، مع جواب الكتاب فيما يلي:

صورة منشور آية الله خالصي حول خوزستان

دست خط مبارك حضرت حجة الاسلام والمسلمين آية الله أعظم
آقاي خالصي أرواحنا فداه راجع بخوزستان

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي..

رحم الله امرءاً عمل عملاً فاتقنه، كل عملٍ لم ينته بنتيجة قاطعة، يُبدَّل الصلاح فيه بالفساد ويؤول أمره الى دار الخراب والدمار، وقد مُنيت الدول الإسلامية في الأيام الأخيرة بالتردد في الرأي، والتزلزل في العمل فأدى ذلك بها الى التقهقر الى أن وصلت الى ما هي عليه الآن ولو أنها أحكمت ما أبرمت، وأتقنت ما أحكمت كما أمرها الله ورسوله لنجت مما وقعت فيه، وهذه غائلة خوزستان أحد تلك الوقائع المهمّة، وقد بلغنا أنّها على وشك الإختتام ولاندري كيف صمّمت الدولة على إنهائها، وهل تستقيم وضعيّة تلك البلاد أو تبقى على حالها، فإن بقيَت كما هي فإنّ دولة إيران أمام خطر عظيم يهدّدها في كل حادث، ولم تعمل الدولة شيئاً يذكر ولم تأتِ بعمل يُشكر بل يجري هذا العمل على عكس المطلوب ولانشكر الدولة إلا إذا أحكمت أمرها وأتقنت عملها بتغيّر وضعيّة خوزستان بأن تعيّن الدولة نفسها حكّاماً لجميع ولاياتها المحمّرة والناصرية وطينة الحويزة والخفاجية والبسيتين والفلاحيّة وهنديان والجرّاحي

⇐

خوزستان بسفر «رضا خان» إليها واجتماعه بسفير الإنجليز «سر برسي لورين» وقنصل طهران و «خزعل» وتسليم «خزعل» لـ «رضاخان» بلا حرب على شرائط، شاع أن الإنجليزيَين المذكورَين وضعاها بينهما. وعُلم من مصادر موثوقة؛ أن الإنـجليز باعوا «خزعلاً» لـ «رضاخان» في قبال فوائد استفادها من «رضاخان» مضرّة لإيران.

وبعد ذلك جاء «أمير الشرق» يطلب من العلماء تهنئة «رضا خان» بما ناله من الفوز والظفر في إنهاء غائلة «خوزستان» فامتنع آية الله وقال: لانُهَنِّأه حتى نعلم هل الصلح

⇐ وشوشتر ودسفول وغيرها، وأن تنصِّب جميع مشايخ القبائل من طهران بدون واسطة كمشايخ السواري وبني طرف والشرقة وبني سالة وكنانة وربيعة والباوية والإمارة والأحلاف وكعب وغيرهم، بأن يراجع الحكومة كل منهم رأساً من دون واسطة أحد في جميع شؤون قبائلهم، وأن لا تدع مجالاً لأحد في جباية ماليّتها بصورة مستقلّة عن المركز، بل تكون في ذلك كحال سائر الولايات وأن تخرجها من كونها حكومة مستقلّة منفردة في شؤونها الداخلية كما هي عليه الآن، وذلك بأن تساق لها القوى العسكرية الرسمية وتتمركز في جميع مراكزها وثغورها المهمّة وأن لا تسمح لممثّلي الدول الأجنبية في المداخلة في التوسط بين الدولة والرعيّة، فإنّ ذلك يجرّ الى اضمحلال استقلال إيران ـ والعياذ بالله ـ كما جرى ذلك في جميع البلاد الشرقية حيث أنّ الأجانب توسّطوا بين الرعية فيها وحكوماتها أولاً، ولم يلبثوا أن استولوا عليها وأدخلوها ضمن أملاكهم ومستعمراتهم فإن لم تعمل الدولة الإيرانية بما أشرنا فهي باقية في محذور «ملوك الطوائف» الذي يهدد إستقلالها ويزلزل كيانها كل وقت وإن عملت بذلك فالأمّة الإيرانية يد واحدة في مساعدتها عليه. والله المعين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١٠ جمادى الاول سنة ١٣٤٣هـ

الراجي محمّد مهدي الكاظمي الخالصي عفي عنه

صورة جواب آية الله عن كتابهم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي..

إخواننا المؤمنين، بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وفّقكم الله.

ورد عليَّ كتابكم وفهمتُ ما فيه ﴿والذينَ جاهدوا فينا لَنهديّنهم سُبلنا وإنَّ الله لَـمَع المحسنين﴾ و ﴿إن تنصروا الله ينصركُم ويثبِّت أقدامكم﴾ جاء الحقُّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً ولا تيأسوا من روح الله إنّ الله على نصركم لقدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

١٠ جمادى الاول سنة ١٣٤٣هـ

الراجي محمّد مهدي الكاظمي الخالصي عفي عنه

(الناسخ)

بضرر إيران أو نفعها؟.

وكان بعض العلماء أبرق برقيّات التهاني الى «رضا خان» فعنّفهم آية الله وقال: كيف ساغ لكم إقراره على أمر مُشتبه، وتغرير الناس؛ لأنهم يحسبون أنه عمل عملاً موافقاً لمصالح إيران في حين أن عمله محتمل النفع والضرر؟.

وكتب برقيّة الى «رضا خان» بعد وروده الى طهران جاء فيها:

«إني أود أن أُبارك لك في قدومك، لكنّي حيث لم أعلم بما قدمت به من سفرك؛ هل هو في نفع إيران أو ضررها فلزمت السكوت؟ وقد شاع هنا أنك عقدت صلحاً مع «خزعل» بتصويب الإنجليز، ولست أعلم صحة هذه الإشاعة؛ فإن كان الأمر كما قد شاع فإن من وراء ذلك مايُخشى عاقبته على إيران، ولايصحّ أن نعدّه ظفراً؛ بل هو الخذلان العظيم والهزيمة الكبرى. ولايمكن أن نُسمي ذلك ظفراً مالم يكن مُنزّهاً عن مداخلة أي أجنبي، لانصيب «لخزعل» منه إلا إعطائه الأمان على نفسه، ولانصيب للإنجليز منه بوجه من الوجوه ولامداخلة.

وألحق هذه البرقيّة بتذكار المسألة العراقية، والتحذير من الإقدام على أي عمل يؤدي الى اعتراف إيران بالعراق على شكلها الحاضر، واللازم كشف حقيقة الأمر؛ لأعرف تكليفي فيه لعلي أكون مكلّفاً بحثّ الأمّة على عضدك إن كنت عملت لصالح إيران».

فجاء الجواب من «رضا خان» بما ملخصه:

إن مسألة «خوزستان» مسألة داخليّة لاربط للأجانب فيها بوجه من الوجوه، وإن كل ماشاع فيها من مداخلة الأجانب عارٍ عن الصحّة، وكذلك ماشاع في مسألة العراق. وإنه يأمل أن يُكذّب آية الله جميع هذه الإشاعات.

هذه نبذة من أعماله «قُدّس سره» في الجهاد وميادين القتال كتبناها على وجه الإجمال؛ إذ تفصيل أعماله تستوجب مجلّدات ضخمة.[1]

---

(١)ثم إن العلامة المؤلف استدرك فصلاً آخر بهذا الباب في أعمال آية الله في المشهد الرضوي، لكن ⇐

بقيّة أعماله الجهاديّة في المشهد الرضوي

قلت في رسالتي عن العلماء أنّهم رجعوا الى دكاكينهم؛ كما يقول سفير الإنجليز. لكنّ آية الله «قُدّس سرّه» ثبت على الحقّ، وبقي في المشهد الرضوي عاصمة خراسان. وكان العلماء قد أعطوا وثيقة في عدم المداخلة في الأمور السياسيّة؛ أي في خدمة الإسلام، فقُيّدوا بها. إلا أنه «قدّس سرّه» أنف أن يُعطي ذلك، وأبى إلا أن يعيش حرّاً كأنه ينشد قول القائل:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى   إذا مانوى حقّاً وجاهد مسلماً

وبقي في خراسان مطلق العنان في خدمة الإسلام. ولكن الذي يُقلق البال ويُذيب الكبد حَزناً؛ أن الإنجليز استطاعوا أن يُقيدوه في خراسان بقيود لم يكن يمكنهم تقييده بها لا في العراق ولا في المنفى، وساعدهم على ذلك جهل عامّة الإيرانيين، وخصوص ما في خراسان من الأخلاق العجيبة، والآراء الغريبة، والأفكار السخيفة، والمعيشة الذميمة. ووضعيّتها الجغرافيّة؛ وكل ذلك مناف لمقاصد من يهمه خدمة الإسلام والمسلمين.

فكان يستحيل لغير آية الله من المعاصرين أن يقوى على عمل لخدمة الدين مع ما في خراسان من المصاعب. إلا أن عزم آية الله وإيمانه كانا أقوى من كل تلك الصعوبات، فذلّلها وأتى بأعمال كبرى أتعبت من يجيء بعده.

وللوقوف على أهميّة تلك الأعمال ينبغي ذكر نُبذة عن أحوال خراسان مقدّمة عليها.

⇐ الحوادث في طهران، وطول الزمان؛ صدّته عن إتمامه، وكتبنا ما وجدناه بخطّه الشريف. وكذلك في الفصل الذي يلي هذا الباب في فاجعة وفاة آية الله وما جرى من الحوادث بعد وفاته «قُدّس سرّه» ولم نُسقط مما حرره «حفظه الله» في هذا الكتاب حرفاً واحداً حرصاً على الإستفادة والإفادة بما جاء به قلمه الشريف.
وكان عزمه أن يتم هذا الكتاب في ألف صفحة كما ذكر ذلك في بعض رسائله إليّ من طهران. نسأل الله أن يُفرّج عنه ويُكمل هذا، ويكتب أمثاله. (الناسخ)

خُراسان

كان يُطلق هذا الإسم في القديم على قطر واسع يشمل: «هرات» و «مرو» الى ما «وراء النهر» من بلاد الترك، وقد انضمّ قسم منه اليوم الى بلاد الأفغان، وقسم آخر الى بلاد الروس، ومابقي منه بيد إيران ليس بالقليل، فإنه لايقلّ كثيراً عن مملكة الألمان، أو الفرنسويين.

وهذا القطر يوصل إيران بثلاث دول؛ الأفغان والروس والإنجليز. وتُجاوره أمم كثيرة؛ كالترك والأفغان والهنود، وفيه أربع أمم؛ فرس وترك وأكراد وأفغانيون.

أما أراضيه؛ فأكثرها قاحلة لم تُزرع، ويوجد فيها كثير من آثار العمران التي قضى عليها تقهقر الإيرانيين بالخراب، ومجاري المياه التي دمّرتها الحوادث. فمياهها اليوم قليلة جدّاً، وأرزاقه تتبع رحمة السماء؛ إن صاب مطرها؛ حسُن الزرع، وإلا بقي الأهلون يتضوّرون جوعاً.

وفيه كثير من القرى والبلدان أهمها: «سبزوار» و «نيشابور» و «تربت الحيدريّة» و «قوجان» و «بجنورد» و «كلات» و «تربت جام» وقرى «كون آباد» وقرى «خواف» و «باخرز» و «بيرجند» و «سيستان» و «قايينات» و «تون» و «تيس» وغيرها.

وأُمّ مُدنِه؛ المشهد الرضوي. وهذه المدينة هي مركز خراسان التي يُقيم فيها «الوالي» و «أمير جيش الشرق».

وتبلغ نفوسها من ثلثمائة ألف؛ من أمم مختلفة توطّنها لزيارة مرقد ثامن الأئمة «أبي الحسن علي بن موسى الرضا» عليهما السلام.

وأهم ما في خراسان؛ هذا المرقد الشريف الذي يزوره في كل سنة مئات الألوف من الشيعة يأمّونه من أقاصي البلاد وأدانيها. وهو مرقد عليه ضريح من الفولاذ، تحت قبّة شاهقة من أنفس البناء، تُحيط بجدرانها أروقة كثيرة، وخارج تلك الأروقة؛ ساحتان كبيرتان تُسمّيان الصحن القديم والصحن الجديد.

فاجعة إستشهاده أزلف الله له جنّاته

أسلفنا مالاقاه من المصائب وكانت أذابت قلبه، وذكرنا تبدّل حال الناس واجتماع كلمتهم عليه، وما كان هيّأ مقدّماته من الأعمال في سبيل إعلاء كلمة الإسلام. وكان ذاك قد أوقع الإنجليز في اضطراب عظيم، وعلم «رضا خان» أنه عاجز عن إلقاء العراقيل في سبيل أعماله، وإحداث العقبات كما كان يفعل قبل ذلك؛ لأن محيط إيران قد تبدّل عليه.

وكان «طيّب الله رمسه» أعدّ عُدداً تعمُ كثيراً من البلاد الإسلاميّة، وصمم على إجرائها بعد شهر رمضان، ولم يجد الإنجليز وسيلة للتخلّص من أعماله إلا قتله.

دسّوا إليه السُمّ في الثامن من رجب سنة ثلاث وأربعين بعد الثلثمائة والألف، فتناوله أحد أصحابه: وهو المرحوم «الشيخ هاشم» من علماء الكاظميّة اشتباهاً فقضى نحبه؛ بعد أن عانى ألمه سُويعات من ذلك اليوم، ولم نشعر بذلك ولم نحسب موته استناداً الى سُمّ دُسّ إليه. ولكنّ آية الله أصابه حزن عظيم من فقد ذلك الرجل.

ولما رأى الإنجليز السُمّ أخطأه؛ دسّوا إليه ليلة العاشر من شهر رمضان في فطوره فتناوله.

وكنت مدعوّاً تلك الليلة، ولم أفطر معه. فظهر التهاب في قلبه عند السحور فلم يتناول سحوره وصام ذلك اليوم وهو مضطرب. ولما عاد من صلاة الصبح قلق ولم يستطع النوم، ولكنّه لم يُظهر ذلك على عادته من إخفاء المرض، ثم مضى الى صلاة الظهرين. زاد اضطراب قلبه وأخذه الضعف فمضى الى داره يتوكأ بين رجلين من أصحابه.

وأخبرت بذلك؛ فمضيت الى الدار ورأيته جالساً وهو متغيّر اللون. فألححت عليه بالإفطار فامتنع، وأحضرت الطبيب فألزمه بالإفطار فأفطر كارهاً، وأخبر الطبيب بضعفه ولم يشعر بالسم؛ فوصف له علاجاً جيء إليه به، ولكنّه أبدل بما عجّل تأثير السُمّ فتناول قليلاً منه؛ فزاد تأثير السُمّ في بدنه، ولم يُخبرنا بذلك، وبقي مضطرباً تلك الليلة واليوم الحادي عشر، وصلى الظهرين في المسجد الجامع باضطراب. وعاد الى

منزله قبل الإتيان بِوِرْدِهِ من أعمال شهر رمضان.

وأنا مشغول فيما أحسب بتهيئة وسائل استراحته في إنتاج أعماله غافل عن الطريق الذي يسلكه فيه السُمّ. ولما أخبرتُ بعوده الى الدار أسرعت إليها؛ فرأيته قد تناول آخر شربة من الدواء الذي بُدّل. فأمرني «إقبال السيّد» ليعمل ورده، فناولته إياه فعجز عن تناوله، وهنا ازداد اضطرابي. فوضع يده على قلبه وسألته عن حاله، فحمد الله وشكره. ثم نهض يتمشّى في صحن الدار ثم استقرّ، وأخبرني بتحسّن حاله. وكنت مدعوّاً تلك الليلة للفطور، فجاء الداعي الى باب الدار، فأمرني بإجابة الدعوة، وأن بقائي لاحاجة فيه؛ لأنه ليس بصائم، فمضيت أنا وكل رجل كان في الدار قُبيل الغروب، ومضى هو الى المسجد لصلاة العشاء. فأما أنا فمضيت الى الدعوة، وبقيت الى الساعة الرابعة من الليل، وأرسلت رجلاً كان معي ليستخبر حاله؛ فأخبرني بحسن حاله، ثم أرسلت أخي فجاءني في المسجد يُخبرني باشتداد ألمه.

وأما ماكان من أمره؛ فإنه مضى ليُصلي العشائين فدخل الحرم مضطرباً، وأسرع بالخروج الى المسجد، فأذّن المؤذن لصلاة المغرب وأقام، فلما أراد النهوض غلبه خفقان قلبه ولم يستطع الصلاة؛ فأشار الى المأمومين أن يُصلوا منفردين. ونهض عجلاً وقصد منزله حافياً؛ إذ لم يستطع لبس نعليه، حتى أُتي له بهما لما وصل وسط صحن المسجد، ولم يكن معه أحد، فقصد الدار، ولما وصلها وجد الباب مغلقاً. وحيث كان وروده إليها على خلاف عادته لم يُفتح بوجهه، فطرقها حتى عجز، ثمّ اتكى على الباب وهو يُعالج حرارة السُمّ مدّة تقرب من نصف ساعة. ثم فُتح الباب فدخل الدار وقصد غرفته ولم يتكلّم بشيء، وبقي يتمشى في تلك الغرفة وهو يُعاني حرارة السُمّ، وقلبه يزداد خفقاناً واضطراباً مدّة ثلاث ساعات ونصف.

كل ذلك ونحن لانعلم به، ولما ورد أخي وشاهده في تلك الحال أسرع اليّ في المسجد، فجئت ودخلت عليه، فسألته عن حاله؛ فحمد الله وأثنى عليه. وهو يمشي في الغرفة واضعاً يده على صدره، فأرسلت خلف الطبيب، فقال ليصفوا له حالي ولا يأتوا به. فسكتَ، ولكنّي أوعزت الى الرسول أن يأتي بالطبيب. فما لبث أن سمعت

لصدره دويّاً عالياً؛ كحنين الناقة، فاضطربت أشدّ الإضطراب، فلما شاهد اضطرابي أخذ يُهوّن علي الأمر بكلامه، ثم أخبرني بأنه لم يستطع أن يُصلي جامعة، وأن قلبه لايزال يشتدّ خفقانه، ووجع صدره، ولم يسكن إلا مقدار عشر دقائق؛ استطاع أن يُصلي فيها العشائين مخففة، وأسف على عدم استطاعته النافلة.

فعلمت أن الألم بلغ منه غايته، وأن موضعه شديد للغاية؛ لأنه لايتكلّم مدّة حياته مايشبه ذلك الكلام، ولم يتعدّ عن النافلة لأي عارض اعتراه في بدنه، أو مرض وإن شقّ.

ثم أخذ دويّ صدره يعلوا وكأنه عجز عن المشي فقعد، فقلت له: ألم أنهك عن الصوم؟ فتبسّم وقال: ليس هذا من الصوم؛ وإنما من الطعام الفلاني. وإن هذا الحال اعتراني منذ يومين، ولم يزل يخفّ ويشتدّ، ولكنه منذ الغروب في اشتداد متزايد لم يخفّ إلا مقدار عشر دقائق؛ صلّيت فيها.

هنا أخذني الإضطراب، واستولت عليّ الوحشة، واسودّت الدنيا في عيني، ولم يكن في الغرفة إلا أنا وهو، وتكلّم بكلمات لم أشعر بكثير منها؛ لشدّة الدهشة. وقد أبطأ الطبيب، ولست أدري ماذا أصنع؛ أأتركه وحده وأمضي الى الطبيب، أم أبقى معه وهو في حاجة إليه؟ فقلت: لقد أبطأ الطبيب. قال: إن الرسول الذي أرسلته خلفه على الباب يقول هذا. وما كنت سمعت مقالة الرسول، فأسرعت الى الباب ورأيته واقفاً، فقال: لم أُصب الطبيب بداره. فقلت له إئتنا بطبيب غيره، فإن حالة الشيخ قد ثقُلت. فأسرَع، وجاء رجال آخرون فأرسلتهم خلف أطباء آخرين، وعدت إليه فقلت له: أرسلت خلف طبيب آخر. فقال: وما عسى أن يصنع الطبيب؟ فقلت: إن دوي صدرك قد سكن. فتبسّم كالهازئ ثمّ قال بتلهفّ: واأسفاه على ما فرّطت في جنب الله.

ثم تكلّم بكلمات....

ثم وضع يده اليمنى على فيه وتنفّس نفساً طويلاً، ثم سقط وضرب رأسه الأرض قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله، وندرت عمامته عن رأسه، وأخذه حال السَوق ولم يتكلّم بعدها.

فقمت مذعوراً وناديت أخي ليُعينني على إجلاسه؛ فلما دخل الغرفة ورآه صار

يضرب على رأسه، فنظر إليه شزراً. فأردنا إجلاسه ولكنا شاهدنا منه حالاً أدركنا أنه يريد التوجه الى القبلة ومددت يديه ورجليه وهو في حال السَوق.

ووضعت رأسه العاري عن العمامة على ذراعي، فتنفّس أنفاساً باردة كانت تُصيب وجهي فأشعر ببرودتها. ودام على ذلك الحال مدّة عشر دقائق، ثم سكن نفسه، وعرق بدنه، وفارقت روحه الدنيا.

وحينئذ جاء الأطباء واحداً بعد واحد. وهكذا العلماء والناس، وامتحن الأطباء بدنه؛ فأخبروا بوفاته.

تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جنّته.

فجائع الإنجليز وجنديّة إيران بعد إستشهاده

خَشِيَت الدوائر العسكريّة: أي (رضا خان وأفراد قليلون معه) حدوث انقلاب في البلاد بعد وفاة آية الله، ولاسيّما إذا عُلم سبب وفاته.

فلما توفي أحاط بي عمّالهم وحصروني في نقطة ضيّقة لا أستطيع الحركة منها ولا الكلام، وأراحهم منّي استيلاء الذهول عليّ بحيث لم أشعر بشيء مما كان يجري أيّاماً متطاولة، وتعقّبني مرض لازمني الى هذه الساعة التي أخطّ بها هذه السطور.

وقد ضيّقت عليّ أشد التضييق، فرأيت إن طالبت بدمه؛ أضيع وكُذِّبْت، فلم أر بُدّاً من السكوت. سكتّ فحمل جنازته أعداؤه ودفنوه، ولست أشعر بذلك.

حدث هياج في المشهد لم يسبق نظيره عند وفاته، واشترك جميع أهله في تشييع جنازته، ولم يعلم أحد أن مباشري تجهيزه هم قتلته، ومع غفلة الخراسانيين وغباوتهم؛ كانت السلطة العسكريّة تُراقب بدقّة كاملة سير الحوادث.

كان الناس يضجّون ويبكون خلف الجنازة؛ عويلهم صمّ سمع الفلك، وصَوبُ دموعهم سقى الأرض؛ وقَتَلَتُه بينهم وهم لايشعرون بهم.

ماجت نفسي وهاجت، وأردت إعلام الناس بقتله وقَتَلَتِه؛ فعاودني الشعور، ورأيت إن أنا فعلت ذلك مع اجتهاد العسكر بإخفاء الأمر وشركتها؛ فلابدّ أن تحدث فتنة تأتي نارها على الأخضر واليابس، ويحترق في لهبها المجرم والبريء، ويضيع دم القتيل هدراً، ومن وراء كل ذلك استفادة الأجانب الذين سعوا في قتله، فسكتّ.

لم يكن لي اطمئنان بشهامة الخراسانيين إن طالبت بدمه، وأنا أعلم أن السلطة العسكريّة تُعين قتلته عليّ؛ لأنها هم (وويل لمن شفعاؤه خُصماؤه). سكتُّ مضطراً، ومرضت جزعاً، ولكن السلطة العسكريّة لم تسكت. أحاطت بي ومنعتني عن كل عمل.

طلب بعض صالحي العلماء أن أُصلي على الجنازة على حسب العادة (وما كنت بالمساوم في جنازة أبي، ولا أُطيق ذلك لو أردت لضعفي). ولكن أشقياء العلماء حالوا

بين ذلك، وأخذوا يُهيأون مقدّمات المنع لو أردت؛ مخافة أن يكون لي الظهور بعد والدي فأعمل عمله. ولما شاهدوا امتناعي كفّوا.

وجاء كثير من الناس يطلبون إليّ أن أُصلي بالناس، فلم أُجب؛ لأني لا أرى الإئتمام عملاً مهمّاً في الدين، ولا أُقدم على المساومة بالصلاة وجعلها دكّاناً كما يفعل بعض المدلّسين، وقلت: لا أرى القربة تتمشّى منّي في هذا العمل. لكن علماء السوء من مأموري الإنجليز والجند المعمّمين توعّدوا مَن طلب منّي ذلك وتهددوه، ولم يقرّ لهم قرار حتى أُخبروا بامتناعي من هذا الأمر.

أُقيمت المآتم في المسجد الجامع، وكان عزم الناس على إدامتها، فتصدى بعض المنافقين من علماء السوء الى قطعها، فأوعزوا الى أحد الخطباء أن يُعلن إنتهاء المآتم؛ بمناسبة التاسع عشر من شهر رمضان؛ وهو يوم شهادة «أمير المؤمنين عليه السلام» وإعادتها بعد ليلة القدر. فعلمت الغرض من ذلك هو؛ قطع المآتم إرضاءً للإنجليز من بعض، وتملّقاً من آخرين للسلطة العسكريّة. فأخبرت بذلك وأردت إدامتها فلم يُعنّي أحد خوفاً من السلطة.

ولما كانت الليلة الرابعة والعشرين، وكان عزم كثير من الناس على تجديد المآتم بعدها، لم يُقدم أحد عليه، فطولبوا بذلك، فأخبرونا بأنهم هُدِّدوا من قبل السلطة العسكريّة إن أعادوا المآتم. وكنت أعلم ذلك، فكتبت الى «أمير الشرق» أُخبره بما هُدِّد به الناس باسمه، وأن ذلك يُوجب شدّة نُفرة الناس من الحكومة، وإن هذا العمل يكشف عن أنها غير مستقلّة في أعمالها، وإني تصدّيت لإعادة المآتم وسأكذّب هذه الإشاعة علناً، وطلبت إليه أن يحضر هو بنفسه ويتصدى لإقامة العزاء بنفسه. فجاء الجواب منه؛ يطلب ملاقاتي، فضربت لذلك موعداً جاءني فيه الى الدار. وحين استقرّت به أخذ بالإعتذار عن عدم تظاهر الجند بما يجب في هذه الفاجعة، للموانع التي حصلت له؛ وهي إنجليزيّة، ثم أخبر أنه اعتلّ على أثر هذه الفاجعة أياماً ولزم فراشه، ولم يستطع الخروج، وكان فيه أثر العلّة.ثم أخذ يُبيّن اضطراره لتبليغ خبر عن «رضا خان». فقلت له: بلّغ ما أُمرت به كائناً ماكان فقال: إن «رضاخان» يقول: إذا تظاهرت

بشيء مما يعود الى هذه الفاجعة؛ قولاً أو عملاً، فإنا نضطر الى نفيك مرّة أخرى.

فعجبت من قوله هذا، وقلت: إن «رضا خان» يعلم، وأنت كذلك تعلم؛ إني لا أرهب تبعيداً، ولايصرفني عن قصدي وعيد. ولكنّي لا أرى فائدة من التظاهر؛ إذ لا أستطيع أن أعمل شيئاً إذا كانت الحكومة تُعين عليّ ولاسيّما بعد أن انتابتني هذه العلّة، واستولى عليّ الضعف، فما عساي أن أفعل؟ وكل من في خراسان عمّال الإنـجليز. وإن عـلّتي تكفي لمنعي، فإذا زالت وعاودتني الصحّة، ورأيت الخير في الإقدام؛ فسأقدم إن وافق تكـليفي الشـرعي، وحـينئذ لا أُبـالي بـنفيٍ أو غـيره. ومـا كـنت أتـرقّب أن يُـفاجئني «رضاخان» بمثل هذا الكلام في هذا المورد.

ثم انصرف، وأقيمت المآتم الى أول شوّال، حيث علم الناس بما جرى بيني وبين «الأمير» من الكلام، وحاولت في جميع تلك المدّة أن أبيّن كـيفيّة شـهادة والدي فـلم أطق؛ لأن الجيش كان محيطاً بي، وقوّة الدرك محدِقة بكل مأتم يُقام؛ سواء في المسجد الجامع أو مساجد المحلات.

واشتدّت علتيّ بعد شوال، فألحّ الأطباء على خروجي الى المصيف فـخرجت الى «طرقبة» فتبعني بعض الجواسيس هناك وأجروا بـعد أيـام مـااضـطرّني الى العـود الى «المشهد» وبقيت فيها مدهوشاً لا أعلم ما أصنع، ولايقر لي قرار ولاتضمّني دار.

بقيت كذلك تتردد إلي الأطباء من مسلمين وإفرنج، ويصفون الدواء فـي نـظرهم، ولم يعلموا الداء!.

فلم أجد بدّاً من الإشتغال بالتدريس، وكتابة هذا الكتاب، وعـلّتي تـزيد وتـنقص، وربّما اضطرّتني الى الخروج من البلد بإصرار من الأطباء. وضيّقت عليّ الحكومة أشد التضييق؛ حتى صعبت وسـائل المـعيشة والنـفقة حـتى القـرض؛ لخـوف التـجّار مـن الإتصال بي. الى هذه الساعة ؛ وهي آخر ربيع الثاني سنة ١٣٤٤. ولا أدري ماذا سيحدث بعدها. ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

هذه نبذة من أعمال وزارة «رضا خان» في المشهد. أما في سائر البلاد؛ فقد جهدوا في إخفاء حادثة وفاته، ومنعوا وصول البرقيّات بذلك الى البلاد؛ إلا طهران فإن الوزارة

لم تستطع إخفاء البرقيّات بذلك فيها، وقامت هناك ضجّة عظيمة.

وعلمت البلاد الإيرانيّة هذه الفاجعة من الجرائد والمسافرين فكانت مجالس التعزية تقام تباعاً، واعترض كثير من البلاد الإيرانيّة على علماء «المشهد» في عدم إعلامهم مع أنهم كانوا قد أبرقوا الى جميع البلاد؛ إلا أن دوائر البرق كانت ممنوعة عن إيصال البرقيّات كما تقدّم.

وبعد علم الناس؛ أبرق كثير من أهل البلاد برقيّات التسلية؛ فلم تصلني إلا برقيّات طهران من جميع طبقاتها؛ أمرائها ووزرائها وتجّارها وكسبتها. ووردت برقيّة «رضا خان» عنوانها الشماتة، ومتنها التسلية. ولم أعلم ببرقيّات أهل البلاد إلا من كتبهم. وكان غرض الوزارة من هذا التكتّم أن لاتعلم البلاد دفعة واحدة فتحدث فيها ضجّة ربّما تؤدي الى انقلاب عظيم؛ خصوصاً فيما إذا علمت البلاد كيفيّة قتله.

وحدثت بعد هذه الفاجعة حوادث كبرى في إيران، أرى أن لكل منها ارتباطاً بهذه الفاجعة:

منها: أن الإنجليز تخلّوا عن «أمير بجنورد» وأسلموه الى «رضا خان» حتى قبضه غِيلة وصلبه مع ستة من إخوته. وتبعته في المشهد وصُلِب وقتل من أتباعه في «بجنورد».

ومنها: أنهم أسلموا «خزعل» وخذلوه حتى اغتاله «رضا خان»، وقبض عليه واعتقله مع بعض أولاده في طهران الى الآن، واستولى على «خوزستان» ووجد فيها كثيراً من السلاح جاء به الإنجليز الى المُحمّرة ليتسلّمه «رضا خان» ونسبوه الى خزعل ليخفى أمر معاونتهم له. ومن علم ما كان عليه خزعل من الولاء والمفاداة للإنجليز، يعجب أشدّ العجب من هذه الحادثة، إلا الإنجليز الذين يفدون أنفسهم لمصالحهم لا يستغرب منهم أن يفدوا لها أصدقاءهم مهما عاهدوهم ومنّوهم السلامة والرياسة، فالمغرور من اغترَّ بهم.

ومنها: القبض على كثير ممن عُرف بالعداء للإنجليز.

ومنها: قرار مجلس النوّاب الإيراني (من جواسيس الإنجليز كما سلف) على خلع

«أحمد شاه» وولي عهده وإنهاء سلطة «آل قاجار» وإهداء سرير المُلك، وتاج السلطنة جزافاً الى «رضا خان» بتوسط مجلس المؤسّسين الذي هو الآن على شرف الإنعقاد.

هذه حوادث مرتبطة أشدّ الإرتباط بفاجعتنا. صدق الوفاء للإنجليز «رضا خان» وعلموا أنه المطيع لهم على كل حال؛ لا يبالي بشرفٍ ولا دينٍ ولا مِنعةٍ ولا شمم، يفديها كلّها وأضعافها لهم، فدفعوا عنه كلَّ معارض وإن كان من أصدق خدّامهم، وأهدوا له السرير والتاج؛ علماً منهم أنّها لهم إذا كانت له.

ولا عجب من سياسة الإنجليز هذه، أو من إقدام «رضا خان» هذا، وإنّما العجب من أُناس في إيران يحسبون الآن إنَّ «رضا خان» منقذ هذه البلاد! ومن الروس الذين لم يشعروا الى الآن بما توجّه إليهم من خطر هذه السياسة!.

وسيكشف الآتي ما تخبّأ اليوم، وإن كان لديَّ منكشفاً. وأسأل الله أن يقي المسلمين شرَّ ما كمنهُ لهم أعداؤهم.

تمَّ استنساخ هذا الكتاب الذي ألفه
الإمام الشيخ محمد بن محمد مهدي الخالصي
بواسطة عبد الحسين ضياء الدين الكاظمي الخالصي عفي عنه
في ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٥٠هـ
والحمد لله كما هو أهله

الملحق رقم (١)

القصيده التي انشدها الشاعر الايراني بديع الزمان فروزانفر بشرويه مرحباً بقدوم الامام الخالصي الى مشهد المقدسة

بلوغ المعالي عند قطع السباسب ... ونيل الأمالي تحت ظل القواضب

فلا يُدرك المجد امرؤٌ متغزّل ... يروح ويغدو مغرماً بالكواعب

ويدركه من كان للحرب مسعراً ... ويلعب فيها بالرماح اللواعب

يخوض غمار الحتف فرحان باسماً ... ويشرب كأس الموت وسط الكتائب

إذا همّ بالعلياء يوماً ينالها ... بمرهفة تغنيه عن كلّ صاحب

وليس جزوعاً إن ألمّت مصيبة ... وما المجد إلا في احتمال المصائب

ويقدم اقدام امرىء ذي شكيمة ... إذا انثالت الأخطار من كلّ جانب

كما أقدم المهدي من أرض خالص ... ولم يكترث بالحادث المتواثب

فقالوا له إما ترى أنت رأينا ... و إما رضاءً باحتمال المتاعب

وساموه خسفاً كان للدين ذلّة ... فلم يحتملها خشيةً للعواقب

فلم يك خوف العار للخسف طائعاً ... ليبلغ في العلياء أقصى المراتب

نفاه الى أرض الحجاز مشاغب ... يعادي الهدى يا ويله من مشاغب

وبعّده عن أهله وعياله ... جفاء امرىء للظلم والشرّ جالب

ففارق أرض الكاظمين مودّعاً ... بتهتان دمع هاطل منه ساكب

ورامَ ثُعَيلب بـِ «بوشهر» قتله ... ليزهو بقتل الليث بين الثعالب

وصال عليه صولةً بعد صولة ... ليغتاله والدّهر جمّ العجائب

ولم يدرِ أنّ الله ذا العرش ربنا ... يحافظه من كل خطب ونائب

فيا فرحة الاسلام إذ جاء قاصداً ... حريم إمام من لؤي بن غالب

يلوح كبدرٍ مُشرِقٍ في دجنة ... بياض نداه في سواد المطالب

لي الفخر والعلياء والمجد والعُلى ... وقد حصلت لي كل تلك المناقب

فإني لمن قومٍ عريقٍ اصولهم ... يلوذ الى أرجائهم كل هارب

ووالدي الحـــــــر الكـــريم مـــعظماً عـــلي إمـــام العـلم مـولى الرغـائب

وانـــــي أبـــيّ شــامخ الأنــف مـاجدٌ بــــلوغ الشــــمس ادنـــى مــــراتـبي

وشــــعري إذا مــــا قـــلته مـــتحمساً يُـباهى بـه فـي العـرب سـعد بـن غـالب

إذا مـــا عــــزمنا ليس يـصرف عــزمنا ركـــوب المــــنايا وافـــتقار الغـــوارب

وردت القـــــصيدة ايـــضاً فــي ديــوان بــديع الزمــان فــروزانــفر - ص٣٣٥-٣٣٤ / طــهران ٢٠٠٣

الملحق رقم (٢)
نص خطاب اعلان الثورة

«بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ ولا تَهِنوا ولا تَحزنوا وأنتُم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾(١)
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أيها السادة! ان الله قد وصفكم بكتابه بصفتين بأنكم الأعلون، وان هذا المقام مختصٌ بكم ولا يشمل غيركم بدلالة الحصر المستفاد من الجملة الاسمية واللام، وعلّق ذلك على الايمان فقال: إن كنتم مؤمنين، وحكم على من هذه صفته، أن لا يهِن ولا يَحزن، كذلك أنتم في كتاب الله.

وقد جاءتكم بريطانيا بخيلها ورَجِلها وعزمها وشكيمتها، تقول: أنتم الأدنون ونحن الاعلون، لذلك يجب أن نكون قيّمين على شؤونكم وإدارتكم وأموالكم وأنفسكم، وأستعيذ بالله وأقول ما قالته بريطانيا بأن العراق يحتاج الى قيّم وولي ووليّه وقيّمه بريطانيا.

هكذا أرادت بكم تلك الدولة القاسية التي لا ترى غيرها في العالم، وتحسب صنوف البشر عبيداً أرقّاء اذلّاء لا يملكون لانفسهم تجاه بريطانيا نفعاً ولا ضَراً ولا موتاً ولا حياة. وأنتم واقفون بين بريطانيا وبين خالقها، خالقها يصفكم بصفة الأعلون، والمخلوق يصفكم بصفة الأدنون، فان قبلتم صفة المخلوقين ذللتم وخزيتم وأصابتكم الدناءة واشتريتم بعد ذلك مرضاة المخلوق بسخط الخالق، وان قبلتم صفة الخالق ذلّ لكم المخلوق، وإنَّ من كان لله كان الله له، وعشتم أعزاء أعلون في بلادكم لا يصيبكم حَزَنٌ ولا وهن. وشرط ذلك خلوص الايمان، كما شرط الله عليكم عدم الرضوخ الى نزغات الشيطان الذي يخوّف اولياءه ﴿ إنّما ذلكم الشيطانُ يخوّف أولياءه فلا تخافوهُم وخافونِ إن كنتم مؤمنين ﴾(٢). يعرج بكم الى أوج السعادة ومنتهى درجات العزة، ومتابعة الشيطان تهوي بكم الى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٩.
(٢) سورة آل عمران آية ١٧٥.

الحضيض وأسفل دركات الذل، ان تابعتم بريطانيا وعشتم أَدنَين في بلادكم.

فما تطلبون من هذه الحياة الدنيا؟ أترضون ان تعيشوا أيـاماً قـلائل اذلّاء صـاغرين خاضعين لسلطان المفسدين ومن ورائكم غضب الرحمن وعذاب النيران؟ أهذا من الفطنة والحكمة؟ أم من العقل والرشد؟

واذا لم يكن من الموت بدٌ فمِن العار أن تعيش جباناً

تُنَصِّب بريطانيا عليكم قيّماً ووليّاً وهي الولي وهي القيم، فهل أنتم مجانين حتى تفتقروا الى الولي والى القيم؟ «هتافات وصراخات عالية.. لا، لا، لسنا مجانين، لا نريد بريطانيا قيماً ولا ولياً».

إيه يا سادة! لا يدرك العز والشرف والهيبة والاستقلال بصراخ وصياح. انما العزم الصارم والماضي البتار بيد الاعزاء الاحرار، هذا الذي يضمن للامة عزّها وشرفها واستقلالها.

ومَن لم يذُد عن حوضه بسـلاحه يهدم ومن لم يَظلم النـاس يُـظلم

الموت ادنى لكِ يا بريطانيا من ان نذلّ لكِ ونخزى! وان وسوسة الشيطان لا تقف أمام أمر الرحمن اذ ليس للشيطان سلطان على اولياء الله المُقَرَّبين وعباده الصـالحين. وان طـعم الموت في سبيل العز احلى للاحرار وعباد الله الابرار من العيش في الذل.

ان هذا المقام، وهذا الصحن الشريف، وهذا القبر الكريم، هو قبر من قال واقفاً في ميدان النضال:

«ألا وانّ الدعيّ ابن الدعي، قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة! وهيهات مـنا الذلة، نفوس أبيّة، وانوفٌ حميّة، من ان نُؤثر طاعة اللئام، على مصارع الكرام»

أجل... فالله الله! مصارعنا أهون علينا من ذلّنا وخضوعنا لسلطان غير القاهر المـلك الجبار. ان صاحب القبر هو سيد أهل الابا، الذي علّم شيعته ومواليه كيف يموتون تحت ظِلال السيوف في سبيل العز والشرف، حيث يقول في ميدانٍ قلَّ ناصره، وكثر واتره:

«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا اقر إقرار العبيد».

حكمة قالها بلسانه وأيّدها بحسامه حتى استشهد في سبيل الله ونال اقـصى درجـة الكرامة، وسعد بها عند الله والزلفى لديه. ونحن تابعوه، لا نعطي بايدينا اعطاء الذليل ولا نقر

لمن يريد بنا الذل اقرار العبيد.

نحن لا نريد حرباً مع بريطانيا، ولا مع أحد من الناس، ولكن الدولة التي تعتدي علينا نقاومها بأرواحنا ونفوسنا. واذا كانت بريطانيا وخيلها وخيلاؤها بلغت من القوة ما لا نستطيع إخضاعها، فان لنا من الشكيمة وثبات الجأش وطلب الشرف والسؤدد عزماً يسوقنا الى إزهاق نفوسنا والتخلّص من سلطان الطغاة، اذا لم يكن سبيل للخلاص من الذل، إلّا به، وهو خير من العيش في الذل ان الحياة حلوة ولكنها اذا كانت مع الذل،مرة قذرة.

اذا لم نغلب بريطانيا فسوف لاتغلبنا ونحن احياء، بل ستدوس على أجداثنا ونحن مستشهدون في سبيل الله والعز والشرف «هتافات..الله اكبر، الى ساحات العزِّ والجهاد ايها المسلمون..الموت للانجليز».

يمكن لبريطانيا ان تملك ارض العراق بقوتها، ولكن لايمكنها ان تُخضع عراقياً لسلطانها، فسوف لايبقى عراقي واحد حياً اذا اصرّت بريطانيا على ان تكون وليّة قيّمة والعراقي مولّى ومُقاماً عليه.

نحن أيها السادة! متمسكون بحبل الاسلام، والاسلام لايرضى بنا الذل فقد حصر العزة بنا اذ قال: ﴿ولله العزة ولرسولهِ وللمؤمنين﴾[(١)].

أيّها المسلمون! لاترهبوا السلطان من غيركم ولاتخضعوا لقوة عدو عن قلة عدد: ﴿فلله العزة جميعاً﴾[(٢)]. ﴿كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبت فئةً كثيرةً باذن اللهِ واللهُ مع الصابرين﴾[(٣)]. ﴿وما النصرُ إلّا من عند الله العزيز الحكيم﴾[(٤)]. ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[(٥)]. ﴿ياأيّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت اقدامكم﴾[(٦)].

فكونوا ممن لايخشى إلا الله، وان اخوف ما اتخوّفه عليكم ضعف الايمان، فانكم لا

---

(١) سورة المنافقين آية ٩.
(٢) سورة فاطر آية ١٠.
(٣) سورة البقرة آية ٢٤٩.
(٤) سورة آل عمران آية ١٢٦.
(٥) سورة آل عمران آية ١٦٠.
(٦) سورة محمد ﷺ آية ٧.

تُغلبون ما دمتم مؤمنين ﴿ ولَيَنصُرنّ الله مَن ينصُره إنّ الله لقويٌ عزيز ﴾[(١)].

فتمسكوا اخواني بعُرى الايمان وانصروا الله ينصركم، فانتم بين اثنتين، بين ان تعيشوا عبيداً أذلاء، او تموتوا احراراً اعزاء فاي الحالتين تختارون؟ «صراخ وصياح.. لا نختار الا العز او الموت».

صبراً.. صبراً، ايها السادة الكرام! مهلاً.. مهلاً.. استمعوا لمقالي، إن علِم الله منكم صدق النية وحسن الطوية والعزم على نصر دين الله فانكم حزب الله: ﴿ ألا انّ حزبَ الله هُم المفلحون ﴾[(٢)] ﴿ فانّ حزبَ الله هم الغالبون ﴾[(٣)]. ﴿ إنّا لننصرُ رُسلنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقوم الأشهاد ﴾[(٤)].

وانا الآن ايها السادة! استطيع ان ابشر نفسي والعراق بأنه سيعيش عزيزاً مستقلاً، وابشركم بالفوز والنصر، وعد الله، والله لا يخلف الميعاد. «هتافات.. ليحيى العراق.. الموت او الاستقلال».

سادتي! مهلاً.. مهلاً، ثبّتكم الله وقوّى عزمكم واخضع لكم عدوكم الجبار، ان أمامنا عقبات لا يذللها إلا العزم الصادق والايمان الصريح، فهل انتم على ذلك؟ «أصوات.. نعم.. نعم».

نعم يا سادتي النبلاء، ابطال العراق! اني لا اطلب منكم إلا صدق الايمان وثبات الجأش والصبر على الشدائد، والله لا يرضى عنكم بغير ذلك، فهبّوا وانهضوا نهضة الابطال المستميتين، ولا تتوانوا ولا يقعدكم شيء حتى تنالوا بُغْيتكم المقصودة، رضا الله واستقلال العراق.

ان أضعفكم جسماً واكبركم سناً، واقواكم عزماً واصرحكم ايماناً هما: «الامامان المتبعان الميرزا وابي» وقد بذلا انفسهما بعزم راسخ وايمان صادق، فهل تبخلون بأنفسكم

---

(١)سورة الحج آية ٤٠.
(٢) سورة المجادلة آية ٢٢.
(٣) سورة المائدة آية ٥٦.
(٤) سورة المؤمن آية ٥١.

بعدهما؟ «هتافات متتالية.. نفديهما بأنفسنا.. نفديهما بأنفسنا.. نفديهما بأنفسنا وأموالنا واولادنا».

جزاكم الله عن أنفسكم خيراً وثبّت عزمكم، وابقى بأيديكم بلادكم، ودفع عنكم عدوكم الذي يريد بكم السوء.

وانني من فوق هذا المنبر، اصرخ ببريطانيا قائلاً: أحسني ولا تبغي بنا السوء وايأسي من ان نذل لك وارجعي من حيث اتيتِ، فان لم يكن لنا سلاح فصدورنا ورؤوسنا تستقبل جميع ما لديك من المعدات.

أدام الله حياة الامة العراقية وقادتها وعلمائها، العالِمين الآيتين الشيرازي والخالصي. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [١].

بعد القاء الخطاب اشتد الحماس بالحاضرين وكثر البكاء بينهم وعلت الضجّة، وقطع الرؤساء ـ رؤساء العشائر ـ رباط عقالهم بسيوفهم ايذاناً بأنهم مستميتون في سبيل الدفاع عن العراق. ثم انفضّ الاجتماع والرؤساء مستعدون جميعاً للحرب عازمون على الموت في سبيل حفظ حقوق العراق ان أصر الانجليز على غصبها» [٢].

---

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية عام ١٩٢٠م. لمؤلفه فريق مزهر آل فرعون طبع بغداد ١٩٥٢م. ص١٤٩ ـ ١٥٨/وكتاب مشهد الحسين عليه السلام وبيوتات كربلاء، لمجيد الشيخ حميد الهر، ج٤ ص٨٧ ـ ٩٣، يقول المؤلف بعد ان نقل الخطبة:

«ولما انتهى الشيخ الأجلّ الفاضل من خطابه تقدم اليه الشيخ علوان بن الحاج عبدالحسين ابوهر ووقف امامه وقد اخذه الحماس وسل مسدسه واطلق عياراً نارياً في الهواء وقال: هذه رصاصة الثورة».

(٢) لمحات اجتماعية ج٥ ص٢٠٧.

فهرست الأعلام

ص

ض

ط

ظ

ع

ن

الفهرست

الفصل الثاني

دورهُ في الحربِ العالميةِ الأُولىٰ

الفصل الثالث

أحداث الجهاد

الفصل الخامس

سنيّ بقائه في العراق بعد الثورة

BIOGRAPHY OF

AYATOLLAH SHIKH MOHAMMAD MAHDI AL-KHALESI

INCIDENCES DURING IRAQ-BRITAIN WAR 1914-1925

AUTHOR: MOHAMMAD AL-KHALESI

PUBLISHER
THE CENTER FOR IMAM KHALESI'S DOCUMENTS

2008